

أحمد عبد العال الزقمر

من

الإخوان المسلمون

إلى

الشيوعية

وحوار مع الجماعات الإسلامية

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

احمد عبد العال الزقم

من

الاخوان المسلمية

إلى

الشيوعية

الغربة
منشور

٦ شارع القصر العيني
امام نور اليوسف ت ٣٥٤٧٥٦٦

إهداء

**إلى كل من ساهم في تكوين مبنائى ومعناى ..
إلى والدى ، وأساتذتى ، وأصدقائى ، ورفاق دربى الطويل ..
إلى هؤلاء وأولئك أهدى هذا الكتاب .**

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فوق ذروة العمر قبل الستين ، وخوفا من أن تدهمنى المنية ، وتعصف بالذكريات التى من خلاصتها نسجت معارف ، واقمت بنيان فكرى ، رأى الكثيرون من أحابى أن يدفعونى دفعا إلى تسجيل تجاربى مع أشواق الحياة ومتاعبها زاعمين أن فى هذه التجارب والمتاعب بعض الزاد للأبناء وأبناء الأبناء من بعدنا . ولكننى ترددت تردد المصطفى من الوقوع فى أسر الذات ، ذلك لأن أسر الذات يوقع فى الخطأ ، ويجرى أحيان كثيرة إلى تشويه الحقائق أو تجاهلها . الأمر الذى يضر أكثر مما يفيد .

وظللت تحت تأثير هذا التردد عدة أعوام إلى أن التقيت مؤخرا بصديق لم أنعم برؤيته منذ أكثر من خمسة وثلاثين سنة . عندئذ أذكرنى هذا الصديق بعض ما كنت قد نسيت من الأحداث ذات الدلالة والقيمة . وعجبت منه لأنه ذكر هذه الأحداث بتفاصيلها ومواقعها من الزمان والمكان وكأنها حدثت أمس . أو منذ ساعة !! وهنا وجدتنى أطلب منه تسجيل ذكرياته ما دام يتمتع بهذه الذاكرة الواعية . وجدت صدى إلحاح زملائى وأحابى لكى أقوم بنفس العمل الذى أطلبه منه يرن فى أذنى . ومن ثم دخلت فى مقارنة بين ذكرياته وذكرياتى .

إنه واحد من ذوى الطموح الأذكىاء . شب معى وشببت معه . أعرف عنه أنه عند الخطوات الأولى من التجارب المضنية تعثرت قدماءه ، وخشى أن يستمر مع صنبوات الشوق إلى الآمال المتعبة فأثر السلامة والعيش كما يعيش آحاد الناس . جد فى تحصيل العلم كأحسن ما يكون الجد ، ثم انهمك فى تحصيل الرزق كأقوى ما يكون الانهماك . تزوج وأنجب ورعى أبنائه . ولم يعد لخطوات التجربة القديمة المضنية من أثر عليه سوى الاعتزاز بها كذكرى . مجرد ذكرى !!

أما أنا فقد اندفعت مع الخطوات الأولى من التجارب المضنية إلى خطوات أبعد وأبعد . وظللت أخرج من تجربة لكى أدخل فى تجربة أخرى أشد منها وأحد . واستمر بى الحال على هذا المنوال منذ بواكير الشباب حتى مشارف الشيخوخة ، لم أحصل من نشب الرزق غير ما يقيم الأرواح وأولادى رغم شيخوختى أطفال : لكن تنوع الدروب التى سلكتها . وتعدد المعارف التى حصلتها ، وعمق المشاعر التى أربطت بها مع الحياة قد جعلت الوصف الذى يؤثرنى به الكثيرون وصف « الغريب » !!

ترى لو أننى سجلت أسباب هذا الوصف هل أكون مغنيا ؟ ثم لو فرض واستجاب صديقى للذى طلبت منه . ألا تكون ذكرياته أخف والطف عند من يقرؤه ؟ ما للقراء وذكرياتى المتعبة والمرعبة إذا صح هذا التعبير ؟

نساؤلات ونساؤلات كثيرة أخذت تنهال على وأنا أقارن بين ذكرياتى وذكريات صديقى . وخيل لى أننى لو استرسلت معها فإنها لن تنتهى إلا بنهاية العمر مهما امتد به الطول !!

وما هي إلا إشارة عابرة بعد ذلك من بعض الأحباب حتى أدرك الله لي أن أقدم على الاستجابة للذي ترددت طويلا قبل أن استجيب له . فنحيت تلك التساؤلات عن طريقي بعد أن كادت تحملني على النكوص عما تهيأت للدخول فيه وهكذا وجدتني أخوض معمعة التسجيل بعد أن أُلجئت في خاطري هذا الحوار . ما لي وما للتهيب والتردد ؟ إن أحبابي لا يريدون مني سوى التعبير عن تجاربي التي مررت بها . ومجرد التعبير كما يقول أهل الفن يجلب الراحة وقد يخفف عنى لوعة المعاناة التي لم تزل تعصر قلبي . كما أن مجرد التعبير قد ينفع بعض الذين لم ينصقلوا بتجارب الحياة وأهوالها ، فيتسلحون بالحذر قبل أن يقدموا على شيء جديد . ناهيك عن أن التعبير قد يكشف الغطاء عن بعض ما يجب أن يعرف من أسرار الحياة السياسية وبخاصة تلك التي كانت تمارس تحت الأرض في أعوام الكبت والإرهاب .

وما زالت بي هذه الخواطر حتى وجدتني وجها لوجه مع صفحات هذا الكتاب الذي يحكي رحلتي مع الأشواق والمتاعب .

ولست أزعم أنه قد سجل كل تفاصيل تلك المرحلة الطويلة - على ما لهذا من أهمية قصوى - فقد أردت أن أباعد بينه وبين ما ليس يغني أو يفيد من تلك التفاصيل التي يحسن طيها خوفا من الملل الذي يسببه التكرار ولقد سلك هذا الكتاب مسلك الفصول التي تقتضيها طبيعته : فالأشواق والمتاعب عادة ما تختلف باختلاف مراحل العمر . ومن ثم فإن المنطقي والمعقول أن تأتي فصول هذا الكتاب مرتبة بترتيب تلك المراحل . لكن مراحل العمر عندي لم تكن قاصرة على مراحل الطفولة والشباب والكهولة . فتلك في رأيي هي مراحل التغيرات البيولوجية التي تلازمها تغيرات سيكولوجية وفسولوجية معينة ومن هنا فإن المراحل التي جاءت عليها فصول الكتاب في معظمها - هي تلك التي اقترنت بالتطورات العامة في مصر . السياسة وتقلباتها ، المعارف وتغيراتها ، والأنشطة وممارساتها ، وأثر كل ذلك على شخصي ، وتأثير شخصي فيه ونظرا لأن كل مرحلة تنبثق من سابقتها ، ويطرأ عليها من التعديل بقدر ما تقتضيه طبيعة النمو أو التدهور في المرحلة اللاحقة : فإن هذا الكتاب قد جرى على أسلوب الالتفات إلى ما سبق في كثير من الأحيان . رغبة في الربط والتأصيل ، وتوضيحا لمنطقية ارتباط الأسباب مع النتائج . كما أنه عمد إلى التحدث بضمير القبية جريا على عادة أن التاريخ ماض لا يناسبه إلا كان وهو .

ولا اظن إلا أنني الآن قد أوضحت أهم ما أريد تقديمه بين يدي هذا الكتاب

المؤلف

الفصل الأول

أشواق ما قبل البداية

١ - ليلة العرس :

هولم يحضرها وإنما حكيت له : ففى قرية من قرى إقليم محافظة البحيرة بمصر . وقبل أن تندلع ثورة الشعب المصرى ضد الإنجليز فى أواخر العقد الثانى من هذا القرن العشرين بوقت قليل ، ومن خلال حفل عائلى متواضع تزوج الشاب المجند من ابنة عمته التى لم يكن يريد أن يتزوج سواها . ونظرا لأحزان العائلة على وفاة والدته الزوج التى كانت حديثة الوقوع فإن العرس لم يكن شبيها بأعراس الأقربان من الشباب والشابات فى ذلك الزمان ، وإنما اقتصر على كتابة وثيقة الزواج . ونقل العروس من بيت أبيها إلى بيت الزوجية فى هدوء ، ومن غير إعلان ولو حتى بالزغاريد . وهناك فى هذا البيت الجديد قدم على الزوجة زوجها الشاب ، وأخبرها بأنه لن يبقى معها غير تلك الليلة . حيث إنه لأبد أن يكون فى وحدته العسكرية بالقاهرة مساء الغد .. ولما أبدت الزوجة دهشتها لذلك أكد لها أن الأمر ليس بيده ، فهو فى إجازة قصيرة لإنهاء الزفاف ، ولابد أن يرجع إلى معسكره فور انقضاء الإجازة ، وإلا تعرض للحبس والعقاب !!

عندئذ فرزت الزوجة وأعلنت استسلامها لمشية تلك الظروف التى لا يمكن التغلب عليها . وفى صباح اليوم التالى لتلك الليلة التى لم ينعم فيها بما ينعم به الأزواج ، حزم الزوج متاعه وذهب إلى القاهرة .. ذهب وكله شوق لكى يعود من جديد ، وبقيت عروسه وكلها شوق إلى عدم فراقه ولو للحظة واحدة .

٢ - فرص اللقاء .

وسارت بهما الحياة هكذا منذ أول يوم . يلتقيان أثناء إجازاته المتفرقة لمدة يوم أو يومين على الأكثر . فما تكاد تهدأ أشواقهما حتى تعود للاشتغال من جديد ، وما يكاد يومهما يضحك لهما مع فرصة اللقاء ، حتى يرجع إليه عبوسه القمطير مع انتهاء تلك الفرصة !! وهكذا بدا لهما أن الدنيا تجرى معهما على غير الذى يشتاقان إليه . وصار كل منهما يتحين الفرص التى يمكن أن يلتقيا فيها رغم أنهما زوجان من المفروض أن يظلها سقف واحد . وفى يوم ما ذهب الجندي الشاب إلى قيادته ، وألح عليها إلحاحا شديدا الضراعة والتوسل طالبا إجازته لمدة اسبوع كامل ، وما زال ينتحل الأسباب والأعذار حتى رقى له قلب تلك القيادة فوافقت على منحه ما طلب . وكاد يجن من الفرح ، وبدأ يرسم الصورة لهذه الفرصة الفريدة من فرص اللقاء بزوجه !! إنه لن يراها ليلة واحدة أوليتين كما تعود ، وإنما سوف يراها ويعيش معها فى فرح غامر ، ومرح عظيم وسرور ليس بعد له سرور طوال الأسبوع !!

وفي لحظات قليلة كان قد جهز متاعه ، وسنله على كاهله ، وانطلق يعدو في اتجاه محطة القطار بالقاهرة .. كان يجري وأحلامه تسبق خطاه .. لقد كلن يخشى أن تضيق منه رحلة القطار الأول فيتأخر مرغما إلى موعد القطار التالي . إن معنى ذلك أنه سوف ينتظر ساعتين في المحطة . ومعناه أن فرصة استمتاعه بأهله وزوجه سوف تقل بنفس المقدار . من أجل ذلك كان يسارع ويسارع ويسارع ..

٣ - الرحلة القاسية :

وما إن وصل إلى محطة القطار لاهثا ، حتى تحول إلى شباك التذاكر ، قائلا : تذكرة من فضلك ! وفجأة سمع ما لم يكن يتوقعه : لا تذكر !!

- نعم ؟

- لا تذكر ولا قطارات منذ صباح اليوم .

- لماذا ؟

- لأن الثورة المشتعلة ضد الانجليز ، دفعت الشعب إلى قطع السكك الحديدية في عديد من الأقاليم بعد اعتقال الزعيم سعد زغلول ورفاقه

بُهِتَ الجندي الشاب . واضطرب أمره .. لكن احتدام شوقه ضاعف من رغبته في ضرورة التغلب على هذه المفاجأة غير السارة . فقرر ألا يعود إلى المعسكر . وأن يمضي في طريقه إلى قريته مشيا على الأقدام !!

نعم مشيا على الأقدام : فالمسافة لا تزيد عن مائة وخمسين كيلو مترا يستطيع أن يقطعها في ثلاثة أيام .. ثم يقيم مع زوجته ليلة واحدة إذا لم تستأنف القطارات رحلاتها من جديد . أما إذا استأنفت القطارات رحلاتها فسوف يظهر بالإقامة أكثر من ليلة .

وفي أقل من لح البصر كان على طريق تلك الرحلة القاسية ، ولحق بجندي مثله له نفس الظروف . ويتجه إلى نفس الإقليم الذي يتجه هو إليه .

حينئذ ذهب بعض همه ، واتخذ من صاحبه رفيقا يؤنس وحشته ويعينه على طول الطريق ومتاعبه . ومضيا يتعاهدان ويتشاكيان ، ويعلقان على الثورة ، والزعيم والانجليز والإرهاق الذي عاناه الأهل طوال سنوات الحرب العالمية الأولى ، وامتد الحديث إلى واجب الجيش وما ينبغي أن يقوم به في مواجهة الأعداء ، وهكذا إلى أن بلغ مع نهاية الأيام الثلاثة قريته ، ونعم بالراحة بعد تلك الرحلة القاسية عند أهله وزوجه لمدة ليلتين اثنتين .. بعدهما عاد إلى القاهرة ، وبلغ وحدته العسكرية متأخرا عن مواعده . ولكنه لم يعاقب نظرا لظروف التعطل الذي فرض على القطارات .

٤ - الاغتراب عن مصر :

وشاء الله أن يزيد من إبعاده عن زوجته وأهله ، وكان ذلك بسبب قرار اتخذته السلطات العسكرية ، تحول بمقتضاه إلى « بلوكامين » بحرى يقيم على ظهر « المحروسة السلطانية » بين السماء والماء . وكانت هذه المحروسة السلطانية بحاجة إلى إصلاحات لا يمكن إتمامها إلا في ميناء انجليزى تتوفر فيه الخبرة الفنية ، وقطع الخيار اللازمة .. وعندما تقرر الأبحار بها من ميناء الاسكندرية إلى انجلترا كان هو ضمن طاقمها العسكرى الذى كلف السفر بها في رحلة للإصلاح

وما إن أقلعت « المحروسة » من الشاطئ حتى شعر بأن الأمور كلها في غاية الغرابة . ذلك لأنه لم يركب البحر يوماً في حياته . ولم تصطرع الأمواج من حوله ذلك الاصطراع المخيف الذي يراه الآن !! وهكذا أخذت تنهشه المخاوف من أهوال هذا البحر التي سمع كثيراً عنها ، وراحت تمر أمام عينيه صورة زوجته التي أخبرها أنه سوف يرجع إليها بعد ستة أشهر !! ترى هل يعود إليها فعلاً ، أم يحول هذا الهول بينه وبين تلك العودة ؟ !!

تساؤلات كثيرة أخذت تطوف برأسه ، وأصابه الدوار فانكفاً على وجهه ولم يلق إلا في ميناء « بورت سملاوث » !!

إذن فهذه هي « لندن » التي تلوح أضواؤها المتألقة من بعيد !!

٦ - رسائل الأشواق :

وفي صبيحة اليوم التالي كتب أول رسالة لزوجته ، واجتهد أن يكون حديثه عن الأشواق والأمال في أسلوب غير واضح حتى لا يوقع نفسه في الحرج : فزوجته العزيزة غير قارئة ، والخطاب سيرسله باسم والدها الذي لا يقرأ أيضاً ، وقارئ الخطاب ربما يكون شيخ الكتاب أو إمام المسجد ، أو المأذون . ولابد من مراعاة كل ذلك وهو يعبر عن مشاعره تجاه زوجته ، فلا يجوز له ذكر اسمها صراحة وهو يبعث إليها بتسليماته لكيلا يخل حياها أمام من يقرأ الخطاب أو يسمعه ، ومن ثم فإنه أخفى مشاعره وراء عدد من العبارات العامة من مثل : سلامي وأشواقي للجميع . العمة المصونة والجوهرة المكنونة ، والأخت العزيزة ربة الصون والعفاف ، وكل من عندهم . أطال الله عمر جميع الأحباب ، وهكذا أطالت إقامته ، وزادت أشواقه ولم يكن وصول الخطابات إليه بالأمر السهل : فهذه البلاد لا يعرف أهلها لغة المصريين التي يكتب بها عنوان كل خطاب يصدر من إحدى القرى المصرية ، وهؤلاء الذين يرسل إليهم خطابات يتعثرون في عقبات الأمية التي تجعل من الرد على الخطابات مشكلة المشكلات !! وعلى هذا المنوال سارت حياته شهراً وأكثر من شهر !! ولعبت به الوسواس والظنون ما شاء الله لها أن تلعب ، واستبد به القلق شر أنواع الاستبداد !!

وأخيراً ورد إليه أول خطاب كتب عنوانه بالحروف الانجليزية . وكان الذي كتب هذا العنوان هو « معوض افندي » ناظر محطة السكة الحديد طبقاً لتعليماته التي أرسلها في خطاب سابق .. وهكذا غمرته السعادة من جميع جوانبه ، وأحس بأنه الآن يشم ريح قريته ، ويتنفس العبير الفواح في أرجائها !! تذكر الأهلين وصورهم ، وسمع وهو يقرأ رنين أصواتهم ، وعذوبة الألحان التي يسمعونها تحت ضوء القمر في الجرن ، أو على شاطئ الترعة في ليالي الخريف ..

قرأ الخطاب واستعاد قرامته عدة مرات ، وتوقف كثيراً عند إشارة إلى شوق زوجته إليه ، فمالت نفسه إلى شراء هدية يرسلها أو يحملها إليها عند عودته ، ولكن كيف ؟ إنه الآن في الميناء ، والميناء بعيد عن المدينة .. وهؤلاء يعرف من الانجليزية حرفاً واحداً .. ومع ذلك فإنه لم يهدأ حتى حصل على تصريح بالنزول إلى المدينة .

٧ - المتاهة :

يالسعداته الآن : إنه يمشي في اتجاه قلب « لندن » . ما هذه العمانر الشاهقة ؟ وما هذا النظام الدقيق ؟ !! . الناس هنا كل في طريقه ، وهم لا يندفعون إلى ركوب المواصلات العامة مثلما يحدث في القاهرة . بل يصعدون إلى المركبات في نظام ورفق !! وإثناء هذه التأملات تذكر أنه نسي شيئاً مهماً جداً : فهو لم يلق انتباهه إلى العلامات المميزة لطريقه الذي يسلكه حتى يسهل عليه الرجوع إلى الميناء !!

لقد دلف من شارع إلى ثان فثالث وهو غارق في تأملاته المبهورة وهو الآن يحاول الاستدلال على معالم طريقه ، وعليه أن يستدير ليعرف من أين أتى ، واستدار بالفعل ومشى في عكس الاتجاه ولكن هيهات !!
لقد ضل طريقه ، ومشى هائما لا يدري أين يذهب ، ولا مع من يتكلم ولا كيف يهتدى وتحولت المدينة الكبيرة إلى متاهة كبيرة ، وتحول أهلها في نظره إلى أشباح مجرد أشباح !! ولما ضاق بنفسه ذرعا أخذ يتصرف تصرفات يائسة :

شعر بالجوع فدخل إلى مطعم أنيق ، وجلس بين نظرات الناس الذين علق بعضهم على طريقة دخوله المتهيبه بكلمات لم يفهمها !! جلس ولم يحفل بشيء حوله ، وتعهد أن يجلس بطريقة شاذة تلفت النظر إليه . خلع حذاءه ، ووضع إحدى قدميه تحت فخذه فوق الكرسي ، وأخذ يتأمل من حوله وهم ينظرون إليه دهشين !!

لقد كان يريد من هؤلاء الذين ينظرون إليه أن يستدعوا أحد رجال الشرطة لكي يقبض عليه ، وهناك في مقر الشرطة سوف تتخذ الإجراءات التي يترتب عليها الاتصال الرسمي بالميناء لكي يتم تسليمه إلى قيادته .. ولكن ذلك لم يحدث

حضر إليه خادم المطعم وسأله إن كان يطلب شيئا من الطعام ولكنه لم يفهم .. فقدم له القائمة المكتوبة .. لكنه لا يعرف الحروف التي كتبت بها هذه القائمة !! ومع هذا فقد أمسك القائمة وأشار بإصبعه إلى بعض الأصناف المكتوبة كيفما اتفق . وحينئذ انصرف الخادم وأحضر له ما أشار إليه بإصبعه : فبدأ يأكل بطريقة الريفية ، والانظار كلها معلقة عليه !! ثم قام فغسل يديه وهم بالانصراف !!

عندئذ وجد من يحول بينه وبين الخروج حتى يدفع ، الحساب ، وأخذ يكلمه ولكنه لم يفهم !! وبدأ الناس يضحكون من ارتباكهم وعدم فهمه ، وأخرجوا له قطعة نقدية من جيوبهم ، ووضعوها مرتبة أمامه على منضدة الطعام ، إشارة إلى أن عليه أن يدفع ما يساويها .

فهم ذلك ولكنه تغابى عليهم وجمع كل ما وضعوا أمامه من النقود ودسه في جيبه ! وهنا تعالت ضحكات الناس ، ولم يغضبوا ولم يقبضوا عليه ، وخاب أمله عندما تركوه ينصرف في أمان .

خرج إلى الشارع وانتقى مقهى ليشرب الشاي الذي يحبه منذ نشأ في قريته التي لا يدري هل يرجع إليها أم لا ؟ وحدث ما حدث في المطعم منذ قليل !!

لقد تدرب الآن على الوصول إلى غرضه دونما كلام . نظر إلى الشاي أمام واحد من رواد المقهى وأشار إليه ، وقال باللغة العربية : شاي ،

فهم الخادم وأحضر الشاي ، وبعد أن شرب قام منصرفا بنفس الطريقة السابقة في المطعم . لكن احدا لم يعترض طريقه في هذه المرة ، وشيعته نظرات الدهشة من رواد وصاحب المقهى !! [إجييشان] تلك هي الكلمة التي رنت في أذنه وهو يسمع تعليقات من رآوه في المطعم أو المقهى . لم يفهم معناها وقال : إجييشان إجييشان . اشتموا ما شتمتم لكن المهم أن تقبضوا على وأن تذهبوا بي إلى قسم « البوليس » ،

تمتم بتلك الكلمات ، ثم نزل إلى الشارع شديد الحيرة . ماذا يصنع ؟ وكيف السبيل إلى الخروج من هذا التيه الذي وقع فيه ؟ إنه لا يستطيع أن يفعل شيئا سوى السير على غير هدى !! فلما تعب من السير صعد مع الصاعدين إلى إحدى المركبات العامة أملا في أن يستريح من التعب ، ويجد من يرشده إلى التخلص من ورطته - لكنه بعد قليل نزل من المركبة !!

وهكذا استمر يستعمل نفس الأسلوب في قضاء كل حاجاته ، يركب ما شاء من المواصلات ولا يدفع سنتا واحدا . ويدخل إلى بعض المنازل عندما يمسي به الليل لكي ينام فتستقبله الأسرة التي يقع اختياره العشوائي عليها

بكل مظاهر الدهشة والضحك ، ومحاولات التفاهم التى لا تثمر !! وأخيرا يدلونه على مكان ينام فيه وعندما يصحومع الصباح من نومه فلا يجد أحدا من أفراد تلك الأسرة يزداد عجبه من هؤلاء الناس . لقد خرجوا جميعا الى أعمالهم ، ولم ينسوا أن عندهم ضيفا فتركوا له الحليب والشاي في مكان ظاهر أمامه لكي يفطر قبل أن ينزل إلى الشارع من جديد !!

وتكررت حياته على هذا النحو أياما تلو أيام حتى بلغ مجموع تلك الأيام سبعة وعشرين يوما . جرب فيها كل أنواع التعامل الاستفزازى الذى تصور أنه سوف يوقعه في قبضة البوليس . حتى الملابس كان يدخل ويخلع ويلبس الجديد . ولا يدفع ثمن ما اشتراه ، ثم يخرج غير مقبوض عليه ، ولا يعترض أحد !! ما هذا الشعب الغريب ؟ ! إلا يفعل عليه أحد فيضربه ؟ إلا يستطيع هو بنفسه أن يتعرف على مكتب الشرطة ؟

راودته فكرة اللجوء إلى دوريات الحراسة والمرور .. ولكنه لم ينجح في الوصول عن طريقها إلى ما يريد . ذلك لأنه لم يكن يعرف غير كلمة « بليز » ، التى كان بعدها يرسل حديثه باللغة المصرية المصحوبة ببعض الاشارات غير المفهومة !! وحينئذ كان يتلقى من رجل الشرطة بعض العبارات والكلمات غير المفهومة أيضا .. وبعدها كان يمشى والبأس يملأ صدره

٨ - الصدفة السعيدة :

وإنه لفى هذا اليأس القاتل ، وإذا به يركب الترام كما تعود في كثير من أيام المتاهة وتقوده قدماء الى كرسى شاغر يجلس عليه ، فيرى إلى جواره مواطنا انجليزيا يسد النظر إليه ويسأله بلغة مصرية مفهومة « إنت مصرى ؟ » لم يصدق أذنيه .. وقال لهذا المواطن الإنجليزى هل تعرف اللغة المصرية ؟ ولشد ما كانت دهشته حين سمع المواطن الانجليزى يخبره بأنه عاش في مصر أكثر من خمس سنوات . وكانت المدينة التى عاش فيها هى مدينة (طنطا) بلد السيد البدوي ..

عندئذ قص قصته مع هذه المدينة التى ابتلعت منذ ما يقرب من شهر . وكيف جرب كل الوسائل للعودة إلى الميناء الذى غادره فلم يفلح !! ولم يكد يفرغ من قصته حتى نزل به المواطن الانجليزى من الترام ، واستأجر سيارة وركب معه الى الميناء

استغرقت رحلة السيارة قرابة الساعتين ، تحدث فيهما مع هذا « الخواجه » الشهم في كثير من الأمور ، وتفشت الراحة والهدوء لأنه وجد من يفهم حديثه .

٩ - في داخل الميناء :

دخل معه إلى الميناء هذا « الخواجه » الشهم ، وصعد معه الى ظهر « المحروسة » وتقدم معه إلى غرفة « القومندان » وبكلمات انجليزية سريعة استطاع أن يحيط « القومندان علما بخلاصة ما حدث . وتلقى كلمة شكر رقيقة من « البلوكامين » وانصرف ،

وبعد انصراف « الخواجه » توجه « القومندان » باللوم والتقريع إلى هذا « البلوكامين » المجنون الذىلقى نفسه في المتاهة من غير أى احتياط ، وأبى إلا أن يسأله . أين كنت ؟ قال كنت تائها في تلك المدينة الكبيرة !! فسأله مرة أخرى وكيف قضيت كل هذه الأسابيع ؟ فلما سمع منه صورة ما حدث رق له . وأخذ يحثه على الحذر من

تكرار ذلك مستقبلا ذلك لأن كل العسكريين يعرفون أن تجاوز المدة المصرح بها جريمة يستحق مرتكبها أشد العقاب "

وبعد المساعلة تخطفه زملاؤه الذين أخبروه أن « القومندان » كان على وشك ابلاغ القاهرة بفقدته ثم أخذوا يفدقون عليه من عواطفهم ما أشعره بأنهم كانوا كلهم في قلق بالغ عليه وبدعوا بعد ذلك يمحطونه بالأسئلة . ويتضاحكون مما جرى له أثناء غيبته الطويلة ، وكان هويبادلهم الضحك والمرح ، فلقد كان يشعر في تلك اللحظة أنه عاد إلى وطنه الأم في مصر !

وفجأة سألهم ألم ترد خطابات من الأحباب في وطننا ، وجاءته الإجابة بأنه قد وردت خطابات كثيرة وليس فيها خطاب له .

حزن لذلك أشد الحزن ، ولم يعد يقوى على مواصلة المرح معهم رغم كل محاولاتهم التخفيف عنه بلوم الظروف ، والافتراق الخ وهناك ازدحمت نفسه بالاشواق الحارقة إلى أرض مصر ، وأهل مصر ، وجو مصر ، وتراب مصر . وانطلق لسانه يردد .

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه في الخلد نفسى
عندئذ سأل بعض زملائه عما يعنيه فقال لهم إن هذه المدينة العجيبة التي حضرت منها الليلة مملوءة بالمعانى والمظاهر الجميلة ، وفيها من الأخلاق السامية ما نحن مفتقرون إليه في بلادنا . ومع هذا فإن الوطن هو الوطن الذى لا يعدله أى مكان ولو كان جنة الخلد الدائم

١٠ - رحلة العودة

ومضت الأيام بطيئة متقايلة حتى أعلن القائد المسئول أمره بالإستعداد للرحيل إلى الاسكندرية في تمام الساعة السادسة من صباح الغد . هناك ضجت « المحروسة السلطانية » بالتهليل والفرح ، وهنا الجنود بعضهم البعض ، وباتوا يستعدون ويحزمون أمتعتهم وهداياهم القليلة التي تمكنوا من شرائها وفي الصباح تهادت بهم السفينة خارجة من الميناء بعد أن تم إصلاحها . وعندما صارت في عرض البحر متجهة إلى الاسكندرية لم يكن البحر غريباً عليه في هذه المرة ، ولم يثر في نفسه ألوان الوحشة والرهبية التي أثارها عند الإقلاع من الاسكندرية منذ شهور ، وأخذت الخواطر تنتال عليه في صورة خيالات سعيدة تعنى أن يرى عليها أصابة ، وخاصة زوجته ، وتزاحمت في تصوره المرائى الجميلة التي تخيلها ، ومن بينها مراءى هذه الزوجة التي توقع أن تكون أكثر جمالا مما رآها منذ شهور ، لقد بدت له الآن حاملا لجنين جميل يزيد من نضارتها ، وبهاء حسننها ، وخيل إليه أنه عندما يصل سوف يجد نفسه مسئولاً عن أعباء وتكاليف لا يعرف كيف يقوم بها . وعندئذ استبعد التفكير والخواطر المنتالة عليه في هذا الجانب ، وادار دفة أحلامه إلى وديان أخرى

١١ - هموم الزوجة :

وعلى الجانب الآخر من البحر كانت زوجته التي أضناها البعد تنفرد بنفسها طيلة أيام غيبته وتبكي بهوى الآن وحيدة وكأنها لم تتزوج !! وزاد في سوء الحال هذا النزاع الذى دب بين والد زوجها والدة لها . لقد انعكس أثر هذا النزاع عليها فتركت بيت الزوجية ورجعت إلى بيت أبيها . رجعت لتعيش مع هموم التفكير في البعيد الذى لا تستطيع

أن تعرف عنه شيئاً ، ولا يستطيع هو أن يقدم لها أى شيء !! صحيح أن والدها ووالدتها وأشقائها كلهم يحاولون إغراقها في بحار من العواطف الحلوة ، ولكنها مع ذلك لا تكاد تشعر بالدفء المنبعث من هذه العواطف ، إنها على العكس تفسر تلك العواطف على أنها محاولات للتعويض لكن الغائب لا يمكن تعويضه !! وظلت الأيام تمضي بها وهي مثقلة بالهموم والتفكير والبكاء

وكثيراً ما كانت تندب حظها عندما ترى صويحباتها ممن تزوجن معها تظهر عليهن أعراض الحمل ، ويستعمن بفرحة الإثمار التي تنتظرها كل أنثى ، بينما هي لا تزال على حالتها التي كانت عليها قبل أن تتزوج !!

١٢ - فرحة اللقاء :

وصل « البلوكامين » بحرى في إجازة مدتها أسبوعان كاملاً .. وصل ومعه من الهدايا ما يسر القلب ، وصل بعد أن سبقته الزغاريد المنبثة بقدمه من مشارف القرية .. وصل الى بيت عمته لا إلى بيت أبيه ، فقد أخبرته من زغردت له بمقر زوجته الجديد . وهناك فرح به الأهل والزوجة فرحتهم الغامرة والتفوا من حوله يستمعون إليه ، وإلى حكاياته عن البحر ، والمحروسة ، ولندن ، وأهل لندن وما فعلوه معه . وكان طوال إجازته فرحاً سعيداً مؤنساً لكل من يلقاه ، شأن المشوق إذا التقى بمن يحب غير أنه وبالرغم من ذلك كان يخفى بداخله خيبة الأمل التي أصابته عندما رأى زوجته على غير الصورة التي حلم بها وهو في عرض البحر . فهي لم تزل كما تركها ، ولم تظهر على صورتها أعراض الحمل الذي يبشر بالولد .

١٣ - البحث عن العلاج :

ولم تطل به الأيام في القرية ، فقد قضى إجازته ، وعاد إلى معسكره بالاسكندرية مهموماً بامر زوجته التي تعيش في بيت أبيها والتي لم يمن الله عليها بما من به على قريناتها اللواتي تزوجن معها ، وكان قد بقى له من فترة الخدمة العسكرية بضعة أشهر قضاهما في التردد بين المحروسة الرابضة في الميناء ، والزيارات المتكررة مع زوجته إلى عيادات الأطباء ، وأضرحة الأولياء ، وبيوت المشعوذين والأدعياء . وكثيراً ما تعاطى مع زوجته مر العقاقير ، وقدمها للذوق والقرابين ، وابتهلا إلى الله أن يعطيها ما يشتاقان إليه من خلف صالِح ونسل مأمول .

وظل هذا هو حاله حتى بعد تسريحه من الجيش . حيث عاد إلى قريته ، ووفقه الله إلى امتلاك بيت مستقل بها ، وأخذ يدير حياته على نحو يوفر لهما هو وزوجته سبل العيش الكريم ، ويجعل منه حمى لزوجته ، ونداً لأقرانه من أهل القرية ، فاحترف بعض أنواع التجارة التي وفرت له الرزق الحلال . لكنه مع كل ذلك لم يكن يفغل عن متابعة البحث عن العلاج ، فقد كان يؤله التفكير في أنه لم ينبج ، كما كان يؤله رؤية الدموع في عيني زوجته من غير سبب مفهوم !!

وزوجته هي الأخرى كانت تود لو باعت نصف عمرها لكي يرزقها الله بولد . وكانت رؤية الأطفال الصغار تثير فيها نوعاً من الحنين الجارف إلى الإنجاب . ولشد ما كانت تجرحها تلك الكلمات الحمقاء من بعض النساء اللواتي يلمنها بأنها عاقر كلما نشب بينها وبين إحداهن أى خلاف

١٤ - تحقق الأمل

وأخيرا وبعد سبع سنوات كاملة من تاريخ الزواج - ظهرت أعراض الحمل إثر معالجة طبية موفقة . فتعاطمت
الاشواق ، وتركزت المشاعر في هذا الحلم الجميل الذي طال انتظار تحقيقه . وسيطر على الأسرة جو من التفاؤل
والقلق في نفس الوقت ، وكثير ما توترت النفوس لأن الزوجة أجهدت نفسها في عمل من الأعمال المنزلية الطارئة .
وكثيرا ما فرض الزوج على نفسه القيام عنها ببعض الاعباء رغبة في راحتها ، ومحافظة على سلامة الجنين الذي
سوف يقبل من عالم الغيب

وظلت الاشواق لهذا الوليد المنتظر تتصاعد ، وتتصاعد حتى جاء المخاض . والمخاض في القرية آنذاك كان
أمرا مثيرا للاشفاق .. فليست هناك غير قابلة جاهلة تمارس أعمال التوليد بالوراثة عن سبقتها في هذه المهنة
وعندما أحست الأم بالام الوضع جاءت القابلة وبرفقتها عدد من النساء القرويات .
وازدحمت بهن الغرفة الريفية الصغيرة ، وتعالى صراخ الأم ، وتواتر الابتهالات الى الله تعالى . وذكرت
الكثيرات أسماء السيد البدوي ، وأم هاشم وغيرهما من اولياء الله الصالحين .. وقرئت الفاتحة عشرات المرات
واستمرت عملية الولادة عدة ساعات من اخريات النهار وأوائل الليل إلى أن استهل الوليد



الفصل الثانى :

مولد العاصفة

١ - لحظات الميلاد :

كان الفصل الزمنى آنذاك فصل الصيف ، وكان الشهر شهر يونيو ، وحصاد القمح فى أجران القرية يتم درسه ، والفلاحون يستريحون من حر النهار اللافح بنسائم المساء المنعشة ، غير أبيهن لصرخات الأم التى تنهشها آلام الوضع المبرحة .

وفجأة تلبدت السماء بالغيوم ، وقبضت الرعود ملء الأفق ، وتلاحقت البروق المتوهجة تخطف الابصار ، ثم انهمر المطر غزيرا غزارة لم تشهدها مصر منذ عشرات السنين ؛ وتحول المطر الى برد كبير الحجم وبدأ كأن الله سبحانه وتعالى يرجم الأرض بالحجارة . وأعلت الحيوانات والبهائم والأطفال والنساء والشيوخ .. وصارت هذه الساعة كأنها ساعة الهول العظيم ..

وفى هذه اللحظات الرهيبة العجيبة تلقت القابلة طفلة الوليد الجديد ، وكان استهلاله بالبكاء يطفى عليه قصف الرعود . وهلع الناس الذين توشك أكوأخهم المبنية باللين أن تنهار عليهم .

ومع كل ذلك فقد اندفعت الى قلب الأم فرحته الكبرى وشعرت بالاطمئنان والرضا ، كما اندفعت إلى قلب الأب أيضا فرحته الفامرة التى ملأته بالحماس ، فحمل فأسا وصعد الى سطح بيته لكى يجرف ركام البرد الذى رجمت به السماء كل أرض القرية - نعم فقد كان يخشى أن ينهار هذا البيت أو جزء منه فوق هذا الوليد الضعيف !!

لقد كان شوق الأب والأم وجميع من فى القرية أن يقول الله : ياسماء اقلعى مثما حدث يوم الطوفان . وكما هى العادة فى مثل هذه الشدائد ، تعالت الدعوات الضارعة إلى السماء أن يتوقف المطر ، وأن يرحم الله الجميع من هذا الهول الكبير .

٢ - توقف المطر !

وكانها استجابت السماء لهذه الدعوات الضارعة فأقلع المطر . وهلع الفلاحون يخوضون فى الوحل إلى أجرانهم ومحاصيلهم التى حاق بها التلف ، ولشد ما فجعوا عندما رأوا أن أكثر محاصيلهم قد انجرف مع سيل الماء إلى مهاوى الأرض ، بينما غاص المتبقى منها فى طين التربة التى تخمرت من طول ما ابتلعت من الماء .

واكتشف أهل القرية فى غمرة تلك الكارثة ضياع الكثير من مخزون المئونة ، وهلاك العديد من الطيور وصغار السوائم . كما اكتشفوا أن بعض الأدميين قد صعقوا وهم عائدون من حقولهم أثناء هذه الساعات الشديدة .

وبأنت القرية فى تلك الليلة تطلب من الله التعميؤ ، وترجو منه التخفيف من بلواها . لكن كل ذلك لم يضعف تيار البهجة التى حلت بأسرة الوليد - فقد نشط الجميع إلى معالجة حال الأم ، وتسوية مهد مريح لطفلها ، وفى وقت

فصير جد تم إعداد اللقائف والأعطية اللازمة كما تم إعداد العدة تحسباً لعوده المطر من جديد وبدا كأن هذا الوليد قد بث في نفوس من حوله شعوراً متزايداً بالأمل الذي هو أقوى من كل آلام الحياة

٣ - القيد في دفتر المواليد

وأصبح الأب متلهفاً إلى إعلان هذا الحدث الضخم إلى كل الدنيا ، كما يشاق إلى أن يناديه الناس منذ اليوم باسم وليده فيقولون له يا أبا فلان ، وبالطبع فإن ذلك لم يحدث إلا بعد تسوية المولود وقيدته في دفتر المواليد كيف ١٤ ودفتر المواليد في دوار العمدة . ودوار العمدة في الطرف الأقصى من القرية . والطريق مملوء بالوحل ١٥ وبعد طول تردد وجد نفسه يمتطي ركوبة ويمضي إلى دوار العمدة . وهناك التقى بعامل التليفون جالسا بين عدد من الأصدقاء ، وبعد أن رعب به الجميع سألهم عن الذي جاء به . هذا الجو الملىء بآثار المطر غصاح مبتهجا جئت لكي أقيد اسم وليدي في دفتر المواليد . ونزل من فوق ركوبته وجلس بين فرحة الحاضرين وتهلنيهم ريثما تحقق الفرص الذي جاء من أجله . ثم انصرف مصحوباً بالدعوات المتصاعدة أن يبارك الله هذا الوليد

٤ - الحفل السعيد

وبعد أسبوع واحد كانت أرض القرية قد عادت إلى حفاها السابق بعد أن نشرت الماء الذي أعرقها كطوفان نوح وجاء موعد الحفل التقليدي الذي يحضر عليه كل الأسر التي يبرقها الله بوليد جديد حينئذ استحضرت الأسرة بعض الأزهار والشموع والبقول . واصطنعت من كل ذلك بعض مظاهر الزينة ثم وسعت على نفسها فأولت وليمة متواضعة حضرها الأقربون والأصدقاء . وغنى البنات والنساء عدداً من الأغنيات المحفوظة . وأنشد المنشدون بعض التواشيح الدينية بين روائح البخور الذي كان يتصاعد دخانه من عديد من المباخر . وباتت القرية كلها تسعد بالبهجة حتى أذن للفجر ، فانصرف الجميع إلى أعمالهم وصلواتهم بعد تقديم التهانى بالمولود الذي يرجون له السعادة

٥ - تعويضات الخسائر

ومع التألق الساطع للشمس في صباح اليوم التالي لهذا الحفل السعيد ، بدأ صوت عالٍ يتناهى إلى مسامع أهل القرية : ويقول : يا أهل البلد بشرى لكم جميعاً مندوب الحكومة في دوار العمدة لصرف التعويضات عن خسائر المطر .. كل واحد يروح يصرف تعويضه . ثم يكرر ثانياً : يا أهل البلد

سمع الناس هذه التنبيه المبهور ، وأخذوا يتوافدون على دوار العمدة . وهناك وجدوا من ينادى أسماء أهل القرية ويقرن نداءه بذكر حصة التعويضات الممنوحة هكذا - فلان الفلاني - تصف أردب قمح !! فلان الفلاني ١٠ كيلات قمح ... ويتوجه من سمع اسمه إلى حجرة عامل التليفون ليتسلم ورقة صغيرة يتوجه بها إلى مكان بنك التسليف ليصرف التعويض الممنوح له

ومع أن هذا التعويض كان قليلاً جداً إلا أن الناس سعدوا به ، وشعروا بالامتنان والرضا ، حتى أسرة المولود نالها من هذه التعويضات ما تستحقه . وقرن الجميع بين حفل الليلة الماضية وبين التعويضات ، وتفاطوا خيراً بهذا المولود . رغم أن لحظة ميلاده كانت لحظة الزوابع والأعاصير "

٦ - خشونة المهد :

كانت الام من هؤلاء الريفيات اللواتى ليس لديهن خدم ، وكانت هى وزوجها ووليدها هم كيان الاسرة - وكان عليها وحدها أن ترعى شئون الجميع بكل الدأب والحذب ، وكثيرا ما كانت تتقلها واجباتها نحو الجميع فتتشغل عن واجباتها نحو الوليد فتتركه يصرخ من جوعه فى مهده غير المريح إلى أن تفرغ من شواغلها !!
وكان والد الطفل يعود فى بعض الأحيان إلى البيت فيرى تلك الصورة المؤلمة له . وعندئذ كان ينشب بينه وبين الام نوع من الشجار الحاد الذى ينتهى غالبا إلى الخصام وتدخل الأهل والجيران . ودائما كان الوالد يأمر زوجته بعدم إثارة أى واجب على واجبات هذا الوليد الذى ملا عليهما الحياة بالأمل والسعادة .. ودائما كانت الام تتعهد بتنفيذ هذا الامر وتقسم أنها سوف تترك كل أعمالها فور سماعها لصوت الوليد لكى تحمله وتهدهده ، وتزيل عنه أسباب البكاء !!

غير أن الوالد لم يكن يكفيه ذلك فكان يحمل هو الوليد بين يديه . ويمضى به إلى المصلى أو المسجد ، وكأنه يريد أن يدرجه منذ طفولته على ارتياد أماكن العبادة للانغماس فى بركتها طيلة أيام الحياة .

٧ - العادة الشاذة

ولم يكن للطفل من شوق فى تلك المرحلة من عمره سوى أن يلتقم ثدى أمه كلما أحس بالجوع . وكان يعبر عن هذا الشوق بالصراخ المتوالى : فإذا لم تستجب الام لرغبته سارعت جدته إلى دس كميات من القشرة أو الزبد فى فمه لكى تسكت جوعه ..
لكنه فى كثير من الأحيان لم تكن تسعفه الجدة أو الام .. وحينئذ يتلهم بوضع إبهامه بين شفتيه - ولحظ جميع من حوله أنه نشأت بينه وبين عادة امتصاص أصبعه ألفة شديدة ، فحاولوا الحيلولة بينه وبينها . واعدوا كيسا من القماش ادخلوا فيه هذا الإصبع المألوف وشدوا عليه حتى يقضوا على هذه العادة الشاذة .

٨ - الحزن والموت

عندئذ أحس الطفل بالآلم ، وحزن لذلك أشد الحزن . حتى اعتراه السقم وهزل جسمه النحيل يوما بعد يوم ، وشعرت الام والاب بالأسى المروع ، وتوسلا بالطب الرسمى والشعبى لعلاجيه ولكن هيهات !! لقد ازداد ذبوله ، وقلت حركته وغلقت عيناه .. وأخيرا خمدت أنفاسه !!
كانت جدته وأمه وعدد من الجارات يجلس حوله ، وعندما شهدن نهايته فزعن إلى الصراخ والولولة والنحيب !! وعرف الأب الذى كان يجلس فى مدخل البيت حقيقة الفاجعة فاتخلع قلبه . وأخذ يصيح كالمجنون ! عوضى عليك يارب .. !! وما لبث الأقرباء والجيران أن التفوا من حوله وأخذوا يواسونه لكى يخفوا الآلم عنه !! وهكذا اختلط النحيب بالمواساة بالصراخ بالآلم . واختلط الداخلون إلى البيت بالخارجين منه ، والكل يطلب العوض من الله تعالى ، ويدعوا للآلم والأب بجميل الصبر على هذا المصاب الآليم !!

٩ - البعث الجديد

كان الوقت ليلا . وكانت حدة العويل قد بلغت كل اهل القرية تقريبا ، ودخلت إلى البيت فيمن دخلت سيدة وقور ذات تجربة وإيمان . وقصدت مباشرة إلى فراش الطفل المسجى والمعقود اللثام . ومذت السيدة يدها إلى جسد الطفل لتحسسه . وإذا هي تصرخ في جدته وتقول الولد حي يا جماعة - صلوا على النبي واذكروا الله - كيف لم تعرف ذلك أيتها الجدة المؤمنة !!!

سرت هذه الكلمات من أسماع الحاضرين والحاضرات إلى أجسادهم فسكنوا وحل عليهم الصمت والترقب وتمنى كل منهم أن يكون هذا الذي قالته تلك السيدة حقيقة يمكن التأكد منها . عندئذ نقضوا اللثام المعقود ، ونزعوا الكيس المخطط فوق الإصبع .. وإذا الذي قالته هذه السيدة حقيقة واقعة لا يمكن الشك فيها !!

ها هو ذا الطفل الميت يحرك يده ، ويضع إصبعه في فمه كما تعود في الايام الخوالي : وها هما عيناه اللتان كانت مغمضتين منذ لحظات تنتفضان بالحركة والنظر إلى ما حوله ومن حوله من الناس !! وها هم الناس ينصرفون حامدين الله وشاكرين رحمته التي بعثت الهالك بعد الموت ..

وظل هذا الحدث بكل ملابساته موضوع الأحاديث في جميع منازل القرية وحقولها وحواريها لاياام وليال طوال فالصدفة وحدها التي ساقطت السيدة الوقور في لحظة الموت ، ولولاها لدفن الطفل في أعماق التراب رغم أن قلبه كان ينبض بالحياة

١٠ - درس وعبرة :

منذ تلك الواقعة لم يحاول احد من اسرة الطفل الاعتراض على عاداته ، خوفا من تكرار الذي حدث ، أو حدوث شيء يشبهه .

ومنذ تلك الواقعة ايضا أخذ الطفل يمضي إلى ما يشتاق إليه وبالكيفية التي تروق له ومنذ تلك الواقعة والسيدة التي كانت سببا في انقاذ حياته تطلق عليه لقب « الدرويش » . وهكذا صار يمضي إلى أشواقه غير عابئ بأي اعتراض .. فكأنه بتلك الموة التي مرت عليه يقول للمحيطين به : إياكم ومحاولة منعي من شيء أشتاق إليه ، فإنني لن أرجع عن شيء أردته خضوعا لقهر القاهرين ، أو تحكم المتحكمين وأنا على استعداد كامل لدفع حياتي كلها ثمنا لحماية إرادتي ومهما يكن مكانى من الضعف أوذل الهوان .

١١ - الموة الثانية :

ونما الطفل كما ينمو جميع الأطفال ، فصار يحبو ويحاكى الكبار فيما ينطقون به من كلمات ، وأدرك أن من حوله يبدوا يعجبون به . ويضاحكونه ويشجعونه كلما ضحك في وجوههم ببعض الهدايا والنقود ، واستطاع هو أن يربط بين طلبهم الضحك منه ، وبين هذه التشجيعات ، فأخذ يكر بهم ويأبى أن يضحك إلا إذا أعطوه المنح مقدما .

ومن الغريب أنه وهو في هذه السن يتعرض للموت مرة أخرى . ذلك أن أمه قد اصطحبتة معها ذات مرة إلى شاطئ الترعة لكي تغسل القمح كما تفعل القرويات من أمثالها . وهناك بجوار المورد المرصوف بالحجارة جلست

تغسل القمح . وتركت الطفل قريبا منها ثم انهمكت في عملها غافلة عن ملاحظته لبعض الوقت . فلما أفاق من غفلتها نظرت إلى مكانه فلم تجده . وكادت تزق أنفاسها لولا أنها رأت في قلب التربة يعلو ويهبط مع التيار المتدفق للماء في وقت فيضان النيل !! عندئذ صرخت صرخة مفزعة وألقت بنفسها في الماء حيث اختطفته وصعدت به إلى الشاطئ . وكان بطنه قد امتلا وعيناه مغمضتان ! كشأن الموتى بالفعل . ولم تدرك الأم ماذا تصنع فواصلت الولولة والصراخ إلى أن حضر بعض الفلاحين ، فسارعوا باختطاف الطفل ورفعوا رجله إلى أعلى تاركين رأسه مدلاة وقريبة من سطح الأرض . فأنحدر الماء من جوفه ، وبعد ذلك انفتحت عيناه .. وهكذا أنجاه الله للمرة الثانية من الموت المحقق .

١٢ - الحصانة

لم ير الطفل نفسه وهو يموت موته الأولى على الفراش في دار أبيه . وهو لا يذكر موته الثانية بالفرق في تربة القرية . ذلك لأنه لم يكن في كلتا المرتين أهلا للإدراك الذي هو أساس التمييز والتذكر . لكن أمر هذه الحداث الخطيرين لم يستمر خارج نطاق عقله لدى طويل . فبعد أن شب واستقام عوده ، وتكاثر إخوته من بعده بدأ يسمع ويحيى

كان كل من حوله يتحدثون عن هذين الحداث . ويتفعلون له بالعمر الطويل - وكثيرا ما كانوا يؤكدون هذا التفاؤل عندما تلم به وعكة أو مرض . لقد كانوا بالركون إلى ما مضى متاكدين من نجاة مهما تكن الملة التي تلم به .. وكانوا يرددون دائما « عمر الشقي بقي ، وبالفعل كانت تتم نجاة . ولا يلبث أن يملا الدنيا من حوله حركة ونشاطا . ومعاكسة لإخوته الذين زحموا عليه قلوب من حوله . وبخاصة الأبيوس العطوفين . وهكذا زرع من حوله في نفسه أنه محصن ضد عوادي الزمن .. وأصبح موقنا بأن ما يقوله الكبار عن حصانته أمر صحيح

١٣ - معاناة التأديب :

ولما شب ولم يعد ذلك الطفل المدلل الذي يغفر له ما عساه أن يرتكب من الأخطاء . صار الحساب والتأديب من نصيبه كلما ارتكب خطأ في حق إخوته أو أقرانه . وكثيرا ما كان الحساب والتأديب يتمان باستخدام « العصا » وأراد والده استغلال ملكاته ونشاطه في شيء يفيد ، وبخاصة بعدما تكاملت له أداة الكلام فعمد إلى محاولة تعليمه في منزل الأسرة عن طريق تلقينه ..

وهكذا اقترن تأديبه بمحاسبته على الخطأ فيما يتعلم عن أبيه .. ومن خلال هذه العملية تم له حفظ فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص ، وغيرهما من قصار السور ..

لكن والده استشعر أنه لن ينجح في تعليم ولده أو تأديبه إلا إذا استعان بمعلم . فهو عندما دخل معه في تجربة تلقينه سورة قريش لاحظ أنه حين وصل إلى قوله تعالى « فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من حُوف » ردها الطفل هكذا « وآمنهم من » خروف ، فأعادها عليه « حُوف » وردها الطفل مرة أخرى كما نطقها في البداية « خروف » ووجد نفسه بعد عدد من المرات يضربه . وما زال يضربه إلى أن استقام نطقه لهذه الكلمة بعد عناء طويل

عندئذ فطن الأب إلى خطر تصديه لتعليم ابنه أو تأديبه

الفصل الثالث :

معاناة التعلم

١ - مكتب الشيخ بهنسى

اطمأنت نفس الأب إلى قدرة ابنه على الاستيعاب ، وصح منه العزم أن يكل أمره لشيخ المكتب - وحينئذ أسلمه إلى عمه الذى ذهب به إلى هذا الشيخ لكى يتولاه بالرعاية .

وكان هذا المكتب مكانا فسيحا فى مدخل منزل الشيخ الرفيى الطيب ، وكان الفراش الذى يغطى أرض هذا المكان قش الحلفاء ، وبعض الحصير القديم . وكان كل من فى هذا المكتب كبارا فى السن ، وليس بينهم من هو فى عمر التلميذ الجديد أو يقاربه .

وفى صدر هذا المكان كان يجلس شيخ كبير العمامة طويل اللحية ، ذو هيبة وقور ، وكانت فى يد هذا الشيخ سبحة كهربائية بلون العقيق ، تنتهى بطرف من الأهداب الحريرية الخضراء . وكان رأس الشيخ ينحنى على صدره من كثرة الأعباء التى حملها على كاهله طوال عمره المديد .

لقد كان هو الشيخ الذى رآه التلميذ من قبل خطيبا للجمعة فى المسجد . بل إنه هو هو الشيخ الذى يسمونه « الماذون » والذى رآه يوم عرس خاله .

وانشغل التلميذ عن هذا الخاطر الذى فى رأسه . باهتمام الجميع بالشيخ يوم عرس خاله .. لقد استقبله الحاضرون بالترحاب ، وودعوه حاملا للعديد من الهدايا .. إنه كان يمشى متوكئا على عصا ذات مقبض دائرى مبطان بقطعة من النحاس اللامع .. ترى أين هى تلك العصا ؟

ولم يلبث التلميذ أن رأى العصا مسندة إلى الحائط بجوار الشيخ فظن أنها تستعمل لتأديب أولاد الكتاب ، وكاد ينخلع قلبه من الخوف ، لولا أن رأى الشيخ يستقبله فى لطف وتودد ولين ..

وسأل الشيخ عمه الذى أحضره هل قرأ عند أحد من قبل ؟ وكانت الإجابة لا . فسأل التلميذ عن اسمه ، ثم أدناه منه وأجلسه إلى جواره قليلا من الوقت ريثما يشرب فنجانا من القهوة .

وبعد أن شرب الشيخ قهوته ، واعتدل فى مجلسه صاح بالعريف ، فحضر فورا العريف

- نعم يا سيدنا :

- هذا تلميذ جديد لم تسبق له القراءة عند غيرنا . وقد جاء به والده إلينا لشدة ثقته فينا ويجب أن نهتم به .

سامع ؟

- سامع يا سيدنا

- توكل على الله

تناول العريف يد التلميذ الصغير وانتحى به إلى مكان قصي وأجلسه . هنالك نظر الصبي فلم يجد غير أجساد كثيرة تتحرك في اهتزازات مرتعشة . وتخرج عنها أصوات عالية غير منتظمة ، والعريف في يده سوط من الجلد يحركه في اتجاه هؤلاء فيزداد حماسهم وتعظم حركاتهم وتعلو أصواتهم ثم يحركه في اتجاه أولئك فتهدأ نبراتهم وتسكن حركاتهم وهكذا !

بعد قليل عاد العريف إلى الصبي الجالس في المكان القصي وقال له : قل مثلما أقول : فامتثل الصبي ورد وراءه : بسم الله الرحمن الرحيم - قل هو الله أحد . الله الصمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد - ولحظ العريف أن الصبي لا ينتظره لكي يردد وراءه وإنما يسبقه . فأدرك أنه قد حفظ السورة . وذهب به إلى الشيخ قائلاً : أبشر يا سيدنا لقد حفظ الصبي أول سورة . فأمر الشيخ الصبي فقرأ السورة صحيحة مجودة .. عندئذ تناول الشيخ قطعة من السكر ومنحها للصبي داعياً له بالفتوح والبركة . ورجع الصبي إلى منزل أسرته فرحاً متلهلاً .. وحكى كل ما حدث له اليوم لأبيه فشجعه على الاستمرار في الحفظ الجيد حتى ينال رضا الشيخ وبركته .

٢ - الزيارة المفاجئة

وفجأة قدم إلى المنزل زائر غريب لم تقع عليه عينا الصبي من قبل . كان شاباً نظيف العمامة والثياب ، حليق اللحية والشارب

اهتم به والد الصبي عندما قدم عليه فأكثرت الترحيب . ثم أجلسه مكانه في صدر الغرفة . وطلب من الصبي إحضار القهوة حالاً .. ثم أخذ يحكى للزائر قصته مع الصبي . وقصة الصبي مع مكتب الشيخ بهنسي الذي ذهب إليه اليوم . وما اختزنفته ذاكرته عن هذا المكتب ومن فيه ، وبخاصة تلك العصا الغليظة التي رآها مسندة إلى الحائط بجوار الشيخ . وذلك السوط الأسود الذي رآه في يد العريف يكثر التلويح به .

كان الصبي عند باب الغرفة يستمع إلى الحديث الدائر بين والده والزائر ، وكانت تتخلل هذا الحديث بعض الضحكات والتعليقات التي لم يذكر منها سوى عبارة « طبعاً شيء جديد عليه »

طرق باب الغرفة في أدب . ثم دخل يحمل القهوة إلى الضيف الزائر الذي بادره بقوله : أهلاً بالتلميذ النبیه ثم أخذ يتلطف إليه ، ويحدثه في حضور والده عما حفظ ويحفظ من القرآن وغير القرآن . حتى استبان له أن هذا الصبي يتمتع بذاكرة لا تقطع .. لقد حفظ عن والده ، وعمه ، وخاله .. وكان من بين ما سمعه الزائر الضيف من الصبي بعض المواويل التي كان يرددتها خاله في ساعات العمل بالحقل ..

القطن قال للتايوت أصل العطش منك
نَشَفْتُ عودي ويكفاني بقي ظَنُّكَ
لو كفت من النجار لازم أجيب مسمار
وف عضمك الكسلان براس قدومي أرنك

علق الزائر الضيف على هذا الذي سمع بأنه شيء رائع ويبشر بالخير ، ثم طلب المزيد من محفوظات الصبي ، فلما تبين له أنه يحفظ الكثير من الأشعار العامية التي كانت تنعقد عليها مجالس الفلاحين حول المصابيع الفازية في كل مساء ، حيث ينشدونهم أحد شعرائهم قصائد الحرب في سيرة الهلالية ، أو سيف ابن ذى يزيد ، أو عنتر بن شداد - عندئذ ازداد عجبه من كثرة محفوظ الصبي بالرغم من صغر سنه - ونصح لوالده بأن تستمر في مكتب تحفيظ القرآن حتى يبدأ العام الدراسي الجديد . وعندها سوف تتخذ الإجراءات لإلحاقه بالمدرسة الأولية في القرية للجارة .

٣ - مكتب الشيخ رضوان :

قال الوالد لزاثره الضيف ، لكن الشهور الباقية على العام الدراسي الجديد ما تزال طويلة ، ولو أننا استفدنا بها في تعليمه بعض مبادئ الكتابة والقراءة ألا يكون أفضل من استمراره في حفظ المفيات ؟
قال الزاثر الضيف : لا بأس .

وكان قرار الوالد بإدخال الصبى إلى مكتب جديد يتعلم فيه الصبية مبادئ القراءة والكتابة . ذلك لأن الكتاتيب في ذلك العهد كانت كثيرة ومتعددة المهام . فهذا مكتب يبدأ فيه المبتدئون من بداية البداية ، وذلك مكتب يتعلم فيه المنتهون خواتيم النهاية .. وبداية البداية كانت حروف الهجاء . ونهاية النهاية كانت تجويد القرآن الكريم ومعرفة أحكام تلاوته .

وأصبح صباح اليوم التالى لتلك الزيارة المفاجئة ، وإذا الصبى في يد والده يسيران في اتجاه غير اتجاه الالمس - كانا يسيران في الشارع الدائرى حول القرية حتى بلغا المكتب الجديد . إنه حجرة مبنية بالطوب اللبن ، يرتفع سطحها عن سطح الشارع الذى يوصل إليها ، والجرن الفسيح الممتد أمامها .

وإلى داخل هذه الحجرة أطفال تقارب أعمارهم عمر الصبى القادم مع أبيه ، ومع الكثيرين منهم ألواح خشبية بيضاء ، أو كتب ذات ورق أصفر . والجميع يقرمون في هدوء .

وعندما قدم الصبى ووالده سكنت الجميع . وبرز من الداخل شاب أسمر البشرة في يده عصا من الخيزران الرفيع .. سلم على والد الصبى ، ومد له الفراء الذى كان يجلس عليه .. ثم تلقى الصبى وأجلسه بين قرنائه .. وبسرعة تقاهم مع الوالد على كل شيء ثم استأنف عمله في جدية ونشاط .

جاء الشيخ رضوان - وهو ذلك الشاب الأسمر بلوح خشبى أبيض جديد . وقال للصبى هذا لك ، وسأكتب اسمك عليه - عليك أن تحضر ثمنه غدا من أبيك . خمسة قروش .. فاهم !! خمسة قروش .. ثم قدم له قلمًا من أقلام الرصاص ، وكراسة جديدة .. وكتب له في صدر صفحتها الأولى الحروف الأربعة الأولى من أبجدية الكتاب وأمره أن يقرأها كما قرأها .. ألف .. باء .. تاء .. ثاء . ثم أمره أن يكتبها عشر مرات في صدر الصفحة تحت النموذج المكتوب . أمسك الصبى بالقلم لأول مرة في حياته . بعد أن علمه الشيخ كيف يمسك به ، ثم أمره أن يخط .. ولم يبال الشيخ بأن الخطوط جاءت في أول الأمر مرتعشة ، وليس بينها وبين النموذج أى شبه - ودخل الصبى في مععة التحدى لهذا العبء الثقيل .. وكلما عدل له الشيخ وأمره بتكرار الكتابة امتثل - وبعد عشر مرات أمره بأن يكتبها عشر مرات أخرى على الصفحة المقابلة ، وفي النهاية أمره أن يكتبها على سبورة الكتاب . فكتبها من الذاكرة .. فرح به الشيخ وشجعه ، ثم كرر طلب استحضر ثمن القلم والدفتروكتاب مبادئ القراءة الأولية غدا . ورجع من كتاب الشيخ رضوان ، فتلقته أمه فرحة به . وسألته ماذا قرأت ؟ قال لم أقرأ ولكننى كتبت -
- ماذا كتبت ؟

- كتبت ألف باء تاء ثاء .

- وما رأيك في كتاب اليوم ؟

- أحسن

وطلب طعامه فأكل ثم انصرف لا يلوى على شيء إلا اللعب والمرح مع الأقران واللذات . وهكذا مرت الشهور تلو الشهور وهو يمضى إلى هذا المكتب عند طلوع الشمس ، بل وقبل طلوع الشمس في كثير من الأحيان . وكان لا يعود من المكتب إلا بعد أذان العصر في معظم الأيام .

وفى شهر معدودة كان قد تمكن من الإلمام بمبادئ القراءة والكتابة وعلمه الشيخ أن يقرأ أسماء الله الحسنى ويحفظها ففعل . ثم أمره أن يقرأ دلائل الخيرات ويحفظ قدرا منها ففعل أيضا . ورأى الشيخ أن يحصل على أجر كل هذا فأخذ يكثر من زيارة الأسرة . ولم تكن الأسرة بخيلة ولا شحيحة مع هذا الشيخ النشيط . ومن أجل ذلك كان الشيخ يضاعف نشاطه لكى يتقدم التلميذ أكثر فأكتر .

٤ - فى المدرسة الأولى

وعندما جاء أول العام الدراسى الجديد ، حقق الزائر المضيف وعده ، فقد كان واحدا من علماء الأزهر الذين لم يجنوا مكانا يعملون فيه غير التعليم الأولى ، وبحكم مستواه العلمى فقد كان يملك التأثير على مجريات الأمور بالمدرسة الأولى التى يعمل فيها ، ومن ثم توسط لدى الناظر الذى تجاوز عن صغر سن التلميذ وأدخله ساحة المدرسة .

ما أبعد الفرق بين المدرسة وبين الكتاب . هكذا تحدثت نفس التلميذ إليه . إن الأولاد هنا يقفون فى صفوف منتظمة فيما يعرف بطابور الصباح . ويهتفون لحياة الوطن والملك ، ويمر عليهم ناظر المدرسة لكى يفتش على أظفارهم وشعورهم وهندامهم ونظافتهم !! كما أن بالمدرسة ناقوسا يعلن بدء اليوم المدرسى وانتهائه . وبدء الحصص المتتالية وانتهائها . وهنا يعلم فريق من المعلمين المطربشين والمعلمين . ولهم حجرة مستقلة تجاور حجرة الأستاذ الناظر ، والمدرسة هنا فى فصول وقرى . الخ . كل ذلك تحدثت به نفس التلميذ وهو يدخل المدرسة الأولى ، ويضطرب مع ابتائها فى اليوم الأول . وكانت دهشته كبيرة عندما رأى التلاميذ يجلسون على مقاعد خشبية نظيفة .

جلس التلميذ فى الفصل . وكان أول درس أعلنه سيورة الفصل « دين » وتملكه نوع من الزهو عندما استطاع أن يقرأ كلمة [دين] فكل تلاميذ الفصل لم يكن أحد منهم قادما من كتاب الشيخ رضوان . وتملكه الزهومة أخرى عندما قرأ عبارة « فرائض الوضوء » وبدأ المدرس شرح الدرس فتسمرت عليه عينا التلميذ وأذناه

صور المدرس صندوق الطباشير على أنه « صنبورة الماء » ثم انطلق يعطى الصورة العملية للوضوء ، من غسل لليدين ثلاث مرات إلى المضمضة فالاستنشاق وهكذا حتى غسل الرجلين إلى الكعبين بعد ذلك طلب من التلاميذ من يستطيع محاكاته فى الذى فعله . وهنا قام التلميذ الجديد وصنع صنيع المعلم تملأ لم يخطئ فى حركة أو ينسى خطوة من خطوات درس الوضوء . وعندئذ أمر المعلم التلاميذ بالتصفيق له . ثم أعطاه جائزة جميلة « قلما من أقلام الرصاص أحمر اللون » ظل التلميذ محتفظا به لسنوات طوال .

٥ - بداية المتاعب :

كانت المدرسة تبعد عن قرية التلميذ الصغير بأكثر من كيلو متر ، وكان هذا التلميذ أصغر التلاميذ حجما وصنا ، بحيث كان يحمله بعض التلاميذ الكبار على أكتافهم فى رحلتى الذهاب والعودة ، فإذا جاء يوم مطير حملته مطية خاصة يقودها بعض أهله .

وكان والد التلميذ شديد الإعزاز له ، فأصر على أن يلبسه معطفا طويلا سابغا يغطي كل جسمه حتى نهاية القدمين : كما أصر على أن يضع فوق رأسه طربوشا زاهى اللون !! ولم يكن من بين كل تلاميذ المدرسة من يلبس مثل تلك الملابس ، فقد كان قصارى ما يصلون إليه جلابيبهم المخططة ، وطواقى رعوسهم المختلفة الألوان .

ومن هنا كان شذوذ ملابس التلميذ الصغير مع ضلّالة حجمه وصغر سنه . يحرض التلاميذ الكبار على معاكسته ..

وفي أحد الأيام زادت هذه المعاكسات عن الحد المقبول : فبينما هو عائد معهم من المدرسة على الطريق الترابي الموصل للقرية ، عبث أحد التلاميذ بانتزاع طربوشه من فوق رأسه . ثم أخذ يقذفه كالكرة إلى الآخرين الذين كانوا يتلقفونه في فرح وعنطة وهم يتضاحكون .

وبكى التلميذ المسكين الذي لا يقوى على الدفاع عن نفسه ، وانزوى إلى جوار شجرة كانت على الطريق حتى يجد له مخرجاً من هذه الورطة التي لا يدرى ماذا يصنع معها .

وأخيراً رق قلب واحد من هؤلاء الصبية العابثين فأحضر إليه طربوشه ، وكف عنه أذاهم ، ومضى يرافقه طوال الطريق حتى أوصله إلى منزله في القرية .

دخل المنزل وعليه أمارات العبث به : فالطربوش ضاعت استدارته ، وأهدابه التي تسمى « الزّر » وعلى خديه آثار الدموع ، ومعطفه ممزق من أحد الكمين !!

وتلقته أمه بالهلع ، فبكى أمر البكاء !! وعندما سألتها عما حدث أخبرها بأن الأولاد ضربوه !! عندئذ طيبت الأم خاطره بكلمات طيبة ، وكفكت دموعه ، وقدمت له الطعام . وبدأت الأسئلة تنهال عليه ، وبخاصة بعد أن حضر والده ، وتملكه الغضب الشديد من أجل ما تعرض له ولده من إهانة وسخرية !! وكانت الأسئلة كلها في اتجاه واحد . من الذي نزع الطربوش من فوق رأسك ؟ من الذي ضربك ؟ حاول أن تتذكر وكان المسكين في الواقع لا يعرف شيئاً يجيب به عن تلك الأسئلة التي كانت أكبر من إدراكاته التي لم تستطع تحديد بداية أو نهاية لتلك الأحداث التي وقعت له . إنه لا يذكر شخصاً محدداً يستطيع أن يرشد إليه .. ومع ذلك فإنه تحت تأثير الخوف البالغ من أبيه ذكر أول اسم خطر على باله من أبناء الحارة . وكادت تحدث مشاجرة كبرى لولا حكمة العقلاء الذين واجهوا المتهم بالمعتدى عليه فلم يقر الأخير على الاستمرار في ادعاءاته .. واتضح أنه ضحية لمجهول

٦ - عود إلى المكتب :

اضطر والده أمام عجزه عن حماية نفسه أن يعيده إلى مكتب الشيخ « رضوان » من جديد وإذن فإنه الآن في المكتب الذي غادره منذ ثلاثة شهور .. عاد إليه حتى يكبر ويستطيع الذهاب إلى المدرسة الأولية من غير خوف . وهذا هو شيخ الكتاب يهتم به لأنه كان غير سعيد بذهابه إلى المدرسة .

وبدا التلميذ يكتب بالقلم المصنوع من « القصب » وبالحبر المعد يدويا من « صنّاج » المشاعل ، والموضوع في محبرة فوق قطعة من القماش تسمى « الليقة » وكان ما يكتبه على اللوح الخشبي الأبيض كل يوم قدراً من القرآن الكريم .. يكتبه ليصحح تلاوته أولاً ، ثم ليحفظه ثانياً ، ثم ليمحوه بعد ذلك لكي يكتب غيره .

وفي إحدى المرات كانت المحبرة في وضع غير مستقر على أرضية « الكتاب » وكان هو يكتب غير منتبه إلى ذلك فاهتزت المحبرة ومالت على ملابسه فلوّثتها بالحبر .. عندئذ لم يتمالك شيخ الكتاب نفسه وأنهال عليه ضرباً بعصاه الخيزرانية الموجهة .. !!

وعاد التلميذ إلى منزله في هذا اليوم كاسف النفس محزوناً ، لم يطلب الطعام كما تعود عند عودته في كل يوم ، ولم يملا المنزل بصخبه المعهود كلما رجع سعيد القلب جذلان .. ولحت عين الأم في محياه آثار البكاء فانكفأت عليه تسأله عما حدث وهو لا يجيب ، وأخيراً فتشت جسده وشاهدت عليه آثار ضرب مبرح وقع عليه . فهرعت إلى جدته

وجده وأنباتهما بالأمر !!

فانطلق جده اليه يستعلم عن ضربه ، وما زال به يلح عليه ويحايله حتى أفضى إليه بحقيقة ما حدث !! عندئذ وثب الجد يعدو إلى منزل العمدة ومعه التلميذ ، وهناك قدم شكواه ووضح الدليل الملموس جريمة شيخ الكتاب الذي لا يرحم ..

ولما حضر شيخ الكتاب وسئل لم ينكر الذي حدث .. وقال إن من حقه تأديب تلاميذه في أى وقت ، وعلى أية صورة !! فاشتد بالجد الغضب ، واهتاج خاطره ، وتهدد الشيخ بالويل والبثور وعظام الأمور . وما زال عمدة القرية والحاضرون في مجلسه يناقشون الجد والشيخ حتى هدأت النفوس ، واصطلح الخصمان على أن يعود التلميذ إلى المكتب منذ الغد - وهكذا عاد التلميذ إلى مكتب الشيخ رضوان ، ومكث به عاما طويلا . حفظ فيه ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم ، وعانى فيه من كثرة المطالب التي كان يثقله بها الشيخ دون غيره من التلاميذ : فقد كان الشيخ من غير أهل القرية ، هاجر إليها واحترف مهنة تحفيظ القرآن - ولم تكن له أسرة ولا زوجة ترعاه .. وكان دائما يطلب ما يريده لنفسه من هذا التلميذ الصغير الذي كان يحرص على تلبية ما يطلب مهما كلفه ذلك من عناء . وإثناء كل ذلك كان يحن حنينًا جارفا إلى المدرسة التي حرم منها .

٧ - مع المدرسة من جديد :

عاد إلى المدرسة الأولية ، وقد استطاع أن يذهب على قدميه من غير أحد يعينه على الذهاب . عاد ليجد نفسه أقوى من أقرانه الذين لم يذهبوا إلى المكاتب مثله . عاد ليجد نفسه في الصف الثاني ، وليكون تحصيله في مستوى من الجودة يحسده الآخرون عليه - عاد مزودا من والده وجده بأن يدافع عن نفسه إذا حاول أى واحد من الأولاد أن يعيث به

وشينا فشيئا نما فيه الميل إلى العنف في رد العدوان ليس عن نفسه فقط ، وإنما عن غيره من الأقارب أو الزملاء . فإذا كان في المدرسة واعتدى أحد على آخر فإنه يسارع للانحياز إلى جانب المعتدى عليه . وبخاصة إذا كان من تلامذة فصله . وهو عندما يخرج من المدرسة يفعل نفس الشيء ولا يبالي أبدا بالعواقب ، وكثيرا ما كانت الشكاوى ترد إلى والده من الآخرين فيكون حظه العقاب المؤلم . وكثيرا ما كانت المدرسة ترد إليها شكاوى مماثلة فيكون حظه العقاب المؤلم كذلك . ولكنه رغم كل ذلك لم يكن يحيد من مسلكه المنحاز إلى جانب المعتدى عليهم . وهكذا استمال مع مرور الأيام إلى زعيم صغير ، يقف مع المظلومين الصغار بمستويات مختلفة . وتواصلت فيه هذه الصفة حتى أصبحت العلامة البارزة مع شخصيته . ولولا أنه كان في واجباته المدرسية على مستوى يشفع له في كثير من المواقف المخرجة لكان له شأن آخر غير شأنه الذي صار إليه .

راه يوما جده لأمه عند عودته من السوق ، وكان أمامه خمسة من الأولاد يسوقهم بعضا طويلة ويجرون أمامه ، فنزل الجد عن ركوبته واحتضنه ثم ذهب به إلى جدته وطلب منها أن تذهب له « ديكاً » مكافأة له على شجاعته . وبينما هو جالس يستعد لاكل هذا « الديك » أقبل من يشكو من تلاميذ المدرسة التي يتعلم فيها . وأراد والده معاقبته ولكنه تراجع لأنه قد تلقى اليوم شهادة أعماله الدالة على مهارته في المدرسة !!

ووقف ناظر المدرسة يوما ليعلن أسماء الفائزين في المسابقة ويسلمهم الجوائز وكان هذا التلميذ أسبقهم في صفه .. وبعد تصفيق الحاضرين ، وتهانئهم بساعتين اثنتين .. جاء من يشكو من أولياء أمور التلاميذ بعض متاعبه التي يسببها لابنائهم وهم عائدون من المدرسة .. وبعد تحقيق سريع عفا ناظر المدرسة عنه وصالحه على زملائه . لقد كان يعرف أنه لا يعتدى ولكنه يفيض المعتدين ، وكان لا يفرق بين أن يكون الاعتداء عليه أو على أحد

آخر - وكان يرى أن من لا ينصر المعتدى عليه نذل جبان !! وكان كلما ذكر واقعة « الطربوش » والولد الشهم الوحيد الذي وقف إلى جواره في ساعة المحنة يهود من أعماقه أن يقف إلى جانب من يتعرضون للمحن ، ويمنى نفسه بالأمل العريض في ذلك عندما يكبر ويصبح في عداد الرجال

٨ - صورته من العطف :

والعجيب أنه إلى جانب الحدة في رد العدوان ، كان عطوفا معوانا ، شديد الحذب والرفق بكل من يستحقهما حتى ولو كان غابر سبيل .. ما رأى أعمى أو صاحب عاهة إلا وتفطر قلبه عليه ، وحاول أن يقدم له من المساعدات ما يستطيع ! وما وقعت على أذنه كلمة استجداء من محتاج إلا واهتاجت مشاعره وسالت على خديه الدموع . رأى مرة عددا من عجائز الجيران يجتمعن حول قُتاتٍ جمعته ، وألقين به فوق نار ليطبخ . ولكى يستسغنه وضعن عليه قدرا من الملح ، وجلسن ينتظرن أذان المغرب فقد كن صائعات ، وهذه هي وجبة الافطار التي تيسرت لهن حيث كن فقيرات وعاجزات ، وليس لديهن حول ولا حيلة !! عندئذٍ انتابه الفزع ، وولى شطر منزل أسرته يبكي .. سألته أمه ماذا دهاه ، ولماذا هو يبكي يا ترى ؟ قال : يا أماه : ذهبت لأدعو « محمدا » ، لكى تلعب سويا ، فأبصرت جدته ، وأمه ، وعمة أبيه وهن يأكلن « فلتا » ، محترقا مطبوخا بالماء والملح .. وعرفت أنهن كن صائعات وليس لديهن طعام !!

وكانت أمه على شاكلة أمها ، ورثت عنها الإشفاق على الضعفاء والرحمة الفائقة لأساهم : فلما سمعت مقالته بكته هي الأخرى ، وقامت من فورها فحملت إلى هؤلاء العجائز ما أمكنها حملة من اللبن والزبد والجبن الرغفان . ثم عادت إليه فوجدته راضى النفس ، منشراح الصدر لهذا الصنيع . عند ذلك دعت له بالخير والبركة ، وتضرعت إلى الله تعالى أن يبقيه على هذا الدرب الصالح الرحيم .. ولم تنس أن تزوده ببعض ما تعلمه عن قدامى الصالحين من المسلمين السابقين . وأن تروى له بعض القصص والحكايا التي حفظتها عن الشيوخ الذين كانوا يترددون على منزل أسرتهما ويقرومون لامها بعض المأثورات والصلوات والأدعية .

ولم تنس أيضا أن تشيد بموقفه العطوف عند والده وأعمامه وأحواله وكل الكبار من أقربائه . وكأنها كانت تريد تثبته على جادة العطف والإنسانية ، وتنمية هذه الروح الطيبة فيه . وبالفعل تم لها ما أرادت ، وشب وشبت معه عواطفه الجياشة حيال كل التعساء والبائسين . ففى مرة أخرى وكان في طريقه إلى المدرسة ، حيث الوحل ، والطين ، والبرد ، وتساقط الندى قبل إشراقة الشمس بوقت قصير . وكان وقع قدمه الثقلتين بالطين العالق بالحذاء لا يكاد يسمع . جاءه صوت من يسار الطريق يقول : « يا عم ياللى ماش !! الله يخليك إنا وبنتى جعانين ادينا حاجة ناكلها ،

لم يكن هو ممن يقال لهم « يا عم » ، فالتفت فلم ير أحدا غيره .. وعرف أنه المقصود بهذا النداء الضارع الواهن .. ونظر إلى مصدر الصوت فرأى امرأة عمياء مرتجفة من شدة البرد . وبين يديها طفلة تحتضنها ، وترخى عليها غطاء رأسها لتحميها من البرد .. وعندئذٍ انهمرت دموعه الصامته وأفرغ في كفيها طعامه الذى زودته به أمه لكى يعيش عليه حتى يعود من المدرسة .. وولى تجاه مدرسته ، وهو محزون .

٩ - الشخصية المزدوجة :

بفضل أمه وجدته ترعرعت في قلبه بذرة الحب الرقيق للناس . وبفضل ما كانت عليه حفاوة الأب والجد والأعمام والأخوال بالفروسية والفرسان من أبطال قصص الحروب الشعبية ، نشأت في نفسه ميول الأنفة

والكبرياء ، وكراهية الضيم .

ومن هنا سارت حياته محكومة بهذين الحدين اللذين برزا في جميع تصرفاته . يراه الناس ثائرا فلا يتصورون أنه سيهدأ أبدا !! ثم يبصرونه بعد ذلك رقيق القلب فيأض المشاعر شديد البكاء من أجل محن الآخرين وأرزائهم : فلا يكاد دون يعتقدون قدرته على المواجهة العنيفة لأي أمر من الأمور . وكانت تنعكس عليه تلك الازدواجية في شخصيته عند كل يوم ، حتى في شئونه العادية . فهو في المدرسة الاولى عند أول النهار قارئ كاتب ، ممارس للنشاط الرياضي وغيره من الأنشطة . حتى إذا حان موعد العودة من المدرسة انطلق إلى ربوع وأزقة القرية . يأكل ويشرب ويحفظ الدروس ، ويلعب ويتشاجر . فإذا هبط المساء دلف إلى حلقة من حلقات القصص التي تشوقه وتطربه مواقف فرسانها . لم يكن يعرف شيئا عن المستقبل ، أو ما ينبغي أن يكون له منه فيه . إنه يذهب إلى المدرسة لمجرد أن والده قد كلفه ذلك . وهو يحرص على أن يؤدي واجباته المدرسية حتى لا يقال عنه إنه بليد .. وهو الآن في الصف الرابع الذي سوف تنتهي به رحلة المدرسة الاولى .. حيث لا يعلوه صف آخر .

١٠ - كتاب الشيخ ناصر :

وفجأة طلب إليه والده أن ينام الليلة مبكرا ، لأنه من الغد سوف يذهب إلى كتاب الشيخ المبارك الذي علمه القرآن .

اهتم التلميذ لهذه المفاجأة غير المتوقعة ، وسأل والده بلهفة هل تريد أن احفظ القرآن مثلك يا أبي ؟
لا والله : لا . أنت تحفظ القرآن وتذهب إلى الأزهر لتتعلم العلم وتصير عالما إن شاء الله .
لم يفهم التلميذ شيئا مما قاله أبوه سوى أن هناك أمرا عظيما يريد به والده . أما ما هو هذا الشيء بالضبط وما هو هذا « الأزهر » ؟ وما معنى تصير عالما ؟ كل ذلك وما إليه مما أوحى به عبارة والده كان شيئا بعيدا عن متناول إدراكه !!

وفي صباح الغد وجد نفسه مع والده في طريق القرية يتجه مساره في نفس اتجاه الطريق الذاهب إلى المدرسة الاولى ولكنه كان موازيا له .. وظلا يسيران حتى دخلا أزقة القرية التي بها الكتاب الجديد .. ومن زقاق إلى زقاق إلى منزل عادي من منازل القرية انتهى إليه الزقاق الأخير .

طرق الوالد باب المنزل فجاء صوت امرأة من الداخل من ؟ رد الوالد أنا فلان .. أين الشيخ ؟
ودون أن يتردد صوت المرأة مرة أخرى تم فتح الباب الخارجى للمنزل . ودخل الوالد وابنه عبر سرداب طويل إلى غرفة الشيخ الذي كان يجلس في عيافته السابقة ، وعمامته الوقورة . وما إن شعر الشيخ بوقع اقدام القادمين عليه حتى قام وسلم ورحب ؟ فقد كان يعرف تلاميذه مهما بعدت بهم الأيام .

وبعد مناقشة قصيرة تم الاتفاق بين الشيخ والوالد على أن يقوم الأول بتحفيظ الابن كل سور القرآن الكريم مقابل عشرة جنيهات مصرية يدفعها الوالد أقساطا متساوية كل قسط يحل دفعه عند بداية مرحلة جديدة من مراحل التحفيظ ، ولم يقم الوالد من مجلسه حتى دفع القسط الأول .. وبعد ذلك انصرف الى حال سبيله .

أمر الشيخ المهيب باستدعاء من يصحب التلميذ إلى المكان الذي يحفظ فيه أقرانه واكتشف التلميذ أن هذا الكتاب ليس كغيره من الكتاتيب التي عرفها ذلك لأن عهده بالكتاب أن يكون دهليزا أو حجرة يتكدس فيها الأولاد من مختلف الأعمار لكي يقرموا

أما هذا الكتاب فإنه منزل طويل عريض مملوء بالحجرات المنفصلة والمرصوفة في دورين - حتى لكانه مدرسة ذات فصول متعددة .. واكتشف وهو في طريقه إلى حجرته أن في بعض الحجرات رجالا كبارا شابت رموسهم .. وفي البعض الآخر رجالا دون هؤلاء في العمر .. ووجد هؤلاء وأولئك في حلفتين تتوسط كلا منهما امرأة عجوز كفيفة البصر !!

لم يفهم شيئا في أول الأمر حتى وصل إلى حجرة بها خمسة من الأولاد تقوم على تعليمهم إحدى زوجات الشيخ .. فقد كان للشيخ عدد من الزوجات الحافظات للقرآن الكريم وكن كفيفات . كما كانت له زوجة مبصرة صحيحة قوية البدن . هي التي تقوم على خدمة الجميع ، الشيخ الكفيف وزوجاته الأخريات وأولادها وأولادهن !! عرف هذه الحقيقة فيما بعد اليوم الأول لمجيئه إلى الكتاب ، وعرف إلى جوار هذه الحقيقة أن شيخه الوقور لديه في كتابه كثيرون من البالغين والصبيان والنساء والبنات .. يقصده الجميع من أقصى أطراف البحيرة لشهرته العالية في تحفيظ القرآن الكريم ، وتجويد تلاوته ، بل إن العديد ممن حفظوا عنده فتح الله عليهم ، ودخلوا الأزهر الشريف ، وصاروا من أكابر العلماء فيه

والمهم أنه في يومه الأول جلس إلى شيخته مجلس التلميز الراغب في التعلم والحفظ .. ودفعت إليه بلوح خشبي قديم ، ومصحف بلي غلافه ، وأمرت أن يكتب الآيات الأولى من سورة البقرة فامتثل للأمر .. وبعد أن فرغ من الكتابة أمرته أن يقرأ الذي كتب ، فقرأ وتعثر فيما قرأ . وأخطأ نطق كثير من الكلمات فصاحت له قراءته حتى إذا اطمانت إلى استقامة لسانه مع التلاوة دعت إلى الحفظ فانصاع لدعائها عن غير أي توان .

وكان ديدن الشيخة معه عدم التهاون في أي لحن أو خطأ ، لدرجة أنها كانت تكرر الكلمة الواحدة بالنطق الصائب عشر مرات ..

حفظ التلميذ ما كتب حفظا جيدا .. وكان مقداره ثنتي عشرة آية بالكمال والتمام .. وأعلن شيخته بذلك فلم تصدقه ، فظهرت تأكيد الحفظ قائلة ثبت الذي حفظته حتى لا تنساه .. وبعد مدة استمعت إلى حفظه فسرّها وقالت له بارك الله فيك ثم طلبت منه إحضار ثمن اللوح الخشبي والمصحف من والده في صباح الغد .

وبدافع الفضول بدأ يتقصى أحوال هذا الكتاب العجيب .. إن أبناءه ينقسمون إلى مستويات ، ولكل مستوى مكان خاص به . فالمبتدئون هم هؤلاء الخمسة الذين يجلسون معه حول شيخته ، والمتوسطون هم هؤلاء السبعة الذين يجلسون في المكان المواجه لمكانه .. لقد حفظوا ما يقرب من ثلث القرآن . وشيخته هي التي تشرف على تحفيظهم أيضا ، أما الذين قاربوا نهاية الحفظ للقرآن الكريم فهؤلاء لهم مكان ثالث تشرف عليه الشيخة الثانية .. بينما الراغبون في دراسة أحكام التجويد لهم مكان رابع يشرف عليه الشيخ بنفسه .

لكن هذا الكتاب - لأمر ما - كان يثير في نفس التلميذ الجديد شيئا من الرعب بعد أن سمع من بعض التلاميذ إن الشيخ يحتفظ في دولا بكتبه بكرابجين طويلين للتأديب .. سواء في ذلك تأديب أولاد الكتاب ، أو نساء الشيخ اللواتي كن يُعزّفن لدى التلاميذ بالأمهات !!

شهد التلميذ في اليوم الأول واحدا يجري عليه التأديب ، وكان ذنبه أنه لم يحفظ « اللوح » أي القدر الذي كان عليه أن يحفظه من آيات القرآن الكريم .

بالمنظر الرهيب !! شابان قويان يضعان قدمي تلميذ صغير في « الفلقة » ويشدان عليهما بحبل متين حتى لا يستطيع تحريكهما .. والحكم الذي أصدره الشيخ ويقوم بتنفيذه عشرون « كرابجا » تجلد بها قدماء !! وكان الشيخ الكفيف هو الذي يقوم بالجلد بنفسه . مبالغة في الإيلام كان يطلب من التلميذ العد الرتيب للجلدات [واحد - اثنين - ثلاثة] فإذا أخطأ في العد أمره الشيخ باستئناف العد من حيث بدأ - وهكذا تحول العشرون كرابجا إلى أكثر من الثلاثين

بعد إتمام الجلد طرح التلميذ المجلود على الأرض ، وكانت الدماء تسيل من إحدى قدميه ثم جره الشابان المعاونان للشيخ في عملية الجلد ، وألقيا به خارج الحجرة ليذحف على ركبتيه ويديه إلى الحجرة التي يحفظ فيها ١١ شهد صاحبنا هذا المشهد فتملكه الرعب ، وخشى أن يحدث له مثل هذا في يوم من الأيام ، فانتوى الحرص على أداء واجبه أولا لكي ينأى بنفسه عن الوقوع في قبضة هذا الشيخ الشديد

١١ - رفاق الطريق :

مرت الشهور تلو الشهور وهو يصحو مع الفجر كل صباح ليخرج من منزله قبل شروق الشمس ماضيا إلى الكتاب في تلك القرية المجاورة لقريته . وكان الطريق الممتد بين الحقول ، والذي يسلكه كل يوم في الذهاب وفي العودة يشهده وقد رافقه رفيقان كفيفان - أحدهما في سن يقاربه سنه ، والآخرى امرأة كبيرة لم تتزوج . وكانت تتعیش من قراءة القرآن في منازل أهل القرية . ولكنها كانت تريد دراسة أحكام التجويد في كتاب ذلك الشيخ المشهود كان تلميذنا يقود هذين الرفيقتين من القرية إلى الكتاب عند أول النهار ، وكان أيضا يقودهما من الكتاب إلى القرية عند آخر النهار .. أما فيما بين هذين الطرفين فإنه كان في مكانه من الكتاب بعيدا عن كل منهما .. وكانت الصورة التي يسير عليها هؤلاء الرفاق الثلاثة غاية في الطرافة فالطريق الذي يسيرون عليه كان ضيقا .. ومن ثم كان كل يضع يده فوق كتف من يسبقه في الخطو ، على أن الأسبق دائما كان هذا التلميذ الصغير الذي كان يهتم بإبعادهما عن الاصطدام بما يشغل الطريق من أغراض أو ماشية أو مزالق . وما يزال بهما حتى يصل إلى القرية ، فيذهب مع كل منهما إلى داره لكي يبلغ مأمته . قبل أن يعود هو إلى بيت أسرته لقد كان يعرف أن عينيه أمانة يجب استخدامها في معاونة المكفوفين ، وكان يشعر بالراحة التامة وهو يقدم بهذا الواجب الإنسانى في كل يوم ، بيد أنه وبالرغم من هذا الشعور الطيب ، لم يكن كل تصرفه مع هذين الرفيقتين محمودا لديه .. ففي كثير من الأحيان كانت تروقه المعابثات الصبيانىة التى تفضب أيا منهما .. ومع ذلك فإنه كان سريع الفطنة إليهما .. يطيب خاطر ، ويهدد الالم ، ويطلب ممن عبث به منحه الغفران ، وما يزال به حتى ينسيه بحسن العشرة ألم الإساءة !!

١٢ - محنة لا نفسى :

وظل الحال على هذا المنوال حتى أقبل عيد الأضحى المبارك ، فمنح أولاد الكتاب إجازة مدتها أربعة أيام كاملة .. وفي صبيحة يوم العيد ، وبعد أن عاد والده من صلاة العيد ، وزيارة المقابر ، أخذ مجلسه بين بعض أصفياه في دكان على رأس الحارة التى بها منزل أسرته .. وكان التلميذ قد علم بذلك فذهب إلى والده طلبا للعيدية

سأله أبوه في رفق ، وكم تريد ؟

قال الابن : « رُبْع ريال »

قال الوالد : سأعطيك نصف ريال بشرط أن يختبرك عمك الشيخ بهنسى في محفوظك من القرآن الكريم .. وكان الشيخ بهنسى أحد الجالسين في المجلس .

سأل الشيخ : في أية سورة أنت ؟

قال التلميذ : في سورة « التوبة »

قال الشيخ : اقرأ أول الأنعام

سكت التلميذ ولم يقرأ !! فلحقه الشيخ الآية الأولى من السورة فقرأها وسكت !!

قال الشيخ حسن إذن اقرأ أول الأعراف ،

سكت التلميذ أيضا وأحس بالدم يكاد ينفجر من رأسه !! وهكذا خمس أو ست مرات . عاد الشيخ بهنسى بعدها لكى يسأل عن الكتاب الذى يقرأ فيه فلما عرف أنه كتاب الشيخ « فاطر » تعجب الشيخ غاية العجب ، وقال : هذا لا يمكن أن يكون !!

عندئذ قام الوالد من المجلس مستائنا ، وصحب معه الابن إلى المنزل لكى يعطيه « العيضية » . ويا لها من « عيضية » لن تنسى مدى الأزمان .

جاء الوالد بحبل غليظ كانت تربط به الماشية ، وشد بهذا الحبل وثاق ابنه فى دعامة خشبية كانت قائمة فى فناء المنزل ، ثم انهال عليه بعد ذلك بالضرب الموجه المؤلم !! ولم يشفع له بكاء أمه أو صراخ إخوته الصغار !! وأقسم الوالد أن يتركه هكذا إلى أن يمر العيد !!

يا لها من ساعات رهيبة تلك التى مرت بالابن وهو مربوط إلى تلك الدعامة !! فقد كان كل الأطفال والكبار ينعمون ببهجة العيد ، وكانت تتناهى إليه أصوات الزامرين واللاعبين بينما هو مصلوب أو كالمصلوب الذى لا يستطيع أن يتحرك !!

محنة قاسية !! ليت والده اكتفى بالضرب ثم تركه يلعب كالأطفال ! بل ليته هولم يقع فى خطأ الإهمال الذى جر عليه كل تلك المتاعب والألام !! ليت وليت وليت . ولكن التمنيات لا تفيد ..

وبقى مصلوبا حتى مالت الشمس عن الأفق بعد منتصف النهار ، حينئذ قدم والده إلى المنزل فخلصه من وثاقه ، ثم التقط يده ، وقبض عليها بقوة ، وخرج به من المنزل إلى الحارة فالشارع الدائرى بالقرية . فالطريق المعتاد سلوكه بين المزارع إلى كتاب الشيخ « فاطر » .

١٣ - الدرس الكبير :

لم يتصور التلميذ إلا أن والده يريد قتله بين المزارع ، وكان الصمت الكئيب يلف حول الحقول من جميع الجوانب - فالיום عيد ، والفلاحون جميعا يهجون حقولهم فى هذا اليوم ؛ حتى مواشيهم تكون معهم بعيدا عن تلك الحقول . وكان الطريق محفوها بزراعة الأذرة الكثيفة ، والوالد صامت لا يتكلم ، ويده قابضة على يد ابنه فى قوة وحرص ، والابن يمشى مسلوب الإرادة مرعوبا لا يستطيع حتى أن يهمس ببنت شفة .. وكلما ازداد خطر والده تصور القرب من الهول المجهول !!

وفجأة قطع الوالد حبل الصمت فى رفق بالغ :

- لماذا أنت لا تحرس على التعلم يا ولدى ؟ قالها وفى صوته رعشة وتهديج

- سكت الابن ولم يجب !!

- إن التعليم يا ولدى - ثمرته لك أنت وليست لى . ففى يوم من الايام لابد أن يموت أبوك كما يموت كل الناس ، وإن يكون لك فى هذه الدنيا ما ينفعك غير الذى حصلت من العلم والتعليم .. ثم عاد يسأل :

- أيهما تود أن تكون مثله ؟ فلان العالم الجليل الذى يحترمه كل الناس أم أخوه « فلان » الجاهل الذى لا يكن له أحد أى احترام .

- بل فلان العالم الجليل الذى يحترمه كل الناس ..

- إذن تعلم لكى تكون مثله .

- سافعل يا أبى
- ولن تعود للعب مرة أخرى
- لن أعود للعب مرة أخرى

وكان من الواضح للوالد أن ابنه قد اقتنع بتغيير سلوكه مع التعليم منذ الآن ، نشعر بسورع من الرضا .. ولكنه مضى إلى غاية أخرى كان يود تحقيقها ، وكانت تلك الغاية هي إقناع شيخ الكتاب أيضا بتغيير سلوكه حيال تعليم ولده . وهكذا مضيا معا حتى بلغا منزل الشيخ الذى استغرب حضورهما إليه في هذا اليوم بالذات .. فلما عرف ما حدث من الوالد مع ابنه ، تألم وبانت دهشته ، لكن الوالد لم يلبث أن قدم مبلغا من المال للشيخ وطلب منه المزيد من الاهتمام بهذا الابن حتى لا يتكرر ما حدث اليوم .. وفي عبارة صريحة قال الوالد : ان ابني ربما غشكم وأعلمكم بأنه يحفظ مستغلا أنكم لا تلاحظونه وهو يقرأ لكم من المصحف لا من الذاكرة وهنا أمر الشيخ تلميذه بالحضور إلى الكتاب من صباح الغد والا يستمر في إجازته عقابا له بينما وعد الوالد بأنه سوف يشرف على تحفيظه بنفسه

١٤ - البدء الجديد

صح عزم التلميذ على عدم التلاعب بمستقبله بعد أن وعى الدرس الذى تلقاه من والده . وتحاشى فيما بعد أن يقع فريسة لكرباج الشيخ أو حبل الوالد . ومضى يصل الليل بالنهار حفظا وتجويدا . ولم يعد يترك لنفسه ساعة واحدة للراحة حتى حفظ القرآن الكريم كله في فترة قياسية لم تتجاوز التسعة شهور كل ذلك ووالده يرقبه من بعيد . ولا يتدخل في توجيهه أو متابعتها كما كان يفعل من قبل كان حفظ تلميذ لكل سور القرآن الكريم حدثا كبيرا في محيط الكتاب . فبسبب هذا الحفظ يفور أولاد الكتاب عادة بوليمة شهية ، وبسببها أيضا ينعم شيخ الكتاب بحلة ثمينة مكافأة له على نجاح خطته في التحفيظ ، ومن أجل ذلك فقد رتب الشيخ خطة محكمة للظفر بكل المطلوب .

قل الشيخ للتلميذ . بشر والدك بأنك قد حفظت كل سور القرآن الكريم ، وقل له ان الشيخ يريد أن يلقاك . مضى التلميذ مسرورا إلى أهله فأعلن النبأ إلى أمه أولا .. وما إن سمعت الخبر حتى انطلقت الزغاريد من فمها تجلجل في أسماع القرية . وتقاطر الناس إليها يسألون ما الخبر ؟ فأهدت إليهم الأم ما سمعت من ابنها وهي مزهوة فخور . ولم تنس أن تقدم كل ما استطاعت من الحلوى بكل من هناها

وحضر الوالد مبهور الانفلس فاستقبلته التهاني وهو عائد من صلاة العصر .. بالسعادة التي غمرته وملأت عليه كل جوانحه .. إنه الآن لا يدري ماذا يصنع بنفسه وولده الذى نجح في حفظ القرآن .. !! وكان عليه أن يتمالك نفسه حتى يتأكد من صحة الخبر ، فانتظر حتى جاء الليل وتناول طعام العشاء .. ثم سأل الابن عن صحة الخبر .. وقال له ولكنني يجب أن أتأكد من حفظك قبل أن أعطيك الرد الذى يطلبه الشيخ . فقال الولد في ثقة تامة : تأكد كما تشاء يا أبى !!

عندئذ قرب الوالد مصباح « الكيروسين » إلى مجلسه ووضع المصحف أمامه .. ودعا ولده للقراءة من أول « البقرة » فتدفق الولد يقرأ ويرتل في انسياب رائع ، حتى أتم من القرآن ثلثه . ولم يخطئ ولم يتتعتع .. وكان الليل عند منتصفه فاكفى الوالد بهذا القدر ، وقال لولده في جنوبالغ وعطف شديد . بارك الله فيك .. وسوف أزور شيخك عند صلاة ظهر الغد . كان شيخ الكتاب يرغب في إظهار الحفاوة المبالغ فيها ، واقترح على الوالد استحضار فرس بيضاء يركبها التلميذ من باب الكتاب بعد أن يلبس العمامة ، على أن يسير خلفه الموكب المعتاد من الرجال والنساء

والاولاد الذين ينشدون الاناشيد . ويرتلون الاهازيج . ويرفعون المصاحف فوق رؤوسهم كما حدث لمن سبق من الحافظين

لكنَّ الوالد لم يوافق على هذه المظاهرة التي يقترحها الشيخ خوفا من الاعيرة النارية التي سوف يصر على إطلاقها أقرباء الابن وأحباب أبيه . واقترح على الشيخ أن يقتصر الأمر على حفل تقيمه الأسرة ، ويحييه الشيخ بترتيل قصة المولد النبوي الشريف .

وانعقد الحفل بعد ذلك بأيام ، وكانت البهجة غامرة ، والهدايا والهبات موفورة .. وظل ذكر هذا الحفل ومناسبته على السنة أهل القرية والقرى المجاورة لسنوات طوال .

الفصل الرابع :

مع الأزهر العتيد

١ - محاولات الانتساب :

حمل الفتى منذ ذلك الحفل لقب « الشيخ » ، والزمه هذا اللقب الذى كان ينادى به نوعا من الوقار الذى كان يصطنعه اصطناعا عندما يذهب إلى المسجد لكى يصل ، أو إلى الكتاب لكى يدرس أحكام التجويد ، أو إلى المدرسة الأولية لكى يستعيد معلوماته فى قواعد الحساب والإملاء ..

وهكذا لم يعد يميل إلى العبث أو العراك مثلما كان فى الماضى ، فهو فى نظر الناس « شيخ » ، وليس صبيا ، وهو مشغول بمراجعة القرآن الكريم حتى لا ينسأه فتلقه اللعنات .

وظل هذا الشيخ الصغير يضطرب بين الكتاب والمدرسة والمسجد ، وأحيانا يذهب إلى بعض أهله فى الحقل لكى يستمتع بالهواء الطلق والزرع النضير .. إلى أن عرف من والده نبا حصوله على استمارات الانتساب للمعهد الدينى الأزهرى ، وأن عليه أن يحصل من عامل التليفون على تاريخ ميلاده تمهيدا لاستخراج شهادة الميلاد الرسمية من المديرية !!

أثار فيه ما سمع نوعا من الدهشة .. فلأول مرة يعرف أن لمولد الإنسان تاريخا يكتب فى دفاتر رسمية ، وتستخرج به شهادات رسمية من المديرية .. وما هذه المديرية يا ترى ؟ لابد أنها مكان يشبه « دوار العمدة » ، أو المدرسة الأولية !!

وأيا ما كان الأمر ، فقد تم ملء الاستمارات وجمع التوقيعات عليها من العمدة ومشايخ البلد ، وأرفعت بها شهادة الميلاد .. ووضعها والده أمامه فى صندوق البريد المعلق على جدار ماكينه الطحين . وانتظر المسكين حتى حضر ساعى البريد وفتح الصندوق وأخذ كل ما فيه إلى حقيبتة وانطلق بحماره إلى خارج القرية .

وبعد أيام معدودة وجد نفسه فى صحبة والده بمدينة الاسكندرية التى لا يذكر أنه رآها من قبل . وفى طرف من أطراف هذه المدينة كانت بناية المعهد الدينى الذى وصلا إليه عشية الامتحان المسمى بامتحان القبول . وجرى الامتحان لجميع المتقدمين على يومين ، الأول للتحريرى فى الحساب والإملاء ، والثانى لحفظ القرآن الكريم ، وكانت النتيجة مرضية لكل من الوالد وولده بحمد الله .

٢ - العقبة الطبية :

لكن عقبة خطيرة ظهرت بعد الامتحان بيومين ، فقد قرر الطبيب الذى كان يكشف على المتقدمين بأن الطالب لديه « سَعْفَةٌ فى الراس » !!

وما هذه السفقة يا ترى ؟ إن فروة الرأس سليمة تماما ، وليس بها سوى أثر جرح قديم كانت قد أصيبت به منذ سنوات طوال !!

ذهب الأب إلى الطبيب في عيادته الخاصة ومعه ابنه وسأله عما يعنيه فتبين له أن المسألة في حاجة إلى علاج بسيط . لا يكلف أكثر من عشرة جنيهات !!

عندئذ وضع للأب أن هذه العقبة مختلفة لابتزاز هذا المبلغ لا أكثر .. وكان هذا المبلغ آنذاك يعادل اليوم ألفا من الجنيهات .. خشى الوالد أن يدفعه ويظفر بتقرير بالشفاء ثم لا يدخل ابنه إلى المعهد مع الداخلين .. فاستمهل للطبيب إلى الغد لكي يحضر النقود ..

وخرج الأب ومعه ابنه من عيادة الطبيب إلى مشيخة العلماء .. وهناك التقى بشيخ المعهد الذي أكد له أن الأمر بيد الطبيب - وعندما يقرر شفاء الطالب فإن مكانه ينتظره وعليك ألا يضيع الوقت

فرح الوالد ، وسعى بكل قوته لتدبير هذا المبلغ المرهق لامثاله من مستورى الحال ، ثم دفع به إلى الطبيب الذي كتب على الأوراق « شفى الطالب المذكور ولا مانع من قبوله » .

٣ - إخلاف الوعود :

وحمل الوالد بنفسه تلك الأوراق ومعه الطالب ، وذهب إلى شيخ العلماء يستنجزه وعده .. وكان قد مضى اسبوع على بدء الدراسة !! هنالك اعتدل الشيخ في مجلسه وقال في هدوء وثناقل .. للأسف لم يعد عندنا مكان للقبول في هذا العام !!

قال الوالد في حدة : ووعدك الذي وعدت يا فضيلة الاستاذ ؟ !!

قال الشيخ : لقد أبطأت في استحضار المطلوب

غضب الوالد غضبا شديدا وصاح في الشيخ : أهذه هي أخلاق المسلمين يا شيخ العلماء ؟ كيف تفرر بي وتجعلني أدفع نقودي للطبيب ثم لا تنفذ وعده ؟ إننى أتعامل مع خواجهات وأجانب منذ أكثر من عشرين سنة ، ولم أر بينهم من يخلف الوعد أو يكذب في يوم من الأيام !! هل تحرضنى يا شيخ العلماء على أن أذهب بولدى إلى كنيسة لكي يتعلم أخلاقا غير هذه الأخلاق ؟

واحتدم الموقف احتداما تعالت فيه الأصوات ، واهتزت جنبات مشيخة العلماء بالضجيج ، ولولا تدخل بعض الحضور من أجلة الشيوخ لحدث شيء خطير ، ففي اللحظة التي هم فيها الوالد بارتكاب حماقة الاستعداد للاعتداء بعصاه تعبيرا عن سخطه وضيقه بمناقشات شيخ العلماء - هجم على يديه من منعه ، وناقشه بهدوء ورفق ، وجعله يعتقد أن ولده سوف يأخذ حقه ولكن بعد أسبوع آخر !!

لم تطمئن نفس الوالد إلى هذا الوعد ، ومع هذا فقد تعلل به كما يفعل الظلمآن عندما يرى السراب .

٤ - العودة الحزينة :

وأياما كان الأمر فقد رجع الفتى مع والده حزينا إلى قريته ، وبدأ يشعر بوطأة الظلم الفادح الذي وقع عليه . لقد دخل إلى المعهد أقرانه من الجيران الذين لم يحرزوا تفوقه في الامتحان . ولولا تعنت الطبيب وخلف وعد شيخ العلماء لكان الآن في دراسته التي طالما تشوق إليها قلبه .

ونتيجة لهذا الشعور الأسف الحزين فإنه اعتراه الشحوب ، واعتلت صحته ، وانكب عليه كل من أبيه وأمه

بحاولان التلطف معه لإخراجه من أزمته ، ويعدانه بإدخاله مدرسة أخرى غير هذا الأزهر الذى لا يصدق علماءؤه . وكان الوالد كلما ذكر ما حدث من شيخ المعهد تعلو نبرته ، ويرسل لعناته عبر الأفق لكل الناكثين بعهودهم في هذا العالم الكبير !!

وعلى أية حال فإن الطالب الحزين ومن عزمه ، ولم يعد يثق حتى في وعود والديه بأنه سوف يستأنف رحلة التعليم من جديد !! ومن أجل ذلك انصرف عن تلاوة القرآن إلى اللعب ، وممارسة حياة الضياع لمدة عامين كاملين . وصادفت أسرته في تلك الفترة أزمة حادة ، مرض فيها الوالد بعد أن باع كل ما يملك سدادا لخسارته في تجارة القطن ، تعرّض الطالب الضائع لمهانات تقبلها بصبر ، فخرج إلى الحقول يعمل أجيرا لكى يساعد في إطعام أسرته .. لكن لطف الله أدركه ، فقد شفى له والده وعاد لاستئناف مسيرته من جديد ، وبدأ يوفر له وإخوته نوعا من الأمان الذى كانوا قد فقدوه .

بيد أن أثر تلك الفترة الحالكة قد انطبع على نفسية الطالب ، وترك فيها ندوبا غائرة ، فلقد تخطى جميع الأصدقاء والأقرباء عن والده عندما نزلت به خسارته ، واضطر الولد للعمل أجيرا في ضياع بعض الاقطاعيين الذين كانوا يلهبون ظهور من يعملون لديهم بالسياط .. وهكذا جرب مرارة الاحتياج ، ومحاولة الاقتراض لشراء الأدوية التى كان لابد منها لانقاذ حياة أبيه .

ناهيك عن انه أصبح المسئول عن زراعة ما تبقى من أرض والده دون أية إمكانيات . وهكذا نسى القرآن الكريم ، وانشغل قلبه وخاطره بهموم لقمة العيش التى كان عليه أن يوفرها لأسرته التى تقف في مهب الريح !! وكيف لا ينطبع كل ذلك على نفسيته وقد كانت والدته التى طالما ترجته من ربها يقتلها البكاء حزنا عليه ، وعلى مصيره الذى آل إليه !!

٥ - النهوض :

ورغم كل هذه الانطباعات القاسية فقد بدأت الحياة بشفاء والده تعود إلى ما كانت عليه من قبل . فهذا هو ينهض من جديد تحت إلحاح والده عليه فيبدأ باستعادة حفظ القرآن الكريم ، ثم يثنى بالتردد المنتظم على أحد المعلمين ليتذكر قواعد الحساب والإملاء وإذا به بعد فترة وجيزة يعود إليه أمله في المستقبل ، وتتهيأ له فرص التعلم في هذا الأزهر الذى ما يزال والده ناقما على الكثيرين من شيوخه ..

وما هوذا الآن يدخل إلى المعهد الذى حرم من دخوله ثلاث سنوات كاملة . يدخل وفي رأسه أن يعوض كل ما فاتته بالدأب والجهد في أثناء الليل وأطراف النهار .

يا لها من لحظات رائعة تلك التى كان يتهيأ فيها لاستقبال أول درس في الأزهر !! ويا لها من سعادة بالغة تلك التى شعر بها عندما دخل إلى فصله أول شيخ سوف يتعلم منه ..

كان الشيخ متقدما في السن ولكنه قوى البنيان ، وكانت تبدو عليه أمارات الهيبة وسيماء الصلاح . جلس فوق منصته العالية بجوار سيورة الفصل ، وأسيل جفون عينية ثم قال في نغم رتيب : بسم الله الرحمن الرحيم . الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع وأقسامه ثلاثة : اسم وفعل وحرف .. الباء في بسم حرف جرمينى على الكسر لا محل له من الاعراب واسم مجرور بالباء ... وهكذا استمر الشيخ يشرح على هذه الصورة وهو مسيل الجفون كأنه يقرأ من كتاب ، والكل يصفون إليه في انتباه واضح ، وهو لا يتوقف أو يناقش حتى انتهى وقت الدرس بدق الناقوس !!

عندئذ تحامل الشيخ على نفسه ، وجمع أطراف عيابه بعد أن غادر المنصة وخرج من الفصل . بعدها سأل الطالب زملاءه إن كانوا قد فهموا شيئا مما قيل فأجابوه بالنفى .. وحينئذ رضى عن نفسه بعض الرضا فهو ليس

الغبي الوحيد الذى لم يفهم ، وما عليه إلا أن يركز انتباهه في الدرس القادم
ودخل الشيخ الثانى الذى رآه أقرب إلى الشباب منه إلى الشيوحة - لم يجلس على المنصة كما فعل سلفه .
وإنما بدأ إلقاء درسه وهو يتحرك بين صفوف الطلاب وكان الحماس واضحا في حركاته وصوته
بدأ درسه بدعاء طويل بعد البسملة هو هذا : اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا وإن شئت جعلت الصعب
سهلا . اللهم اخرجنا من ظلمات الوهم ، وادركنا بنور الفهم ، وافتح لنا خزائن رحمتك ، وعلمنا أسرار
حكمتك .. إنك على ما تشاء قدير .. ثم بعد الدعاء قال : درسنا اليوم عن المياه التى يجوز بها التطهير .. واستمر
يقرأ أسماء هذه المياه ، ويحاول التفرقة بين كل نوع منها والآخر .. إلى أن انتهى وقت الدرس .

فهم الطالب من هذا الشيخ بعض الأشياء ، ولم يفهم البعض الآخر مثل (ماء البرذ) ولكنه كان سعيدا بهذا
الدرس الذى أذهب عنه يأسه وفتح نافذة الأمل لقلبه المحزون .

وعلى الرغم من ذلك فقد قضى يومه الدراسى الأول مثقلا بالهموم - كيف لم يفهم من الشيخ الأول شيئا ؟ ترى
هل غيبا ولم يستطع أحد اكتشاف غيائه من قبل ؟ وعاد إلى حجرته التى تم استئجارها بحى الوردان ، ومع زملائه
الذين يسكنونه فيها . أخذ يستعيد ذكريات يومه . ثم لجأ إلى الصمت العميق !!

لقد كان يخشى أن يتوالى عليه عدم الفهم ، ثم يكون مصيره الفشل والرسوب والرجوع إلى القرية خائب
الرجاء . إنه الآن يذكر والديه اللذين يدعوان له بالتوفيق ، ويذكر كل الشيوخ والمعلمين الذين كانوا يشيدون به في
مجالسهم ، ويزعمون أنه شعلة من الذكاء . فما باله اليوم لم يفتح الله عليه بالفهم ؟ وما الذى يجب عليه أن يفعله
لكى يفهم ؟

وهكذا قضى الليل كله مسهدا ، ولم يطرأ على فكره أبدا أن عدم فهمه راجع إلى طريقة الشيخ الذى لم يوفق إلى
الإفهام !!

أذن المؤذن للفجر في المسجد القريب من منزله فنهض واقفا وتوضأ ، ثم خرج إلى المسجد فصلى مع المصلين
ودعا الله في سجوده وبعد صلاته أن يدركه بالفتح والفهم في هذا اليوم الجديد حتى لا يخيب رجاؤه . ولا رجاء
الاهل فيه .

وعندما عاد إلى فصله جلس في أول مقعد قبل أن يحضر بقية الطلاب .. ودخل شيخ الامس الذى لم يفهم منه
شيئا ، وفعل نفس ما فعل في اليوم السابق أو شيئا يشبهه . وللمرة الثانية لم يفهم الطالب شيئا مما سمع كأن شيخه
يتكلم رطانه أجنبية ليس إلى فهمها من سبيل .

عندئذ اندفع الدم في عروق الطالب يغلي ، ولم يتحمل استمرار هذا الموقف فانتفض واقفا ، وبغير استئذان
قاطع الشيخ صارخا أنا لم أفهم شيئا يا سيدنا الشيخ

كانت النبرة عالية قطعت على الشيخ الاسترسال في الدرس ، وقطعت على الطلاب حبل الإصغاء والصمت !!
وبهدوء قام الشيخ من منصته ومشى في تؤدة إلى أن بلغ مكان الطالب فسأله عن اسمه - ثم فاجأه - هل
حفظت - الأجرومية ، ؟

كان الطالب يرتعد من الخوف ويخشى بطش الشيخ الذى سمع عن قسوته في معاقبة طلابه بالضرب المبرح ،
وخرجت الكلمة من فمه وهي ترتعش . وما الأجرومية ؟

تلطف الشيخ بالطالب وقال له : كتاب صغير ثمنه خمسة مليمات تستطيع الحصول عليه من أقرب مكتبة
عليك أن تشتريه ثم تحفظه .. وأعدك - إن فعلت ذلك - بالفهم العظيم .

قال الطالب : سأفعل إن شاء الله - وانتظر حتى انتهى اليوم الدراسى ، فخرج إلى المكتبة واشترى

« الأجرومية » ، ثم عاد إلى منزله وهو منشراح الصدر مسرور .
وعلى عجل تناول طعامه وأتبعه بصلاة العصر ، ثم عكف على هذه الأجرومية ليحفظها . إنه لا يريد أن يضيع وقتا لكي يصل إلى الفهم الذي وعده به الشيخ ..
ومضى إلى شاطئ البحر ، ودخل من باب الجمرك ، ووجه وجهه قبل الماء الذي لا آخر له ، وظل يحفظ حتى غربت الشمس ، وزحفت الظلمة على الأفق فلم يستطع متابعة الحفظ ، وعاد إلى بيته وقرر ألا ينام حتى يتم له حفظ هذه « الأجرومية » ، وما زال يعالج هذا الفصل منها ، ثم ينتقل إلى غيره لكي يعود بعد قليل إليه محاولا التأكد من حفظه إلى أن تم له ما أراد ، فغمرته السعادة من جميع جوانبه ، وتناول طعامه متأخرا عن مواعده ، ثم نام قرير العين والفؤاد .

٦ - الاختبار الأول :

وفي صباح اليوم التالي بعد أن توضأ وصلى ، كَرَّ على الذي حفظه بالأمس لكي يؤكد ثباته في رأسه .. وبعد أن اطمأنت نفسه خرج منتشيا فقد انتصر على « الأجرومية » ، وحفظها ، ولا شك بعد ذلك في أنه سبقهم مثلما وعده الشيخ الكبير
ويبلغ مقعده من الفصل ، وجاء الشيخ وأبتدا درسه ، ومضى فيه كما تعود في اليومين السابقين ، وتابعه الطالب بانتباه جاد ولكنه لم يفهم !! لم يفهم رغم حفظ الأجرومية كما أرشد الشيخ !! ترى أين وعد الشيخ ؟ وكيف السبيل لكي يفهم ما يقول ؟
وعندما ضاق ذرعا بنفسه صرخ يا سيدي الشيخ .

قال الشيخ : نعم

قال الطالب : قلت لي إنك ستفهم لو حفظت الأجرومية .. وأنا قد حفظتها ومع ذلك لا أفهم شيئا مما تقول !!
دهش الشيخ غاية الدهشة ولم يصدق أن الطالب قد حفظ الأجرومية في ليلة واحدة .. فنزل إلى الطالب وسأله : أحقا حفظت الأجرومية يا بني ؟

قال الطالب : نعم حفظتها .

قال الشيخ ومتى - رعاك الله - تم لك الحفظ .

قال الطالب : أمس . من بعد صلاة العصر حتى قبل منتصف الليل .

أمسك الشيخ بكتاب « الأجرومية » في يده .. وطلب من الطالب أن يسمعه الباب الأول ... فلما ظهر له حفظ الطالب لهذا الباب انتقل به إلى الباب الثاني فالرابع فالسابع وهكذا !! كلما ذكر الشيخ عنوان الباب .. اندفع الطالب إلى إسماعه نص المكتوب في تدفق غريب !!

لم يجد الشيخ في نهاية الأمر إلا أن يربت بيده على عمامة الطالب الصغير ، ويقول له . فتح الله عليك .. ستفهم يا ولدي ستفهم ، ولسوف تصير عالما كبيرا بإذن الله .

٧ - الجدول الجديد :

بعد قليل من الأيام تغير الأساتذة الذين كانوا يقومون بالتدريس ، وحل محل الشيخ الكبير شيخ شاب يبدو عليه الاعتزاز بنفسه ، والاهتمام بهندامه ومظهره .

دخل هذا الشيخ الجديد إلى درس النمو من مدخل مختلف كل الاختلاف . فهو لم يجلس على المنصة ، ولم يسبل جفونه ليقول ما يحفظه مثلما فعل سلفه . وإنما استثار اهتمام طلبته بأسئلة تحرضهم على التفكير . لم يبسل ولم يحوّل . ولم يقدم بأدعية ماثورة وإنما بدأ هكذا . نرى بعض الذين يقرعون في المصحف يحطّون ويصحح لهم قراءتهم من ليس في يده مصحف فلماذا ؟ جاءت الإجابة من بعض الطلاب لأن الذي يصحح حافظ للقرآن . قال الشيخ الشاب : حسنٌ !! ولكننا نلاحظ نفس الشيء مع من يقرأ الجريدة اليومية .. يصحح له أخطاءه من ليس في يده الجريدة فلماذا ؟

ولما لم تجئه الإجابة من أحد تبرع هو بالإجابة وقال : لأن الذي يصحح يعرف قواعد اللغة ، بينما الذي يقرأ يجهل تلك القواعد .. ومن أجل ذلك فإننا يجب أن ندرس قواعد اللغة حتى لا تخطيء عند القراءة أو الكلام . وهذا هو الذي سوف ندرسه معا هذا العام .

أحس الطالب أن نافذة من الضوء قد تفتحت لذهنه الصغير ، وتسلل نور الفهم إلى عقله وقلبه منذ تلك اللحظة ، وبدأت نفسيته المتعبية تستريح لهذا الفتح فانطلق جادا في تحصيل العلم في كل من أوقات الدرس وأوقات الاستذكار

٨ - نظام الاستذكار .

ولقد كان للاستذكار في مؤسسة المعهد الأزهرى بالاسكندرية نظام وأى نظام ؟ ذلك أن الطلاب كانوا يسكنون ويدرسون في نفس المؤسسة .. ووجد طالبنا نفسه بعد التمكن من السكن مع الطلاب أمام جناح كامل مفروش بالأسرة ومزود بكل المرافق المريحة .. هذا الجناح مخصص للنوم ولا يتم فتحه إلا في مواعيده المحددة كل ليلة . بعد تلك المواعيد كانت تغلق أبوابه الخارجية ، ويمنع السهر والضوضاء حتى ينام الطلاب نوما مريحا يستأنفون بعده الدراسة في صباح اليوم التالى وهم نشطون .

أما الجناح الآخر وكان مستقلا عن الجناح الأول ، فكان معدا للدراسة والاستذكار وكانت هناك حديقة واسعة تفصل بين الجناحين .. في هذه الحديقة كانت تزرع الخضروات بين أشجار التين المثمرة .. ولقد كان جناح الدراسة والاستذكار مكونا من طابقين . العلوى فيه حجرات الدرس ، والسفلى فيه حجرات المعيشة وحجرات الاستذكار . في الأولى كانت الكراسى المستطيلة حول الخوانات المبطنه بالصاج .. وكانت تقوم خلفها وإلى جوار الحوائط دواليب خشبية لكل طالب نصيب منها يضع فيه مئونه التي ترد إليه من قريته بين الحين والحين . وفي الثانية كان يفرش الحصر ليجلس عليه الطلاب بعد تناول طعامهم والاسترواح بالصلاة لكي يستذكروا دروسهم .

وكانت حجرات الاستذكار هذه قليلة العدد ، فكانت تَقصُ بالطلاب الذين ينحشرون ثم يجلسون فرادى أو في حلقات صغيرة .. وكان من عادة الطلاب إذ يستذكرون في تلك الزحمة الشديدة أن ترتفع أصواتهم بما يقرعون أو يحفظون ، ويحدث من أثر لقط وضجيج لا تتحمله آذان المارة في الشوارع الرئيسية المحيطة .

على أية حال فإن الطالب الصغير قد انحشر في هذا الحشد الذي يحتشد كل يوم منذ الساعة الرابعة وحتى الساعة السابعة مساء . ثم منذ الساعة الثامنة حتى العاشرة وكان عليه أن يصطنع نفس الطريقة التي يستذكر بها هذا الجمع المتكدس الغريب !! فكان يرفع صوته حتى لا تنشغل أذنه بغير هذا الصوت الصادر من حجرة !! ولحظ الطالب منذ اليوم الأول أن هناك من الأساتذة من يكفون مراقبة الطلاب أثناء استذكارهم - وكانت المهمة التي يقومون بها تكاد تنحصر في فض الاشتباكات التي تحدث بين الطلاب ، والرد على أسئلتهم إذا أعوزهم شيء يريدون

الاستفسار عنه - كما لاحظ أن صغار الطلاب وكبارهم يتحاورون في قاعات الاستذكار .. ومن ثم حرص على الاستفادة بكل من الأساتذة والطلاب الكبار . فكان كلما اتبهم عليه أمر واستغلقت عليه مسألة يعود إلى أى من هؤلاء وأولئك بالسؤال والإلحاح في السؤال حتى يفهم . بل إنه كثيرا ما كان يعتمد الإصغاء إلى بعض هؤلاء الكبار ممن اشتهروا بالسبق العلمى بين أقرانهم لكي يتعلم منهم كيف يعربون آية من آيات القرآن الكريم ، أو كيف يقرمون بيتا من الشعر ، أو يحاولون تحرير المراد من عبارة غامضة ملتوية .

٩ - بداية التفتح :

ألف الطالب الصغير نظام الاستذكار هذا وتعود عليه ، وأصبح يومه يبدأ بالدروس التى استذكرها في المساء السابق . وينتهى باستذكار الدروس التى درسها في هذا اليوم . في المساء اللاحق . ومن خلال هذا التعود تكون له رهيبه العلمى الذى أخذ في النمو والازدهار .

وما هى إلا شهور معدودة حتى أصبح واحدا من الطلاب المعروفين في تلك المؤسسة الكبيرة . يعرفه الأساتذة ويشجعونه ، ويحترمه أقرانه ويقدرونه . وتولد لديه نوع من الطموح العلمى الشائق ، فأخذ ينفق أغلب نقوده القليلة على شراء الكتب من بائعها الذى كان يذلف إلى المعهد كل يوم ويجلس في مدخله ، ويضع على الأرض بضاعته من الكتب القديمة .

وكثيرا ما كان يطلو لمن يشترى الكتب من هذا الشيخ الفانى أن يمزحوا معه فيسألونه عندك أدب يا عم محمود ؟ فيجيبهم بصفونية وسلامة طوية لا يا ابنى !! عندئذ كانوا يضحكون وينصرفون عنه

لكن طالبنا الصغير كان جادا فلا يسأل مثل هذه الأسئلة العابثة ، وإنما يقلب في الكتب المروصصة أمام عم محمود فإن راقه منها شيء اشتراه وأنصرف .. والغريب أنه كان يشتري من الكتب ما لا يقوى على فهم ما فيه إن قرأه .. وكان الكتاب الجيد الذى يستهويه هو ذلك الكتاب الذى يكون شعرا كله أو بعضه .. دون أن يعرف سببا لهذا الولع بالشعر دون سواه .

وعلى أية حال فإنه كان راغبا في تحصيل العلم من أى منبع ينبع منه العلم ، وكانت هذه الرغبة تتجلى فيه عندما يختار أصفياه من الأصدقاء . فهو لم يكن يصافى غير النابهين من الطلاب ، ولم يكن يحلوه اللهو والهذر الذى يميل إليه العديدون من أقرانه . بل إنه كان يأسى لسخرية البعض من ضعف هذا الشيخ الذى أحوجته الأيام لحمل بضاعته على ظهره كل يوم لكي يبيعها لطلاب العلم .

ولربما كانت الدوافع التى تدفعه إلى هذا المسلك الجاد حيال المعرفة والناس ، شيئا من الحرص على اكتساب السمعة الحسنة بين الناس .. ومن خلال هذا الموقف الجاد فقد ظهرت عليه رغبة جموح في مطالعات الكتب الخارجية ، والمجلات الدورية - ودأب على اتفاق كل ما ينبغى من ميزانيته المتواضعة في شراء الكتب^(٥) .. بل إنه خصص بدل « الجراية » الذى كان يتقاضاه طلاب الأزهر لانفاقه في هذا السبيل .

١٠ - الصيف المبارك :

انتهى العام الدراسى الأول والثانى بالنجاح الموفق ، وبلغته نتيجة الامتحان مع ساعى البريد في خطاب رسمى من إدارة المعهد . وتلقى وأسرته التهانى من الجميع حتى ساعى البريد الذى أصر على أن يتقاضى « خمسة قروش

صاغ « نكنه وبالرغم من كل هذه التهاني لم يكن مبتهجا ولا سعيدا » فالنتيجة تقول إن ترتيبه السابع - وهو كان يطمح في أن يكون الأول ..

وما إن انتهت لحظات التهاني حتى قرر الاستفادة من عطلة الصيف إلى أبعد حد مستطاع ؛ فرسم لنفسه خطة يسير عليها وتتخلص تلك الخطة في التوفر على حفظ « الفية ابن مالك » التي سمع أن كل علم النحوق فيها . إلى جانب المطالعة في الكتب التي اشتراها مدة لا تقل عن أربع ساعات في كل يوم .

ومضى لطيته ينفذ هذه الخطة دون إخلال بشيء منها . فهو يصحو من النوم وقت الضحا فيبدأ بمطالعة إحدى الجرائد اليومية لكي يتعرف على أخبار الحرب العالمية الثانية ثم يثنى بعد ذلك بمحاولة حفظ أبيات من الألفية .. ويظل على هذا الحال حتى الظهر . بعد ذلك يتحلى من خطته إلى ما بعد صلاة العصر .. عندئذ يمضي وحده إلى ظل شجرة الجميز التي كان يهواها .. وهناك في ظلها يجلس للمطالعة في واحد من الكتب التي اشتراها أثناء الدراسة .

وحدث أنه كان يقرأ في هذا المكان الأثير إلى نفسه كتاب « مقامات الحريري » وإذا كوكبة من الأصدقاء يتقدمهم أستاذ أزهرى نابه يقبلون عليه سلموا عليه فرد عليهم السلام وقام واقفا لاستقبالهم فلما أخذوا مجلسهم .. جلس إلى جوارهم وانصرف إلى كتابه الذي يقرأ فيه

كان يعرف هؤلاء الأصدقاء ، فهم أهله وأقرباؤه . وكان يعرف هذا الأستاذ الأزهرى الذي يعمل واعظا بمدينة طنطا .. ولكم تمنى أن يصير مثل هذا الأستاذ محترما بعلمه بين أصدقائه وأهل قريته ..

وبينما هو منصرف إلى قراءته سأل الأستاذ الواعظ عن اسمه واسم أبيه والكتاب الذي يقرأ فيه .. فلما عرف أن الكتاب هو « مقامات الحريري » دهش غاية الدهشة ذلك لأن هذا الكتاب ليس من الكتب التي تسهل قراءتها عند طالب مبتدئ كهذا الطالب .

سأل الأستاذ : أين تدرس يا ولدى ؟

قال الطالب : في معهد الاسكندرية الدينى .

قال الأستاذ : وهل نجحت ؟

قال الطالب : نعم نجحت والحمد لله وأصبحت في الصف الثالث الابتدائى .

قال الأستاذ : وهل تفهم من هذا الذى تقرأه شيئا ؟

قال الطالب في خجل : نعم .

فطلب الأستاذ منه أن يقرأ ما تقع عليه عينيه من الصفحة التي يقرأ فيها . عندئذ استجاب الطالب وقرأ بضعة أسطر بينما الأستاذ بتفحصه بعينه من خلف منظاره ، ويصفى إليه بكل انتباه .. وفجأة قطع الأستاذ تسلسله في القراءة وسأله عن معانى بعض الكلمات « الوعرة » التي وردت فيما قرأ . ولحسن حظ الطالب الصغير أنه كان قد وقف على معانى هذه الكلمات من هامش الكتاب قبل قدوم الأستاذ وصحبه فأجاب عن أسئلة الأستاذ إجابات سديدة .

هنا رَيت الأستاذ على كتف الطالب برفق ، ودعا له قائلا : فتح الله عليك يا ولدى ، وهيا لك التوفيق والسداد ما دمت حيا . ثم اتجه إلى الحاضرين في فرحة ظاهرة . وقال بشاركم والله بشاركم .. فلسوف يصير هذا الفتى عالما عظيما إذا أطال الله في عمره وحماه من غوائل الشر وشياطين الغواية

لم يقدر الطالب أن هذه اللحظة سوف تصبح البداية الأولى لأول صداقة سوف تربط بين قلبه وقلب هذا الأستاذ النابه لعدد طويل من السنين . ولم يدر بخلده إذ ذاك سوى أن الأستاذ يشجعه شأنه في ذلك شأن أساتذته الذين يلقون عليه الدروس في « المعهد » فهو كثيرا ما سمع تلك الدعوات من أفواههم .. بل إن كثيرا من هذه الدعوات مكتوب بخطوط معلميه في كثير من صفحات أعماله التحريرية التي يقوم بها .

وعندما غربت الشمس قام الحاضرون لصلاة المغرب خلف الأستاذ الواعظ .. ثم انصرفوا إلى ديارهم ما عدا الأستاذ الذي أصر على أن يصحب الطالب إلى منزله .. وهناك التقى بوالده وشد على يده في عطف ومودة ، وقال له : لقد سعدت بالتعرف على ولدك اليوم ، وكان لي مجلس ومحادثة معه .. ولقد عرفت أنه ولد مبارك فيه أن شا الله ولقد أجنث إليك لأوصيك به خيرا .. فإنه يستحق منك ومن كل من يعرفه أكبر قدر من التشجيع والرعاية ..

شكر الوالد للأستاذ صنيعة ، وطلب منه أن يبقى لتناول العشاء ولكنه تأبى معتذرا بأن هذه هي الليلة الأولى في القرية . ووالدته تنتظره بصبر المشوق .

١١ - مولد الصداقة :

لم يكن للشيخ الواعظ أبناء ولا بنات رغم أنه تزوج مرتين ، وانجذب قلبه لهذا الطالب انجذاب قلب الوالد لولده ، وهكذا توطدت العلاقة التي نشأت تحت ظل شجرة الجميز في أصيل أحد الأيام .. ومع توطدها كانت مشاعر الحب والإعزاز يزداد فيضانها كلما التقى التلميذ بأستاذه سواء كان ذلك بالنهار أو بالليل . ولقد غذى هذه المشاعر ونماها أن الأستاذ الشيخ كان من محبى الشعر والأدب . وكانت تشغفه طريقة القراءة التي اعتادها من هذا التلميذ « الفجيب » كما كان يطلق عليه دائما .. بل إن الأستاذ الشيخ كان يستعيده قراءته كلما فرغ من جزء منها ويقول له : إننى أستمع إلى قراءتك مثلما أستمع إلى أعذب الألحان .

وبسبب فرط إعجاب الشيخ بهذه القراءة فإنه كان يستحضر الدوريات الأدبية ، ودواوين الشعراء ، وبعض الكتب الدينية . وكثيرا ما كان يسأله ماذا تريد أن تقرأ اليوم يا بنى ؟ رغبة منه في عدم فرض شيء عليه ليقرأه : فإذا ما عين الطالب الشيء الذى يميل لقراءته لم يعترض وإنما دعاه للقراءة الفورية المتحلية بالأناسة ، وعندئذ كان يصفى الشيخ إصغاء المحب إلى ألحان صوت الحبيب ..

وكان للشيخ ولع شديد بالتعليق على ما يعجبه من المقروء - وكان الطالب في بداية الأمر يقبل هذه التعليقات على ما هي عليه - لكنه بعد ذلك تجاسر وأخذ يناقش تعليقات الشيخ ويبدى رأيه فيها سواء بالموافقة أو الاعتراض أو الإضافة .. الأمر الذى لم يضق به صدر الشيخ بل تقبله في مودة خالصة ، وإعزاز كبير .

١٢ - قيمة الحرية :

وفى إحدى المناقشات مدح الأستاذ رأى تلميذه إلى حد أخجله . ودعاه على الفور إلى إبداء رأيه في خطبة الجمعة التى سمعها من أستاذه بالأمس .. وعندئذ عقد الخجل لسان التلميذ فلم يستطع الإبانة .. لكن أستاذه الح عليه إلحاحا شديدا فبدأ يتكلم ولسانه يتعثر بالحياء ، وتلعثمت على شفثيه حروف الكلمات ، ولحظ الأستاذ ارتباكها -

فقال له لا تخجل ولا تتردد في إبداء رأيك في أى شيء تقرؤه أو تسمعه . وليس من المهم أن يكون رأيك صوابا . وإنما المهم أن تبديه ليناقشك الناس فيه ، فإبداء الآراء ومناقشتها هما الطريق الأمثل للتعلم .

إنك يا بنى تبدي رأيك فيما تقرأ من كتب أو مقالات ، وأنا دائما أستمع إليك وأناقشك فيما تبديه من رأى فلماذا إذن الإحجام عن إبداء الرأى في قول قلته على منبر المسجد ؟ اليس ما قلته كلاما شبيها بهذا الذى تقرأ أو تطلع ؟ أعلم يا ولدى أنه لا فرق في إبداء الرأى بين شخص تواجهه ، وشخص آخر لا تواجهه . فأنت إذ تبدي رأيك في الكلام المكتوب لا بد أن تتصور أن صاحبه لو كان أمامك لواجهته بنفس الرأى دون خوف أو إشفاق . هذا .. وإلا تحولت عملية إبداء الرأى إلى نفاق مردول يجرى كتمانته أمام من نعارض آراءهم .. إنك يا بنى لابد أن تعتاد الشجاعة الادبية فهذه هى الوسيلة الوحيدة لتقويم الأخطاء ، ومواجهة الانحراف عن الجادة ، وعليك أن تعرف أن الإنسان بغير رأى بيديه إنسان فاقد لمعنى الحرية .

وجاءت الكلمات الأخيرة من أستاذه بردا وسلاما على قلبه ، وفهم أن الشيخ إنما أراد أن يلقنه درسا في الشجاعة الادبية ، كما فهم أن كتمان الرأى خطيئة في حق النفس والغير على حد سواء ..

١٣ - المنبر والخطيب :

لكنه لم يفهم أن أستاذه كان يسوق كل حديثه السابق باعتباره تمهيدا لدعوته لإلقاء خطبة الجمعة القادمة ! !

ياسبحان الله ! ! كيف يمكنه أن يرتقى درجات المنبر وكل الناس ينظرون إليه ؟ ثم كيف يتصدى للحديث من فوق هذا المنبر مثلما يفعل الشيوخ الكبار ؟

دارت تساؤلات كثيرة في خلجات نفسه قبل أن يرد على الاقتراح المفاجيء الذى دعاه فيه الأستاذ إلى إعداد خطبة الجمعة للأسبوع القادم ! !

وزاد من هول الموقف عليه قدوم بعض الأصدقاء الذين صارحهم الشيخ برغبته التى أعلن بها التلميز .. عندئذ أعلنوا موافقتهم وتحبيذهم ، والحواء على التلميز أن يفعل مهما تكن الظروف .

لم يستطع التلميز المقاومة ولا الإفلات من هذه الورطة التى وقع فيها .. ومن ثم راح يشجع نفسه على خوض تلك التجربة وليكن ما يكون . وبالفعل لزم بيته سحابة اليوم التالى . وأعد خطبة مكتوبة مختصرة ، بذل فيها جهدا كبيرا رجاء أن تحظى برضاء الجميع .. واختار موضوعا لتلك الخطبة ذلك الحديث النبوى الشريف « اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها . وخالف الناس بخلق حسن » .

ولما علمت أمه بما هو مقبل عليه حاولت منعه خوفا عليه من أعين الحساد !! لكنه لم يستجب لها رغبة في تنفيذ وعد قطعه على نفسه . وحبا في الدخول إلى تجربة مهما يكن شأنها فإنها سوف تعلمه بعض الجديد الذى لم يتعلمه .

وحانت ساعة الذهاب إلى المسجد في يوم الجمعة المعهود .. حينئذ اغتسل وتطيب ، ولبس أحسن ما عنده من الثياب . ثم وضع على رأسه عمامته البيضاء وخرج في صحبة أستاذه إلى المسجد .. وهناك تسلطت عليه أنظار

الناس ، وبدأ يتسلل إلى نوع من التهيب والإشفاق من هول ذلك الموقف العصيب ! ! وجلس يدير كلمات تلك الخطبة في رأسه محاولاً تذكرها ، بعد أن استظهرها على مدار أسبوع كامل . لقد كان يخشى أن ينساها أو جزءاً منها فيضطرب عليه حبل أفكاره ، ويتلعثم لسانه وينهار كل أمل له في انقاذ نفسه ..

وما زال على تلك الحال كلما اختلس نظرة إلى عيون الناس وجدها مركزة عليه .. حتى جاءت اللحظة الفاصلة . فإشار إليه أستاذه لكي يرقى المنبر .. هنا شعر أن الموقف أكبر من أن يقدر عليه فاشتد خفقان قلبه ، وامتنع لونه لكنه بالرغم من ذلك استجاب لرغبة أستاذه مستسلماً .. ونهض يرتقى درج المنبر حتى وصل إلى أعلاه فجلس مواجهاً لجميع المصلين ، ولم ينس أن يسلم عليهم كما يفعل العلماء الكبار من أمثال أستاذه الجالس الآن على مقربة منه

وحاول أن يتأكد من وجود نص الخطبة المكتوب في جيبه فاصطدمت يده بجسم صلب غريب . تأكد فيما بعد أنه تعويذة دستها والدته في ملابسه خوفاً عليه من سحرة السعد .

كان المؤذن بير يدي المبير يردد مشيد الأذان كما تعود ، وكان الخطيب المنتظر في قرارة نفسه يضرع إلى الله تعالى كي يعينه على ما هو مقبل عليه . فلما فرغ المؤذن قام ونشر النص المكتوب أمام عينيه خوف أن ينسى بعض ما فيها فلا يجد ما يسعفه بالذكر . ثم بدأ بصوت عال كأنه يقول للمستمعين إليه اننى لست خائفاً ولا يتملكنى التهيب من أى شيء على الإطلاق ، ثم هدا قليلاً وحلت الثقة من نفسه مكانها ، وأخذ يلقي خطبته بطريقة اجتهد أن يكون لها تأثيرها على من يسمعه . وكانت تحين منه بين الفينة والفينة بعض الالتفاتات إلى وجوه الناس فيخيل إليه أنهم معجبون به . الأمر الذي كان يشيع في نفسه السرور ، ويشجعه على المضي في إنجاز مهمته .

وهكذا فرغ من الخطبة الأولى وجلس .. ثم استأنف خطبته الثانية وكان قد انس من نفسه القوة ، فلم يستعن بشيء مكتوب ينشره أمام عينيه كما فعل في الخطبة الأولى ، وإنما ارتجلها ارتجالاً كأنه يحفظ كل كلماتها .. ولشد ما كان سعيداً وهو يسمع الناس يؤمنون عقب كل دعاء كان يلهج به لسانه .

وهكذا إلى أن دعا لإقامة الصلاة فنزل من فوق المنبر ووقف في المحراب إماماً إلى أن فرغ من الصلاة فتلقى من الناس تهنئتهم ، كما تلقى من أستاذه دعواته الحارة وتمنياته الطيبة

ومنذ ذلك اليوم أصبح التلميذ شيخاً بحق في نظر أهل قريته . لم يعد أحد يناديه إلا ويقرن اسمه بلقب الشيخ وصار له الحق في أن يسأله الناس في أمور دينهم فيفتيهم . ولم لا ؟ ألم يصل خلفه الأستاذ الواعظ الذي يفوق عمره عمر والده ؟

وهكذا دخل طورا جديداً من أطوار الحياة بلقب « الشيخ » ، فأصبح عليه ألا يجالس أترابه نأياً بنفسه عن أن يصير ولداً ككل الأولاد . كما صار من واجباته ألا يترك فرصة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون أن يستغلها .. فهو يصلح بين المتخاصمين ، ويدعو إلى معاونته المحتاجين ، إنه لم يعد ذلك الصبي الذي كان يعرفه الناس فيما مضى .. وعليه أن يلتزم حدود الوقار والاعتزان .. كيف لا وجميع جلسائه وأصدقائه في عمر أجداده وأبويه ؟



الفصل الخامس

بوقة الآلام

١ - البوابة

انتهى الصيف المبارك الذي حفل بكل ما سبق من متعة وإيناس - وأصبح على التلميذ أن يتهيأ للعودة إلى الاسكندرية تلبية لموعده بدء الدراسة . وكان كل شوقه إلى الدرس والتحصيل والانتفاع بشمار قراءاته ومناقشاته الخصبية مع أستاذه الذي رحل إلى عمله منذ قريب . وكان يعنى نفسه بأن يجد عند والده ما يهيئه به لكى يذهب إلى المعهد الذى فارقه كل تلك الشهور . بيد أنه وللأسف الشديد لم يظفر بما يرتجيه - فوالده المنقلب بأعباء أسرة تتكون من سبعة أفراد لم يكن يمتلك النقود اللازمة لشراء الملابس والكتب على ضآلتها .. وكان كل ما يقدر عليه هو توفير إطعام الأولاد وبشق النفس .

وعندئذ وقف الوالدان حائرين في كيفية تدبير المطلوب للأسرة ولهذا « الشيخ » الذى لا يتصور أن تعطله عن استئناف دراسته مهما تكن الأسباب .

اتجهت الأم لبيع نصيبها من الميراث الذى ورثته عن جده ولكنها لم تفلح !! واتجه الوالد للاقتراض من بعض معارفه ولكنه لم يقو على مواجهة هذا الموقف - وأخيرا استقر رأى على رهن قطعة أرض لبعض الموسرين لقاء عشرين جنيها .. وبذلك تم تدبير المطلوب بعد طول عناء .

ولأول مرة يشعر التلميذ بأنه عبء على والديه وأسرته ، ولأول مرة يفكر فى أن هذه هى بوابة الآلام التى سوف تستمر طوال حياته التعليمية ، وظهرت على محياه علائم الحزن ولكن والده طيب خاطره ، وأفهمه أن حياة الناس لا تسير على وتيرة واحدة ففيها من العسر ألوان وألوان . وفيها أيضا من اليسر ألوان وألوان .. ومهما تكن المتاعب فإنها تهون بالصبر والصبر مفتاح الفرج كما يقولون .

وما زال به والده حتى طابت نفسه ، وعبر بوابة الألم الذى أبهظه . بعد أن وطد نفسه على ضرورة التجلد عند الملمات .

٢ - فظائع الحرب :

عاد إلى الاسكندرية ملهوبا إلى لقاء الاساتذة والطلاب عاد وفى رأسه من ذكريات الصيف المبارك ما يشتاقي إلى الحديث مع الأصفياء فيه . عاد وفى قلبه من الآمال والأحلام شيء كثير

وعند أول ليلة إثر عودته وبينما هو في سمر مع أصدقائه انطلقت صفارات الإنذار حيث الحرب العالمية الثانية لم تزل في بداياتها المروعة . وفجأة أظلمت المدينة النى كان شأنها التلاؤ في قلب الليل " وهرع الناس إلى المخايب في باطن الأرض .. وامتلا الأفق بالطائرات المغيرة ، ولاحقتها الكاشفات الأرضية تريد إظهار أماكنها و السماء .. ثم انطلقت المدافع الراعدة ، وتفجرت القنابل المدوية التي راحت الطائرات تلقىها على المدينة وتزلزلت جدران المخبا الذي كان قد لجأ إليه ، واصطكت الصرخات المكتوبة بمسمعه الخائف وأدركت الفيوبة كثيرا من النساء والأطفال الذين لم يعد لهم متنفس من كثرة الزحام واستمر هذا الهول ، وطالت أوقاته .. وأخيرا .. انطلق صوت صفارة الامان فخرج مع الناس إلى نهر الشارع مذهولا

وأثناء عودته إلى مسكنه شاهد جموع الخارجين من كهوف المخايب الأخرى ، وسمع ما تتناقله ألسنتهم المرتعشة من شدة الخوف !! كانوا يقولون إن الغارة هدمت حى باب سدره بأكمله ، وحولته إلى أنقاض " وتسأل عن الكيفية التي تم بها وصول هذا الخبر إليهم بتلك السرعة الغريبة .. إنهم مثله خارجون لتوهم من أعماق المخايب فكيف عرفوا بأمر ما حدث في هذا الحى البعيد ؟؟ وارتسمت الدهشة على وجهه عندما رأى الناس يتناقلون هذه الأخبار في غير ألم ولا انزعاج بعد ذلك . ترى هل تتبلد الأحاسيس مع اعتياد الآلام ؟ ؟

والمهم أنه عاد إلى مسكنه وهو شبه مذهول . يتحدث معه زملاؤه وهو صامت لا ينطق !! ويتبادلون الطرف عما حدث وهم في طريقهم إلى المخبا أو أثناء وجودهم فيه وهو كأنه في أعماق بئر مظلمة

وهكذا وضع جسده في فراشه وهو مفزع مروع . وافترض أن تحدث غارة أخرى وهو نائم ، ثم تسقط قنبلة على المنزل الذى هو فيه فتفجره . وتتناثر أشلاؤه إلى حيث لا يعلم إلا الله !!! هنا زاد رعبه وفزعته .. وتملكه العجب لشخير زميليه النائمين حوله . كيف لم يخطر لهما هذا الخاطر الذى يؤرقه ؟ ولماذا هو وحده مشدود الأعصاب ؟

وظل هذا حاله إلى أن سمع آذان الفجر وظهر له وجه النهار .. هنا شعر بالاطمئنان النسبى لأنه كان يعرف أن الغارات لا تقع إلا بالليل فنام .. وعند شروق الشمس كان لابد له أن يستيقظ لى يواجه الحياة التى جاء من قريته ليحيها .

ذهب مع زميليه إلى المقر الجديد للدراسة - فالمقر القديم في منطقة الأخطار حيث تقوم حوله مستودعات البترول .. ول مدخل هذا المقر الجديد قرأ إعلانا إداريا بتأجيل الدراسة إلى موعد يحدد فيما بعد

عاد أدراجه إلى منزله قلقا مهموما ممتلىء النفس بمئات الأسئلة التى تثقلها ماذا يفعل السكان النائمون في منازلهم لهؤلاء الأوغاد الذين يلقون عليهم بالقنابل ؟ ما الذى يكسبه هؤلاء المحاربون من هدم البيوت العامة ؟ وتخریب الأحياء النابضة بالحياة ؟ ما الذى جناه طفل صغير في حضن أمه لى يخطفه جنون الحرب فيحواله إلى كومة من اللحم المعجون في الدماء ؟ !!

ثم ما ذنب طلاب جامعا من قراهم لى يقطع عليهم طريق التعلم في هدوء ؟ ترى هل نحن المصريين نركب الطائرات ونفعل ببلاد المغيرير علينا مثلما يفعلون هم ببلادنا ؟ هل وهل وهل ؟ إلى ما لا نهاية له من الأسئلة الحائرة التى لا تجد حتى متنفسا للبوح بها !!

وجلس في منزله مهموما يستمع إلى المتحدثين من زملائه وجيرانهم ، وتبين له من خلال ما استمع إليه أن هذه الحرب يقوم بها النازيون الألمان ، وحلفاؤهم الإيطاليون ضد الإنجليز ومن يقف معهم من الدول الأخرى - كما تبين له أن الإنجليز وإن لم تكن أرضنا وطنهم إلا أنهم يتخذون من وطننا قاعدة لهم . يحققون من ذلك لآلها مفانهم الاقتصادية والسياسية . على مستوى الشرقي الأدنى والأقصى . كما يتخذون منه مرتكزا لمحاربة أعدائهم وأعداء مصالحهم من الألمان أو سواهم ..

وبدأت تتسلل إلى رأسه بعض الإجابات عن بعض الأسئلة التي كانت تدور في نفسه .. وشيئا فشيئا وقف على الكثير من المعلومات التي لم يكن يعرف عنها أى شيء .. معلومات عن تاريخية الوجود الإنجليزي في مصر ، وأسباب هذا الوجود والكيفية التي وقع بها في البداية ، والتطورات التي طرأت على هذا الوجود أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها ، وكيف نشبت ثورة ١٩١٩ .. إلى غير ذلك من المعلومات .

بيد أنه - وبرغم كل هذه المعلومات - لم يقتنع أبدا بوجود سبب واحد يبرر قتل الأدميين من أبناء هذا الوطن المغلوب على أمره .. وحتى عندما كان يسمع من الناس أن الطائرات الألمانية والإيطالية التي تقذف قنابلها لا تقصد ضرب الأهداف المدنية ولكن ذلك يحدث عن طريق الخطأ ؛ فإنه كان يزداد اشمئزازه من هذا التبرير السخيف الذي يتفلسف به البعض ربما تعاطفا مع أعداء الإنجليز .. فليس هناك في الحقيقة شيء اسمه التخريب والقتل والدمار عن طريق الخطأ !! إن الخطأ هو ما يقتصر على إصابة فرد أو أفراد . أما هدم الأحياء على أهلها فليس إلا وحشية لا يمكن تبريرها . !!

ظلت هذه التساؤلات والمنحاورات تتعمق في وجدانه لمدة أسبوع كامل . سمع فيه من القصص والحكايا المرعبة عن فظائع الغارات ما ترك في نفسه جراحا غائرة لم يمح آثارها تطاول الزمان - سمع عن الأم التي احتضنت طفلتها وخرجت تعدو إلى المخبأ عند حدوث الغارة ، وظلت تحتضنها وتحيطها بكل كيائها حتى انتهى القصف وانطلقت سفارة الأمان فعادت إلى منزلها فوجدته كوما من التراب .. ثم !!!! ثم اكتشفت أن الذي كانت تحتضنه طوال الوقت ليس ابنتها وإنما وسادة كانت تنام عليها !!

وسمع وسمع غير ذلك الكثير مما يؤلم ويدمى الفؤاد .

٣ - الهجرة :

بعد هذا الأسبوع الرهيب تم اتخاذ قرار بهجرة الطلاب وأساتذتهم إلى مدينة دمنهور .. وفي هذه المدينة الصغيرة وجد نفسه يطلب العلم في مقرر جمعية المحافظة على القرآن الكريم . ووجد معه في مساكن ومتاجر تلك المدينة الكثيرين من المهاجرين الذين طردتهم الحرب من مساكنهم بعد أن قتلت العديدين من أحبائهم وأهليهم وتركتهم للضياع !!

وكان لابد له أن يشارك هؤلاء مآسيهم التي عاش جزءا منها وهو في مدينة الاسكندرية قبل التهجير . شاركهم البحث لبعضهم عن المأوى والطعام والشراب والعمل .. نعم .. فقد كان من بينهم بعض أقربائه المقربين ، وكان لا يمكنه إلا أن يسعى معهم كل مسعى يحاولون به الوصول إلى مأمن لهم .. حتى ولو كان هذا المسعى إلى العديد من القرى البائسة بالإقليم .

ولقد كان الألم يعتصر قلبه وهو يشاهد الأمهات يبكين من أجل أطفالهن الجياع لكن الشهامة المصرية المعروفة كثيرا ما كانت تسكن من ألمه ، وتدخل في روعه نوعا من الاطمئنان فكم شاهد من تضحيات القرويين البسطاء ، وإفساح بيوتهم وأكوفهم وأرزاقهم لهؤلاء المهاجرين التعساء !! وكم شاهد من حذب القادرين على المنكوبين في أهليهم وعائلتهم

وهكذا تأقلمت مشاعره مع وحر الألم . وهذه المروءات المصرية الصميمة وصار يلتقى مع كل أحداث يومه بنوع من الألفة والتواؤم إن صح التعبير .

٤ - استاذ في الوطنية :

وفي غمار هذا الجو المشحون بالتوترات ، كان لابد له من أن يتكَبُّ كما تعود على الاستذكار الجاد ، والعمل الدؤوب .. لكن مآسى الاسكندرية لم تكن يبرح خياله ، ومن ثم فإنه كان يذعن لنداء داخلي يحثه على معرفة حقائق التاريخ والحرب ، فيدلف إلى المكتبة العامة ، ويحاول الاطلاع على بعض الكتب أو الوثائق المدونة في المجلات والصحف القديمة .

وشاء الله أن يكون أحد أساتذته - في تلك الفترة - من هؤلاء المسهدة جفونهم من أجل مصر . فكان يسخر درس التاريخ الأسبوعي في توعية الطلاب بحقائق الحرب وأحوالها ، ثم يعرج على ما صنعه الإنجليز بمصر منذ ثورة عرابي ١٨٨٢ وحتى الآن .. وكثيرا ما كان هذا الاستاذ الجليل يدفع طلابه إلى الكتابة عن أحزان الوطن وهمومه ، ولكي يزودهم بطاقة تدفعهم إلى التفكير الجاد في إنقاذ وطنهم ، فإنه كان يستعين بالأشعار والأقوال الماثورة .

ومن غير تفكير ولا تدبر وجد الطالب نفسه مشدودا لهذا الاستاذ الشاب ، مشدودا لكل الحقائق التي يفيض في ذكرها عن المآسى والأحزان المصرية . مشدودا إلى الإيحاءات والإيماءات التي يحرص بها طلابه على السخبط والفضب من أجل بلادهم . مشدودا إلى الآمال التي يرقبها في أفق الأحداث الجارية .. وصار درس التاريخ أحب الدروس إلى قلبه وعقله ، وأصبحت الواجبات التي يكلفها من هذا الاستاذ أخف الواجبات وأيسرها على نفسه .. الأمر الذي لفت الاستاذ إليه فانهطف نحوه يحاوره ، ويؤثره على غيره عند كل مناقشة حرة يهدف من ورائها إلى الإقناع والإقتناع .

ورغم أن الاستاذ لم يكن من شأنه تدريس « الإنشاء » فإنه كان يدفع الطالب دفعا إلى الكتابة في بعض الموضوعات التي يختارها ، ويشجعه على عرض ما يكتبه على الطلاب لكي يتم نقده وإبداء الرأي فيه .. وتبين أن الاستاذ إنما يفعل ذلك لكي يبلغ من نفوس من يعلمهم مبلغا لم يبلغه أحد ..

فهو عن طريق المحاورة فيما كتبه أحدهم يحفز فيهم دوافع المنافسة والتسابق في الكتابة ، وهو يجد بعد ذلك فرصة لالتقاط النابهن وتوجيههم . وهو في النهاية يستطيع أن يقول ما يريده باعتباره أحد أطراف الحوار فيما يعرض ، ومن خلال كل ذلك فإن الاستاذ كان يعمد إلى المقارنة بين حقائق التاريخ في مصر القديمة ، وحقائق التاريخ في مصر الآن .

ولكم خرج الطلاب من درس التاريخ وهم مشحونون بالحماس الشديد من أجل وطنهم ولكم استخفهم

الحماس فصفقوا أو خرجوا من ساحة الدرس وهم يتصايحون ، ولكم استعداد الطلاب أقوال الأستاذ وهم يذاكرون أو يتسامرون . وكانت أهم النجاحات التي حققها هي الخروج باهتمامات أبنائه من حيزها الانانى الضيق إلى حيزها الوطنى العام !!

٥ - مدخل العمل السياسى

وتحت تأثير هذا الأستاذ الخطير ، ومجموعة الالام التى ضاعفتها آثار الحرب ، والتدمير بالقنابل والرعب المخيم على جو مصر ، أخذ هذا الطالب ومعه نفر من زملائه الشباب يسخطون على استمرار بلادهم على تلك الحال ، واشتاقوا نفوسهم إلى البحث عن طريقة تمكنهم من المساهمة فى التغيير .. وفى هذه الاثناء كانت « جماعة الإخوان المسلمين » يبزغ فجرها ، وكان فى مدينة دمنهور مقر متواضع لبعض المنتسبين إليها من الشباب ..

ذهب الطالب ومعه بعض زملائه إلى هذا المقر أول مرة . وهو يريد أن يعرف ما الذى تريده تلك الجماعة ؛ فهو حتى هذه اللحظات لم يكن يعرف شيئا عن الجماعات أو الأحزاب السياسية ، وهو مشوق كل الشوق إلى العثور على طريق يجعله قادرا على توظيف جهده وحماسه من أجل وطنه المثخن بالجراح ..

وهناك فى هذا المقر أبصر عددا من الشباب لا تنقصهم حماسته ، واستمع معهم إلى بعض الأحاديث التى كانت تستخدم نفس المفردات التى يستخدمها - فمصر المستعمرة يجب أن تتحرر وتتخلص من ذلتها واستعبادها ، ولا يمكن أن يتحقق لها ذلك إلا عن طريق الدين والرجوع الكامل إلى مثله العليا ، وأصوله الخالدة من الكتاب والسنة . وعلى الشباب أن يتمسكوا بدينهم من أجل إنقاذ وطنهم ..

كان الحاضرون إلى هذا الاجتماع لا يزيدون عن عشرة ، ووزعت على الجدد منهم وكانوا ثلاثة فقط استمارة يحررها كل منهم للانتساب إلى الجماعة .. وكان منقوشا على تلك الاستمارة عمود من الشعارات التى تزدّد بعضها أثناء الاجتماع . ولقد وقعت هذه الشعارات موقعها الخاص من قلبه ووجدانه .

فأله غايقتنا : تعنى التحرر الكامل من كل الغايات الأخرى كالمال والمجد والشهرة وما إليها .
والرسول زعيمنا : تعنى الإلتزام الكامل بالاعتداء به فى كل ما قال أو فعل . أو أقر .
والجهاد سبيلنا : تعنى أن الوسيلة التى يجب استخدامها لخلاص مصر هي الجهاد والبذل والتضحية .
والقرآن دستورنا : تعنى أن القواعد التى يجب أن تحكم العلاقات فى المجتمع هي أحكام القرآن الكريم .
والموت فى سبيل الله اسمى أمانينا : تعنى الرغبة العارمة فى الاستشهاد لأنه فوق كل الأمانى والرغبات .

حقا إنها شعارات رائعة . والالتزام بمضمونها يعنى الرجوع إلى العهد الإسلامى الأول عهد النبوة وما أعقبه من عهد الخلفاء الراشدين . ولكن كيف ؟

ورغبة فى الحصول على الإجابة عن « كيف » هذه كثر تردده على جماعة الإخوان المسلمين فى تلك المدينة الصغيرة . وطال بحثه وتنقيبه . وتسأله - : فقد كان كل ما حوله يؤكد له أن السدود والحواجز المانعة أكبر من أن تقتحم ... وأن الوصول إلى عهد إسلامى نقى بحاجة إلى أشخاص لهم كل الموصفات الإيمانية التى كانت لأصحاب الرسول .

واستمر يتردد ويبحث ويسأل حتى بلغ مرحلة الافتراض بأن ذلك ممكن حدوثه بفضل الدأب والإلحاح والصبر على المكاره

وفي تلك الفترة القلقة تكونت له مجموعة من الاهتمامات التي تجاوزت حدود الالتزام بالدراسة الرسمية في معهده - لكنه لم يسمح لهذه الاهتمامات وإن كانت جادة بأن تنسيه واجباته الدراسية ، أو تنثنيه عن الإيفاء في دروبها بكل قوته . كما أنه لم ينس حقه في الترويح عن نفسه من عناء الاهتمامات ، أو الواجبات الدراسية ببعض ألوان اللعب والمزاح البريء ، ومشاهدة بعض الأفلام السينمائية وغيرها

٦ - خشونة العيش :

وكثيرا ما كانت تفاصيل الحياة اليومية الخشنة تشقيه . فهو ونفر من زملائه يسكنون شقة رطبة ، تفوح رائحة العفونة من جدرانها ، يخترقون إليها عددا من الحارات والازقة لكي ينعموا بالإقامة فيها بعد انتهاء الدرس في كل يوم .. وفي هذه الشقة الرطبة كانوا يفتشون الحصر الذي يعزل أجسادهم عن البلاط المتآكل ؛ وكانوا يجتمعون حول مصباح « الكيروسين » لكي يستذكروا دروسهم - فإذا ما امتد بهم الليل وشعروا بوطأة الجوع قام واحد منهم إلى الشارع لكي يستحضر لهم ما يريدون من أغذية الفقراء المعتادة - الفول .. ومشتقاته وتوابعه من الطرشي والخضروات الطازجة فإذا عاد إليهم جالب الطعام جلسوا وأكلوه بالخبز الجاف الذي كانوا يحضرونه من قراهم . هكذا كان عيشهم الخشن الذي لا يخفف من مرارة تحمله إلا ورود بعض الاكلات الشهية أحيانا .. حيث كانت كل الأسر تحرص على القيام بتزويد أبنائها بمثل هذه الاكلات بين الحين والآخر

وكان الشاي الأسود هو الترفيه الذي يحرصون عليه - يشربونه عقب كل طعام ، يشربونه وهم يتضاحكون ، أو يتناقشون في بعض الأحداث التي تمر بهم . وربما ظلوا يشربون الشاي في بعض الليالي الباردة حتى يحين وقت النوم ..

عندئذ كانوا يتراصون متجاورين على الحصر ، وغالبا ما يتدشرون بأغطية مشتركة طلبا للدفء الذي يشيع من أجسادهم فيعينهم على احتمال برد الشتاء .

وعند الفجر كانوا ينهضون على صوت المؤذن ، ويخرجون إلى المسجد لكي يصلوا ، وفي المسجد كانوا يتوضئون بالماء البارد ولا يتأفون ، ويرجعون إلى مسكنهم لتناول الإفطار الذي لم يكن يتغير على مدار العام إلا قليلا .. فهو هو أفاطار كل يوم . وهو هو من نفس الطعام الذي يتناولونه في العشاء .. نعم نعم ، فكلهم فقراء وليس في مقدورهم غير ذلك اللون من الشظف في المطعم والمشرب والمنام .

على أن أعمارهم الفتية كانت العون الأكبر لهم على التحمل ، ناهيك عن أنهم كانوا يتطلعون إلى مستقبل ربما يعوضهم عن شدة البؤس التي يكابدونها الآن ، وكثيرا ما كان بعضهم يردد : لا بد دون الشهد من إبر النحل .

٧ - حدث خطير :

وخلال تلك الفترة من حياته التي اختلط فيها الجد بالهزل ، والمعاناة بالتحمل والأمل بالألم . لم يكن هناك شيء يستحق الاستحواز على تفكيره أكثر من أحاديث أستاذ التاريخ المثيرة ، وأفكار هؤلاء الشبان المهمومين بأمور الوطن

والدين إلى أن جاء يوم اهتزت معه كل مصر من أقصاها إلى أقصاها .. وكان هذا اليوم هو يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ .

في هذا اليوم وقف أستاذ التاريخ يدرف الدموع داخل حجرة الدراسة ، بينما كان يتحدث عن مصر التي ديست كرامتها بنعال الإنجليز المستعمرين .. وكان مجمل حديثه أن الجنود الإنجليز ذهبوا إلى القصر الملكي أمس . وحاصروه بالدبابات والسيارات المصفحة ، ثم أرغموا الملك على توقيع قرار باستدعاء حكومة الوفد .. حكومة يريدونها ويرغبون أن تساعد على الانتصار في الحرب بتوفير كل الضمانات اللازمة ، وخاصة الضمانات التموينية ، كان تأمين الامدادات يتطلب نوعا من القواعد والمرتكات التي يجب أن تحميها حكومة يثقون فيها .

وهكذا فرضت حكومة الفحاس باشا بقوة الحراب البريطانية ، وقال أستاذ التاريخ ان الملك وقع القرار وهو يبكي !! ولما تسامط الطلاب عن عدم ثقة الانجليز في غير من فرضوا اجاب الاستاذ أنهم يعرفون ان هناك الكثير ممن يتعاطفون مع أعدائهم .. هكذا جاءت الإجابة مبهمة غامضة ، ولم يحاول الطلاب ان يطلبوا زيادة أو تفصيلات . ربما لانهم كانوا يعرفون هذه الحقيقة من قبل .

المهم أن الحديث المثير من أستاذ التاريخ ، وملابسات الحدث الخطير الذي وقع ، والقلبان الفوري الذي شاع في الشعب ، كل ذلك حمل طلاب الأستاذ على المشاركة في المظاهرات التي اندلعت بدون تدبير أو ترتيب مسبق ، وخرج كل الطلاب يجوبون شوارع المدينة ، ويرفعون شعارات الاحتجاج المعادية للإنجليز . كما رفعوا شعارات التأييد بالملك والوطن . ونددوا بالجبن والعار والنذالة التي قبل بها حزب الحكومة التكليف بالحكم تحت تأثير الاعداد وبإملائهم . كانت هذه المظاهرات شيئا مبهما لنفسه : ففيها التقى بالعديدين من الشباب الذين كان يراهم في مقر الإخوان المسلمين . وفيها أفرغ الكثير مما يجثم على صدره ويكاد يخنقه وفيها رأى بعينه أن مصر بخير وأن لها من بنينا من يغار عليها . ويرغب التضحية في سبيلها ..

وهكذا اهتم بكل كلمة قيلت عن هذا الحدث الخطير . وتشوقت نفسه إلى معرفة بعض التفاصيل التي كان يتداولها الناس مستخفين لكنه لم يظفر بشيء يمكن التأكد منه - وكان حسبه أنه وجميع من يلقاها كانوا يشعرون بالأسى والحزن . لم يكن هناك مجال للحديث في كل مصر إلا عن هذا الحدث الذي مرغ الكرامة المصرية في الوحل . وظل هذا هو الواقع المرلمدة طويلة جدا .

ومنذ ذلك التاريخ تفتحت عيناه على أحداث السياسة ، يتابعها ، ويهتم بالتحليلات التي تدور حولها ، ويخوض حرب المناقشات فيها ، منتصرا لبعض المواقف والاتجاهات وكان الغالب عليه في تلك الفترة هو التحيز الظاهر ضد حكومة الوفد، وكثيرا ما كان يستند في مناقشاته إلى أدلة مستلهمة من منابع التاريخ والدين والأخلاق والعرف والتقاليد إلى غير ذلك : فهو لم يكن يتصور أن يتعارن وطنى واحد ولو لحظة واحدة مع من هم أعداء مصر . وكان في قرارة نفسه لا يستطيع فهم موقف . الزعيم الوطنى مصطفى الفحاس . فهو من وجهة نظر التاريخ ذو ماضٍ ثورى حافل بالتضحية ضد الانجليز وهو خليفة الزعيم الوطنى الخالد سعد زغلول !! فما باله اليوم يستخزى ويرضى بهذا العار الذى لحق بالوطن كله ؟!!

أمن الممكن أن يتغير الناس إلى هذا الحد ! وكثيرا ما كان يسمع من بعض المدافعين عن الحكومة أنه لولا قبول الوفد لتشكيل الحكومة لثم خلع الملك نهائيا وأعلنت الحماية على مصر - بيد أنه لم يكن يقتنع أبدا بمثل هذه الأقوال .

٨ - شيوع الإرهاب :

اتخذت حكومة الوفد بعد ذلك قرارا بإغلاق شعب الإخوان المسلمين فتعاضم استيأؤه ، خصوصا وان هذا

القرار جاء مقرونا بالقبض على العديدين من من الوطنيين المصريين من أمثال عزيز المصري وغيره من البارزين وكان من بين هؤلاء المقبوض عليهم نفر من الإخوان . وكان المعنى الواضح لهذا القرار - في وجهة نظره - أنه نوع من الحجر الظالم على تلك الدعوة الفاضلة . وعلى هؤلاء الشباب الذين يدعون بها رغبة في إصلاح أنفسهم وأهليهم . وكل مناحي الحياة التي ينخر فيها الفساد

وفهم الجميع آنذاك أن إغلاق شعب الإخوان المسلمين إنما تم إرضاء لرغبات الانجليز . وبإملاء منهم ؟ بعد ذلك تسرب الخوف إلى قلبه فكف لسانه عن المجاهرة بسخطه . وقلت مشاركته في المناقشات السياسية التي كانت هوايته التي يفرغ عن طريقها جميع الشحنات الغاضبة التي تتأجج في صدره . وهكذا عاش فترة من الصمت والحذر والتقرب . والإنكفاء على الذات . لا يكاد يظهر عليه الاهتمام بالإيدروسه التي يتلقاها عن أساتذته الذين كفوا مثله عن التعليقات السياسية .. حتى استاذ التاريخ البطل لم يعد يستطيع التحريض الذي كان يمارسه في كل درس من دروسه السابقة !!

عندئذ امتلا قلبه بالحرر . ورأى عمليا كيف يصنع سيف الأحكام العسكرية المصلت على رقاب الجميع .. إن بعض زعماء مصر لم تعصمهم زعامتهم من الاعتقال ، وكذلك الأمر بالنسبة لكبار القادة العسكريين . الأمر الذي أحل لغة الهمس محل الصوت العالي ، فالناس لا يتحدثون إلا سرا ، وفي احتياط شديد . وكانت كل الأحاديث الهامسة تمتلئ بالسخط على الإرهاب والبطش بالأبرياء . خصوصا وقد واكب ذلك لون من الضيق والعسر في حياة جميع المصريين ، نتيجة لتسخير كل الموارد التموينية في خدمة أغراض الحرب

وهكذا امتزجت الهموم الوطنية بالهموم المعيشية . واختلطت مآسى الحرب بمآسى الخبز الأسود ، والتقتير في توزيع السكر والأقمشة والزيت وغيرها ، ونتيجة لهذا الاختلاط فإن الكثيرين قد راحوا يتخبطون في ظلمات رهيبة ، ولم يعد أحد يستطيع أن يرى أية فرصة من فرص الخلاص . وفي ظل هذا الجو المقبض بدأت تتولد الاتجاهات الواعية الى الرد على الإرهاب بأرهاب مماثل .. إرهاب يقوم به البعض ليخاف المجرمون . واستمع في بعض لقاءاته إلى هذه الأفكار بخوف واستحسان .. أما الخوف فلأنه لا يعتقد أن نجاح مثل هذا الإرهاب الفردي مضمون ، وأما الاستحسان فلأن في شباب مصر من لديه روح المخاطرة عند اللزوم ، ولكنه بعد ذلك تراجع عن هذا الاستحسان وقال إنه إذا كان بعض الوطنيين قد مارسوا الإرهاب في الماضي ضد الانجليز في ثورة سنة ١٩١٩ من خلال « اليد السوداء » ، فإن ذلك لا يجب أن يقاس عليه الإرهاب الذي سوف يمارسه المصريون ضد المصريين !!

ودخل من أجل ذلك في عشرات من المناقشات .. وعندما كان يحرجه مناقشوه ويطلبون منه البديل عن الإرهاب الذي يستكره فإنه لم يكن يجد بديلا .. فقط كان يقول لابد من يوم يقوم فيه الشعب قومة رجل واحد !! وعندما كان يسأل سائلوه ومتى هذا اليوم ؟ فإنه كان يقول : أنهم يرونه بعيدا وتراه قريبا . ذلك لأن حالة التملل المكثوم ليست حالة خاصة . وإنما هي حالة عامة .. ومادام الأمر كذلك فإنها سوف تتحول إلى تملل ظاهر وواضح .. بل إنها سوف تتحول إلى انفجار عارم يخلصنا من الاحتلال وكل آثاره .

كانت تلك الأفكار أفكاراً وهلية لا تستند إلا إلى الاحساس ولا تقوم إلا على المجازفة .. فهو بعد لا يزال شابا ناشئا . ومعلوماته عن الدنيا ، والحياة السياسية ، وصنع التاريخ لاتكاد تكفي لتكوين وجهة نظر كاملة يستطيع أن يركن إليها وهو يحاول الإقناع أو الإقتناع . ومن ثم تحول إلى باحث يحاول أن يجد من الحقائق ما يؤمن خطأه . فهو في المناقشات يستقبل أكثر مما يعطى . وهو إذا قرأ يسأل من يعرف عن بعض ما يقرأ .. وهو إذا جلس في مجالس الكبار من أساتذته أو حتى أقربائه يطيل الإصغاء إل ما يقال .. كل ذلك رغبة في التعرف على حقائق الموقف المرتقب بالنسبة لمصر .. واستمر على تلك الحال مدة طويلة إلى أن أذن الله باقتراب خمود نار الحرب

الفصل السادس

أشواق التحرر

١ - عودة المهاجرين :

بعد عامين من الهجرة ، وقعت الهزيمة التي منى بها الألمان في معركة العلمين ، بالصحراء الغربية لمصر ، وتداعت على دول المحور في كل الجبهات آثار تلك الهزيمة ولاحت في الأفاق بوادر النصر للحلفاء الذين كانوا يشكلون جبهة تكاد تستوعب معظم دول وشعوب العالم .

حينئذٍ اطمأن المسئولون وبدموا يسمحون بعودة المهاجرين إلى الإسكندرية ، فعاد إليها مع العائدين من طلبة المعهد الدينى الأزهرى .

إنه الآن شاب اشتد عوده ، وقويت بنيته ، وتكون له رصيد من الفهم والمعارف . ذلك لأنه ومنذ غادر الإسكندرية مهاجراً كان يمر بالعديد من التجارب الغنية ، فضلاً عن أن اهتمامه بالسياسة قد جعل منه قارئاً جيداً .. يتابع الصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية . وبخاصة أثناء الإجازات الصيفية التي كان يلتقى معها بأستاذه الواعظ الصديق ، وكثيراً ما كانوا يستمتعان معا بالتأملات والتعليقات الخصبية على ما يقرآن . وهناك في القرية لم يكن يوجد الخوف من السلطة المعتاد في المدينة ، فكانت المناقشات السياسية متاحة ، والالتقاء على كراهية السلطة التي لا تحل أزمات الناس أمراً جدياً مألوفاً .

وخلال هذه الفترة كان عاد إلى الإسكندرية شخصاً آخر غير ذلك الشخص الذى تركها منذ سنوات . إنه الآن في المرحلة الثانوية ، ورؤيته للأمور في مجملها تقوم على نوع من الفهم والإدراك . قبل أن تقوم على الحماس والعاطفة . صحيح أن ضميره لم تزل تدميه تلك الجراح التي خلفها يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .. لكنه الآن يستطيع أن ينطلق من أحداث يومه وليس من أحداث الأمس فالمدينة التي عاد إليها تموج بالآلاف من جنود الاحتلال في معظم أوقات النهار أو الليل ، وهؤلاء الجنود يرتكبون من الجرائم في حق المصريين ما يكفى لإثارته والاستنثار بكل تفكيره . فهو كغيره يجرى ويسمع عن خطف الفتيات المصريات في وضع النهار والانطلاق بهن في سيارات الجنود إلى حيث لا يعلم إلا الله !! وهو كغيره يرى ويسمع عن جرائم السكارى من هؤلاء الأندال الذى يقومون بأعمال قطاع الطرق في الليل !! وهو كغيره يرى ويسمع عن اختطاف أغلبية رؤوس الجنود المصريين لكى يمسح بها هؤلاء الأوباش أذيتهم ثم يطوحون بها . أو يركبونها بأذيتهم أمام الجميع !! وهو كغيره تبعاً لذلك كله كان يقفل كالرجل ، ويتمنى لو انشقت الأرض فابتلعتة حتى لا يرى أو يسمع شيئاً من ذلك كله .

ولقد كان يثلج صدره ما يراه من حمية المصريين الذين كانت تستفزهم مثل هذه الحماقات فيندفعون في تلقائية محببة للاضطهاد بهؤلاء الجنود ، والانتقام منهم .. صحيح أن هؤلاء المصريين كانت تقبض عليهم سلطة الشرطة . وتتولى الزج بهم إما في الأقسام أو السجون والمعتقلات ، ولكن ذلك كان يرضى نفسه ، ويفرجه أن يصنع نفس الصنيع غير أنه لم يكن يتحسر أبداً .. ربما لأن تكوينه التحليل كان يوحى إليه بأن لن يقوى على الاحتمال .

٢ - المحامى الوطنى :

وفى صباح يوم من تلك الايام المليئة بالتقلبات والاحداث ، وبينما كان هو فى طريقه إلى المعهد الذى يدرس فيه ، توقفت مركبة الترام فى ميدان « المنشية » ، ولحظ أن زحاما شديدا يملأ الميدان ويعوق المرور فيه ، فأسرع بالنزول من المركبة لكى يستوضح الأمر وفجأة وجد نفسه أمام خطيب يقف فوق كرسى وقد استبد به الحماس ، وراح يشرح للجمهور صورا من العريضة التى يمارسها الجنود الانجليز ، وكيف أنهم بالأمس قتلوا عددا من المصريين وهم سكارى بشارع السبع بنات ، وبقهوة الإسعاف التى نحن امامها الآن - لقد دخلوا الى المقهى وجردوا كل من فيه من نقودهم - ثم استدأروا الى صاحب المقهى فأخذوا كل ما معه وقتلوه !! وارتفع صوت الخطيب وهويئدد بتلك الجرائم البشعة ، ويطالب بالتصدي والتحدى الجماهيرى لهؤلاء المجردين . مادامت الحكومة لا تقدر على شيء تفعله . ثم ارتفع صوته مرة أخرى وهويقول للمواطنين هذا هو الدم المصرى المستباح .. يأتى الجنود السكارى وهم مسلحون عند منتصف الليل ، ثم يمارسون جرائم النهب والسلب والقتل وبعد هذا ينصرفون وهم يتضحكون ويرقصون !! أين مسئولية رجال الأمن من المصريين ؟ اليسوا مسئولين عن حماية ارواحنا ، ماهى الإجراءات التى اتخذوها لمنع هذه الجرائم ؟ لماذا لا يطالبون البريطانيين بردع جنودهم - أو بتجريدهم من الاسلحة عند النزول إلى المدينة ؟ ما هذا الخذع والذل ؟ ما هذا التخاضل والتفريط ؟ إنها والله لمأساة ولن يردعها إلا سواعد الشعب المتحدة - فليسقط التخاضل والاستخزاء .. ولتحي الحرية والاستقلال ..

وانطلقت عاصفة مدوية من التصفيق لكنها لم تستمر سوى لحظات قليلة - بعدها هجم ضباط البوليس السياسى الذين كانوا قد حضروا منذ قليل ، والقوا القبض على عبد الفتاح كرشاه المحامى وهويقول : مرحبا بالموت أو بالاعتقال أو بأى شيء شئتم فقد قلت كلمتى وانتهى الأمر .

شعر نحو هذا المحامى بشعور جارف من المحبة والإعزاز . ودهش فى نفس الوقت لأن أحدا من جمهور المصفيين لم يقدر على الدفاع عنه وتخليصه من القابضين عليه ، بل إنه اغتم غاية الغم لأن أحدا من زملائه المحامين الذين كانوا يرقبونه من نوافذ المحكمة لم يجرؤ على التضامن معه . مجرد التضامن ولو من بعض المحامين كان مطلوبا فى هذه اللحظات ولكن للأسف !!

وهكذا أمر ضباط الشرطة بالتفرق ، فانصرف الجمهور كل إلى حال سبيله ، وانصرف هو إلى معهده - وحاول التنفيس عما بداخله من خلال التحدث الى بعض زملائه - وكانوا يبهتون وهم يستمعون إليه .. ولكنهم لم يستطيعوا حتى التفكير فى أى شيء يمكن عمله .. واكتفى كل منهم بالتعليق اليأس الناظم على السلطات التى لاهم لها إلا إرضاء المحتلين .

٣ - لقاء مهم :

وهكذا تراكمت على صدره الهموم والاحزان ، وازدادت عليه وطأة الشعور بالعجز والقهر ، وتمنى لو استطاع أن يفعل شيئا من أجل الثار لوطنه ومواطنيه : وجد نفسه يسأل عقله فى إلحاح بالغ . ألا يوجد آخرون لهم نفس الاهتمامات التى ترهقنى ! أمن المعقول أن أكون وحدى الذى يتلمس طريقه لكى يقوم بعمل وطنى جاد ؟ وإنه لفى هذه اللدومة من التفكير الذى لم يبرح ذاته إلا مع صديق واحد يثق فيه . إذ تعرف على أحد أعضاء حزب مصر الفتاة - وكان هذا العضو هو الشاب المعروف عبد القادر عامر .. تعرف عليه واكتشف فيه إرادة فولاذية كان يتمنى لو تحلى بشيء منها ..

وجد في عبد القادر ضالته المنشودة . فتفاهم معه بسرعة خاطفة ، وتبين لهما أنهما يستطيعان التعاون في عمل أى شيء يخدم الوطن .. ومن خلال هذا التفاهم ثم الالتقاء ببعض الشبان الذين كانوا على نفس الشاكلة .. وفي هذا الالتقاء قرّروا قرارهم . واجتمعت إرادتهم على القيام بعمليات إرهابية ضد عريضة الجنود السكارى ، وليكن ذلك عن طريق الحصول على متفجرات ، يتم تفجيرها في الطرق التى تعودوا السير فيها ، وفي الكاباريهات والمحلات العامة التى يرتادونها .

وتكونت من الجميع لجنة تحصنت بالسرية المطلقة ، وتوزعت الأدوار فيما بينها فهذا دوره الحصول على المتفجرات ، وهذا دوره تأمينها ، وثالث دوره رسم خطة العملية وعرضها قبل تنفيذها ، وهذا دوره قيادة التنفيذ . وهكذا .

وكان الدور الذى أسند إليه دورا ثانويا جدا .. مجرد استطلاع الطرق والأماكن التى يتجمع فيها هؤلاء الجنود - وتحديد الليالى التى يكثر فيها والليالى التى يقلون . وحاول الحصول على دور أكبر من ذلك ولكن محاولته باءت بالفشل .. وعندئذ امتثل وقنع بهذا الدور الثانوى وهو يكاد يبكى من الألم .

٤ - عمليات ناجحة :

وبعد فترة غير طويلة من هذا القرار الذى اتخذته نفر من الشبان « الأغوار » كما كانت بعض الأقسام تنعتهم آنذاك ، بدأت العمليات المتفق عليها ، وبمعدل عملية واحدة كل عشرة أيام . وأخذت السلطات المصرية تلتفتعن شوارع المدينة جثث الضحايا والمصابين من الجنود السكارى ، فالأمر لم يقتصر على المتفجرات بل تجاوزها إلى استعمال المسدسات والخناجر . وكانت ظروف طوارئ الحرب عاملا مساعدا على تنفيذ تلك العمليات ، فالإضاءة كانت قليلة ، ومعظم الشوارع والميادين يسودها الإظلام التام ، وهكذا انقلبت الصورة ، وأصبح الذين كانوا يفرعون من هؤلاء الجنود هم الذين يفرعونهم ويحولون الكثيرين منهم إلى ضحايا مجندين في الطرقات !!

وعجزت السلطات المصرية عن توفير الحماية لهم ، أو القبض على الذين يقومون بتلك العمليات ضدهم .. وبعد أن تكررت تلك العمليات لم تجد سلطات الاحتلال أمامها إلا عدم التصريح للجنود بالنزول الى المدينة ليلا على الإطلاق .

وبهذا تأكد القائمون بهذه العمليات من نجاحها ، ووصلوا إلى الاقتناع بأن تحرير الوطن لن يكون إلا بقوة السلاح .

٥ - منعطف طارىء :

ونشب في تلك الفترة نوع من الصراع الحاد بين الأزهريين وحكومة الوفد . أدى إلى اعتكاف « المرأغي » شيخ الأزهر آنذاك في منزله . وهنا ثارت ثائرة الطلاب وأساتذته الأزهر في كل أنحاء مصر . فأعلنوا الاضرابات . وقاموا بالمظاهرات ، وقبضت السلطات على أعداد منهم وألقت بهم خلف أسوار المعتقلات . وكان من بين هؤلاء الذين قبض عليهم شيوخ وأساتذة أجلاء .

عندئذ وجد نفسه منعطف بكل نشاطه وحيويته لكى ينغمس في معمة هذا الصراع . ذلك لأن حكومة الوفد - من وجهة نظره - حكومة مفروضة على البلاد بأمر من الإنجليز الذين هم سبب كل البلايا والنكبات التى تصيب الوطن وأهله من ناحية . ولأن شيخ الأزهر الذى تحاربه الحكومة ليس إلا واحدا من أصحاب المواقف المشرفة ضد

سلطات الاحتلال الانجليزى منذ كان قاضيا في السودان من ناحية أخرى
ومن ناحية ثالثة فإن حكومة الوفد هي التي اتخذت موقفا عدائيا من جماعة الإخوان المسلمين ارضاء لسادتها
المستعمرين .

لكل هذه الأسباب ، وربما لأسباب أخرى غيرها وجد نفسه ينطلق لى يصبح في طليعة المناوئين لهذه
الحكومة .. فأخذ يتصدى لقيادة الإضرابات والمظاهرات . وانعقدت له بسبب ذلك صلات حميمة مع زعماء الطلبة
الازهرين من خارج الاسكندرية . وتم القبض عليه بسبب بعض تلك الصلات وتعرض للمساطة أمام البوليس
السيسى لأول مرة في حياته .

ثم تطورت الامور بعد ذلك فصدر قرار بفصله وآخرين من المعهد ، والعجيب أن هذا القرار لم ينل من
معضولتهم فذهبوا إلى المعزل الذى عزلتهم السلطات فيه ، وكتبوا على باب الجناح الذى ينزلونه « حجرة الزعامه » .
ومن هذا المعزل كان ينزل كل يوم متنكرا في زى مختلف عن زى اليوم السابق . فهو تارة بائع للصحف
اليومية ، وهو مرة أخرى عامل من عمال بلدية الاسكندرية ، وهو ثالثة واحد من أبناء الاعيان في الريف .. وإنما كان
يفعل ذلك لى يضلل مراكز الحراسة التى أقيمت حول المعهد ، ولكى يبلغ التعليمات التى يجب أن يتبعها طلاب
المعهد ..

واستمر يقوم باتصالاته ، وتنظيم حركات الإضراب ، والاحتجاجات البرقية على أعمال السلطات الحكومية
حتى اقتربت المواعيد الخاصة بامتحانات آخر العام .

هنا انقسم الطلاب على أنفسهم .. فالبعض يحبذ الاستمرار في الإضراب حتى تجاب المطالب . والبعض يطلب
العول عن الإضراب تمكينا للطلاب من الاستعداد للامتحانات . وكان هو مع الرأى الاول لا يرى في العول عن
الإضراب إلا إعلانا للافلاس أمام الحكومة ، وتنازلا عن المطلب الاساسى للحركة الطلابية وهو عودة شيخ الازهر إلى
الكرسى الذى تركه منذ شهر .

وللخروج من مأزق الانقسام رأى الجميع أن يستطلعوا رأى « المراهي » شخصيا . وكلفوه هو أن يقوم
بالاتصالات اللازمة للحصول على رد يهدون به .

٦ - موظفان في شركة الألبان :

قبل هذا التكليف ، ولكنه لم يعرف الطريق إلى تنفيذه ، وظل يتردد حتى وافته فكرة اصطحاب صديقه الاثير الى
نفسه في تلك الفترة وكان زميلا له .. ورسم الخطة على اساس أن ينطلقا إلى خارج الاسكندرية ، ثم يبيتان عند
أقربائه بالقرب من « عزبة » ، المراهي ، القريبة من « خورشيد » ، ومن هناك يذهبان في الصباح لمقابلة الشيخ - على
أن يكونا متنكرين في زى غير ازهرى لكيلا يلفتا الانظار إليهما . وبالفعل قاما بتنفيذ تلك الخطة . وذهبا في صباح اليوم
التالى مشيا على الأقدام حتى بلغا مشارف المزرعة التى تقوم في طرفها فيلا أنيقة ينزل فيها شيخ الازهر - عندئذ
اقتريا من أحد العاملين بهذه المزرعة وأخبره أنهما موظفان في شركة الألبان . وقادمان للتعاقد على شراء ألبان
المزرعة ، ويريدان مقابلة الشيخ من أجل هذا الغرض .

فتح لهما العامل باب « الفيلا » ، وجلسا ينتظران قدوم الشيخ الذى كان يتفقد أحوال المزرعة إزجاء للفراغ
الذى كان يعيش فيه . وما هو إلا وقت قصير حتى قدم الشيخ وكان قارع الطول ، ومهيب الطلعة . يمشى الهوينى
كثته يدل على الدنيا بمشيته .

سلم الشيخ عليهما وهو لا يعرف إلا أنهما من موظفى شركة الألبان . ثم انتحى بهما جانبا ، وجلس إليهما

بعد أن هتف بخادمه أن تحضر الشاي

وقبل أن يسأل الشيخ عن الغرض من هذه الزيارة بادره مشير إليه وإلى صديقه : نحن طالبان من معهد الاسكندرية الأزهرى .. جئنا لاستطلاع رأى فضيلتكم فيما إذا كنتم سوف تستجيبون لرغبة أبنائكم الإجماعية . وتعودون إلى مركزكم منهم أم لا ؟ ذلك لأن نهاية العام الدراسى أصبحت وشيكة ، والطلاب يخشون أن تصبح جهودهم سدى إذا استمر إصراركم على البقاء بعيدا عن قيادة الأزهر .

هنا أغمض الشيخ عينيه - وكانت تلك عادته إذا تكلم - وقال : يا بني أنا قدمت استقاله مسببة إلى جلالة الملك .. وأنتم طلاب لا يجوز لكم أن تلجئوا إلى العنف وأعمال التخريب كما حدث في بعض المعاهد .. كما أنه لا يجوز لكم أن تضيعوا على أنفسكم عاما من أعوام عمركم دون أن تحصلوا العلم ، وتنجحوا في الامتحان .. لقد سمعت عن حرائق أشعلها البعض في المباني التى يدرسون فيها .. وهذا ولا شك خروج عن النظام ، وينطبق عليه قول الله تعالى : « يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي الذين .. ولم يكمل الآية بكلمة كفروا كما هى في القرآن الكريم وإنما قال مبتسما .. آمنوا » ..

ثم عاد إلى موضوع الاستقالة وقال إنه يرفض إعلان نيته فيما يتعلق بالرجوع عنها ولوطالت المحاولة معه شهرا بأكمله !!

وعلى الفور قال الطالب : وما الموقف إذا لم يقبل جلالة الملك تلك الاستقالة ؟ حينئذ اعتدل الشيخ في جلسته ثم قال : مولاي فاروق إذا أمرنى بالذهاب إلى مكتبى فسوف أذهب فوراً ..

وهنا ظهرت أمارات الفرح على وجه الطالب الشاب وقال : يكفيننا ذلك .. لكن الشيخ لم يتركه بل سأل في رفق عن اسمه - فلما علم منه ما سأل عنه هش وبش وظهرت أمارات الفرح على وجهه هو . فقد كان يسمع من حواربيه عن النشاط والاخلاص للذين كان يتحلى بهما . فضلا عن أنه كان قد تلقى منه قصيدة تحمل التأييد للشيخ والتنديد بخصوصه .

فهم الطالب الشاب في هذه اللحظة أن سحابة الشك التى خيمت عند أول اللقاء قد انقشعت ، وحلت محلها أضواء الثقة والأطمئنان .

عندئذ استأذن الطالبان للانصراف فأذن لهما بعد أن ألح في استبقائهما إلى موعد الغداء .

٧ - دروس جديدة :

من خلال هذا الصراع الأزهرى الذى تقلب فيه ولادة عام كامل . تعلم عددا من الأشياء التى لم يكن يتسنى له التعرف عليها من قراءة الكتب ؛ فقد أضحت الحكومات في نظره كائنات يمكن أن تخطئ . وأن تتم معارضتها وشن المعارك عليها - فقط يجب أن يكون المكافحون ضد الحكومات على وعى كامل بمطالبهم ومتحدين فعلا من أجل تحقيق تلك المطالب .. وليس من المهم بعد ذلك أن يكون هناك بعض المخالفين لرأى الجماعة ؛ فهؤلاء يمكن إبطال أثرهم بقوة الاندفاع الجماعية .

عرف ذلك من خلال تعايشه مع موقف اللجنة الوفدية التى تشكلت لكى تكون تيارا مناوئا هدفه تأييد الحكومة .. لقد تعايش مع هذه اللجنة الحكومية التى نشرت بيانا في إحدى صحف الوفد يتضمن الإدانة لحركة الطلاب الأزهريين . ويشيد بالموقف العظيم لحكومة الوفد الممثل لكل الأمة !!

وعندما ثار الأزهريون ضد هذه اللجنة وحاولوا الانتقام منها وقف هو ناصحا لزملائه بالابتعاد عن طريق الانتقام . مؤكدا لهم أن أثر هذا البيان لن يتجاوز صدور ناشريه .. ويكفى هذا الغضب الذى جلبه عليهم .

ومن الدروس الجديدة التى تعلمها أيضا أن قوة الإدارة هى العناد الذى يجب أن يعتمد عليه أصحاب الحق فى مواجهة السلطات ، وأن التهديد والوعيد ، والنفى والاعتقال كلها أسلحة مغلولة أمام قوة وصلابة الإرادة .
ووقر فى ذهنه منذ ذلك الوقت أن الإرادة القوية هى الوقود الذى تندفع به تحركات الجموع ، وأن تحركات الجموع أقوى من كل صور البطش والإرهاب
وإلى جانب كل ما سبق فإنه تعلم كيف يقيم العلاقات مع الآخرين خارج الإطار المحدود للمعهد الذى يدرس فيه .. ومنذ ذلك الوقت أخذت حركة وجوده فى النمو من خلال الارتباطات والعلاقات السياسية ، وظهرت عليه بعض ملامح الاعتداد بالنفس ، وعندما أحس بتميزه عن الأقران المحيطين به بدأ يتطلع إلى مصاحبة الكبار وبالفعل أمكنه أن يصير صديقا لأكثر من واحد من الأساتذة الأصفياء

٨ - ليالى الثقافة :

عاد الى القرية فى عطلة الصيف كما تعود مشتاقا إلى رؤية الأهل والأحباب ، وكانت له فى تلك القرية من خفق لها قلبه ، واستقرت فى وجدانه . وعاشت فى أحلامه منذ شهور طويلة كأنها الدهور - عاد وفى حقيقته لها بعض الهدايا المخفية بين طيات الكتب والمجلات التى كان يجتلبها ليقراها فى ليالى القرية الممتعة .
وما إن بلغ داره حتى تهافت عليه المرحبون بمقدمه فحياتهم ، وجالسهم ، وسمع منهم وأسمعهم فلما انصرفوا عنه كان أول شيء يعمل به هو حمل تلك الهدايا الى فتاة الأحلام التى كانت تنتظره على أحرم من الجمر .. وهناك سعد بفرحة اللقاء وغمرته الفرحة من شتى جوانبه ..
وبينما هو ناغم النفس ، منشراح الصدر ، مذهول بما هو فيه عن كل ما حوله جاء اليه من يدعوه للقاء والده فأسرع على غير رغبة منه بعد أن وعد بالعودة مرة أخرى ومرات .
وهناك فى دار الوالد أبصر أستاذه الواعظ فاهتاجت خواطره ، واضطربت روحه بشتى المعانى الطيبة .. وسلم وجلس معبرا عن مكنون مشاعره تجاه هذا الصديق الرائع ..
كان وجود الواعظ فى داره مفاجأة له أذهلته للحظة عن وجود والده فى نفس المكان .. لكنه ما لبث أن تنبه واعتذر ..

وبعد المجاملات المعتادة بين كل صديقين يلتقيان بعد فراق . بدأ يتحدث على سجيته عن مغامرات هذا العام . والصراع الطويل الذى خاضه ضد الحكومة من أجل الأزهر .. وأخيرا عن اللقاء الذى توج مرحلة طويلة من القلق والخوف وكان يقصد بهذا اللقاء ما تم للموظفين المندوبين عن شركة الألبان .

كان يتحدث عن كل ذلك وفى صوته نبرة الفخرورين الاعتزاز بالنفس وكأنه الفارس القادم من ميدان القتال لم يسترح الأستاذ الواعظ إلى ظهور هذه المظاهر على تلميذه . ومع ذلك فإنه لم يخف عليه إعجابه المتزايد بشخصيته التى بدأت تنضج .. ودعاه بكل الاحترام والتقدير إلى استئناف ليالى القراءة .. وهنا قدم التلميذ ما أحضره من الكتب ، من أجل تلك الليالى .. كما قدم الشيخ أيضا ما حرص على استحضاره لنفس الغرض .
وكان أهم ما اتفقا على قراءته أعمال المرحوم مصطفى صادق الرافعى .. ونظرا لأن الكم المطلوبة قراءته كان كبيرا ، فإنهما رسما خطة تعهدا بتنفيذها ، وكان المبدأ الحاكم لتلك الخطة هو الهروب من الأقرباء والأصدقاء معظم الليالى .

ولكى يتم لهما تنفيذ خطة الهرب هذه فإنهما كانا ينامان طيلة النهار ، ولا يصحوان الا عند العصر من كل يوم .. يصحوان فيذهبان معا إلى ناديما تحت شجرة « الجميز » المعهودة حيث يحضر اليهما أحبابهما ، ويظلان

معهم حتى تحين صلاة المغرب . وكثيرا ما كانت تتم في هذا الوقت من كل يوم قراءة الصحف اليومية ، والمجلات الأسبوعية في هذا النادى المتواضع الجميل حيث الهواء الطلق ، ورائحة النباتات المنعشة في الحقول . وبساطة المجلس على قش الحلفاء المعد للصلاة

وهكذا كانت تمضى أصائل أيام الصيف في القرية ، قراءات ومناقشات تنتهى بصلاة المغرب ثم ينصرف الجميع الى منازلهم .. وبعد العشاء كان يلتقى الاستاذ وتلميذه ثم يذهبان إلى صلاة العشاء في مصلى آخر بعيد - ومن هناك كانا يتخذان طريقا دائريا يعودان معه إلى منزل الطالب الشاب في شبه تخف عن الأعين التى ترقبهما . فاذا ما استقر بهما المجلس وضعا بينهما مصباح الكيروسين . واسند الشيخ رأسه إلى وسادة . ثم بدأ الطالب يقرأ من حيث انتهيا أمس . وما يزالان على هذا الحال لا يقطع عليهما حبل الاستمتاع بالقراءة غير ما يقدم لهما بين الحين والآخر من أكواب الشاي أو غيرها من المشروبات .

وتأكيدا لهذا الاستمتاع الرائع فإنهما كانا يناقشان ويحاوران أفكار الكاتب الذى يقرءان له .. وفى عديد من الأحيان كانا يختلفان في الرأي . ثم يعودان الى التصالح حول فهم مشترك . وكانت الليالى الثقافية هذه تستمر على تلك الصورة حتى يؤذن للفجر فيقومان الى صلاتهما ، ثم يأوى كل منهما الى فراشه لكى ينام .

٩ - إقالة الحكومة :

بعد أنتهاء هذا الصيف الثقافى الممتع . رحل الشيخ عن القرية على أمل الالتقاء بتلميذه بعد اسبوعين اثنين في احتفالات المولد السنوى للسيد البدوى . وكان التلميذ معتادا الذهاب لتلك الاحتفالات وبخاصة في ليلة المولد الأخيرة من كل عام

وهكذا جاء الموعد فانطلق التلميذ في إحدى السيارات الذاهبة إلى « طنطا » وأخذ وهو في طريقه يرسل حبل الأمانى العذاب من رؤية استاذ الصديق - إلى الانس بأبناء عمه المقيمين عند شيخ العرب السيد . إلى معابثة الدراويش ومحاولة اكتشاف بعض أسرارهم . إلى الاستمتاع بالولائم السخية .. الخ ..

وإنه لفارق في تلك الأمنيات وإذا بصوت بائع الصحف يصبح .. إقالة حكومة الوفد .. إقالة حكومة الوفد .. لم يصدق أذنيه ، وامتدت يده بقرش واحد الى البائع فأعطاه صحيفة الأهرام التى نشرها أمام عينيه ليطلع في صدرها تلك العناوين المثيرة : إقالة حكومة الوفد المشاورات الخاصة بتأليف الحكومة الجديدة تنتهى اليوم . نص خطاب الإقالة الخ

امتز لهذا الخبر المثير كل كيانه ، وبدأ يقرأ خطاب الإقالة الذى كان صورة من صور الثار لما وقع بالقصر الملكى منذ سنوات .

« لما كنت حريصا على أن تحكم شعبى حكومة دستورية تنفذ روح الدستور الصحيح وتعمل على توفير الغذاء والكساء لجميع أبناء الشعب . فقد راينا إقالتكم .. شاكرين لكم ولجميع زملائكم الوزراء ما قمتم به خلال توليكم الحكم ..، فاروق .

كان هذا الخطاب الصاعق موجها إلى مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة . وشعر عند قراءته بأنه خطاب إدانة للحكومة من زاوية تفريطها في الالتزام بالدستورية من ناحية ، وفشلها في تدبير أمور الغذاء والكساء للشعب من ناحية أخرى .

تهللت نفسه عندما قرأ هذا الخطاب ، وأحس بأن معارك الأزهرين خلال عام كامل قد تكلت بالنجاح . ولفرط

مشوته بما قرأ فإنه قد سى . طنطا . وتمبياته النى كانت تستغرقه منذ لحظات . وشرود ذهنه إلى مظاهر السعادة التى عليها الآن كل اصدقائه الدير شاركوه أمل الانتصار على تلك الحكومة . وبررت أمام عينيه صورة الشيخ الأكبر ، وما عساها ان تكون الآن .. وفكر كثيرا فى الكيفية التى بها يستطيع أن يقتسم السعادة التى تغمره مع بعض الناس ..

ولاول مرة فى حياته يظن عقله إلى أن السعادة الحقيقية لا يستطاع الاستمتاع بها إلا عن طريق المشاركة فيها .. ولكن كيف ؟ الأصدقاء فى عطلة وتوزعهم المدن والقرى المتناثرة فوق ارض الوطن .. وهولن يستطيع الالتقاء بأحد منهم الآن .

ولعت فى ذهنه فكرة الذهاب إلى الشيخ الأكبر بمنزله فى حلوان . لكنه توقف قليلا قبل أن يقدم على تنفيذ تلك الفكرة .. فهو الآن لا يلبس الملابس الرسمية اللائقة وإنما يضع فوق رأسه طربوشا ويلبس جلبابا صوفيا كأنه أحد أعيان الريف ..

وفى أثناء توقفه عن تنفيذ تلك الفكرة مالت نفسه إلى استبدال برقية تهنئة بها . وبالفعل دخل إلى مكتب التلغراف وكتب البرقية وسلمها للموظف المختص .. ومضى يريد الوصول الى مسجد السيد البدوى ولكنه لم يفعل وإنما توقف من جديد .. وأخيرا حسم التردد وانطلق إلى القطار الذاهب إلى القاهرة وعندما أصبح فى القطار راودته بعض التصورات المزعجة .. إن الشيخ الأكبر يسكن فى ضاحية حلوان وهو لم يسبق له الذهاب الى هذه الضاحية من قبل . كما أن كل معلوماته عن القاهرة جد قليلة وقد لا تسعفه فى الاستدلال على طريقه الذى يجب أن يسلكه بعد الوصول اليها ..

وهكذا بدأت تلح عليه فكرة الاحتيال إلى غرضه بالسؤال عن المواصلات التى تذهب إلى حلوان .. ومال إلى أن يسأل بعض ركاب القطار حتى لا يبدو أمام القاهريين ريفيا ساذجا لا يعرف طريقه فى المدينة . ومن حسن حظه ان من سألها كانت حلوان وجهته التى يريد

١٠ - فى حلوان

نزل من القطار فى صحبة دليله . وانطلق معه حتى بلغا الغرض الذى يقصدانه هناك افترقا وسار هو شبه مدهول ، هذه اذن هى « حلوان » التى كان يسمع أن بها مصحة للمصدر منذ جاء اليها بعض مرضى قريته فى الماضى !! ولكن أين منزل شيخ الأزهر ؟ قال له البعض ، اصعد شمالا فصعد ولكنه لم يصل الى شيء ، فعاد أدراجه وسأل مرة أخرى فقليل له اصعد جنوبا فصعد ، وتكررت الصورة السابقة .. إلى أن أخذ بيده شيخ مجرب ولم يتركه إلا امام « الفيلا » الخاصة بشيخ الأزهر !!

كانت هناك عشرات السيارات الفارهة تزحم نهر الشارع . وكانت بوابة « الفيلا » تموج بالداخلين والخارجين من كبار رجال مصر ، وكان المستقبلون والمدعون يظهرون فى مظهر أرستوقراطى بالغ التأثير . والكلمات المتبادلة بين هذا الموج الصاخب . أهلا يا باشا مع السلامة يا بيه . مرحبا يا صاحب الفضيلة الخ الخ . انكمش الطالب على نفسه . وتضايل كيانه الهزيل .. أين يذهب فى هذا الزحام المملوء بالأكابر ؟ .. وحدثته نفسه أن يعود من حيث أتى . ولكنه استهول الرجوع دون أن يحقق الغرض الذى جاء من أجله . فاستجمع أطراف شجاعته ، وأقدم نحو حارس البوابة مندفعاً إلى الداخل فاعترض الحارس .. إلى أين ؟ قال إلى فضيلة الإمام الأكبر . وسمع المحاورة أحد القريبيين من مكانها فاستدار نحو الطالب وسأله : أقول للإمام من الذى يريد مقابلتك ؟ قال الطالب : فلان ... قالها بثقة كأنه من الاعلام المعروفين . ووقف ينتظر الرد إلى أن عاد اليه من سألها وأشار إليه بيده بفضل ..

ومضى خلفه إلى قاعة فسيحة ممتلئة بالزوار .. لم يكن يعرف أحداً فيها سوى شيخ الأزهر .. ولقد أسعده كثيراً اهتمام الشيخ به ووقوفه تحية له وهو في عمر أصغر أولاده .. وبعد أن سلم عليه أجلسه إلى جواره .. ثم قال له : وصلتني البرقية وشكراً يا بنى وما كان هناك ما يدعوك للحضور إلينا الآن .. ولكن لا بأس .. ثم أمر باستحضار البرقية فأحضرت .. ودعا أحد الشيوخ لقراءتها بصوت مرتفع لكي يسمع الجميع « انجلبت الغمة عن هذه الأمة ، والبقاء دائماً للأصلح ، فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » انتهت قراءة البرقية واتخذ منها الجميع محورا للتعليقات المنطوية على المجاملة للشيخ ، وعلى الشماتة في الحكم الراحل في وقت معا .

وهنا قام أحد الشيوخ من مجلسه ، وكان دقيق الملامح نحيف البنيان ، أشيب الشعر ، فيه صورة من الفهد .. قام وانتقل الى مكان الطالب وصافحه ، ثم سأله في مودة ظاهرة : أصعدي أنت يا ولدى ؟
اجاب الطالب : لا

سأله الشيخ مرة أخرى ولماذا تحب شيخ الأزهر وهو صعيدى ؟

اجاب الطالب : كما تحبه أنت أيضاً .

عندئذ ضحك الشيخ مسروراً بفطنة الطالب .. ولم يشأ الاسترسال في المحاورة أبعد من ذلك . فقد لاحظ أن الطالب تضطرب نفسه مع المشاهد الكثيرة التي يراها الآن . واستشعر أنه أخرجته الأسئلة التي اقتحمته دون سابقة الفة بينه وبين سألته .

وكانت الحقيقة التي يعيشها الطالب في تلك اللحظات حقيقة غريبة عليه . فهو الآن بين كبار السياسيين والاساتذة . وهو لم يسبق له التمتع بمثل هذا الشرف من قبل . كما أنه الآن يحظى باهتمام وتقدير بعض منهم على الأقل . إلى جانب أنه كان يرغب في التعبير عن نفسه فتخذله الكلمات .

أخيراً قرر أن يتوجه باسم طلاب الاسكندرية إلى شيخ الأزهر يدعوه لزيارة معهدهم في أى يوم يحدده لكي يكرمهم ، وما إن تلقى الشيخ تلك الدعوة حتى قبلها ووعد بتبليتها في أقرب وقت ممكن .. وعندئذ استأذن الطالب لينصرف ..

١١ - الصديق الأكبر

وهنا قام الشيخ الذى حاوره منذ قليل وقال له في لهجة أمرة : لا تتحرك قدمك يا بنى قبل ان اتحرك انا .. وفى امتثال وأدب توقف الطالب الشاب حتى تحرك الاستاذ الشيخ فتحرك وراءه . وعند الباب تعانق ذراعاهما كأنهما أصدقاء .. وسارا معا حتى بلغا محطة القطار فهم الطالب بالاستئذان لكن الشيخ لم يأذن له . وانما أصر على مصاحبته إلى منزله لكي يتناولوا معا طعام الغداء . ويقدر ما كانت محاولات الاعتذار التي لجأ اليها الطالب ، كانت محاولات الاصرار التي تشبث بها الشيخ .. وأخيراً انتصرت إرادة الأكبر ومضيا إلى المنزل الذى شهد مولد صداقة توطدت دعائهما لعدد طويل من السنين .

كان هذا الشيخ العظيم هو فضيلة الاستاذ محمد عبد اللطيف دراز .. وكانت أية عظمتة في هذا اللقاء الأول أنه كان شديد التواضع مع ضيفه الشاب ، فهو يتحدث معه حديث الأنداد ، وينوع من أساليب الحوار معه لكي يزداد تعرفه عليه .. وبعد قليل أخذ يشعره بأنهما يشتركان في النشأة الريفية لكل منهما . كما أنهما يتشابهان في أن كلا منهما ينتسب إلى أسرة كبيرة العدد لها من التقاليد والعادات ما يجعلها عزيزة الجانب وهذا بدوره ينعكس أثره على كل أبنائها ولو كانوا أفقر الناس ، ثم دلف الشيخ بعد ذلك إلى السياسة فأكد للطالب أنهما أيضا يتماثلان في

الاهتمام بالشئون العامة منذ بواكير الشباب ..

واتسعت ساعات الضيافة الاولى لكى يعرف الطالب عن محدثه أنه واحد من أبطال ثورة سنة ١٩١٩ . وأنه بدأ عمله السياسى فى حزب مصطفى كامل ومحمد فريد كما اتسعت الساعات أيضا للتعرف على ذكاء الشيخ ومقدرته على تناول القضية الوطنية من زواياها المتعددة طبقا لنظرية الحزب الوطنى الذى كان يرفع شعار رفض المفاوضة إلا بعد الجلاء .

وعندما امتد الحوار بينهما تبين الطالب أن هذا الشيخ ليس ككل الشيوخ الذين يعرفهم .. فهو موسوعة مستنيرة . قادرة على قيادة المشاعر والأحاسيس نحو كل ما هو نبيل وفاضل بين السلوك الجسور الراضى للخنوع والضعف ، إلى القدرة على التضحية النبيلة ، وظهر ذلك واضحا من الاعتزاز البالغ الذى تضمنه حديثه عن ذكريات الزعيم الخالد محمد فريد .

وانعقد قلب الطالب الشاب على قلب استاذة الشيخ . وظلا يتحاوران ويتسامران وقد نسى كل منهما مرور الوقت إلى أن أقبل المساء . عندئذ انصرف الطالب من حيث أتى .. بعد أن استقرت في ذهنه وقلبه صور من الاعجاب والحب لهذه الشخصية التى اختلفت عن كل الشخصيات التى تعرف عليها في الماضى ..

ومنذ ذلك الوقت ظل على أوثق العلاقات بهذا الصديق الحميم . واكتشف فيما بعد أن مناط الاعجاب به إنما كان يكمن في وطنيته الصادقة التى تجلت في العديد من أحاديثه ومواقفه . كما اكتشف أنه مثل وقدوة في كثير من صفاته . فهو وفى الى أبعد حدود الوفاء . وهو عزوف عن الدنيا وغير مبال بها وهو شهم كريم يعتمد عليه أصدقاؤه عند الملحاحات ، وفى ساعات الحرج . وهو إلى جوار كل ذلك غاية في البساطة وعدم التكلف ، لا يصدر فيما يأتيه أو يدعه عن عقد التعالى ، أو مركبات الغرور الى جانب أنه كان يتمتع بقوة خارقة في فهم الأشخاص ، فهو لا ينخدع عن المعدن النفيس بغيره من المعادن الرخيصة مهما زيفت نفسها أو بالغت في الطلاء .

على أن أهم ما كان يسترعى الانتباه في مسلكه ، هو تلك الفتوة التى لم تعترف بالشيوخة . فهو لم يكن رغم كبر سنه من هؤلاء المتهاكلين على انفسهم وإنما كانت له فتوته التى يباهى بها اصغر الشباب .. وكثيرا ما كان يقول في خطبه أنا لست أضعف من أقواكم



الفصل السابع :

أشواق الخلاص

١ - الاجتماع الأول :

عاد مع العائدين إلى دراسته عند بداية العام الجديد ، عاد وفي قلبه شوق شديد لاكتشاف موقع له في صفوف المناضلين من أجل الوطن . ولقد بلغ به الشوق حدا لم يكن يمكن تجاهله . فهو قد خاض بعض التجارب النضالية في العام الماضي ، وهو قد ازداد فهمه لأعماق المأساة التي يعيشها الوطن بعد الجلسة الطويلة التي أمضاها مع الشيخ العظيم . وهو قد اقتنع إلى أعماق أعماقه أن الحياة بغير نضال تتساوى مع حياة السوائم .

وتحت إلحاح هذا الشوق العارم بدأ طريقه إلى جماعة الإخوان المسلمين في إحدى الشعب بالاسكندرية - كان ذلك ليلا ، وكان هناك اجتماع منعقد لأعضاء تلك الشعبة ، وكان على واحد من القياديين الإخوان بالمدينة أن يتحدث حديثا توجيهيا في هذا الاجتماع ، فاستمع إليه ضمن المستمعين . وعلى الرغم من أن الحديث لم يكن مقنعا لوجداناته المنفعلة بهموم الوطن إلا أنه وجد نفسه في نهاية الاجتماع يكتب اسمه وبياناته ليصبح عضوا في تلك الشعبة ، ولكن بعد مناقشات ومجادلات طالت إلى منتصف الليل . ذلك لأن الأخ القيادي كان قد انتهز فرصة وجود طالب معمم وأخذ يكبل العتب واللوم إلى الأزهريين الذين يباعدون ما بينهم وبين جماعة الإخوان المسلمين .. مع أنهم أولى بها من كل من فيها ..

وحول هذا المعنى دار النقاش والجدل الذي انفرد به الطالب بالدفاع عن وجهة نظره .. وملخصها أن الأزهر مؤسسة تعليمية . وجماعة الإخوان جماعة سياسية ، وليس من اللازم أن ينتسب كل الأزهريين لجماعة الإخوان المسلمين ..

لكن وجهة النظر هذه لم ترق لأى من الحاضرين ، وتصدى الأخ القيادي ببيان أن جماعة الإخوان المسلمين ليست جماعة سياسية . وعلى فرض أنها كذلك فإن سياستها هي إعادة مجد الدين ، وإنقاذ المسلمين من تدهور أحوالهم ، وليس هناك من هو أولى بالدفاع عن هذه السياسة من الأزهريين . وقد تظاهر على هذا الرأي كل الحاضرين ولم يجد طالبا فرصة لتنفيذ هذا الرأي فأعلن اختلافه معه ، ثم طلب قيده عضوا ليس بصفته أزهريا وإنما بصفته مسلما لا غير .

وانتهى الاجتماع بترديد الشعارات الأخوانية المعروفة . واهتز قلبه كعادته مع تلك الشعارات التي طالت غيبته عنها منذ كان في مدينة « دمنهور » ووجد نفسه يخرج في وقت متأخر من الليل وقد امتلأت جوانحه بالانفعالات المحتدمة ، ومضى إلى مكان نومه فاعتراه الأرق . وأدار في رأسه عشرات من الأسئلة ، وما زالت تلح عليه رغبته في أن يصنع شيئا لوطنه المنكود الحظ ، حتى اقتنع بأنه سوف يكون عظيما جدا لو استطاع عن طريق عضويته في جماعة الإخوان المسلمين أن يصنع هذا الشيء . ولم لا ؟ ألم تصنع جماعة المسلمين الأولى رغم ضعف شأنها في أول الأمر عن طريق الالتزام المؤمن أخطر الأشياء ؟ وما زال بين الأخذ والرد حتى انتهى إلى ضرورة العمل في إطار هذه الجماعة .

٢ - النشاط الدعوى :

وفى اليوم التالى وقبل أن يهدأ حماسه وجد نفسه يسعى للالتقاء بشباب الاخوان المسلمين لكى يناقش الوسائل الكفيلة بنشر الدعوة . وتوسيع نفوذها بين جماهير المصريين ... وتواصلت المناقشات ولكنها لم تكشف له عن خطة جاهزة يستطيع بالوقوف عليها تحقيق ما يريد !!

وهذا تفكيره الى تأسيس شعبة خاصة بطلبة المعهد الدينى حيث مجال دراساته . ومركز صداقاته .. وعلاقات مودته . وبالفعل دعا لاجتماع واسع لتأسيس تلك الشعبة . وطلب من جمهور الطلاب أن يختاروا هيئة المكتب .. وتم انتخابه وبعض أصدقائه الحميمة لتشكيل هيئة المكتب .. علما بأن شعب الاخوان المسلمين لم تتكون بتلك الطريقة . وإنما كان يتحمس شخص فيجمع حوله عدة أشخاص ويعلنون أنهم شعبة ثم يمارسون نشاطهم . لكن شعبة المعهد تكونت من خلال انتخاب جماهيرى مارسه جميع الطلاب ..

وانفتح المجال امامه منذ تلك اللحظة للعمل والابتكار مع هؤلاء الفتية الممتلئين بالحماس . واتفقوا فيما بينهم على أن يكونوا فى مركز الريادة لجميع الشعب الأخرى .. ونتيجة لهذا الاتفاق ، فإنه قد اقترح أن تكون فى المعهد فرقة من الدعاة . مهمتهم التزود بالحقائق الدينية والتدريب على إلقاء حماسيا مقنعاً فى مساجد المدينة عقب صلاة الجمعة من كل اسبوع .. ولكى يتم تنفيذ هذا الاقتراح فإنه وضع على عاتقه مسئولية تكوين هذه الفرقة وتدريبها وقيادتها .. ولم يتوان لحظة واحدة عن القيام بهذه المسئولية .. فاختر عددا من زملائه واجتمع بهم . وكلف كلا منهم إعداد خطبة دينية فى أى موضوع يروقه ، على أن تكون مدعمة بالاسانيد القاطعة من الكتاب والسنة وأقوال السلف ومواقفهم .. وترك لكل منهم مهلة اسبوع لكى يعود ومعه المطلوب .

وبعد هذا الاسبوع عاد الجميع للاجتماع .. فسمع من كل منهم . وعدل ، وصوب ثم طلب من كل منهم حفظ ما كتب حفظا جيدا لا تشوبه تعتة أو لجلجة . وبعد هذه الخطوة الثانية كان له لقاء ثان بهؤلاء الدعاة . سمع ما حفظوا واطمأن تماما إلى سلامة هذا الحفظ ثم طلب من الجميع أن يجتمعوا فى صباح الجمعة .. حتى إذا حضروا دعاهم إلى حمل المصاحف والخروج فى موكب .. وكان عدد هؤلاء الدعاة خمسة عشر شابا بدعوا مسيرتهم من باب معهدهم قبيل صلاة الجمعة بوقت كاف . واخذوا يرددون شعارات الاخوان المعروفة وبأيديهم مصاحفهم المشرعة فوق رؤوسهم .. وكانوا كلما بلغوا مسجدا يتركون أحدهم فيه . وهكذا حتى توزعوا على خمسة عشر مسجدا .. فلما انتهت صلاة الجمعة قام كل منهم فى مسجده بإلقاء خطابه إلقاء إثاريا متأججا بالحماس .. وكان هو فى مسجده ساعة اللقاء خطابه متمثلا المعنى الكبير الذى كان يلح عليه مرشد الاخوان العام كلما تحدث أو كتب . فقد كان من دأبه أن ينطلق الى اقناع الناس من ضرورة التعرف على أحوال أمتهم الجاهدة . تلك الأمة التى « استولى عليها غيرها . واستبد بشئوننا خصمها فهى تجاهد ما استطاعت فى سبيل استرداد الحق المسلوب والتراث المغصوب .. والحرية الضائعة والامجاد الرفيعة والمثل العالية »^(١)

وأدى به تمثله لهذا المعنى إلى إذكاء الحماس فى نفوس الشباب فاستبد بهم أمره وخرجوا معه فى شبه مظاهرة تصدى لها رجال الشرطة وفرقوها قبل أن تغادر منطقة المسجد ..

ثم عاد هؤلاء الدعاة وقد ازدادت ثقة كل منهم بنفسه واستعرض الجميع ظروف كل منهم وما وقع له . وكانت النتيجة رائعة للغاية . عندئذ دعاهم الى تكرار ما حدث مرة أخرى ، ولكن من خلال اعداد خطب جديدة وحفظها على نفس النسق السابق . وبتكرار تلك المسيرة والخطب أكثر من خمس مرات . دعا الجميع الى الاعتماد على ما حفظوا والتصديق بالارتجال الواثق والمعتمد على الله .

وهكذا تكونت فرقة الدعاة من شباب المعهد الدينى بالاسكندرية . وكانت تتلمذ فى تصديها للدعوة على

المقولات المطلقة للمرشد العام للاخوان المسلمين . فهزوا العالم كله حائر يضطرب . وكل مافيه من نظم قد عجز عن علاجه . ولا دواء له إلا الاسلام . فتقدموا باسم الله لانقاذه فالجميع في انتظار المنقذ . وإن يكون المنقذ الا رسالة الاسلام التي تحملون مشعلها وتبشرون بها أيها الشباب ، (٢)

٣ - النمو السريع .

وفي شهور معدودة حدث برد الفعل المباشر لهذه النشاطات المتواصلة في حقل الدعوة من خلال المساجد ، نمو سريع في عدد الشعب ، وعدد المنتسبين الى جماعة الاخوان المسلمين بالاسكندرية .. فلقد كان عدد الشعب قبل هذه النشاطات لا يزيد عن أصابع اليد الواحدة ، وبفضل هذه النشاطات بلغ تسعا وثلاثين شعبة منتشرة بين شتى الأحياء والمصالح والهيئات . وصار من المألوف ان تقام الاجتماعات الحاشدة في كل حي لكي يتبارى فيها الدعاة حثا للشعب على الانضمام الى صفوف الاخوان المسلمين . وفي هذه الاجتماعات كانت الاثارة الوطنية والسياسية هي الصنو المكمل للاثارة الدينية والروحية . وكان الربط بين حل المشكلات الشخصية وبين حلول المشكلات العامة هو الذي يعطى للاخوان صورة الوضوح والقوة . ويضفى عليها من الثقة ما لم يكن لها من قبل . في ظل هذا المناخ تكاثرت المنتسبون الى الجماعة ، وتضاعف نشاطهم ، وكثرت التبرعات السخية وتعدى تأثيرهم حدود المدينة الى الضواحي والقرى ، ولم يكن في مصر آنذاك من يستطيع حشد عشرات الآلاف في اجتماعاته سوى للاخوان المسلمين . وعكست هذه الصورة نفسها على نفسيات الخصوم فراحوا يخطبون ود تلك الجماعة .. ويتقربون اليها

حدث يوما أن اتصل المركز العام للاخوان المسلمين من القاهرة بمنطقة الاخوان في الاسكندرية . وكان هذا الاتصال في تمام الساعة السادسة مساء . وكان فحوى الرسالة المبلغة يدور حول ضرورة حشد أكبر عدد ممكن من المواطنين بالاسكندرية لسماع الخطاب الجامع الذي سيلقيه فضيلة المرشد العام في السادسة من مساء الغد .. وللإشتراك في المؤتمر الذي سيلقى فيه هذا الخطاب .

وبقدرات خارقة تم استئجار دار للسينما الصيفي بمحرم بك ، وطافت كتائب الدعاة والجوالة بشوارع المدينة من أقصاها الى أقصاها تدعو لهذا المؤتمر الحاشد وتبشر الوطنيين بدخرا الاستعمار .. وظلت تطوف من وقت ابلاغ المكاملة الى ما بعد منتصف الليل ..

وفي صباح اليوم التالي كان المكان الذي أعلن عن عقد المؤتمر فيه يتم تجهيزه بالاثاث اللازم . ومكبرات الصوت .. ومولدات الانوار الاساسية والاحتياطية الخ وهكذا حتى حان موعد انعقاد المؤتمر فاحتشد عشرات الآلاف .. وكان في مقدمة الحاضرين بعض اقارب حزب الوفد .. ومنهم فؤاد سراج الدين « باشا » ، يا سبحان الله . هذا الوفد الذي اغلقت حكومته جميع شعب الاخوان منذ سنوات .. يحضر اليوم أكبر مؤتمر لهم !! وما هوذا أمل الامة في الخلاص يقترب .

٤ - وطنية المؤتمر :

كان الذين حضروا الى هذا المؤتمر يأملون أن يحققوا من ورائه بعض المكاسب الوطنية ، ذلك لأن مصر كانت ترقب كغيرها من المستعمرات نهاية الحرب لكي تستأنف مسيرتها من أجل الحصول على استقلالها . ومن هنا تعلقت القلوب والعقول بأفواه المتحدثين من فوق المنصة العالية .. وازداد تعلقهم بكلمات المرشد العام

الذى ركز حديثه تركيزا اراد منه ان يحدث أثرا يبقى ولا يضيع في رزمة القضايا الفرعية الأخرى واستنادا إلى هذه القوة الظاهرة لجماعة الإخوان المسلمين واستصحابا للمشاعر الوطنية المتأججة . كانت كلماته قوية رصينة واعدة . فقد أكد للحاضرين أن القضية الأولى لمصر المسلمة . هي التحرر من الاستعمار الذى جلب الخراب على مصر وعلى غيرها من بلدان العالم الإسلامى كله . منذ أزال خلافته ، وشتت كلمته ، وفرق جماعته ، وزرع الاحقاد والضغائن في كل شبر فيه وانطلاقا من الآية الكريمة .. « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ، قال إن دعوة الإخوان المسلمين جوهرها الدعوة للاتحاد والاعتصام بحبل الله المنين .. ونبذ كل المفاهيم المغلوطة التى ادخلت الزيف الى العقول والقلوب .. ثم قال : إن الإخوان يحتضنون كل من يقبل على دعوتهم .. مهما يكن موقفه منهم فيما مضى .. وهذه هي سماحة الاسلام

وتعميقا لمشاعر الكره للاستعباد والاستعمار ، ربط بين شهادتى الا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وبين رفض العبودية في شتى مظاهرها وأشكالها بالإسلام القائم على توحيد الحق لا يتضح معناه إلا بتوحيد الخلق في ظل عدله الوارف الذى لا يميل ولا ينحرف . وضرب مثلا بمقولة ابن الخطاب الشهيرة في واقعة القصاص من ابن عمرو بن العاص لابن المصرى المهين . كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرار ؟

ولم يشأ أن يغادر موقعه حتى يعد الناس بنصر الله الذى وعد عباده المؤمنين في قوله جل ثناؤه « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » مؤكدا لهم أن وسيلة النصر الأولى هي الاقتراب من الله . وصدق التوكل عليه . وضر مثلا لذلك بالذى حدث من فوح حينما استعصى عليه قومه وغلبوه على أمره . فما كان منه إلا الدعاء « فدعا ربه انى مغلوب فانتصر .. ففتحتنا ابواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ،

٥ - اللقاء الخاص :

واعقب هذا المؤتمر الحاشد لقاء خاص بمرشد الجماعة ، دعى إليه خاصة الإخوان المسلمين تحت عنوان « إخوان المرشد »

وحضر طابنا الشاب النشيط هذا اللقاء . لأنه كان في نظر من دعوا إليه واحدا من هؤلاء الخاصة . حضر وفي ظنه أنه سوف يستمع إلى ما لم يقله المرشد العام في المؤتمر . وبالفعل علم من بعض الإخوان أن إخوان المرشد من خصائصهم أن يكون الواحد منهم تحت أمر وطلب القيادة في أى وقت تشاء . وأن تكون له القدرة على الطاعة العمياء ، ودون أى مناقشة ! !

سأل من أعلمه بذلك : هل أفهم من ذلك أن هناك أعمالا خطيرة سوف نقوم بها ضد الاستعمار ؟ وجاءه الجواب السريع . وهل تشك في ذلك ؟ فسكت .

وانعقد اللقاء ، وحضر فضيلة المرشد العام . وطلب إلى الحاضرين أن يناقشوا معه ما يريدون مناقشته مما يشغل أفكارهم ، حينئذ انتهالت الأسئلة والاستفسارات ، وكانت كلها تعكس الرغبة العارمة في نفوس

الشباب نحو الطريق الذى يجب أن يسلكوه حيال النضال الوطنى ، كما كانت تعكس القلق البالغ من لجوء الحكام إلى إغراق القضية المصرية فى دوامة المفاوضات والمحادثات والمباحثات من جديد . وجاءت إجابات المرشد العام قاطعة حاسمة ، فقد وعد الشباب بأن هناك خطة تتم دراستها هدفها تحديد المسار العملى للجهاد المباشر ضد قوات الاحتلال . كما وعد بعدم تمكين الحكام من لعبة المفاوضات مرة أخرى .. وقال فى هذا الصدد كفانا من الماطلات كل هذه السنين الطوال !!

وعندما طرح السؤال عن المفاوضات بصورة أخرى قال : إن هذه المفاوضات لن تتم ، وإن المتعلقين بها إنما يتعلقون بالأوهام .

ترك هذا اللقاء فى نفسه انطبعا بأن المرشد العام يتكلم كلام الواثق المقرر المتمكن من تنفيذ القرار . الأمر الذى ضاعف من همته . وهمة الكثيرين من الشباب الذين حضروا هذا اللقاء ، وتحول بهم إلى قذائف مندفعة لا تتوانى عن أى عمل ، ولا تتقاعس عن أى أداء .

وانغمس صاحبنا فى المعمة ليلا ونهارا ، فهدوئا فى اجتماعات ، ولقاءات ، وأحاديث ، واشتهر أمره فى الإسكندرية بوصفه خطيبا قادرا على إثارة الوجدانات والمشاعر ، وامتد نشاطه إلى القرى الكثيرة من أعمال إقليم البحيرة ، وافتتح فى قريته شعبة للإخوان المسلمين .. وكان لا يعطى لدراسته من الوقت إلا أقله ، بينما يعطى أغلب وقته للعمل الإخوانى الدعوى .

٦ - إرهابات المعارك :

كانت الحرب العالمية الثانية على وشك الإنتهاء . فقوات دول المحور تتداعى عليها الهزائم فى جميع الجبهات ، وقوات الحلفاء تتقدم صوب الإجهاز الأخير على قلوب تلك القوات . وفى تلك الظروف التى تتعلق فيها انتظار كل الناس بالآمال المرتقبة بعد الحرب . أعلنت مصر رسميا الحرب على المانيا الهتلرية فى أوائل عام ١٩٤٥ ، وكان هذا الإعلان فى مجلس النواب ، وعلى لسان رئيس الوزراء إذ ذاك « أحمد ماهر باشا » .

وبعد هذا الإعلان بأيام قلائل تم اغتيال ماهر باشا . عندما كان طالبنا الشاب فى مهمة إخوانية بمنطقة الدخيلة ، وبينما هو عائد من مهمته تلك سمع نبأ الاغتيال ، وتوقع شرا من وراء هذا الحدث المؤسف ، ذلك لأن الشائعات بدأت تنطلق ملصقة التهمة بجماعة الإخوان المسلمين . غير أنه لم يكتثر لهذا الأمر كثيرا ، ولم يصدق الشائعات التى تكاثرت ، ربما لأنه كان يعرف من تاريخ أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وغيرهما من أبطال ثورة سنة ١٩١٩ ما يستحيل معه تصديق أن الإخوان يُدبرون لقتلهم .

والمهم أنه تماسك على نفسه ، وظل يرسخ قدميه على أرضية الإخوان المسلمين . ويسعى معهم إلى ما يسعون إليه وهو واثق كل الثقة من أن معركة نصرهم على الاستعمار أضحت وشيكة .

وعلى الجانب الرسمى كان النقراشى باشا قد أصبح رئيسا للوزارة خلفا لسلفه زعيم السعديين . وكانت هناك لقاءات ومحادثات ، وخطابات يتم تبادلها بين مصر وحكومة المملكة المتحدة . ولم يكن هناك

ما يطمئن إلى أن المستعمرين سوف ينسحبون من البلاد أو يعرضونها عن خسائر الحرب أو المساعدات التي قدمتها مصر في حربهم ضد دول المحور

وعلى الجانب الآخر كان المصريون كل المصريين يتضررون ويتضجرون ، ويتململون سُخْطا وغضباً ، ويتملمسون طريقاً إلى الالتحام الجريء في معارك التحرر الفاصلة ومن أجل ذلك كان طالبنا الشاب يكثر الأسئلة مع قادة الإخوان عن مدى الاستعداد للمعارك المرتقبة ، وعن الخطوط العامة لخطة تحريك الشعب وقيادته في معركة المصير ، وغالباً ما كانت الإجابات مؤكدة أنه بدون الإخوان لن تكون هناك أية معارك وأن الاستعدادات ليوم الفصل قائمة على قدم وساق . ومن هنا كانت ثقته في اقتراب يوم الخلاص تتزايد ، على الرغم من أنه شخصياً لم يراى مظهر من مظاهر هذه الاستعدادات سوى هذا النشاط الإثاري العام .. وكثيراً ما كان يقول لنفسه : إن المعارك في هذه المرة يجب أن تكون مسلحة ولا بد لمن يريد قيادتها من وضع ذلك في حسابه ..

٧ - ذكرى وعد بلفور سنة ١٩٤٥

حلت هذه الذكرى المشنومة في هذا العام وصدر الوطنيين تغلي بالحق على المستعمرين ، وتنتظر أية فرصة لإعلان الاحتجاجات على جرائمهم ومخازيهم ، وكان لابد من أن ينفجر السخط المكتوم ضد حكومة المملكة المتحدة ، فهي التي منحت الصهيينة حق إقامة وطن قومي لهم فوق أرض فلسطين العربية ..

وفي اليوم السابق على حلول تلك الذكرى تم اتصال هاتفى من المركز العام للإخوان المسلمين بالقاهرة ، يدعو قيادات الإخوان في مدينة الاسكندرية لكي يشرفوا على تنظيم المسيرات والاحتجاجات على أوسع نطاق غدا الجمعة ٢ من نوفمبر .. مع ضرورة الإبراق إلى الجهات المسئولة لكي يحاطوا علماً بصورة الاحتجاجات والهدف منها .

وتبعاً لهذا التكليف التقت هذه القيادات بطالبنا الشاب ، وأبلغته فحوى الاتصال الهاتفى ، وطلبت منه تنظيم إخوان المعهد وتكليفهم قيادة هذا اليوم على أوسع نطاق ممكن . وعندئذٍ صدع بالامر . ونزل إلى المعهد ودعا إخوانه للاجتماع ، وأبلغهم ما تلقاه ثم طلب منهم الخروج إلى المساجد لكي ينطلقوا بالمصلين بعد الصلاة عبر شوارع المدينة هاتفين بسقوط وعد بلفور والصهيونية ، وبحياة فلسطين العربية .. وعليهم بعد ذلك أن يتجهوا بالجموع الفقيرة إلى مراكز المسئولين لكي يسجلوا رسمياً صور الاحتجاج على هذا الوعد المشنوم .

وفي نهاية الاجتماع أعلن تكليف نفسه وآخرين معه قيادة اليوم في كل من ادكو ورشيد .. وإنما اختار لنفسه ومن معه هذا التكليف لأنه أشق ، وهو يطمح في الجزء الأولى ، حيث المثوبة بقدر المشقة .

ورغبة في إثارة المشاعر وحفز الهمم ، فإنه قال لإخوانه بعد الاجتماع لا تنسوا أن هذا اليوم يوم جهاد في سبيل الله والمسجد الأقصى وأكد أن عليهم ألا يتهيبوا من أى عنف حتى يؤدوا واجبهم خير أداء

وجاء الصباح فانطلق مع أخويه إلى قطار رشيد ، وفي القطار جلس ثلاثتهم يتذكرون ما يجب أن يقوم به كل منهم إلى أن بلغوا مدينة ادكو عندئذ نزل من كلف العمل فيها ، وكان الاتفاق أن يصل الجمعة في أكبر مساجدها ثم ينطلق بالناس بعد إثارتهم عبر الشوارع المؤدية إلى مركز الشرطة لكي تتم إثارة الشعب ، ثم يقوم الجميع بإبلاغ الإحتجاج

ومضى هو وصاحبه إلى مدينة رشيد .. وهناك توزعا .. طالبنا الشاب في المسجد الكبير ، وصديقه الذي يرافقه في المسجد الذي يليه . وبعد صلاة الجمعة وقف كل منهما خطيباً مندداً بالاستعمار الانجليزي ومذكراً بوعد بلفور المشهور ، وحثاً للناس على الجهاد في سبيل الله من أجل المسجد الأقصى . أول القيلتين وثاني الحرمين . وخرجت من المسجدين مظاهرة كبرى تهتف بسقوط الصهيونية والاستعمار وبحياة الأمة العربية وفلسطين .

فلما بلغت المظاهرة مقر الأمن تقدم هو وصاحبه إلى تسجيل احتجاجات المتظاهرين وتقديمها للمسئولين . ثم أبقى الجميع بما ثم لرئيس الحكومة ووزير خارجيته . والأمين العام للجامعة العربية التي كانت قد وقع ميثاقها منذ مارس ١٩٤٥ .

بعد ذلك تفرق المتظاهرون إلا نفراً من إخوان رشيد. ظلوا مع ضيفهم حتى ما بعد صلاة العصر .. وعندما جاء موعد القطار الذهاب إلى الإسكندرية ركبا وهما سعيدان كل السعادة بكل ما قاما به في هذا اليوم . لكن طالبنا الشاب كل مشغول الفكر والبال بأمر من ذهب إلى ادكو ، ومن بقوا في الإسكندرية . وأشرك صديقه في الذي ينشغل به فهوّن عليه الأمر ، وقال له : بعد قليل ستعرف كل شيء ، ولابد أن الأمور سارت على نفس الصورة التي سارت بها في مدينة رشيد باذن الله

٨ - المفاجأة القاسية :

وعند الوصول إلى محطة الإسكندرية ، فوجيء طالبنا الشاب بمن يتشبث بذراعه ليخبره أن عدداً كبيراً من طلبة المعهد مقبوض عليهم ، وهم الآن في أقسام البوليس . عندئذ سأل عن سبب حضوره إلى محطة السكك الحديدية .. فأخبره أن الجميع قالوا إنك في مدينة رشيد ونحن نتظرك منذ ثلاث ساعات . كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً ، وأراد أن يعرف الذي حدث وادى إلى القبض على الطلاب . فقبل له لم يحدث شيء ، فقد كان الطلاب ما يزالون في طريقهم إلى صلاة الجمعة . وكانوا يسيرون بشكل جماعي فتصدى لهم البوليس وفرقهم بعد القبض على عدد كبير منهم ..

اهتم بأخبار الإخوان المسلمين من غير شعبة المعهد فلم يجد شيئاً يذكر ، حتى ولا نوعاً من المواساة لمن قبض عليهم !! وسأل ألم تخرج مظاهرات في المدينة ؟ فأجيب لا !! وعندئذ انطلق مسرعاً إلى مقر قيادة الإخوان في مدينة الإسكندرية ، بعد أن طلب من الطلاب الذين كانوا معه في مبنى المحطة انتظاره عند قسم البوليس .. وفي هذا المقر وجد بعض القادة - سامحهم الله - جالسين وكأن شيئاً لم يكن ، فاهتاجت نفسه ، وحاول ضبطها وسأل بعد أن سلم ما الذي حدث ؟

قال أحدهم : لا شيء !!

سأل مرة أخرى : لماذا لم تنفذوا ما اتفقنا عليه أمس ؟

قال أحدهم : لأن تعليمات جديدة جاءت من القاهرة تلغى ما اتفقنا عليه !!

سأل : ومتى جاءت هذه التعليمات ؟

قال أحدهم بعد الثانية عشرة من مساء أمس "

سال : وماذا كان فحوى هذه التعليمات الجديدة التى وردت بعد منتصف الليل ؟

- فحواها منع الخروج فى مظاهرات أو تجمهرات خوفا من الاصطدامات التى لا لزوم لها !

- سبحان الله !! وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم نبلغ بهذه التعليمات ؟ لماذا تركتمونا نذهب ونتعرض لما تعرضنا له ؟

أولم تكن هناك احتمالات للاصطدامات الدامية ؟

- كان الوقت متأخرا ولم نستطع الإبلاغ !!

- حسن جدا .. وليس الآن وقت الكلام !!

وانطلق إلى المقبوض عليهم . وكانوا مجتمعين فى قسم المنشية .. وكان ما يدور فى ذهنه أثناء انطلاقه إليهم

نوع من التساؤلات الحائرة ، حول سلوك تلك القيادات وأسبابه . انه لم يكن يعقل التعلل بالوقت المتأخر من الليل ،

ومن ثم فهو مرتاب فى الأمر .. وحتى لو صدق هذا التعلل غير المقبول فكيف يصدق أن القيادة العليا تصدر تعليمات ثم

تغيبها بعد قليل .. وماذا عساها أن تكون الأسباب التى تدفع إلى ذلك ؟ .

ولم تنزل تردد أصداء تلك التساؤلات فى نفسه حتى بلغ قسم البوليس ، فشغل نفسه بالتسليم على المقبوض

عليهم ، وسؤالهم عن احتياجاتهم التى يريدونها .. واستحضار المأكولات اللازمة لهم .. وهدهد تفكيره للاتصال

تليفونيا بشيخ العلماء محمود أبو العيون . وكان صاحب مركز مرموق ، ونفوذ قوى فاستنجد به ..

وتحركت عواطف الأبوة فى الشيخ ، فاتصل بالجهات المسئولة ، ويسروا له أمر الحضور إلى القسم ليضمن

الطلاب قبل الإفراج عنهم . وقبل الشيخ القيام بهذه المهمة الشاقة على شيخوخته . وحضر فى هذا الوقت المتأخر من

الليل . وبعد قليل من الإجراءات خرج الطلاب فى الساعة الواحدة من بعد منتصف الليل .

خرج معهم وذهنه شارد من مرارة المفاجأة القاسية التى اعترضته وهو قادم لتوه من مدينة رشيد !! ولم

يخفف تلك المرارة فى نفسه حضور بعض المحامين من قيادات الإخوان المسلمين بالإسكندرية إلى قسم بوليس

المنشية إثر وصوله إليه . ذلك لأن الأمر فى نظره أكبر وأخطر من أن يرددون الوقوف على جلية الحق فيه .

٩ - تكشف الحقيقة :

وشاء الله أن يعرف فى صباح اليوم التالى عن طريق بعض القادمين من القاهرة أن يوم أمس كان يوما مشهودا

فى تاريخ مصر .. ذلك لأن المرشد العام للإخوان المسلمين صلى فى الأزهر ، وخرج محمولا على أعناق المصلين فى

مظاهرة ضخمة طافت بأهم شوارع المدينة ، وردد فيها المتظاهرون معه ما لو تم جمعه لكوّن كتابا بأكمله .

وعزز ذلك من سوء ظنه بهؤلاء المسئولين المحليين فى الاسكندرية ، وقال لنفسه لو كانت هناك تعليمات جديدة

كما يقررون ، فلماذا تظاهرت القاهرة خلف المرشد العام ؟ وانتقل ذهنه إلى إبلاغ تلك التعليمات المضادة لو صحت

فافتراض أن يكون إبلاغها من شخص سيئ القصد ، ثم تساعل عن هوية الشخص وأغراضه ، والطريقة التى عرف

بها خطة اليوم قبل أن تنفذ .

وشينا فشيئا تراكمت عليه سحب الاحزان لأنه تكشف له أن بين الإخوان من يكذب .. ذلك لأن التعليمات

الجديدة المزعومة صارت فى نظره محض اختلاق ، والذى اختلقها إما المسئولون المحليون تبريرا لجبنهم عن مواجهة

اليوم . وما كان يكتنفه من شتى الاحتمالات . وإما شخص آخر المركز العام للإخوان المسلمين وكلا الأمرين - لو

صح - كارثة بكل المقاييس

ومن هنا أخذت تلح عليه نفسه فى ضرورة التعرف على شخصية الكذاب المدعى صاحب الفكرة المفضوحة عن

التعليمات الجديدة ، لكنه بعد قليل اكتشف أنه لن يستطيع . فاضمر الأمر في نفسه ولم يبح به لأى أحد على الإطلاق . حتى لا يشيع الشك في نفوس الآخرين من الإخوان الانقياء . وركن إلى أنه لابد من أن يكشف المجرم نفسه في يوم من الأيام مهما توارى أو تخفى عن أعين الناس .

لكنه منذ ذلك اليوم ألزم نفسه بأن يكون على حذر حتى وهو بين جند الله المخلصين ! على أن الحذر لم يحجب ثقته المطلقة في جماعة الإخوان ، وقدرتها على الوصول بالوطن إلى التحرر الكامل من شرور الاستعمار . وحسبه أن يمثل هذه الأحداث كانت تقع على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . فلقد كان هناك المنافقون والمراعون ، وذوو الوجهين . ومن ثم فإن افتراض الصدق في كل من ينتسب إلى جماعة الإخوان ليس الا نوعا من السذاجة - فمن الممكن أن يندس بين الصفوف من ليس فيها .

لكن الأمر على أية حال يقتضى إبلاغ المرشد العام كى يضع هو لكل شيء حسابه وبالفعل كتب تقريراً عن الواقعة كما وقعت وسلمه بيده إلى إمام الجماعة في القاهرة .

١٠ - بداية الاعتماد على النفس :

كان لما حدث في ٢ نوفمبر ١٩٤٥ أثره المباشر عليه ، فبدأ يفكر في كل ما يسمع أو يتلقى من تعليمات ، واستمر واحداً من الإخوان كما كان . لكنه لم يعد يثق تلك الثقة العمياء في كل ما هو إخواني جميل !! وأخذ يعطى بصيرته وعقله فرصة التدبر الواعى عند كل خطوة يخطوها .

ولما كانت قضية الخلاص الوطنى هى شغله الشاغل منذ سنوات طوال ، فإنه راح يتحسس الطرق المؤدية إلى المساهمة في هذا الخلاص . كان يحضر الاجتماعات الإخوانية بانتظام . وكان يسأل في كل اجتماع عن التعليمات الخاصة بالعمل الوطنى ، وفي كل مرة كان يتلقى تلك الإجابة التقليدية : لم ترد إلينا أية تعليمات حتى الآن . عندئذ كان يخرج من تلك الاجتماعات لى يلتقى مع بعض شباب الأحزاب الأخرى .. لمصر الفتاة ، وحزب الوفد ، وغيرهما .. وكان همه الكبير أن يعثر على من يجد عنده شيئاً يشفى تحرقه للعمل الفعال . ولكنه - وبالأسف - لم يكن يظفر بشيء !! فالكل كان يربط على ما تعود من أساليب الحياة ، والتفكير والتطلع ، اللهم إلا بعض من لقيهم في أيام مقاومة العريضة الإنجليزية بمدينة الإسكندرية . فهؤلاء كانوا مثله يشعرون نفس مشاعره . ويحسون نفس إحساساته ، يتململون بالضجر من العجز عن الحركة ، وينتظرون من القادة الكبار أن يقودوا خطاهم . وكانوا حينما يلتقون بمحض الصدفة يتناجون بالشكوى من هذا الوضع الزرى ، وكثيراً ما كانت تنعكس عليهم تلك المقولات الإنهزامية عن أنه ليس في الإمكان إلا ما كان !!

وضاق ذرعاً بنفسه وبمحاوراته التى أجراها مع العديد من الناس ، وكاد أن يقضى الملل على كل مصادر الحماس فيه . ذلك لأنه قد أدرك أن القادة الوطنيين القدامى قد تحولوا مع السن ، وأبهة الحكم إلى حالة لا يستطيعون معها قيادة الشعب نحو طموحاته الثورية ، وأدرك أيضاً أن المرشحين الجدد للقيادة من زعماء الجماعات والأحزاب غير التقليدية ليست لديهم خطط واضحة للعمل .. وأصبح واضحاً لديه أن الأمر بحاجة إلى نوع من القيادات الشابة .. القدرة على الإنطلاق بهذا الشعب إلى تحقيق آماله .. وساورته فكرة الاعتماد على النفس دون انتظار لأية قيادات أخرى ، ولكن كيف ؟

١٠ - مذكرتان وموقف

وإنه لفي حيرة وألم شديد - وإذا به يطالع في صحف الصباح ذات يوم من يناير ١٩٤٦ مذكرتين حول القضية الوطنية المصرية الأولى توضح وجهة نظر الحكومة المصرية ، وتطرح مطالب الشعب العادلة في الحرية والاستقلال .. والأخرى توضح وجهة نظر حكومة العمال البريطانية في الرد على ما أثارته المذكرة السابقة قرأ المذكرتين وشعر بالخزي والعار ، ذلك لأن مذكرة الحكومة المصرية المهورة بتوقيع « النقراشي » صاحب التاريخ الوطنى العريق كانت شاحبة هزيلة متهاكة . بينما مذكرة الحكومة البريطانية المهورة بتوقيع وزير خارجية حزب العمال « بيلفن » تبدو متعالية ومملوءة بالصلف والغرور ، وشتى صور الاستفزاز والاستهانة^١ أحس طالبنا الشاب بحاجته الملحة للحديث مع شخص أو أشخاص يهمهم ما يهمه ، وساقته قدماه إلى مقر جماعة الإخوان المسلمين . وهناك التقى ببعض . وناقشهم فيما نشرته صحف الصباح من نبا المذكرتين اللتين تلخصان المأساة الحقيقية للوطن . وطالت المناقشة ، وكانت نبرات صوته تعبر عن قسوة الألم الذى يشعر به . وكأنه كان يريد أن يندفع بمن يناقشهم إلى أى عمل فورى ينزع الفتيل ويفجر الموقف ، ولكن هيهات !! قيل له لابد أن قيادة الإخوان سوف تزودنا بالتعليمات اللازمة .. ونحن في انتظار .

ومريوم ، ويوم ، ويوم ولا تعليمات !! وأدار هو التفكير مع ذاته عددا من المرات ، ثم قرر ألا ينتظر أية تعليمات من أى أحد .. واجتمع مع نفر من أصدقائه الأصفياء ، وتحدث معهم وإليهم موضحا أن مصر اليوم في حاجة إلى جهود أبنائها . كل أبنائها . لكى يستخلصوا حقوقها من براثن المستعمرين ، وبين أن الفرصة اليوم مواتية لأن الشعب كله يغلي غليان المرجل فوق النار ، وقال : إن الانجليز الخارجين من الحرب وبرغم الانتصار الذى أحرزته جبهة الحلفاء - لابد أن يكونوا أضعف منهم في أى عهد سابق - وإذا كان الثوار القدامى قد وصلوا إلى المستوى الذى وصل إليه رئيس الحكومة في عرضه للقضية ، فإن مصر يجب أن تقرر أمرها بثوار آخرين ثوار تصنعهم الأحداث . وتصهرهم نيران المعارك .. ومن الممكن أن نكون نحن هؤلاء الثوار المنتظرين . ولكى نكون كذلك فإننا يجب أن نتصدى للعمل الوطنى معتمدين على أنفسنا ، وعلى الله القادر على نصرتنا . وظل يلح على ضرورة التفكير وإعداد العدة للبدء ، منددا بروح الإستسلام والتواكل التى سوف تضيع الفرص المواتية لكسب الحقوق حتى سأل بعض أصدقائه

- ماذا يمكن أن نعمل ؟

- ندعو الشعب للثورة

- وكيف ؟

- نبدأ بجمع مبلغ قليل من المال تحت اسم مشروع « مكافحة الأمية الوطنية » ، ثم بعد ذلك نوظف هذا المبلغ في استخدام الوسائل الكفيلة بنشر الدعوة إلى الثورة

- ومن أين نجمع هذا المبلغ مهما يكن قليلا ؟

- من الواثقين فينا . زملائنا . أساتذتنا . أصدقائنا . وأهلينا لو أمكن .

- وكيف ؟

- نتوزع لجانا . لكل نوعية من النوعيات التى ذكرت لجنة ، وعليها أن تتصرف في طريقة الجمع كما تشاء . بحيث نلتقى بعد ثلاثة أيام ، وتقدم كل لجنة ما جمعت

- وبعد ذلك ؟

- وبعد ذلك نجتمع لنقرر الخطوة التالية

واقترح الجميع بعد هذه المحاوره بتكوين اللجان . واختار هو لجنة الاساتذة نظرا لما كان له من دالة على
العديدين منهم فقد كانوا يقدرين له جديته في طلب العلم ، ويحمدون له عددا من الخصال الطيبة فيه .
وهكذا انطلق ومعه أعضاء لجنته إلى هؤلاء الاساتذة في منازلهم في نفس الليلة التي تكونت فيها اللجان . وكان
يطلب من كل منهم تبرعا للجنة مكافحة الامية الوطنية . فإذا سئل من أعضاء هذه اللجنة ، قال : أنا واحد منهم .
وإذا قيل له وما عمل هذه اللجنة ؟ قال « محو الامية الوطنية » ، ثم يكف عن البوح بأكثر من ذلك .
والغريب أن جميع الاساتذة كانوا أسخياء في البذل ، فلم يحجب أحد تبرعه عن هذه اللجنة المجهولة الهوية ،
وتفاوتت التبرعات ما بين ريال أو أكثر ، ولكن أحدا لم يدفع أكثر من جنيه .
أما اللجان الأخرى فقد انطلقت كل إلى وجهتها ، ثم عادت في الموعد المحدد لاستعراض الحصيلة . وكانت
جملة المبالغ التي تم تحصيلها لا تزيد عن عشرين جنيها . ومع ذلك فقد اجتمعت لجنة مكافحة الامية الوطنية في
ركن من أركان المعهد الديني بمدينة الاسكندرية ، وبدأ المجتمعون يستعرضون ماذا يمكن عمله بهذا المبلغ
الزهد ؟ وهنا قال الطالب الشاب : إن هذا المبلغ ليس زهدا بل إنه سيمكننا من عمل الكثير وسوف ترون بأعينكم .
وأزهد الجميع أسماعهم ليعرفوا ماذا يريد ؟
قال لا تندهشوا .. هذا المبلغ يكفي لطبع آلاف المنشورات التي ندعو فيها الشعب للثورة ، وهذا وحده سوف
يكون عملا كبيرا الأثر على مستقبل الحركة الوطنية ، فقط يجب أن نعرف ما الذي يمكن أن نقوله في هذا المنشور ، كما
يجب أن نعرف الطريقة التي بها يتم طبعه وتوزيعه على أوسع نطاق .



الفصل الثامن :

أشواق المعارك

١ - المنشور الأول :

قال أحد أعضاء اللجنة : قل لنا بالله ماذا يمكن أن نقول في هذا المنشور الذى اقترحت أن ندعو عن طريقه الشعب للثورة .

قال : اقترح أن يكتب كل واحد من الحاضرين صيغة لمنشور وطنى يراه قوى التأثير ، ثم يقرأ ما كتبه على الجميع .. فإما أن يتم تليفق منشور من كل الصيغ التى يتم عرضها ، وإما أن يرتضى المجتمعون إحدى الكتابات ويدفعون بها إلى النشر .

وأمسك كل عضو فى اللجنة قلمه ، وراح يكتب مجتهدا أن يكون قوى العبارات والكلمات لكى تكون صيغته أفضل الصيغ عند العرض . وبعد نصف ساعة فقط كان الجميع قد كتبوا ، وبدأ الاستعراض .. لكن الصيغة التى راقت فى أعين الجميع هى تلك التى كتبها هو .. وكان عنوانها « ثورة حمراء » . وبعد العنوان جاءت العبارات الملتهبة . نعم ثورة حمراء ، وساعة سوداء ، وهجمة عمياء ، فإما حياة وإما فناء . وبعد هذه العبارات الملتهبة . جاءت مخاطبة الشعب لكى توضح له فى أقل الكلمات مأساة الاحتلال الانجليزى لمصر ، وإذلاله لأهلها طوال ما يقرب من سبعين سنة .. ثم أعقب ذلك استنهاض همم كل أبناء الشعب للجهاد ، ودعوتهم لتسليح أنفسهم بكل ما تصل إليه أيديهم من شتى أنواع السلاح . لكى يلبوا نداء الوطن باقتحام المعارك التى لا تقتصر الشعوب بغير اقتحامها .

وعلق الجميع على هذه الصيغة بالاستحسان . ووافقوا على أن يكون التوقيع الذى يذيل به المنشور « شباب الأزهر بالإسكندرية » .

بعد ذلك ارتبكوا وتحيروا ، ولم يستطيعوا الاهتمام إلى الكيفية التى يطبعون بها هذا المنشور أو يوزعونه .. فكلهم شباب دون العشرين ، ولم يسبق لهم التمرس على شيء من ذلك .

وفى ظل تلك الحيرة أعلن رايه فقال .. التوزيع مشكلة لن نواجهها إلا بعد الطبع ، وليس من اللازم التفكير فيها منذ الآن .. أما مسألة الطبع فتجب استشارة من هو أكبر وأخبر بها من الثوار الوطنيين القدامى !!

سألوه من ؟ قال بعض المحامين الوطنيين مثلا من أمثال الأستاذ عبد الفتاح كرشاه المحامى ... أو الأستاذ ابراهيم طلعت المحامى .. أو غيرهما .

عندئذ انتهت المناقشة ، وفى مساء نفس اليوم حمل أعضاء اللجنة منشورهم إلى الأستاذ ابراهيم طلعت المحامى الوفدى الشاب .. ويعرض الأمر عليه طلبا للمساعدة ولو بالنصح ، تنصل وقال : إننى لا خبرة لى بهذه المسائل . وكل ما أعرفه هو أنكم لن تستطيعوا طبع هذا المنشور فى مدينة الاسكندرية . ذلك لأن البوليس السياسى لديه صورة من حروف كل مطبعة بالمدينة . وعند طبع أية ورقة مخالفة للقانون فإنه من الممكن الاستدلال على المطبعة

التي قامت بطبعها ثم حذر قائلا وإياكم أن تسوا أن هذا المنشور مرجع للسلطات وسوف تتعقب السلطات من كتب أو طبع أو وزع . وعليكم أن تبتكروا من الوسائل ما لا يمكن السلطات من رقبكم خرج هؤلاء الشباب من هذا اللقاء بخيبة الأمل . وكادوا يعودون من حيث أتوا . وقال بعضهم لابد أن هذا المحامي قد خشي التورط ، وخاف أن يقع في المحذور لو وثق فينا لكن طالبنا الشباب لم يستسلم لخيبة الأمل هذه ، وانطلق بزملائه إلى مكتب الأستاذ عبد الفتاح كرشاه المحامي .. فهو البطل الذي وقف يستثير الجماهير منذ سنوات أمام قهوة الإسعاف . ولاشك أنه سيعطف على هؤلاء الشباب الوطنيين الذين يتلمسون طريقهم من أجل رفعة شأن مصر وعندما بلغوا المكتب جلسوا على غير موعد سابق مع صاحبه . حتى إذا فرغ من بعض شؤونه جلس إليهم . كانوا خمسة شبان يبدو عليهم الارتباك والحيرة ، ومن أجل ذلك فإنه رحب بهم في مودة ظاهرة حتى يزيل عنهم الارتباك الذي يشعرون به .. وقبل أن يسألهم عن الموضوع الذي حضروا من أجله تحدث إليه الطالب الشاب الذي دعاهم للقائه ، وقال : نحن مجموعة من شباب طلبة الأزهر ، وقد اشتد إلنا من أجل بلادنا فقررنا ضرورة خوض المعارك من أجلها مع المحتلين الغاصبين .. وبكداية لهذه المعارك فإننا قمنا بكتابة منشور أحضرنا صيفته لنطالعكم عليها بوصفكم من رجال الحزب الوطني أولا ، وبوصفكم من رجال القانون بعد ذلك . وكل الذي نطلبه هو مساعدتنا ولوبالنصيحة لكي نقوم بطبع وتوزيع هذا المنشور ثم ناوله الصيغة المكتوبة

٢ - درس لا ينسى

قرأ الأستاذ كرشاه صيغة المنشور فظهرت عليه أمارات الاهتمام والجدية ، وبدأ الحديث فور فراغه من القراءة قائلا : هذا المنشور من الناحية الوطنية سليم ١٠٠٪ أما من الناحية الجنائية فإنه يعطى كاتبه أو موزعه عقوبة تصل إلى السجن خمسة عشر عاما ثم أضاف مسرعا ' لا أقول ذلك لكي تخافوا وتراجعوا عما انتويتم القيام به من المعارك .. فالوطني الحق لا يخشى السجن ولا الموت في سبيل قضية الوطن العادلة .. وعليكم وقد رشعتم أنفسكم لهذه المهمة المقدسة أن تضعوا نصب أعينكم أن طريق التحرير هو طريق التضحية المتواصلة من أجله . ومن حسن الحظ أنكم شباب ، وليس هناك من هو أقدر على العمل في سبيل الأوطان من الشباب . أما فيما يتعلق بالمساعدة التي تستطيع أن أساعدكم بها ، فإنه يشرفني أن أجند مكتبي ومكاتب الزملاء المحامين لخدمة أي منكم إذا وقع في قبضة السلطات . وسوف نكون إلى جواره في جميع مراحل التحقيق والمحاكمة .. هذا جانب ، والجانب الثاني من المساعدة التي يشرفني أن أقوم بها نحوكم فإنني ومنذ هذه اللحظة أضع كل إمكانياتي المالية تحت تصرفكم إذا احتجتم إلى تكاليف طبع المنشور أو توزيعه .. وأعدكم بأنني لن أبخل عليكم ولوبضمن ثيابي التي البسها .

أما مسألة الطبع والتوزيع فإنني أتركها لكم لأنني لا أعرف عنها شيئا .. والآن دعوني أؤكد لكم أن مسلككم الوطني هو المسلك الصحيح . وامتدت يده إلى مرجع تاريخي ضخيم عنوانه « مذكرات ملنر » وقدم هذا المرجع للطالب الذي بدأ معه الحديث منذ قليل ، وطلب منه أن يقرأ من صفحة معينة ..

قرأ الطالب والجميع يسمعون بضعة أسطر ، استخلص منها الأستاذ كرشاه أن الانجليز يقررون على لسان « ملنر » أنهم إنما صاروا أصحاب حق مشروع في مصر بفضل المفاوضات التي اضطلع بإجرائها سعد زغلول مع حكومة المملكة المتحدة .. ذلك لأن معنى القبول بمبدأ التفاوض مع الغاصب المحتل هو الإقرار بأنه صاحب حق يمكن

أن يختلف على تحديده . والتفاوض في هذه الحالة مجرد وسيلة لحل هذا الاختلاف ، وتحديد حجم الحق المقرر سلفا بحكم قبول مبدأ المفاوضة !!

واستمر الاستفهام يشرح وجهة النظر هذه ويؤكد لها لى يبرهن على صحة الشعار الذى كان يرفعه الحزب الوطنى ، لا مفاوضة إلا بعد الجلاء ، ولم يشعر الشبان الجالسون إليه بالرغبة فى الانصراف عنه إلى ما بعد منتصف الليل .. وحينئذ انصرف الطلاب وقد امتلئوا بالحماس إلى أقصى حد ممكن . وفى الشارع الذى كانوا يسلكونه ، كان الهدوء ، وكان السكون ، وكانت البرودة الشائعة فى الجو شديدة القسوة .. وساروا صامتين لفترة غير قصيرة .. فقد كانت قلوبهم المشتعلة بحب بلادهم تستحث تفكيرهم ، وتعتقد السننهم ، وتدفعهم دفعا إلى البحث عن حل ملائم لمشكلة طبع المنشور وتوزيعه .. وبخاصة بعد أن عرفوا أن أحدا لن يستطيع مساعدتهم غير تفكيرهم هم .

وفجأة توقف الطالب الشاب فى عرض الطريق ، وقال مثلما قال أرشميدس عندما كان يستحم وهو يفكر فى حل لغز طفو الأجسام فوق الماء .. وجدتتها .. وجدتتها .. ضحك أصدقاؤه وسألوه : ما هى ؟ قال فكرة سليمة لحل مشكلة الطبع .. وفى لهفة قال له أكثر من واحد : وما هى الفكرة ؟ قال نطبع المنشور فى الأرياف !! عندئذ أبدى الجميع دهشتهم ، فى الأرياف ؟ وقال واحد : كيف ؟

- نذهب إلى حاضرة ريفية بها مطبعة .. حيث لم تتعرض مطابع الأرياف فيما أظن إلى ما تعرضت له أية مطبعة فى الإسكندرية .. فليس هناك بوليس سياسى فيما أعتقد ، ولا يوجد أى مبرر لى يطلب مأمور المركز مثلا صورة من حروف المطبعة القائمة فى حاضرتة .. وعلى ذلك فإن أية مطبعة ريفية سوف تقبل طبع المنشور ولن تتعرض لأى خطر .

وبدا على الجميع الاقتناع بسلامة هذه الفكرة التى هبطت من السماء .. وتكونت لجنة فرعية مهمتها القيام بالطبع خارج الاسكندرية ، ثم تعود وتخطر الباقيين بعودتها لى يفكروا وقتها فى خطة التوزيع . على أن يكون الكتمان هو الحصن الذى يبعدنا عن أى فشل . وتسلمت اللجنة الفرعية النقود وصيغة المنشور وذهبت تحت جنح الليل إلى حال سبيلها .

٣ - التاكثيك البارع :

بعد يومين اتلقى الطالب الشاب مكالمة تليفونية من أحد أعضاء اللجنة المكلفة بطبع المنشور .. كان يتكلم من الإسكندرية ورنين الفرحة فى صوته .. قال : كل شيء تم بنجاح وأنا فى انتظارك فى بيتنا بمحرم بل ومعى بقية الأصدقاء .. عندئذ انطلق مسرعا إلى بيت هذا الصديق ومع صديقان آخران .. ولم يكن هذا الصديق سوى الطالب عبد اللطيف عبد النبى خليف .. كان شابا متحمسا ، وذكيا ، وقادرا عل تحمل المسئوليات الكبار .. وهناك فى منزل هذا الصديق فوجئ بكلمات المنشور المطبوع مكدسة فى إحدى الغرف وسمع قصة طبعها فى مدينة كفر الزيات ، بكمية قدرها عشرة آلاف منشور .. وبعد الثناء على حسن التصرف الذى تم قال الطالب الشاب والآن يجب أن نخطط بسرعة لى نتم توزيع المنشور ، وسأله البعض كيف ؟

لم تكن الخطة جاهزة فى رأسه .. ومع ذلك فقد تجاسر واقترح ما اتفقوا عليه . قال رأى أن تقوم الآن بتقسيم هذا الكم الكبير إلى أقسام بعدد أحياء المدينة بحيث يختص كل حى بألف منشور . تغليف بغلاف ملصق ، ويكتب عليه اسم الحى الذى سيوزع فيه . وإلى جوار الاسم تكتب كلمة « القاسعة مساء بالضبط » . ثم بعد الانتهاء من

هذه العملية تجمع نصيب الأحياء في حقيبتين اثنتين حقيبة ينطلق بها واحد منا إلى قهوة الإسعاف والآخرى ينطلق بها الثانى إلى قهوة العثمانية بالمنشية .. وعلى كل من هذين الواحدين أن يجلس ليشرب ما يشاء . فإذا قدم عليه شخص يعرفه . وقال له هات الأمانة سلمه اعتبارا نصيب أى حىٌ وسوف أذهب أنا لتجنيد الموزعين وتزويدهم بالتعليمات اللازمة

وبالفعل تم تنفيذ الاقتراح ولم يبق في مجلسه إلا وقد وضعت المنشورات في الحقائق بعد تقسيمها وتغليفها وكتابة اللازم عليها .. وقال وهو ماض إلى مسكن الطلاب ومعهدهم .. أرجو أن يفرق هذا المنشور كل الأحياء في زمن لا يزيد عن عشر دقائق .

وقرأ الارتياح في عيون زملائه لنجاح هذا التاكثيك قبل أن ينصرف عنهم . وساعدته خبرته بطلاب المعهد على اختيار من يصلحون لتلك المهمة .. فكان يدعو الواحد منهم ويهمس في أذنه أن ينتقى زميلا له يثق فيه وينطلق فورا إلى مقهى « كذا » وستجد هناك « فلانا » فلتسلم عليه أنت وزميلك . وسوف يعطى لكما كماً مطلقاً من المنشورات مكتوب عليه اسم حى من أحياء المدينة . عليكما أن تنطلقا بها إلى هذا الحى وأن تنما التوزيع في الموعد المحدد بالضبط حتى لا تتعرضا أو تعرضا زملاءكما في الأحياء الأخرى لخطر الشرطة .. ولك ولزميلك حرية ابتكار الطريقة التى يتم بها التوزيع . شريطة أن يتم التوزيع في أقصر وقت ممكن .. وهكذا تم له تكليف فريق من عشرين طالبا القيام بهذه العملية الجسورة .. لم يشعر أحد من المكلفين بغضاضة ، ولم يبد على أى منهم التردد ، وذهبوا على التوالى بملابسهم التى كانوا يلبسونها حتى لا يبطنوا .. والغريب أن كل ذلك تم في كتمان مطلق . بحيث لم يشعر أى من الطلاب غير المكلفين بأى شيء ..

وما إن فرغ من مهمة التكليف حتى جلس ينظر إلى ساعته في قلق .. وكان إلى جواره واحد من اللجنة له دراية بالذى سوف يحدث بعد قليل .. سأله فجأة أنت قلق ؟ فتظاهر بعدم الاهتمام مخفيا قلقه .. وقال لا . فقط أخشى أن يتسرع أو يبطئ البعض فتقع الخسائر التى لا نرجوها ونحن في بداية البداية .

وبلغت الساعة التاسعة مساء .. وأخذ قلبه يدق دقا عاليا يكاد يسمعه ، ولكى يدارى اضطرابه قام يتمشى مع صديقه في دهاليز المكان ، حتى إذا مضى ربع ساعة فقط بدأت طلائع العائدين من أداء المهمة يفدون إليه وهم في غاية السعادة والزهو بما صنعوا .. وما إن بلغت الساعة التاسعة والنصف حتى كان الجميع قد حضروا .. لم يتخلف أحد ، ولم يخطئ أحد في تنفيذ التعليمات ، وأبتدع الكثيرون منهم طرائق مثيرة للتوزيع .. ولولا التوقيع الذى تذيّل به المنشور لما تنبه أحد إلى نوعيتهم .

وأخذ الطلاب يرقصون ، ويغنون ، ويمرحون ، ويتبادلون التهاني ، والنوادر التى صادفتهم أثناء قيامهم بهذا العمل المجيد .

٤ - جولة في المدينة :

واهتم الطالب الشاب بعد ذلك بالوقوف على الأثر المباشر لهذه العملية بين جماهير الشعب التى لابد أنها تتحدث الآن في أمر هذا المنشور ، فاقترح على صديقين له أن ينطلقوا ثلاثتهم إلى شوارع المدينة لكى يتبينوا الأمر . وعندما بدعوا التجوال كانت الساعة بعد العاشرة مساء ، وحاول زميلاه إقناعه بركوب المواصلات المتجهة إلى أى اتجاه ولكنه رفض . وقال إننا يجب أن نسير راجلين لكى نعرف ما نريد ، ومضوا يسيرون كيفما اتفق . ولشد ما أسعدهم هذا النشاط المحموم لسيارات ورجال الشرطة المنهمكين في البحث عن الجناة الذين ارتكبوا

حماقة توزيع المنشور بل إنهم نعموا ببعض الاعمال التي أضحتهم .. فهذا واحد من رجال الشرطة يحاول تمزيق منشور ملصق على بوابة محل تجارى بينما كان على ظهر المعطف الذى يلبسه منشور ملصق لم ينتبه إليه . وساروا يستمعون إلى تعليقات الناس على توزيع المنشور فيبهرون .. فالتاس دائما يميلون للمبالغة ، ولقد كانوا يبالغون فى تقدير حجم ما تم توزيعه إلى درجة خرافية . وكانوا أكثر مبالغة فى تقدير الأثر المنتظر حدوثه بعد هذه الحركة الجريئة .

وانتهى المطاف إلى محل البان كان يديره بعض طلبة الجامعة فى حى « محرم بك » وهناك جلس الثلاثة مع مجموعة من طلاب جامعة الاسكندرية ، وبدأت المحاورات حول المنشور ، وحول القضية الوطنية ، وضرورات النضال من أجل التحرير ، وكان بعض الطلاب يأنسين من حدوث أى تقدم لأن الاخلاص منعدم ، والضمائر ميتة .. الخ ما يتضمنه قاموس البائيسن من عبارات متخاذلة ..

واندفع الطالب الشاب يهاجم هذا الاتجاه بكل عنف ، ويستحث فى الجميع نخوتهم الوطنية وغيرتهم على المقدسات المنتهكة ، وقال لهم إن اضعف الإيمان إن لم تكونوا قادرين على التحلى بشجاعة المجاهدين أن تلوذوا بالصمت .. أما أن تنطقوا بما يخذل النفوس الشابة ، ويدفعها إلى اليأس والقنوط .. فذلك مسلك يجلب العار على كل من يشترك فيه .. وزادت حدة نبرته وهو يقول إن من أوجب الواجبات ونحن نجاهد من أجل الوطن .. أن نجاهد أيضا دعاة التخاذل واليأس .

ولم يجد مجادلوه أمام هذه المهاجمة الحادة إلا أن يسكتوا .. فالأمر جد لا هزل فيه ، ولا مجال لاستمرار الدعوة التى كانوا يدعون إليها . وانتهت المناقشات بانصراف الجميع بعد منتصف الليل والجو عاصف شديد البرودة

٥ - رجع الصدى :

كان أخطر ما فى هذا المنشور دعوة الشعب لحمل السلاح ، والاستعداد ليوم قريب ينطلق فيه النداء للعمل .. وكان المنشور يعد الشعب بأن هذا اليوم سوف يحدده منشور آخر !!

من هنا اهتمت الدوائر السياسية والأمنية بالصدى الواسع الذى لقيه هذا المنشور وبخاصة بعد أن اذاعت محطة الشرق الأدنى نص المنشور فى اليوم التالى لتوزيعه . واتجهت أنظار الجهات الرسمية إلى هذا الازهر القائم فى الاسكندرية ، وكان أشد تلك الجهات تحسبا للموقف رجال القلم المخصوص . هؤلاء الذين لم يعلموا بأمر هذا المنشور إلا بعد أن اذيع . وقرأه الناس . وكان أسوأ ما أصابهم بالهلع أنهم اكتشفوا نسخا من هذا المنشور فوق مكاتبهم الرسمية عند صباح اليوم التالى لتوزيعه

وبدعوا حركة التحريات الواسعة المعتادة فى مثل هذه المواقف .. لكن الذى زاد من اضطراب الأمور عليهم وصول أخبار عن توزيع هذا المنشور فى خارج محافظة الاسكندرية .. ذلك لأن اللجنة التى قامت بطبع وتوزيع هذا المنشور قد نجحت فى تسليم كميات منه إلى بعض الوطنيين من خارج المدينة .

وكان الانطباع الذى تركه هذا المنشور بعد توزيعه عند الناس العاديين أو الرسميين ، ودوائر الإعلام المهمة هو أن وراء هذا المنشور تنظيما ثوريا مدربا على حمل السلاح وله القدرة على قلب ميزان الحركة فى مصر خلال وقت قريب .

وكان رد الفعل لكل ذلك أن لجنة شباب الازهر بالاسكندرية قد تملكها الزهو ، واعتقدت أنها على الطريق الصحيح ، وبخاصة عندما سمع أعضاؤها من كبار أساتذتهم ثناء ومدحا وإطراء على المنشور ومن طبعوه وقاموا

بتوزيعه عندئذ فهموا أنهم ليسوا نشازا ولا يدعوا في تلك الظروف التي تتطلب أعلى قدر من الاندفاع والتضحية وزاد من هذا الاعتقاد عندهم أن بسطاء الناس كانوا قد حفظوا فقرات كاملة من هذا المنشور وأخذوا يرددونها مصحوبة بالابتهاال الى الله أن ينصر هؤلاء الشباب كل ذلك قد أكد لهم أن بدايتهم تلك هي البداية المناسبة التي تساعد على خلق الجو المناسب للعمل الكبير والعمل الكبير لا يكون إلا بالشعب الكبير

٦ - فرقة الصدام :

وفي ضوء هذا الفهم الذي انقذ في أذهان تلك الحفنة من شباب الطلاب الازهرين الفقراء قرروا القيام بتشكيل أولى فرق الصدام الشعبى في هذه المدينة .. ولكن كيف ؟
لقد اتضح في الايام التالية لتوزيع هذا المنشور أن الشعب يتطلع بالفعل الى من يقوده . فالكثيرون من أبناء هذا الشعب عن طريق إعجابهم المتزايد بهؤلاء الشباب المجهولين كانوا يعدونهم ضمنا بأنهم سوف يقفون منهم عندما تقع الواقعة !! ولكن ما هي تلك الواقعة التي ستقع ؟ سال الشباب أنفسهم هذا السؤال وتبين لهم أن أية محاولة للاصطدام بالمحتلين المرابطين في قلاع المدينة أو غيرها سوف تتصدى لها قوات الشرطة المصرية ، ودوائر الامن الحكومية المسئولة . ومعنى ذلك أن الصدام سوف يقع أول ما يقع بين المصريين والمصريين .. وأن الاعداء المستهدفين لن يصيبهم أى ضرر !!

ولفترة قصيرة سيطر التردد على جوهذه الجماعة الفتية المناضلة . ولم يستطع احد منهم التوجه إلى فتح ثغرة في جدار هذا التفكير الذي كان يخشى تحول الموقف إلى صدام دموى بين أبناء الوطن الواحد . وانطلق الطالب الشاب بلمس العون من الاتصال ببعض الوطنيين من طلاب المدارس الثانوية . هؤلاء الذين قد تعرف عليهم أثناء فترة الحرب ، ومحاولة الثأر من عريضة جنود الانجليز . وأدت الاتصالات والمناقشات المستمرة الى اليقين بأنه لابد من الاصطدام بين المصريين والمصريين . وأن ثمرة هذا الصدام سوف تكون هي الشرارة الضرورية لإشعال لهيب الثورة في مصر كلها ... !!

وتقرر عقد اجتماع لإصدار بعض القرارات في هذا الصدد .. وعند الاجتماع حدث خلاف بين الاعضاء . فالجميع متحمسون للإنطلاق من نقطة التظاهرات الطلابية المتحدية . وعليها أن تتصدى لآى عدوان يقع عليها حتى ولو بالاستشهاد .. لأن غاية الغايات هو أن يتحرك الشعب مقتديا بهؤلاء الذين يبدعون . لكن الطالب ، الشاب لم يقتنع بهذا التفكير ، ووقف يحذر من نتائج الصدام غير المتكافئ على معنويات المتظاهرين الذين سوف لا يكون في حوزتهم غير الحناجر والهتاف . ومن ثم طلب التريث حتى يتوفر حد أدنى من التسليح القادر على الدفاع ولو جزئيا عن تلك المظاهرات المنتظرة ..

لكن حماس المجتمعين لم يجعلهم يصغون إليه فاضطر إلى الخضوع لرأى الأغلبية من زملائه وزملاء المدارس الأخرى ، وضرب الجميع موعدا لانطلاق المظاهرات في قلب المدينة صباح التاسع من فبراير سنة ١٩٤٦

٧ - هزيمة الجنرالات :

علمت دوائر الامن بالذى سوف يحدث . فأعلنت حالة الطوارئ ، وأصدرت الأوامر بالتصدى للمظاهرات ، ومنعها من الخروج على أى وجه . وفي صباح هذا اليوم حضرت الحشود من قوات الامن ، وأخذت مواقعها بقيادة الضباط الكبار عند مداخل الشوارع المؤدية إلى الباب الرئيسى للمعهد .. وبالمطبع كانت هذه الحشود تحمل

الهرارات ، والدروع ، والبنادق ، وبدأ لها أنها قد أحبطت خطة الطلاب في مهدها ...
لكن الطلاب - وقد رأوا - تلك الحشود لم يستسلموا لليأس ، وسارعوا إلى إغلاق الباب الرئيسى بينهم وبين
الشرطة بعد أن كتبوا عليه لافتة تقول « احذر فالالباب مكهرب » ،

وتبارى خطباؤهم في إثارة الحماس ، والدعوة لاقتحام كل الحواجز من أجل إظهار المشاعر الوطنية ، والتفانى
في سبيل عزة الوطن واستقلاله . وبعد هذه الخطب الحماسية نبتت فكرة وافق عليها الجميع . وكان ملخص تلك
الفكرة أن يصعد إلى سطح المبنى من يتظاهرون بحمل سلاح . كان في حقيقته بعض مواسير المياه .. ويطلبون من
حامل السلام الحقيقي في الشارع أن يبتعدوا عن المكان ، وإلا عرضوا حياتهم للخطر . كل ذلك من أجل منع الشرطة
من اقتحام المبنى . وفي هذه الأثناء يتم فتح الباب الخلفى الموصل إلى أزقة لم يدخل في حساب الشرطة حراسها ،
وينطلق الطلاب من تلك الأزقة صامتين ، وحاملين معهم كميات من الحجارة .. فإذا بلغوا مركبات الترام المتجهة إلى
حي الجامعة ركبوا .. وفي عربات الترام هذه عليهم أن يملئوا الشوارع التى يمرون بها بالهتاف العالى لحياة الوطن ،
وسقوط الاستعمار وأعوان الاستعمار .

وتنفذت الخطة ، وابتلع الجنرالات الطعم ، وظلوا مرابطين في مواقعهم بينما ثلاثة من الطلاب فوق سطح المعهد
يهددونهم بإطلاق النار على من يقترب منهم .. ويحذرونهم من استمرار مرابطتهم على هذا النحو الغريب .. وفي تلك
الأثناء كانت جموع طلاب المعهد الأزهرى قد وصلت إلى الجامعة في مبناها الرئيسى بحى محرم بك . وفوجئ الحرس
الجامعى بالأبواب تقتحم عليه ، وبرعود الهتافات تنطلق من الحناجر الشابة . وتدعو طلاب الجامعة للعطاء ..
وفي دقائق معدودة كان طلاب الجامعة قد تجاوبوا ، ونزلوا كالسيل الهادر من قاعات الدرس يهتفون
ويصيحون ، واختلط الجميع وهم يرددون أناشيد الوطنية ، وقرروا فوراً الزحف على شوارع المدينة .. وفي الشارع
الرئيسى الكبير سارت الآلاف في موكب المطالبة بالجلء ووحدى وادى النيل .

راحت القلوب العطشى لمثل هذه المواقف ، فوقفت السيدات في شرفات المنازل يحيين المتظاهرين بالزغاريد ،
وأغلق أصحاب المحلات التجارية محالهم ، وانخرطوا في الموكب المهيب يهتفون ، ونزل ركاب المواصلات التى توقفت
وفعلوا مثلما فعل المتظاهرون ومع استمرار المسيرة تكاثرت العدد . وأضحى الموقف ينذر بالخطر ؛ وتذكر الطالب
الشاب كيف هزم الحماس الطلابى خطط الجنرالات وأفشلها .

٨ - الصدام الدموى :

وبلغت المظاهرات العارمة ميدان المحطة الفسيح ، وازداد حماس المتظاهرين عندما شهدوا جنود الاحتلال
فوق قلعة « كوم الدكة » المواجهة للميدان .. ولكنهم فوجئوا برجال الشرطة وبلوكات النظام ينقضون عليهم من
جميع النواحي ، وأخذوا يضربون بالهراوات ، ويطلقون عليهم الأعيرة النارية ، بينما أخذ المتظاهرون يدافعون عن
انفسهم بما لديهم من الأحجار ، وبعد قليل من الوقت فر المتظاهرون إلا من قبض عليه منهم . وصار ميدان المحطة
خالياً إلا من الجنود المدمجين بالسلاح ، وسياراتهم العسكرية ، وبعض الدماء التى سالت على الأرض أثناء لحظة
الصدام .

وكان الطالب الشاب ضمن من فروا إلى غير اتجاه ، ولما خشى أن تلحق به الشرطة دخل منزلاً وصعد على السلم
بغية الاحتماء فيه .. وأدركته عناية الله عندما فتحت له إحدى الأسر بابها وأدخلته إليها ريثما يهدأ ويكف الطلب
عنه .. واستمع في تلك اللحظات من عبارات التشجيع ما قوى عزيمته وطيب قلبه .. كما استمع إلى كلمات السخط
والغضب على هؤلاء الذين يطلقون النار على إخوانهم الوطنيين فاشتعل غضبه . وضاق صدره .

ولما اطمأن إلى أن احدا لم يعد يتعقبه نزل إلى الميدان وهو حزين لما حدث . وهناك التقى بزميله القديم ، عبد القادر عامر ، واخذ يوضح له كيف كان بعيد النظر عندما طلب التأجيل حتى يمكن تدبير بعض الأسلحة لكن عبد القادر لم يقتنع وقال له غدا سنرى أن ما حدث اليوم سوف يفجر غضب الشعب كله . وهذا هو المطلوب . وسارا معا يودان اختراق الميدان فاعترضهما رجال الأمن . وأمرهما بسلوك طريق آخر لأن كل الطرق المؤدية للميدان مغلقة . عندئذ امتثل عبد القادر أما هو فإنه لم يرغب في الامتثال وقال إننى حر أسير من أى طريق !! فما كان من الضابط القائد لهذه المنطقة من الميدان إلا أن أمر بالقبض عليه ، وتسليمه إلى « قسم العطارين » مع إبلاغ القسم بأنه هو الذى فقأ عين الجندي « أبو زيد » !!

عجب الطالب الشاب من أمر هذا الضابط الذى يريد أن يلفق له اتهاماً هو منه برئ . ونظر فوق رأسه وأشار بيده قائلاً هؤلاء الجنود البريطانيون أولى بحقوقك وغضبك يا حضرة الضابط !!

ولم يمهل الجنود الذين كلفوا القبض عليه بل سحبوه إلى « القسم » وبعد الاجراءات المعتادة قادة الجنود إلى غرفة فسيحة وجد فيها أكثر من مائة طالب سبقوه مقبوضاً عليهم . وكان الكثيرون منهم مصابين ، وثيابهم ملوثة بالدماء ، ووجدهم يجلسون وكأنهم أسرى الحرب . وكان من بين هؤلاء بعض شباب المعهد الذين شاركوه في لجنة مكافحة الامية الوطنية

انفعلت نفسه بمرأى الجميع ، وتذكر أن ما حل بهم اليوم لا يخدم احدا سوى المحتلين أعداء الوطن . ثم تذكر أن جنودنا وضباطنا المدججين بالأسلحة والخوذات والدروع في ميدان المحطة كان أولى بهم أن يصوبوا بنادقهم إلى صدور الأجانب المرابطين في المدينة . فامتلات نفسه بالغم والكمد والالم العميق .

٩ - فى انتظار التحقيق

كان هؤلاء الضحايا في أحد العنابر الخاصة بجنود البوليس . وكان يجلسون متلاصقين ينتظرون التحقيق معهم .. وكان يبدو على بعضهم الحزن والإشفاق مما سيحدث .. وما إن لاحظ الطالب الشاب ذلك حتى بدأ يتحدث مع هؤلاء الطلاب لكى يرفع من معنوياتهم ، ويبدد شبح الخوف من أنفسهم . فزعم لهم أولاً أنهم أبطال ، وأن قطرات الدماء التى سالت منهم اليوم إنما تشكل سطرًا من سطور الجهاد الوطنى الخالد ، ودعا كلا منهم للاحتفاظ بملابس الملوثة بدماء هذا اليوم للذكرى والتاريخ ، ولكى يباهى أولاده وأحفاده ويوضح لهم بالدليل أنه كان بطلا مجاهداً و سبيل مصر .

ثم استدار بهم بعد ذلك إلى قصص البطولة في التاريخ المصرى والإسلامى ، وكان يحاول الربط بين ما يتحدث عنه من بطولات ، وبين تلك المواقف المتخاذلة للحكومة وجنودها ، وضباطها الذين يسلطون نيرانهم على الوطنيين ويحبسون كل الجبن أمام أعداء الوطن .. وكثيرا ما كان يبلغ به الانفعال حد البكاء وهو يتحدث عن المهانة التى حلت بمصر ..

وظلت الأحاديث تتلو الأحاديث وهو لا يمل ، ووجد فرصته في تلك الساعات للتعرف على بعض الشخصيات التى لم يكن له بها علاقة سابقة . وكان من بين هؤلاء طالب الحقوق إذ ذاك محمود أبو واهيه .. لقد أقبل عليه وهو يتحدث وسأله عن اسمه وعنوان بلده ، ثم عرفه بنفسه وأخبره بأنهما « بلديات » ، وأنه من المهم أن تبقى لهما علاقة دائمة بعد الأفراج عنهما .. وبالطبع لم يرفض الطالب الشاب هذا العرض بل رحب به . فتلك كانت سجيته، إقامة العلاقات مع أكبر عدد ممكن من الناس

١٠ - أمام النيابة :

وبدأت النيابة التحقيق مع المقبوض عليهم ، واستدعيت الطلاب واحدا إثر الآخر . واستمر التحقيق منذ الثانية وحتى الرابعة مساء وكانت التهمة الموجهة لكل منهم هى التظاهر وإحداث الشغب . وكان كل من تم استجوابه يلوذ بالإنكار رغم الإصابات القاطعة بصحة الاتهام .. فلما جاء دور الطالب الشاب .. دخل على المحقق وجلس . ثم أجاب عن الاسئلة الأولية الخاصة بالاسم والسن والصنعة الخ .. وعندما سئل عن الاشتراك فى التجمهر والتظاهر ، واستخدام قذف الحجارة على رجال الأمن لم ينكر وقال إن من حقى كوطنى أن أهتف بحياة مصر مع كل المصريين .. اما واقعة قذف الحجارة وإصابة الجندى « أبو زيد » التى شهد بها جنديان سبقاه إلى الإدلاء بشهادتهما فإنه أنكرها .

وكان فى غرفة التحقيق عدد من المحامين الوطنيين الذى حضروا للدفاع عن الطلبة ، فلم يكتف بالإنكار . بل راح يشرح الكيفية التى تم بها القبض عليه ، والمناقشة الاستفزازية التى وقعت بينه وبين الضابط المنوط به حراسة الميدان .

وأحس أن النيابة أوسعت صدرها لكلامه ، فاسترسل وحول حديثه إلى إثارة وطنية . أمرت النيابة بتسجيل كل كلمة منها .. وبالرغم من نصيحة المحامين له فإنه لم يكف عن الاسترسال ، وقال إننى أعتقد أن المحامى ، ورجل النيابة ، والضابط ، والشرطى ، والطالب ، والعامل والفلاح والتاجر كلهم وطنيون .. وكلهم سوف يشتركون فى موكب الثورة على الاستعمار الإنجليزى ومن يقفون معه .. وظل الكاتب يكتب فترة طويلة بعدها سألته النيابة هل لديك أقوال أخرى .. قال لا . ووقع وخرج ليجد سيارة كبيرة فيها حشد من الطلبة المصابين فركب معهم .. واتجهت بهم السيارة إلى سجن الحضرة بمدينة الاسكندرية

١١ - ليلة نابغية :

انفتحت بوابة السجن الرهيبة ونزل النزلاء الجدد من السيارة بين صفين من جند الحراسة إلى الباب المفتوح فدخلوا ، ثم أمروا بأن يصطفوا إلى أن تتم الإجراءات ، وامتلأوا طبعاً للأمر . لقد كان كل شيء غريباً عليهم .. والوقت كان وقت الغروب ، وكأن بعض السجناء فى ملابسهم الرزية يقومون على بعض الخدمات فى فناء السجن ، وفجأة انفجر « أبو وافي » فى البكاء .. فقد طافت فى خياله صورة النعيم الذى يعيش فيه ولم تحتمل أعصابه رؤية السجن والسجان والسجناء .. وعندئذ اقترب منه الطالب الشاب ونهره بشدة .. وقال له كيف تبكى وأنت اليوم بطل من أبطال الجهاد فى سبيل مصر ؟ إنك لست واحداً من هؤلاء المذنبين ومرتكبى الجرائم . عليك أن تحتفظ بثبات معنوياتك حتى تكون جديراً بالاحترام ، ولم يزل به حتى جفف دموعه وكف عن البكاء .

وفى سرعة سريعة جرى بكمية من « الأبراش » المتآكلة ، والبطاطين المهلهلة . وأودع الطلاب فى الزنازين التى أغلقت عليهم . ولم تكن هناك إضاءة أو تدفئة .. ووجد طالبنا الشاب نفسه ضمن ستة أفراد فى إحدى الزنازين على الأرض الاسفلتية الباردة ، والتى لا يحول الفراش المتآكل بينها وبين أجساد من ينامون فوقها . وتوزع هؤلاء الستة تلك الاغطية الهلهلة فيما بينهم وحاولوا النوم ولكن هيهات !! فالزنازاة مفتوحة القضبان ، والليل ليل شتوى تعول فيه الرياح ، والتيارات الباردة تدخل من الشباك إلى الباب لافحة حادة .. والفراش ولاغطية لا تكفى لجلب أى نوع من الدفء . وهؤلاء الطلاب لم يتعودوا فى حياتهم الدخول فى مثل تلك التجربة القاسية .

تظاهر الطالب الشاب بالنوم ، بعد أن نصح بالاحتمال ، وسوى مكاناً على أرضية الزنازاة ووضع جسده فيه .

واقتردى به صديقه عبد اللطيف فصنع صنيعة . وسرت العدوى في الجميع مع تقدم الليل والشعور بالإرهاق لكن مطول الأمطار المختلط بصيحات الحراس ، مع استمرار فحيح البرودة لم يسمح بنوم أحد . وتلاحقت أصوات الجميع طلبا للدفء واتخذ جاره من صدره وعنقه وسادة أراح رأسه عليها لكي يستدفئ .. لكن النوم أقسم ألا يدخل جفن أحد إلى أن أصبح الصباح

١٢ - حفاوة السجان :

وبعد فتح الزنازين في الصباح فوجيء الطلاب بأنهم مطلوبون لمكتب مأمور السجن .. فلما بلغوه فوجئوا بأنه أخذ يصفاح كلا منهم ، ويرحب به ترحيب الكريم بضيفه العزيز .. وأجلسهم في مكتبه ، وطلب من رجاله تهية فرش وأغطية جديدة ووفيرة ، مع الاهتمام بتقديم كل الأغذية التي ترد إليهم من زائريهم فوراً .. وفي جنوبا لقال هذا المأمور العظيم : أنتم لستم مجرمين ، ونحن نتعامل معكم على أنكم من أشرف الشرفاء وأنا موسى عليكم من ابنتي التي هي زميلتكم والطالبة في كلية الآداب .. وإذا كنتم قد عانيتم أمس من البرد فتأكدوا أن ذلك لن يحدث مرة أخرى !!

خرج الطلاب من مكتبه وهم ممتنون لتلك الحفاوة ، ولهذه المعاملة الإنسانية الكريمة وعندما عادوا إلى العنبر ، الذي يضم زنازينهم وجدوا حفاوة أكبر من النزلاء الذين تقاطروا عليهم يصفاحون ، ويشجعون ، ويقدمون لهم ما يستطيعون من وسائل الترفيه المسموح بها ، والمنوعة على حد سواء وبعد قليل حضر من يستدعى طالبنا الشاب إلى مكتب المأمور ، ولشد ما كانت دهشته عندما رأى في هذا المكتب شيخا من شيوخ المعهد .. وكان هذا الشيخ ذا علاقة خاصة بمأمور السجن وقد حضر خصيصا للتوصية على الطلاب المقبوض عليهم ، ولتسهيل مهمة توصيل الأغذية لهم من زملائهم الذين أضروا على حضوره . وبعد المجاملة المعهودة من كل مصري يسدى له الجميل ، والشكر على تلك المشاعر عاد إلى زنازنته وأفهم زملاءه عن سبب استدعائه . ففرحوا ، وسعدوا ، وعرفوا أنهم في قلوب الآخرين .

وبعد قليل قدم الزوار من الأقارب والأصدقاء ومع الزوار جاءت الأخبار بأن مصر اليوم كلها في مظاهرات عارمة ، والحكومة تحاول قمع هذه المظاهرات بإطلاق الرصاص عليها ولكنها لا تستطيع ، وقد سقط العديد من الضحايا والشهداء .. والهتافات تدوى بسقوط الاستعمار وأعوان الاستعمار .

وأحدثت هذه الأخبار بين النزلاء والحراس نوعا من الغبطة ، فتسابقوا إلى استحضار الصحف من خارج الأسور بطرقهم الخاصة ، وقدموها للطلاب في آخر النهار كنوع من التكريم والاعتراف بالفضل .

واستمرت الأخبار تتجدد في كل يوم ، كما استمرت الحفاوة تتوالى ، ولكن الطالب الشاب كان مشغولا عن كل ذلك بمحاولة التعرف على موقف الإخوان المسلمين من تلك المعارك التي تدور في مصر الآن .

كان في تصوره أن الإخوان المسلمين هم القوة الوحيدة المنظمة والقادرة على قيادة الثورة حتى النصر . فهم الذين توفروا على إثارة الجماهير بالدين منذ فترة طويلة ، ولابد لهم الآن من دخول صريح إلى قلب المعركة .. لكن هنا التصور لم يرد من الأخبار ما يؤكد أو يثبت وقوعه ، وقصارى الأخبار التي كانت تبلغه في هذا الجانب لم تكن تعدو سوى أن الإخوان قد صدرت لهم التعليمات لقراءة الفاتحة أو بصلاة الغائب على أرواح الشهداء !!

كان يستمع إلى تلك الأخبار ويزداد الله ، لا لأن صلاة الغائب فرض كفاية ، والجهاد في مثل تلك الظروف فرض عين فحسب . وإنما لأن الفرصة مواتية والإخوان قادرين على اقتناصها والالتحام مباشرة بقوات الاحتلال فلماذا لا

يفعلون ؟ أليس الموت في سبيل الله اسمى أمانينا ؟ وإذا كان هناك اعتراف بأن الذين يموتون في المظاهرات شهداء فلماذا التقاعس عن الاستشهاد وخوض المعارك المؤدية إليه ؟

واهتم بالامر فكتب رسالة هربها إلى خارج السجن ، يرجو فيها تفسير هذا الموقف الذي لم يعد مفهوما لديه .. ولكنه قبل أن يتلقى الرد تقرر الإفراج عنه .

١٣ - مباحج الإفراج :

بعد أربعة أيام فقط من دخول السجن أفرجت المحكمة عن نصف المقبوض عليهم من الطلاب ، وبعد أربعة أيام أخرى تم الإفراج عن الباقيين لسقوط وزارة النقراشي باشا ، وتشكيل وزارة جديدة برياسة اسماعيل صدقي باشا .

وفي الفوج الأخير من المفرج عنهم كان الطالب الشاب ، وقد هاله عند الإفراج عنه قدوم زملائه عليه بكل الفرح والترحيب .. وهاله أكثر وأكثر أنهم أصروا على أن يذهبوا معه إلى قريته فوراً لأن والديه يرغبان في الاطمئنان عليه . وهناك وصلوا بعد أن خيم الليل بسكونه .. وما إن علم أهل القرية بالخبر حتى عمت الفرحة ، وانطلقت الزغاريد والأغاني . وانقلب سكون الليل إلى حركة صاخبة لم تهدأ إلا بعد وقت طويل .

وتعبيراً عن الفرحة الغامرة تفنن الأهل في تقديم وجبات الطعام ، وحاولوا أن يؤنسوا ضيوف عزيزهم بكل ما يقدرون عليه ، واستمرت مباحج الفرحة والسمرح حتى مطلع الفجر .

كيف لا وقد عاد للقرية عزيزها الذي غاب عنها ، وراجت الإشاعات الكثيرة حول أسباب سجنه ؟ أولم يقل البعض إنه كان يشتم الملك فقبضوا عليه ؟ .. أولم يزعم البعض أنه كون عصابة لتفجير القنابل فاعتقلوه وعصابته ؟ الخ أولم يؤكد لهم قادم من الاسكندرية أنه شاهده بعينه وهو يخرج مقبوضاً عليه من مسجد كان يريد أن يحرقه .. ؟ وهكذا ظهرت الآن حقيقة الموقف .. فليس هو إلا واحداً من الشبان الوطنيين الذين يريدون لمصر حريتها واستقلالها .. تذكر به بعض كبار السن ما كان يحدث في ثورة سنة ١٩١٩ وأقبل عليه يحتضنه وهويبكي ويقول أهلاً بالبطل . وعندما رأت وسمعت الأم قائل هذه العبارة كادت تشتبك معه لأنه يحرض ابنها على الهلاك !!

ومهما يكن من شيء فإنه قد استشعر من تلك التجربة أن الشعب يحب أبناءه المجاهدين ويعرف أقدارهم .. لس ذلك منذ فر هرباً من الأعيرة النارية بميدان المحطة إلى أن قبض عليه وحقق معه ودخل السجن .. ولس ذلك أيضاً في أعماق السجن ، وبعد أن خرج منه واستقبلته حرارة الشوق والاعزاز من زملائه وأهل قريته . وطاف بذهنه سؤال لم يستطع النطق به ؟ كيف يكون الحال لو نلت شرف الاستشهاد كغيري ممن سقطوا في مظاهرات الأيام الماضية ؟ وأحس بأن دماء هؤلاء الشهداء تسيل من حوله وتصرخ فيه . وفي كل الأحياء من بعدهم لكي تستحثهم على الثأر ، والوفاء لذكراهم .. ورن في أذنه بعض الأنين الذي كان ينطلق من صدورهم في خفوت وهم يهتفون بحياة مصر .. وهنا وجد نفسه يتحدث بصوت عال إلى من كانوا في وداعه إلى خارج القرية ويقول : إن أيام أو سنوات السجن لا تساوي قطرة واحدة من دم شهيد باع نفسه في سبيل الوطن .. ومن هنا فإنه من الواجب على كل المصريين من أهل القرى والمدن أن يثأروا لهؤلاء الضحايا الذين استشهدوا في معركة التحرير . ودعا شباب الفلاحين إلى تكوين اللجان الوطنية والقيام السريع بالمواظرة الفعالة لما يحدث في المدن !!

ولشد ما أسعده قول أحد أقربائه من الشباب .. سترى !! فنحن وإن كنا لم نتعلم مثلكم ، إلا أن لنا إحساساً ، وعندنا قدرة لا تقل عن قدرتك . فقط نريد من يد لنا على ما يجب فعله .. عندئذ صافحه الطالب الشاب

ووعده بأن يكون هو هذا الدليل وطلب منه نهية عدد من شباب القرية للاجتماع بهم في اقرب وقت ممكن - وكانت السيارة القادمة إلى الاتجاه الذي سوف ينجه إليه مع رملاته قد وصلت - فاستقلها الجميع وانصرفوا

□ □

الفصل التاسع :

معركة الالتحام

١ - تداعيات الأحداث :

عاد زملاءه إلى الإسكندرية ، وكانت الأحداث تتداعى تداعياتها المبشرة بقرب التحام ثورة الشعب مع الاعداء . فما هي ذى مظاهرات الشعب الوطنية تستأنف سيرها بنفس الاندفاع الذى بدأت به وأكثر !! وما هي ذى اقاليم مصر المختلفة تشترك في تلك المظاهرات اشتراكها المؤثر والخطير !! وما هي ذى مدينة القاهرة يخرج طلابها وعمالها وكل أبناء شعبها إلى الشوارع تجاوبا مع نداء اللجنة الوطنية لعمال والطلبة في يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ .. ذلك اليوم الذى عرف فيما بعد بيوم « الجلاء » !! وأخيرا ما هي ذى تلك المظاهرات القاهرية تصطدم بالسلطات البريطانية مباشرة في ميدان قصر النيل ، ويتساقط الشهداء إثر الشهداء ، وتصطبغ الأرض الطيبة بالدماء !!

وكان يوم الجلاء في الإسكندرية صورة من يوم الجلاء في القاهرة . ولكنه لم ترق فيه الدماء . وكان الطالب الشاب في هذا اليوم مجرد فرد من الجماهير التى اكتظت بها شوارع المدينة ، وسارت تهتف للجلاء ووحدة وادى النيل . وكانت الوحدة الوطنية ثنجلية في هذا الموكب المهيّب . فالعمال ، والفلاحون ، والمثقفون والشيوخ ، والقسس ، .. الكل يسرون في تكاتف مطلق - ويرددون في إصرار عميق شعارات اليوم الرائعة - لم يكن أحد يستطيع أن يقول إن هناك حزبا او جماعة لم يجرفها التيار ...

ونجأة انطلقت صيحة الإخوان من مكبر للصوت تحمله سيارة « الله اكبر والله الحمد » ودهش لهذا الصنيع الذى لم يظهر طيلة الايام الماضية !! وكان يعرف طبعا أن الحكومة قد سمحت بالمظاهرات في هذا اليوم انحناء للمد الثورى الذى يجتاح البلاد . وهنا تملكه الخوف من أن يتفرق المتظاهرون خلف شعارات حزبية أو طائفية . فشق الصفوف وغالب الزحام حتى بلغ مقعد القيادة في تلك السيارة . وكان الجالس إلى جوار هذا المقعد الاخ المحامى المعروف « مختار عبد العليم » ولم يكن قد رآه منذ ٢ نوفمبر سنة ١٩٤٥ وما إن التقت أعينهما حتى تصافحا بحرارة .. وطلب من الأستاذ مختار الاقتصار على شعارات الجلاء ووحدة وادى النيل . حتى لا يختلف معه أحد !! وتعجب المحامى الشاب من هذا المطلب بزعم أن شعار « الله اكبر والله الحمد » لا يمكن الاختلاف عليه - لكن الطالب الشاب قال هذا شعار الإخوان المسلمين ، وليس كل المتظاهرين من الإخوان المسلمين .. ومن الممكن أن ينطلق الآن شعار « الله اكبر والمجد لمصر » وهو شعار خاص بمصر الفتاة . وهكذا تنقلب صورة الوحدة الوطنية إلى صورة من الفرقة والخلاف .. عندئذ قبل الاخ المحامى تلك الحجة واقتصر الشعارات المنطلقة من مكبر الصوت في معظمها على ما يردده الجميع منذ بدأ اليوم - الجلاء بالدماء عاشت وحدة وادى النيل ..

٢ - أخبار خطيرة

ومع القادمين في مساء اليوم من القاهرة ، تناثرت الأخبار في الاسكندرية مشيرة إلى أعداد كبيرة من الضحايا .. وقالت تلك الأخبار إن مظاهرات القاهرة كانت عامة وشاملة لجميع الأحياء . وقد تساندت معها مظاهرات أخرى بإقليم المنصورة وغيره من الأقاليم .. وأن صداما مروعا وقع عند وزارة الخارجية حيث تقوم ثكنات الإنجليز .. وأن .. وأن .. الخ

وفي صباح اليوم التالي أصدرت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة بيانا عن الأحداث التي وقعت ودعت كل المصريين إلى يوم آخر للحداد على أرواح الشهداء !!

وظهر للجميع أن وجه مصر سوف يتغير تغيرا ثوريا عميق الأبعاد .. فالكثيرون من الشباب قد اتجهوا بالفعل إلى محاولات تسليح أنفسهم .. لأنه من غير المعقول أن يقدم الشعب الأعزل كل يوم ضحايا بينما خصومه وأعداؤه يطلقون عليه الرصاص . ثم يظل هو على نفس الحال .

كما ظهر للجميع أن هذه اللجنة الوطنية للعمال والطلبة قد تأكدت قيادتها باستجابة الشعب لها في يوم ٢١ فبراير .. وأنها إذا استجاب الشعب لندائها الأخير فلنفس يفلت الزمام من أيدي كل الأحزاب .

وعندئذ تكونت لجنة أخرى باسم اللجنة القومية ، ودعت إلى نفس الغرض السابق الذي هو يوم للحداد على أرواح الشهداء . وكانت اللجنة الأخيرة مكونة من صالح حرب باشا عن الشبان المسلمين ، والشيخ حسن البنا عن الإخوان المسلمين ، والاستاذ أحمد حسين عن حزب مصر الفتاة وآخرين .

ووقع خبر تكوين تلك اللجنة الأخيرة وقع الصاعقة على الكثيرين من الشبان الوطنيين . ذلك لأنهم لم يروا فيه إلا بداية للانقسام الذي سوف يهدد الحركة الوطنية قبل أن تبلغ قوتها . وبدأ الهمس حول لعبة جديدة يتم إعداد المسرح لها . ولكن أحدا لم يكن يجرؤ على اتهام أحد بالتواطؤ والخيانة ، وقال العقلاء ما دامت اللجنة القومية تدعو إلى ما تدعو إليه اللجنة الوطنية فلنفس يتوحد الجميع في حقل العمل .

٣ - يوم الحداد الوطني :

وكان اليوم المحدد لإعلان الحداد الوطني هو يوم ٤ مارس سنة ١٩٤٦ - وقبل حلوله شغلت لجنة شباب الأزهر بالاسكندرية نفسها بمحاولة مواساة أسر الشهداء . فانطلق عدد من أعضائها يحملون للصناديق المغطاة بقماش أسود ، والمكتوب عليها عبارة « تبرعوا من أجل أسر الشهداء » ، انطلق هؤلاء إلى الشوارع والحوانيت وكان السخاء المصري أكبر وأعظم من كل التصورات التي يتسع لها الخيال ..

لم يكن المقصود هو جمع المال . وإنما كان المقصود هو إشراك الجماهير الواسعة في الارتباط الإيجابي بالحركة الوطنية .

وتم جمع قدر كبير من المبالغ التي أرسل معظمها إلى الجهات التي كانت تتلقى التبرعات من جميع أنحاء الوطن . وما بقي من هذه المبالغ تم دفعه لشراء أسلحة سوف يتحتم استخدامها في المسيرة الطويلة للعمل الوطني المقبل .

ومن جانب آخر فقد نشط صدقي باشا رئيس الوزراء ، وتعددت تصريحاته التي تقول للوطنيين انه معهم . بل ويسبقهم إلى المطالبة بالجلاء ووحدة وادي النيل . وعن طريق هذا النشاط وتلك التصريحات أمكنه استقطاب بعض الناس لسياسته . وأخذوا يروجون مقولتهم الخادعة أو المخدوعة . ومؤداها أن هذا الرجل قد تاب ، وأنه يريد أن يكتب له في نهاية حياته موقف وطني شريف !! وكان مجموع الوطنيين يستقبلون تلك المقولة بالرفض أو التحفظ .. ذلك لأن ماضى الرجل مع الحركة الوطنية معروف ومشهور وأكبر من أن تغيره تلك الكلمات الخادعة .

وجاء يوم الحداد الوطنى العام - وكان الطالب الشاب في ضيافة صديقه الاثير إلى نفسه بمنزله الذى سبق استخدامه مخزنا للمنشورات .. وكانت أسرة هذا الصديق قد تداعى أفرادها من قريتهم بمركز كفر الدوار لى يقوموا بحصارهما ومنعهما من المشاركة في هذا اليوم !! ولجأت هذه الأسرة إلى حيلة مكشوفة . فقد جلس أفرادها يحيطون بالشاب وصديقه ، ويسمرون معهما انتظارا لأكواب الشاي الذى أوصوا بأن تتم تسويته فوق موقد « سبوتو » هادى !!

ونظر الصديقان كل إلى الآخر ، وقررا الإفلات من هذا الحصار .. فكان لهما ما أرادا . حيث غافلا الجميع . وقفزا من شبك خلفى .. وبعد وقت قصير كانا في قلب معمعة الصدام مع قوات الاحتلال التي كانت مرابطة في عدد من العماثر بميدان محطة الرمل في الاسكندرية .

٤ - لحظات لا تنسى :

كان الميدان الفسيح غاصا بالجموع الهادرة من الشباب القادمين من المنشية ، والقادمين من الاتجاه المضاد ، وكانت الحناجر تتعالى شعاراتها الوطنية كأنها هزيم الرعود . الكل يهتفون للجلاء . وسقوط الاستعمار .. والكل يتعاهدون على مواصلة الجهاد حتى تتحقق آمال الشهداء .

وفجأة انطلق الرصاص من نوافذ العماثر التي يقيم فيها الجنود الإنجليز ، ولم ينتبه المتظاهرون إلا وقتلاهم يسقطون صرعى بالعشرات .

لم يكن المتظاهرون يحملون أسلحة لى يردوا بها ، لكن إيمانهم بعدالة قضيتهم كان أقوى من كل سلاح .. وبسبب هذا الإيمان فإنهم اتجهوا بكل قوتهم الزاحفة صوب تلك العماثر التي ينطلق منها الرصاص .. وهناك وجدوا محطة بنزين قريبة منها فاندفعوا نحوها ، وحطموها ، وأخذوا يخلعون ملابسهم ويفمسونها في سائل البنزين ثم يشعلونها ويقذفونها على نوافذ تلك العمارات وهم يصيحون نموت نموت وتحيا مصر .. وفي لحظات قليلة اشتعلت النيران في تلك العماثر بينما قلت طلقات الرصاص وتباطأت ..

لكن كشكا خشبيا كان قابعا في قلب الميدان أخذ ينطلق منه الرصاص .. وتنبه المتظاهرون فاندفعوا إليه غير مباليين بضحايا الرصاص الذين يسقطون منهم .. واستمروا يندفعون حتى بلغوه وحطموه وقتلوا كل من كان فيه ..

لقد كان في هذا الكشك الخشبي ستة من الجنود الانجليز ، وكانوا مسلحين بالرشاشات ويبدو أنهم

وجدوا الفرصة مواتية للثأر من حريق العمارات الذى لا بد أنهم رأوه فاطلقوا الاعيرة السريعة وبكم كبير ويبدو أن نفاذ ذخيرتهم قد عاقهم عن استمرارية الضرب فانقض عليهم المتظاهرون وأخرجوهم من الكشك قتل ، بينما استولوا على أسلحتهم التى لم تكن بها ذخيرة .

وشعر المتظاهرون بنشوة غامرة . فأحضروا علم مصر الأخضر ذا الهلال الأبيض والنجوم الثلاثة المتلألئة ، وألقوا هذا العلم على جسد هزيل لعامل مصرى كان له فضل اقتحام هذا الكشك بعد تحطيمه .. وحملوا هذا الجسد المغطى بالعلم فوق أعناقهم .. يسيل دمه فوق جبينه وهو يصيح .. « نموت نموت وتحيا مصر »

واشتعل الحماس فى المتظاهرين فأخذوا يرددون ما يصيح به هذا العامل وهم يشقون شوارع المدينة بينما حضرت سيارات الإسعاف لنقل المصابين ، وقوات الشرطة والجيش لإعادة الأمن إلى هذا الميدان بعد ما تفضيت أرضه بالدماء . !!

٥ - نجاة الجبان :

أثناء هذه الموقعة الحامية كان الطالب الشاب يندفع مع المندفعين صوب كشك الرشاشات . غير عابىء بالولت الذى يحصد الكثيرين من حوله .. وفجأة رأى نفسه وقد تمكنت منه عافية صديقه الذى كان يتفوق عليه بدنيا ، فإذا به يقيد حركته بعقد يديه من حوله . وبدأ يدفعه إلى الخلف بظهره .. بينما هو يصرخ فيه ، ويكيل له الشتائم ، وينتعه بالجبن والنذالة .. لكن كل ذلك لم يفلح ووجد نفسه وصديقه قد خرجا من الموقعة وأصبحا فى مؤخرة الصفوف . !! هنالك أعلن الطالب الشاب غضبه على هذا التصرف الجبان ، غير أن صديقه لم يبال بهذا الغضب ، وقال له : فى هدوء . لقد كان المتظاهرون يتساقطون كما رأيت .. وأنا لم أكن أستطيع أن أراك تسقط أمامى فاحتضنتك لكى يتم سقوطى من قبلك !!

وعلى الرغم مما ينطوى عليه هذا القول من صدق المحبة ونبل الوفاء . إلا أنه لم يقتنع به . وقال لصديقه صاخرا : هنيئا لنا نجاة الجبان !!

كان الميدان لم يزل مضطربا بالجنود والضباط المصريين ، وكانت على مقربة من كشك الرشاشات كتيبة من جنود الجيش معها ضابط شاب من معارفه .. رآه فاتجه إليه مصافحا ولفت نظره بعد المصافحة قوله لأحد جنوده : يا بنى آدم اجعل الميل ناحية الشارع !!

لم يفهم شيئا ولم يحاول أن يفهم لكن الضابط الشاب قد تطوع بتوضيح الامر فقال سوف يحضر الآن المحققون ليعاينوا مكان الأحداث ، ولو ترك ميل الثقوب التى أحدثها إطلاق الرصاص فى خشب الكشك على حاله ، فربما ترجع لدى المحققين أن القتل الانجليزى لم يكونوا هم المعتدين على المتظاهرين أولا ، ..

عندئذٍ اهتمت مشاعره ، وأخذ يصف الموقعة كما رآها ، ويبدى استعدادا للدلاء بأقواله إذا ما حدث التحقيق .. فنصح له الضابط ، ورجاه ألا يفعل حتى لا يتهم بالشغب !!

وهنا تذكر الفرق بين ضابط وطنى يستشعر الخوف على الوطنيين ، وبين ضابط آخر كاد أن يقضى على

مستقبله بتلفيق الوقائع وتزويرها يوم ٩ فبراير . ثم وجد بعد ذلك نفسه يشد ذراع صديقه الحميم وينصرفار

٦ - بداية الجلاء

بالروعة ما حدث في هذا اليوم !! لقد ظلت المظاهرات تجوب أنحاء المدينة المختلفة حتى جاء الليل ! وكان المتظاهرون يتنادون بالثار ، ويطالبون بالقصاص من المجرمين ، بينما كانت صرخات المحزونين والنكالي تملأ الأفاق ، فالشهداء والجرحى المصابون تكتظ بهم عنابر المستشفيات وأقنييتها ، وأمام كل مستشفى عشرات بل مئات الأسرى التي تندب قتلها . وكان المتظاهرون كلما مروا بهؤلاء وأولئك . يزداد اشتعال الألم ، فكان التظاهر يلفح وجوه الحزاني فيزداد نحيبهم ، وكان النواح والبكاء وقود يضاعف نار الغضب في قلوب المتظاهرين ..

وهكذا لم تستطع كل قوات الشرطة والجيش أن تفعل شيئاً نحو تسكين الغضب الذي انفجر كالبركان الهائل الذي لا يمكن التنبؤ يتوقفه مهما طال الزمن !!

هناك اجتمع المسئولون على مختلف المستويات في الدولة ، وانعقدت لقاءات سريعة مع المسئولين البريطانيين في مصر .. كما تمت اتصالات عاجلة بلندن .. ولم يكن هناك أدنى أمل في إعادة الحال إلى ما كان عليه قبل هذا اليوم الدامي . بل توقع الكثيرون أن يزداد الموقف انفجاراً لو تم أى تدخل بالقوة لمنع المظاهرات أو تحديدها .. وهكذا وجدت سلطات الاحتلال نفسها أمام اختيار واحد لا بديل له . فأصدرت إعلانها بإجلاء قواتها عن القاهرة والإسكندرية !!

وقع هذا القرار من نفوس الوطنيين موقع الفرح والبهجة رغم الجراح . وتأكد لديهم أن هذا الجلاء الجزئي لم يأت إلا ثمرة للجهاد والدماء التي أريق في سبيله .. وتطلعت الأعين إلى اليوم الذي ستجلف فيه قوات الاحتلال عن كل شبر من أرض الوطن .

ويعنطق الأحداث كان لابد أن يتوالى البذل والجهاد حتى يرحل كل المحتلين إلى غير رجعة - لكن ما حدث بعد ذلك كان على عكس هذا المنطق على طول الخط .

٧ - الكيد والقامر :

بعد يومين اثنين حضر إلى الإسكندرية صدقي باشا رئيس الوزراء . بينما المظاهرات كانت لا تزال مشتعلة بها .. وفوجئ المتظاهرون بدولته ينزل من سيارة صغيرة بميدان محطة الرمل دونما أية حراسة أو موكب رسمي .. وكأنه كان لا يريد أن يتعرف عليه أحد من المتظاهرين .. لكن المتظاهرين عرفوه . وسرعان ما اجتمعوا من حوله ، فدخل إلى صالون للحلاقة بشارع جانبي من شوارع الميدان . وكان معه ضابط واحد من ضباط البوليس السياسى بالإسكندرية . وتبعه عدد من المتظاهرين .. فقال لهم إننى حضرت لكى أعين بنفسى آثار الأحداث التي وقعت هنا أول أمس . وكان الشاب من بين الذين تبعوه ، فأخذ يصف الوقائع والأحداث ، وشرح له كيف كان المتظاهرون من أجل مصر يقبلون على الميدان من اتجاهات مختلفة ، وليس مع

أى منهم أى نوع من أنواع السلاح - وبينما هم يهتفون للجلاء ووحدة وادى النيل فوجئوا بالرصاص ينطلق عليهم من تلك العمارات التى نقف تحتها الآن . وقد تساقط المئات - ما بين شهيد وجريح . الأمر الذى أثار المتظاهرين فأشعلوا النار فى هذه العمارات - وأراد أن يستمر فقاطعه « دولة الباشا » وقال : عموما أنا واحد من هذا الشعب المصرى ، وأحب أن أبشركم بأنه لن يكون هناك جندى بريطانى واحد فى مدينتكم بعد اليوم . بل ولن يكون هناك جنود بريطانيون فى أية مدينة أخرى - فقط أنا أطلب مهلة للحكومة التى رأسها لكى نستطيع معكم تحقيق الجلاء عن كل الأراضى المصرية فى وقت قريب بإذن الله .

وكان المتظاهرون خارج صالون الحلاقة يزحمون الشوارع ويهتفون : الجلاء بالدماء .. لا إهمال بعد اليوم .. النار النار . النار النار .

سمع دولة الباشا هدير هذه الأصوات فامتقع لونه ، وأنهى حديثه مع الذين كانوا معه ، وانصرف مسرعا فى سيارة كانت تنتظره وبها بعض ضباط القلم المخصوص .

ويرد الفعل خرج الطالب الشاب من ذلك اللقاء منفعلا ، فارتقى قاعدة تمثال اسماعيل باشا ، ونقل صورة أمينة للحديث الذى دار مع دولة الباشا ، وعندما وصل إلى الإشارة الخاصة بطلب المهلة انفعل وصاح محذرا من الانخداع . وقال إن رئيس الحكومة يطلب الإهمال .. والجلاء الذى تم فعلا عن المدن إنما تم بغير إهمال . نظرا للمعارك الساخنة التى وقعت وراح ضحيتها عدد كبير من الشهداء الأبطال .. ثم قال : إن التراخى والإهمال سوف يؤدى إلى التسويف والمماطلة . بينما استمرار الجهاد والمثابرة عليه هى الكفيلة بتحقيق الجلاء عن كل تراب مصر .. وعند هذه النقطة حمل المتظاهرون على أكتافهم .. وظل يهتف للجلاء حتى بح صوته ولم يعد يسمعه أحد فأنزلوه .

٨ - قرن الفتنة :

وظل الوطنيون من الشباب يتواصلون بضرورة الاستمرار على نهج الثورة . حتى نحقق الاستقلال الكامل . ولكن قرن الفتنة أخذ يظهر بينهم - فإذا انعقد اجتماع ظهر بينهم من يدعو إلى إعطاء فرصة للحكومة لكى تعالج الموقف وتحقق الجلاء . وإذا قامت مظاهرة سمع المتظاهرون من يستشهد بالآيات القرآنية الكريمة لتزكية موقف « اسماعيل صدقى » فيقول « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان عند ربه مرضيا »

وكان من الواضح أن صدقى باشا قد نجح فى اصطناع بعض المؤيدين الذين يروجون لمقولة الإهمال ، رغبة فى العودة إلى سياسة التسويف والمماطلة . وإحباط الدعوات الشابة لتعميق الجهاد وتوسيع نطاقه .. ومن هنا انقسمت الصفوف ، ونجحت السياسة التقليدية للاستعمار الانجليزى .. فرق تسد . وأصبح الشباب يتضاربون بالعصى والكراييج وانشغل كل بخصم سياسته من المصريين بدلا من أن ينشغل الكل بضرب نفوذ المستعمرين .. وهكذا أخذت الحركة الوطنية تتراجع فى مواجهة المنقسمين عليها والمدعومين بنفوذ الحكومة التى لم يكن لديها أى استعداد للثبات إلى جانب سياسة التحرير الشعبية

صحيح أن طلبة جامعة الاسكندرية قد ظلوا في خنادق المراقبة مضربين حتى اقتربت امتحانات نهاية العام ، وأجريت امتحاناتهم بعد اجازة الصيف لكن ذلك لم يأت نتيجة تذكر .

ومضت حكومة صدقي في مفاوضاتها مع الإنجليز ، وأعلن أثناء ذلك عن مشروع صدقي بيجن . وكان ينص على ارتباط مصر بإنجلترا في حلف دفاعي مشترك . رفضته مصر كلها .

٩ - فكر جديد :

وفي غمرة الانقسامات والمشاحنات التي ولدها تألف البعض مع الحكومة ، وبخاصة هؤلاء الذين كانوا يعبرون عن وجهة نظر اللجنة القومية . أخذت تبرز الأفكار اليسارية التي تقدم التحليل للمواقف والاحداث استنادا إلى النظرية الماركسية التي لم يكن معظم الشباب على علم بشيء منها .

وعبرت هذه الأفكار عن نفسها من خلال المناقشات التي كانت تتم في اجتماعات اللجان الطلابية ، ومن خلال المنشورات ، والمطبوعات الدورية ، وبدأت هذه الأفكار تجد من يصفى إليها ويهتم بفهم أعماقها .. ويحاول توظيفها في حركة النضال ضد الاستعمار وأعدائه .

وعندئذٍ فزعت الدوائر الحكومية ، وبسرعة خاطفة أصدر صدقي باشا في شهر يوليو سنة ١٩٤٦ قانونا بتجريم الفكر الماركسي . إذا تم تحبيده أو ترويجه أو حيازته . وبلاستناد إلى هذا القانون قبضت الحكومة على أعداد غفيرة من الشباب الوطني . وتخلصت منهم إما بتقديمهم للمحاكمة أو بإلقائهم في غياهب المعتقلات . وكان الهدف الواضح هو تصفية الحركة الوطنية وتخليصها من عناصر المعارضة التي تقف ضد سياسته المتواطئة مع الإنجليز .

ومنذ تلك اللحظة أصبح سهلا على السلطات أن تتهم أي معارض لسياستها بتهمة الشيوعية التي لم تكن تعنى أكثر من الوقوف خارج مظلة الحكومة . والدعوة إلى إحباط سياستها الرامية إلى تثبيت أقدام الإنجليز في مصر .

١٠ - وطاة الإحباط :

وكان من أثر ذلك كله تفتيت الجهود الوطنية ، ووقوف الشباب في معسكرين متعاديتين تقتتلان وشعر الطالب الشاب بالإحباط وخيبة الأمل ، فهو لم يكن يتصور أبدا أن يكون هناك مصرى واحد يقبل المهادنة أو التفريط في حقوق بلاده ، وكانت سذاجته السياسية تؤكد له أن الانتفاضة الوطنية التي شارك فيها كل الشعب سوف لا تتوقف حتى تنتصر وتكتسح كل أعدائها !! والآن هو يرى بعينه كيف تحول الصراع ضد الاحتلال إلى صراع بين المصريين والمصريين !!

وأسوأ ما رآه من هذا الصراع كان الدور غير المفهوم الذي لعبه الإخوان المسلمون تأييدا لحكومة صدقي !! وكثيرا ما سأل نفسه ترى ما هي الأسباب الحقيقية لهذا الموقف الغامض عليه ؟ ولماذا لم يكن موقف الإخوان يعكس هذا الموقف ؟ أليس الجهاد ضد الإنجليز ومهادنتهم جهادا في سبيل الله ؟ ولماذا

الدفاع عن صدقي صاحب المواقف المشهورة ضد الشعب ؟ ترى ؟ وترى ؟ وترى ؟ أسئلة كثيرة أضنته واشقته ولم يجد لها أية إجابة !!

وكان إلى هذا الوقت عضوا في جماعة الإخوان المسلمين .. لكنه عضو غير منسجم مع السلوك العام لهذه الجماعة منذ ٢ نوفمبر سنة ١٩٤٥ - ومن أجل ذلك فإنه بدأ يصفى إلى التساؤلات الماثلة عند الكثيرين من شباب الطلبة وكان في البداية لا يكاد يطبق الاستماع إلى أية عبارة فيها شبهة النيل من سمعة الإخوان .. بل إنه كثيرا ما لجأ إلى الدفاع العنيف عن طهر ونقاء هذه الجماعة !!

كان هذا دأبه في الماضي . فما باله الآن يصفى إلى ما يقال من تجريح أو تشهير ، ثم لا يغضب أو يمتعض لقد سمح لنفسه أن يصفى إلى إشاعة تقول : إن المرشد العام قد تقاضى مبلغا كبيرا من حكومة صدقي لكي تصدر الجماعة صحيفة يومية .. يا للهول !! إن مجرد الاستماع إلى هذه الشائعة كان من وجهة نظره يعتبر إثما عظيما !!

١١ - الرحيل إلى القاهرة :

وأخذت الأمور تختلط عليه ، ولم يعد يقوى على مواجهة الهزيمة النفسية التي حلت به ، فقرر الهروب من الإسكندرية ، والارتحال إلى القاهرة . وقالت له نفسه إن الإسكندرية التي شهدت ذروة نشاطك لا ينبغي لها أن تشهد جزئك على الفشل الذي منيت به . عليك أن تذهب إلى القاهرة الواسعة حيث لا يعرفك أحد هناك ، وإياك أن يحدثك شيطانك مرة أخرى بالإنخراط في العمل السياسي أو الاقتراب منه .

إن عليك أن تتفرغ لتحصيل العلم الذي اشتهرت بالتفوق فيه . ولتحدد مستقبلك في هذا الإطار الذي من خلاله تستطيع خدمة وطنك أعظم الخدمات .

واستجابة لما أوحى إليه نفسه عمد إلى اتخاذ الإجراءات التي كفلت تحويل أوراقه إلى المعهد الديني بالقاهرة .. وما إن استقر في معهده الجديد حتى تعرف إلى بعض زملائه القدامى ممن سبقوه في تحويل أوراقهم منذ سنوات ، كما تعرف عليه بعض الذين سبق أن التقى معهم أيام معركة 'الأزهر ضد حكومة الوفد' ..

وكان واضحا أنه شديد الحرص على الابتعاد عن خوض معارك السياسة ، والاندماج بكلية في تحصيل العلم لكن هؤلاء الذين يعرفونه .. رغم قلتهم - أخذوا يتهمون هدوءه في مجالسهم الخاصة ، وينعتونه بمختلف اللقوب . وترامت إلى سمعه تلك الاتهامات التي بدأت تتناقلها الألسنة من حوله .. لكنه لم يهتم - وكأنه يريد أن يقول للمتقولين عليه قولوا ما تشاءون فإنني سوف لا أبرح الموقع الذي لجأت إليه هربا من لجاحات العمل السياسي المملء بالمؤامرات والمهاترات !!

وظل على تلك الحال أسبوعين تقريبا . ظهرت عليه مظاهر الجدية العلمية أثناء الدروس ، وتعرف عليه عدد من أساتذته من خلال المناقشات والمحاورات التي كان يتعمدها مع كل منهم .. لم يكن يلقي بالا لغير الاستذكار والدأب على الدروس التي بدأت تملك شغاف قلبه . وتستوعب كل وقته .. وكان كل من يعرفونه يتعجبون من هذا التحول الجديد !!

كان إذ ذاك يسكن غرفة في بدروم معهد القاهرة الأزهرى ، وكان محافظا على علاقته الحميمة بأستاذه الذى استضافه ذات يوم في حلوان ، وكثيرا ما كان يروح عن نفسه بزيارة بعض الأصدقاء .. وكان سمته الجاد لا يسمح لأحد بأن يقترب به من منطقة الهز المعتاد عند الشباب .. ومن أجل ذلك فإنه كان يقضى معظم الوقت وحيدا .. وحيدا إذا ذهب للصلاة أو إذا عاد منها . وحيدا إذا جلس للإستذكار أو فرغ منه . وحيدا إذا انطلق إلى الدرس أو خرج من أدائه .

وبعد أسبوعين اثنين انتقل من مسكنه في « البدروم » إلى منزل في شارع أحمد عمر بالحلمية الجديدة . وكان ذلك بواسطة مدير الأزهر والمعاهد الدينية - وفي هذا المسكن الجديد كان بعض من الطلبة الأكراد العراقيين ، وبعض من الطلبة الفلسطينيين ، ولم يكن هناك أحد من المصريين سواء .

أسعدته تلك الفرصة بالتعرف على أنماط أخرى من الناس .. كلهم يحمل هم وطنه في رأسه .. ولا يحلوه التحدث إلا فيه .. ورأى فيهم صورة من عدم التجانس في الآراء شأنهم شأن أبناء مصر .. لكنه من خلال الحديث إليهم استطاع أن يتعلم شيئا عن قضاياهم الوطنية والابطال الذين يقودون النضالات الوطنية في بعض الاقطار العربية والإسلامية .. وكان على رأس هؤلاء في منطقة كردستان بالعراق . « ملا مصطفى البرزاني » . وفي أرض فلسطين العربية الحاج أمين الحسيني ..

ومن خلال هؤلاء الطلاب نفذ إلى التعرف على بعض أبناء البلاد الاسلامية الأخرى .. صيفيين ، واتراك ، ومغاربة الخ .

وكان يقوم على رأس هذا الشارع من ناحية ميدان الحلمية المركز العام للإخوان المسلمين من ناحية ، ودار جريدة « الإخوان المسلمون » من ناحية أخرى .

وبالرغم من ذلك فإنه أصر على الاستمرار في منطقة الظل وقرر عدم العودة إلى الانغماس في السياسة .



الفصل العاشر

التحول الكبير

١ - من التقهقر إلى الهجوم

تحول طريقه إلى مسكنه من الهبوط من قاعة الدرس للبدرى ، إلى النزول والخروج من مبنى المعهد الأزهرى إلى الشارع فميدان الأزهر - فالطريق الممتد إلى الحلمية الجديدة .. وكان كعادته مؤخرا لا شأن له إلا بمواصلة خطته التقهقرية التى ارتضاها والتم بها . وإنه لماض إلى منزله كما تعود بعد دورس يوم الخميس ، وإذا به يشهد فى ميدان الأزهر حشودا ازهرية كبيرة العدد . ودفعه الفضول إلى السؤال عن سبب هذا الاحتشاد ، فجاءته الإجابة هكذا : رئيس الحكومة عند شيخ الأزهر للاعتذار !! سأل مرة أخرى : للاعتذار عن أى شيء ؟ وكانت الإجابة : عن ضرب الأزهرين بالرصاص فى اسبوط بالأمس !!

كان خالى الذهن تماما ، ولم يكن يعرف أن الأزهرين المحتشدين قد جاءوا لاستقبال النقراشى باشا رئيس الحكومة . ووقف مشدوها للحظة .. ثم تتمم وكيف يتقبل الناس اعتذارا عن قتلهم ؟ أهذا معقول ؟ وقبل أن يسترسل فى شروده حانت منه التفاتة إلى المحطة التى يريد الركوب منها إلى منزله . فأبصر طلابا ازهريين صفار السن على هامش هذا الحشد الأزهرى الكبير ، وتسمرت عيناه على هؤلاء الصفار فقد كانوا ييكون !! ظن فى أول الأمر أنهم فقدوا شيئا . أو اعتدى عليهم أحد ، فأنجذب إليهم لكى يطيب خواطرم ويشد من ازهرم .. وهو فى هذا منطلى مع تكوينه العاطفى الذى كان يجعل قلبه يذوب ذوبانا لمراى الدموع فى أعين البشر !! وما إن تحدث إليهم حتى عرف أنهم مفصولون من المعهد الدينى منذ أكثر من شهرين بسبب تظاهرم مطالبين بالجلاء ووحدة وادى الفيل !! كما عرف أن عدد المفصولين ثلاثة وستون طالبا وهؤلاء هم أصغرهم سفا . سألهم من الذى فصلهم ؟ فأشاروا إلى شيخ أسمر فارح الطول كان يقف على عتبات الإدارة العامة للأزهر وقالوا هذا الشيخ الذى يعمل مراقبا فى المعهد الأزهرى .

عندئذ قال لهم : عموما الذين يفصلون فى سبيل الوطن أبطال ، ولا يجوز للأبطال أن يضعفوا إلى حد البكاء !! ووعدهم بأنه سوف يعمل على عودتهم فى أقرب فرصة .. ولما تشككوا فى وعده أكد لهم أنه غير كل من وعدهم المساعدة فى الماضى .

ثم انصرف عنهم راضية نفسه بما فعل ، وأصر فى سريره على أن يكون صادق الوعد مع هؤلاء الطلاب ، لأن العدول عن الوفاء بالوعد خلق ذميم .

وظل مشغولا بتدبير أمر الوفاء بهذا الوعد بعد أن بلغ مسكنه ، وتردد بين اللجوء إلى المسئولين وطلب الحل منهم ، وبين البعد عن هذا المسلك الذى قد يوقعه فى الحرج . ولا يجدى نفعا فى حل تلك المشكلة !! وظل على هذا التردد فترة طويلة ترجح لديه فيها أن يبتعد عن رجاء المسئولين مهما يكن شأنهم ، ذلك لأن

خبرته تؤكد له أن حل المشكلات لا يكون بغير ضغط قوى من جموع الناس .. وهو إن ذهب إلى المسئولين فلن يكون في نظرهم غير فرد واحد ، ومهما تكن علاقاته بأى منهم فإنه لن يستطيع الضغط اللازم لحل مثل هذه المشكلة الكبيرة .. ثم ماذا يكون هو في نظر هؤلاء المسئولين ؟ إنه مجرد طالب عليه أن يتعلم منهم ، وليس من المقبول أن يقترح عليهم ما يفعلونه في أى شأن من الشئون .

وهكذا بالحوار الذاتى مع النفس توصل إلى ضرورة الضغط بالرأى العام لجموع الطلاب الذين يجب أن ينتصروا لزملائهم المهددين بضياح مستقبلهم . ولكن كيف ؟ إنه لا يزال جديداً على طلاب هذا المعهد الكبير ، وليس من السهل أن ينقادوا إليه لكى يضغطوا على المسئولين من أجل تحقيق هذا الغرض .. إنه لو كان في الاسكندرية لأمكنه تحقيق ما يريد بضغط الجموع !! أما الآن فإنه في مازق حقيقى أوقع فيه نفسه .. لقد تورط ووعده .. ومن السهل على غيره التحلل من أى وعد خصوصاً إذا كان مع أشخاص لا يعرفهم ولا يعرفونه - لكنه ليس من السهل عليه أن يحقر نفسه بإخلاف وعده مهما تكن الظروف .. وما زالت به نفسه تحدث وتصور له أن عبور هذا المازق سوف يوقعه من جديد في ميدان العمل السياسى الذى قرر أن يهجره إلى الأبد .

٧ - التحدى العاصف :

وانتهى به الأخذ والرد مع نفسه إلى قرار لم يقبل الحيرة عنه . قرار اتخذه بعد يومين من الإقدام ، والإحجام ، قرار يتحدى به ضعف نفسه أولاً ، والسلطات الفاشمة ثانياً .. قرار لا يوقف تنفيذه أنه فرد واحد ، وليس له عصابة تظلمه .. قرار يعتمد على الثقة المطلقة في جموع الطلاب ووطنيتهم . وليكن بعد ذلك ما يكون .

وفي صباح يوم السبت بعد الدرسين الأولين ، واثناء انطلاق الطلاب إلى فناء معهدهم الواسع بل وإلى خارج هذا الفناء من أجل الحصول على ما يطعمون أو يشربون ، فوجيء الجميع به وقد ارتقى سور سلم العمارة الوسطى من عمارات المعهد .. وأخذ يصيح بأعلى صوته : هلموا .. هلموا إلى أيها الإخوة الاحباب .. أقبلا .. سارعوا .. لا تضيعوا الوقت ..

وأقبلوا عليه مسرعين .. وملئوا ساحة الفناء الواسع شاخصة أبصارهم إليه . وهنا امتلأ قلبه بالحماس . وتدفقت العبارات الحارة من فمه ، فقص عليهم في عجلة سريعة أمر ما رأى وما سمع في ميدان الأزهر أول أمس ، وساق إليهم أنه قد وعد الطلاب الصغار بالعمل على إعادتهم هم وجميع المفصولين خلال الأسبوع الذى يبدأ اليوم . اقتناعاً منه بأن الهتاف للجلاء ووحدة وادى النيل ليس جريمة يستحق مرتكبها الفصل والتشريد ، وإيماناً منه بأن ما فعله هؤلاء الطلاب المفصولون هو نفس ما قتل من أجله طلاب معهد أسيوط الذين قدم رئيس الحكومة لكى يعتذر عن قتلهم أول أمس !!

وارتفعت نبرات صوته وهو يقول : إننا نحن الشباب لا نقبل الاستمرار مع تلك السياسات المعادية للوطن ؛ فالطلاب الذين هم أمل أهلهم - ومناطق الرجاء لأمتهم يجب أن يصابوا عن القتل والتشريد والفصل .. وإذا كانت إدارة الحكومة قد سلكت مسلك الاعتذار عن قتل المقتولين ، فإن إدارة المعهد يجب أن تكون أكثر رفقاً بأبنائها ، وأن تتكرم فوراً بإعادة المفصولين وإلا فنحن مضربون احتجاجاً على سياسة الفصل والتشريد وسوف لا نعود إلا إذا عاد زملاؤنا المفصولون - والمجد والخلود لشبابك يا مصر .

صلى الجميع استحساناً لقرار الإضراب تضامناً مع المفصولين .

لكن واحد من الطلاب صعد إلى المنبر ودعا إلى الهدوء لأن إدارة المعهد قد وعدت خيراً من قبل !! وعندئذ عاد هو الى التعقيب على دعوة الهدوء فقال : نحن لا نقنع بالوعود - فالانجليز يعدوننا بالخروج من مصر منذ نحو السبعين عاماً

ولكنهم لم يخرجوا .. وأغلب الظن أنهم لن يخرجوا طالما نحن - بسذاجتنا نصدق تلك الوعود - إن إدارة المعهد تستطيع أن تتخذ قرار عودة المفصولين في هذه اللحظة - وسوف تلزم جانب الهدوء فوراً لو قدم إلينا الآن من يعلن هذا القرار !!

وهنا صفقت الجموع استحساناً لهذا الرد الذي اعتبروه مفهماً ، وانتهت الدراسة عند هذا الحد . ومضى كل إلى حال سبيله . بينما انسحب الطالب الشاب إلى الإدارة العامة للأزهر . لكي يلتقى بمدير الأزهر ويناقشه في أمر الطلبة المفصولين .. ولكن هيهات !!

٣ - التحدى الفاشل :

ولقد لحق به عند بلوغه مكتب المدير من جاء باسم سلطة المعهد ليشكوه ، وما إن وقعت عليه عينه حتى سارع إلى القول بأنه يعجب كل العجب من أمر هذا الطالب الذي أشعل النار في نفوس الطلاب ثم جاء إلى مكتب المدير وجلس فيه ! وكان من الواضح أنه يريد الإحراج لا أكثر ولا أقل :

وقبل أن يسترسل أبطل المدير غرضه ، وقال له لا تكمل .. عليك أن تقترح ما تراه في شأن هذا الطالب أو غيره ونحن سوف نوافق فوراً على ما تريد .. وعندئذ كتب الأستاذ المتحدى طلباً لفصل الطالب الشاب بدعوى أنه هو الذي أثار الشغب اليوم ، فصدق المدير بالموافقة على هذا الطلب وفصل الطالب !!

كل ذلك والطالب الشاب في مجلسه صامت لا ينطق ، ولا يحاول الدفاع بكلمة واحدة . وقبل أن يجف مداد التوقيع على فصله خرج من مكتب المدير . وقد أضمر في نفسه ضرورة الإصرار على إفشال هذا التحدى بتحدٍ أشد منه وأحد . ولعت في ذهنه فكرة الاعتماد على زملائه الطلاب . والتخطيط معهم وبهم لكي يتحقق الانتصار على الإدارة مهما تكن قوتها . وقادته تلك الفكرة إلى إطالة البحث مع نفسه في كيفية العمل .

وبعد أن عاد إلى منزله وبقي فيه بضع ساعات ، انطلق إلى بيت زميل له يعرفه منذ كان معه في الاسكندرية قبل سنوات . وهناك أخبره خبر فصله نتيجة لما حدث اليوم .. ثم طلب منه أن يقوم هو في الغد مقامه ، وفي نفس المكان الذي أعلن منه قرار التضامن مع المفصولين لكي يقول للطلاب جملة واحدة . فقال له زميله وما تلك الجملة ؟ قال : زميلكم الذي خطب فيكم أمس تم فصله . هو الآخر . والأمركم أيها الرجال !!

قال زميله : وما النتيجة ؟ فقال له ضاحكاً : ستفصل أنت أيضاً لأن الطلاب فور سماعهم لخطابك البليغ السالف الذكر سيقررون الاستمرار في الإضراب !!

قال الزميل : وماذا بعد ذلك ؟ فقال له : سوف نقدم لهم واحداً آخر في اليوم التالي ، وهكذا إلى أن يصبح الفصل سلاحاً مفلولاً لا يستطيعون استعماله !! وعندئذ سوف نرى من الذي سينتصر ؟

وبدا على الزميل أنه اقتنع بتلك الخطة الغريبة ووعد بالتنفيذ !! وعندئذ قام منصرفاً إلى بيته . ولكنه لقي من لا يحب أن يلقاه في هذا الوقت بالذات .. لقي مدير الأزهر الذي أبلغه استيائه من تصرفاته ، ودعاه إلى الاختفاء عن الأعين قبل أن يقبض عليه .

٤ - صعايدة وبحاروة :

قام زميله بتنفيذ الاتفاق المبرم بينهما . وأعلن الطلاب قوراً تأييدهم للإضراب حتى يعود المفصولون .. وحينئذ انقلب فناء المعهد الدينى الأزهرى إلى ساحة معركة رهيبة بين الصعايدة والبحاروة . وتم الاشتباك بالعصى ، والكرابيج ، والكراسى . وانسحب الخطيب البليغ هارباً من هذا الذي فاجأه .. وفي ميدان الأزهر وجد الطالب الشاب

جالسا بمقهى العجمي فاندفع إليه ممتنع اللون وفي شبه ذهول .. وما زال به حتى سكنت نفسه ، وأفضى بحقيقة هذا الذي حدث .

هنا انتفض الطالب الشاب ف خفة الغزال ، ومرق من الأزقة الخلفية في حي الباطنية الواقع خلف سور المعهد الأزهرى . ومن هناك تسلق السور الخشبي وألقى بنفسه في الشجار . وفوجئ الجميع به وهو يصرخ بدعوة الهدوء ونبذ العصية ، وطرح الكراسي والعصى والكرابيج ، والاستماع إلى صوت العقل والضمير . ومن عجب أن الجميع لم يلبثوا أن استجابوا له . فطلب منهم التسلسل من بين صفوف الشرطة إلى مبنى لجامع الأزهر لكي يعقدوا مؤتمرا واسعا يناقشون فيه أمورهم ويتخذون المناسب من القرارات .. وكانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف - فحدد موعد بدء المؤتمر بالحادية عشرة .. ثم انسحب من خلف السور خوفا من وقوعه في قبضة الشرطة التي كانت ترابط عند الأبواب والمناقد المؤدية إليها .

وفي مقهى من مقاهي حي الحسين جلس مع زميله الذي عاونه صباح اليوم - وكتب مذكرة ضافية شرح فيها ما حدث ، وكيف أنه مظهر من مظاهر التخلف الفكري والحضارى . وعودة إلى ما قبل عهد مينا موحد الوجهين القبلى والبحرى .. وألح على المطالبة بعودة المفصولين الذين لا ذنب لهم سوى الهتاف من أجل مصر .. وحمل المسؤولين في تلك المذكرة مسئولية التطورات المؤسفة التي سوف تنجم عن التماهى في سياسة الفصل والتشريد .

ثم انطلق مع زميله إلى ساحة الأزهر الشريف حيث انعقد المؤتمر الذى دعا إليه . وطرح هو المذكرة المكتوبة في عدد من النسخ . وطالب المؤتمرين بالتوقيع عليها لكي يتم تقديمها للمسؤولين مع إبلاغ صور منها لدور الصحف المختلفة .

وأشد ما أسعده أن الجميع وقعوا تلك المذكرة سعداء بكل ما جاء فيها .

٥ - مهرجان العودة :

حمل المذكرة الموقعة ومضى إلى مكتب الدكتور الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر آنذاك . ولم يلبث أن خرج من مكتبه والسعادة بادية على محياه . فقد وعده الشيخ بعودة الطلاب . ووقع أمله قرارا بعودتهم ، وطمانته إلى أنهم سيبلغون بهذا القرار منذ الساعة ..

وكانت هذه الساعة الواحدة بعد ظهر يوم الأحد ، ومعنى ذلك أن مضمون القرار سيصل للطلاب غدا الإثنين ، وسوف يعودون إلى معهدهم صباح الثلاثاء .

بشر بكل ذلك زملاءه الذين كانوا مرابطين في الجامع الأزهر ينتظرون حضوره .. وحينئذ قرروا الاستمسك بموقفهم الإضرابى إلى صباح اليوم الموعود .

وجاء يوم الثلاثاء فذهب إلى المعهد مجازفة لكي يتأكد من صدور القرار وتنفيذه ، وهناك رأى الغبطة بادية على الوجوه ، ورأى الطلاب فيما يسمونه بمهرجان العودة - فخطباء المفصولين يشكرون التضامن الذى أعادهم بعد غيبتهم الطويلة . وخطباء المضربين يهنئون الأبطال العائدين بالعودة . والكل يتعاهدون على الاستمرار في الإضراب حتى يعود الثلاثة الذين لم يشملهم قرار العودة - ووقف طالب يتلو قسم التضامن لكي يردده وراء الجميع .

أرهف السمع وهو مغتبط فعرف أنه واحد من هؤلاء الثلاثة الذين لم تتم الموافقة على عودتهم .. لكن ذلك لم يفضبه . فحسبه أن واحدا وستين عادوا بهذه السرعة الكبيرة .

وبجراحة المقتحم شق الصفوف وصعد إلى المنصة التي كان يتعاقب عليها الخطباء ، وما إن رآه حشد الطلاب حتى استقبلوه بعاصفة من التصفيق الحاد . وأشار إليهم طالبا الهدوء ثم تحدث فيهم . فهنا العائدين بالعودة ،

وهذا المتضامنين بنجاحهم في تحقيق مطلبهم .. ثم تسلل من هذا المدخل إلى عقولهم ليقنعهم بالعدول عن الاستمرار في إضرابهم . فقال لهم إنكم تدرسون المنطق . وبالمناطق أيها الإخوة - فإن آخر مفصول يجب أن يكون آخر عائد .. وأغلب الظن أنكم موافقون على أن عودة الجميع إلا ثلاثة منهم تستحق أن نتجاوب معها تجاوب الرجال الجادين . لا الصبية العابثين . وناشدهم ألا يعطوا المفرضين فرصة تشويه الحركة الطلابية . وأن يتوجهوا فوراً إلى قاعات الدرس والتحصيل .. فإن لم ينجح الثلاثة المخلفون في العودة فسوف يستجدون بكم . ومن أعجب العجب أن جميع الطلاب انصرفوا إلى دراستهم دون إبطاء . وتبع ذلك الموقف أن فكرت الإدارة فوراً في اتخاذ الإجراءات لعودة الآخرين .

٦ - المازق الخطير :

كانت هذه المعركة الصغيرة أول معركة ظاهرة يخوضها في مدينة القاهرة ، ولم يكن في حسبانها أنها سوف تفتح أبواب اللقاءات والمناقشات التي انتهت به إلى الانغماس في العمل السياسي مرة أخرى . وبداله أن العمل السياسي هو القدر الذي لا مفر منه في أي مكان يذهب إليه ..

وعاد من جديد إلى الاهتمامات السابقة ، فصار يفش النوادي السياسية . ويتعرف على الشباب المهتمين بمصير بلادهم .. وتسلل به بعض من تعرف عليهم إلى الاجتماعات السرية التي كانت ظروف مصر قد فرضتها . والتي في مناخها ولد التنظيم السري للضباط الأحرار . وغيره من التشكيلات الأخرى . ذلك لأن الإرهاب الذي فرضته حكومة صدقي لم يمكنها من عقد صفقة الدفاع المشترك مع الإنجليز فتركت موقعها لحكومة النقراشي باشا الذي حاول الحصول الحقوق المصرية من خلال عرض القضية على مجلس الأمن في أغسطس سنة ١٩٤٧ ولكنه لم ينجح وعاد ليواجه فترة عصيبة من تاريخ البلاد : فقد بدأ الوطنيون يشعرون بالإحباط الناجم عن الفشل في التوصل إلى حل للمشكلة الوطنية ، كما بدعوا يضيّقون ذرعاً بتلك الاعتداءات اليهودية المدعومة من بريطانيا على الوطنيين الفلسطينيين . وجاء قرار تقسيم فلسطين الذي صدر في نوفمبر سنة ١٩٤٧ بمثابة صدمة قوية لكل الآمال الوطنية في المنطقة العربية .

ثم جاء إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ لكي تستدرج الدول العربية إلى حرب فيها يتم إغراق كل شعارات الجلاء ووحدة وادي النيل . ومن خلال كل ذلك تزايد الشعور بالإحباط ولم يعد هناك من منفس للوطنيين إلا من خلال الاجتماعات السرية . وفي هذه الاجتماعات تعرف الطالب الشاب على المطبوعات والكتب المحظورة وكان بركان الوطنية لم يخدم في صدر الطالب الشاب ، فانتدح في ذهنه أن العمل السري ليس إلا دليلاً على أن قضية النضال من أجل الوطن ما تزال متأججة ، وأن عليه أن يكون واحداً من هؤلاء الذين اتخذوا من السرية ستاراً لتنظيم أنفسهم بعيداً عن الأنظار من زبانية السلطة .

وتكونت له صداقات جديدة مع هذا النفر من الشباب الذين حرصوا على الالتصاق به كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .. كانوا يمدونه بالكتب المحظورة ، ثم يعقدون معه الجلسات لمناقشة المقروء منها . وكان للمناقشات من وجهة نظره جانبها السياسي المليء بالطموح المشروع إلى تحقيق أهداف الوطن في التحرر والتقدم . لكن هناك جانباً آخر لهذه المناقشات لم يكن من وجهة نظره وثيق الصلة بالقضايا العملية المطروحة . وتمثل هذا الجانب الآخر فيما كانوا يطلّقون عليه الجانب الفكري الذي يقدم نفسه بديلاً لكل فكر آخر في المجتمع .. في الفلسفة .. والأخلاق ، والعلم ، والفن الخ . ومن بداية الأمر كانت كل الجوانب الفكرية تقع من نفسه موقع القبول إلا الذي كان منها خاصاً بالدين . ولقد علّلوا له ذلك بأنه قد نشأ وتربى على الدين . ومن ثم فإن له حساسية خاصة في هذا الجانب بالذات .

وأراد أن يقطع صلت بهؤلاء الشباب ولكنه لم يستطع .. فهم على الأقل يشكلون بعض الأمل لنصرة مصر .. ومن ثم فإنه استمر معهم وحاول كثيرا إقناعهم بخطأ أفكارهم عن الدين . فلذا يكتب فلاسفة الإسلام والمسيحية وغيرهم ، وأصبح قارئاً مستديماً في دار الكتب بالقاهرة .. كما استعان بما كان لدى أساتذته من كتب وعلم . وظل يحلر ويدور بالذي تعلمه من علماء الكلام والفقه والتفسير والحديث ، إلى جانب ما اكتسبه من خلال الاطلاعات الحرة في كتب الغزالي ، والغزالي ، وابن سينا ، وابن رشد . واضرابهم . وكانت خصوبة المحاورات فائقة الحد في نظره ، ولكنه في كل مرة كان يفشل في اقناع هؤلاء الشياطين كما كان يطوله أن يسميهم ، وهكذا وجد نفسه في مأزق لا يعرف الخلاص منه .. فهؤلاء الشباب صاروا جزءاً من حياته ولم يستطع البعد عنهم .. ولكنهم في نفس الوقت منحرفو التفكير فيما يتعلق بالدين ..

وحاول الاستنجد ببعض أساتذته ومنهم المرشد العام للإخوان المسلمين ، عرض عليهم الزلزال المروع الذي تتعرض له عقيدته بسبب بعض القراءات والمناقشات .. وطلب من كل منهم إسعافه بما يقدر عليه .. لكن المحصلة التي وصل إليها كان مخيبة للأمل .. فكل من تم الاستنجد بهم لم يقدموا له شيئاً فوق ما كان يعرفه .. لقد كان يريد حججاً تقوى على المواجهة مع استخدام مفردات ومصطلحات العلم الحديث ولكنه لم يجد .. وفي نهاية الأمر قرر القرار من تلك المناقشات المؤثرة لأنها غير ذات طائل . فأعلن في إحدى الليالي ، وبعد مناقشة حامية مع هؤلاء الشباب أنه متفق معهم في جوانب الاقتصاد والسياسة التي يمكن أن يتلق معهم فيها أى إنسان . أما الجانب الدينى فإنه لا يستطيع الاتفاق معهم فيه . ومن ثم فإنهم مطالبون بالكف عن إثارة هذا الجانب الأخير ، وإلا فإنهم سيفشلون فشلاً مروعاً مهما تكن عدالة القضايا التي يدافعون عنها . ذلك لأن السمة الأساسية في الإنسان المصرى منذ عهد الفراعنة حتى اليوم هى إخضاع الحياة الدنيا لمنظور الدين . قال هذا القول وهو منفعل به غاية الانفعال فسكت سامعوه ، وأعلنوا امتثالهم لرغبته ، وعاهدوه على ألا يتعرضوا لهذا الجانب بعد اليوم .

٧ - مخصصات إخوانية :

حدث كل ذلك بينما هو لا يزال عضواً في جماعة الإخوان المسلمين . لم يقو قلبه رغم ما وقع له مع إخوان الإسكندرية على الانفكاك عنهم ، ذلك لأنه كان يثق ثقة خاصة في الأستاذ المرشد ، ومن أجل ذلك فإنه كان حريصاً على اللقاءات المستمرة معه منذ قدم على القاهرة .. أو بالأحرى منذ عاد للعمل السياسى بعد الأسابيع الأولى من قيومه على القاهرة . فلقد كان يرجو أن يجد عنده ما يمكنه من تجاوز كل المواقف السابقة وآثارها . وفى كثير من الأحيان كان يتلمس الأعذار لبعض الأخطاء التي زخرت بها فترة العمل في الإسكندرية . وزاد تعلقه بهويته الإسلامية هجوم عدد من التيارات السياسية الأخرى على قيادات ومواقف الإخوان المسلمين ، وظل يتشبث بموقفه حيث بدأ نشاطه السياسى ، رافضاً الانتقال إلى أى معسكر آخر .

لكن وطأة الهجمات السياسية على جماعة الإخوان من خارجها قد استطاعت أن تجد لها صدًى في صفوف كل من القيادات والقواعد الإخوانية على حد سواء ؛ فالأخ الأستاذ أحمد السكري وكيل الجماعة يقف مندداً ومخاصماً لموقف الأخ الأستاذ المرشد . وبالطبع يقف إلى جوار كل منهما عدد من الإخوان يظاھره ، ويؤيده عن اقتناع براهيه . ولا تغلح كل المساعي التي بذلت من أجل التوفيق وإصلاح ذات البين . فتكون النتيجة أن تزداد مسافة الخلف وتتسع الفجوة بين الفريقين . الأول الذي كانت خلاصة رأيه ضرورة الكف عن تحويل الجماعة إلى حزب سياسى يتطلع إلى ما تتطلع إليه سائر الأحزاب الأخرى من يريق السلطة ، وشهوة الحكم ؛ فجماعة الإخوان في أصلها جماعة رسالتها

تربية الفرد المسلم وإذا كتب لها النجاح فسوف ينصلح حال المجتمع كله بما فيه حكامه وقادة !! وظلت الفجوة تتسع بين هذا الفريق ، والفريق الآخر الذى كانت خلاصة تفكيره أن تحويل سياسية ليس ينطلق من فراغ ، فالإسلام كما تنادى به الجماعة دائما دين ودولة ، والله يزع باله بالقرآن . وامتلاك الإخوان للسلطة في المجتمع ، يعنى امتلاك قدرات أكبر وأخطر في عملية الترفيق الأول .

وإلى جانب الاتساع في الفجوة بين الفريقين كانت التيارات السياسية الأخرى تزيد من تصرفات الإخوان وسياستهم . وشاعت في أساليب الكتابة ضد الإخوان نفمة الاتهامات الخلق المتعفة . وشبه البعض فضيلة الشيخ حسن البنا براسيوتين .. وعقدت المقارنات غير المودة الإخوان وقادة الفاشية والنازيين .

كل ذلك والطالب الشاب لا يزال في موقعه .. لكن نفسه أرهقتها البلبلة . ولم يعد يدري أي هل يكون مصيره مع اليسار المستخفى والدعوى على العمل السياسى السرى ؟ أو يتجه وجهة جماعة الإخوان في صف الوفد ؟ أم يبقى كما هو بين الطرفين المتنازعين من جماعته ، أم يعا منها ؟

وإنه لفي تلك الدوامة التى تزحم عليه عقله وإذا به يفاجأ ذات ليلة عند مدخل المركز ال بصراع صاخب ، تتحدث فيه الكراسى المتطايرة في الهواء . وتبين له أن أبطال هذا الصراع لى يساعد على فض الشجار ، وبعد لى تمكن مع نفر من الإخوان من ذلك . لكن وقع الصده وفوق الاحتمال .

لقد كان المتشاحنون يتبادلون أقذع الشتائم ، وهو لم يكن يتصور حدوث ذلك بين الإسلام . وانخرطوا في سلك دعائه !! وطافت برأسه صورة الرعيل الأول من المسلمين عندما قد كانوا على أعلى وأجل صور الاتحاد والاعتصام بالله . وكانت بينهم أروع علاقات الأخوة ، ذلك كله لما استطاعوا أن يحرزوا أى تقدم أو انتصار !! وسأل نفسه : اليس التمزيق أو التفر قامت جماعة الإخوان من أجل استئصاله والقضاء عليه ؟ وهل يمكن للمتمزقين أن يقوموا به نهشت قلبه هذه المشاعر الرهيبة وهو يطالع ذلك المشهد المأساوى المفزع !! ولم يه إلا على أساس أنه من تدبير الشياطين .

٨ - البحث عن الأسباب :

وانطلق بعيدا عن مسرح المصارعة بعد أن هدأت ، وذهب إلى منزل صديق أزهري قريبا من المركز العام . وأحسن حظه فإنه وجد هذا الصديق ومعه شلة من الإخوان المسل كانوا لم يبلغهم نبأ ما حدث فأنهائهم إليهم . وذكر لهم بعض أسماء المتشاجرين الأسباب التى أدت إلى هذا الوضع المشين !!

وكانت جملة القول أن المنقسمين على المرشد منشقون على مبدأ كمال الطاعة الذى الجماعة ومن معه لا تجوز لهم معارضة رأى المرشد بأى حال من الأحوال . ولم يعجبه هذا القول ، فتسائل : هل معنى ذلك أن رأى المرشد معصوم من الخط ولم ينتظر الرد عليه وإنما أكمل وجهة نظره بما يؤكد أن المرشد تمكن معارضته . بل وه

ذلك أى خطأ أو خطر يهدد الجماعة !! ثم عقب بأن امرأة من عامة الناس عارضت الخليفة عمر بن الخطاب : وهنا انبرى له أكثر من واحد ليقنعوه بأن أحدا لم يزعم العصمة للمرشد العام ، ولكن طبيعة الأمور تقتضى أن نطيع من وليته أمورنا . وإلا تفرقنا وتبددت جهودنا من كل اتجاه . وضرب المتحدثون المثل بمواقف الصحابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما انصاعوا لأمره فتركوا أموالهم وديارهم وهاجروا مرتين . الأولى إلى الحبشة والثانية إلى المدينة !!، فلما خاول أن يوضح أن المرشد ليس في مقام المصطفى ، ولا حتى في مقام الصحابة تحولت المناقشة إلى مشادة ، وخشى أن يحدث معه ما حدث مع غيره في المركز العام منذ قليل . فلأذ بالصمت . بينما استمر مناقشوه يتعاقبون الحديث لكي يجهزوا على وجهة نظره ويسنوا صلوحا من الجذور فقال أحدهم : نحن أقسمنا على الطاعة ، والعمل على الكتمان ، ومن يخالف القسم فهو آثم في حق الجماعة .. وقال ثان : إن القيادة دائما أعرف وأدرى ممن تقومهم ، وإذن فإن حقها عليهم أن يطيعوها دونما مناقشة أو شبهة تردد ! وقال ثالث : وإذا جاز الاختلاف في الرأي بين كبار القادة فلا ينبغي إشراك غيرهم في هذا الخلاف وإلا وقعت الفتنة والعياذ بالله !! وقال رابع : إن الطاعة العمياء للقائد المسلم هي ضمان الانتصار .

واستمرت المناقشات إلى ما بعد منتصف الليل ، بينما الطالب الشاب غارق في صمته يتأمل تلك الأحاديث ولا يستغرب شيئا فيها . فهو نفسه كان يعتقد صحة تلك القولات كلها ، ولم يتردد يوما في قبول أى منها . لكنها الليلة ، وفي هذا الجو المشحون بالتوتر تبدو سخيفة ومخيفة إلى أبعد حد ممكن ، فالطاعة العمياء في المسائل الإيمانية واجبة ولا شك في ذلك . أما في مواقف الحياة العملية فإنها يمكن أن تقود إلى أفدح الكوارث !! بل إن أخطر الخطر أن تسلم قيادك إلى إنسان لو اختلفت معه لوجد من أنصاره من يستبجح دمك !!

أخيرا انفضت المناقشة وانسحب إلى منزله حيث لم يغمض له جفن إلى أن طلع النهار . ففكر كثيرا فيما حدث وفيما سيحدث ، وتساءل كثيرا عن الفرق بين جماعة تقوم من أجل نصرة المثل العليا للدين ، وبين جماعة أخرى تقوم من أجل نصرة العرق ، أو القبيلة أو ما أشبه ذلك !! وقال لنفسه : إن نصرة المثل العليا للدين مبناهما احترام كيان الإنسام المسلم . فالمسلم آخر المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يسلمه ، والناس سواسية كأسيان المشط ، وليس لعرقى فضل على عجمى إلا بالتقوى . أين كل هذه المعانى من مناقشة الليلة وما تضمنته من تعصب ممقوت ؟ بل أين كل هذه المعانى من الشباب ، واللعن والضرب الذى يقع بين الإخوان ؟

٩ - مع الاستاذ المرشد :

وما إن طلع الصباح حتى قرر الالتقاء بالمرشد ، وقدم ورقة بطلب المقابلة فتحدد له موعد بعد صلاة العشاء .. وعتما التقيا كان الطالب الشاب محزونا ومملوءا قلبه بالآلم . ولم يتركه استأذه ليبدأ الحديث وإنما سأل : خير إن شاء الله ؟ عندئذ انطلق الطالب الشاب يحكى كل ما وقع في أسه المسهد . ويبدأ التخوف مما عساه أن يحدث فيما بعد .. واستمع المرشد إلى كل ما قاله بصبر وفطنة ، ثم يبين له وجهة نظره في تلك الخلافات . وطمأنه إلى أنها من نزعات الشيطان الذى لا ينزغ إلا بين الأخوة كما هو معروف في قصة يوسف عليه السلام ، ودعاه إلى المساهمة في محطولات راب الصدع بقدر ما يستطيع ، ودعا الله أن تقينا شر الفتن ، ما ظهر منها وما بطن .

ولما أراد الطالب الشاب أن يربط بين ما هو واقع في صفوف الإخوان ، وبين ذلك الهجوم المستعرضهم ، قال له المرشد : إن هجوم الخصوم أمر متوقع ، والإخوان لا يخافون من هجمات المهاجمين لأن الله معهم . ولن يتركهم أبدا .. وعلى العكس فإنه كلما ازدادت حدة الهجمات دل ذلك على خوف الأعداء من قوة الإخوان المسلمين .

وعندما استوضحه أمر الشائعات الخاصة بحصول الإخوان المسلمين على مبالغ طائلة من حكومة صدقي باشا ثمنا لتأييده في مواقفه السياسية ضد معارضيه قال له المرشد : نحن لا نؤيد رغبة في مال أو أى عرض من أعراض الدنيا الفانية ، وإذا حصلنا على بعض ما في خزانة الدولة فهذا حقنا الذى نسعى إليه .. إن الإخوان يسعون لأن تكون كل خزانة الدولة تحت أيديهم يدبرون بها أمور المسلمين .

وهكذا انتهى مجلس الأستاذ المرشد بدخول آخرين كانوا على موعد معه - ولم يكن قد ظفر بتوضيح شاف لحدود الطاعة المطلوبة من عضو الجماعة لقادته - سوى أن العاصم من التسلط هو الشورى . المبدأ الأعلى هو أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .. على أن الطاعة العمياء عند الاختلاف ضرورة من ضرورات وحدة الجماعة المسلمة .

١٠ - أحداث وأحداث :

وفي هذه الفترة المتوترة بالغضب ، تفاقمت الخلافات داخل الإخوان المسلمين ، وبدأ البعض يؤكدون وجهة نظرهم إما بالقاء المتفجرات ، ووضع القنابل الموقوتة في بعض الأماكن . أو بإعلان آرائهم من خلال صحف الوفد معارضين بذلك ما ينشره في صحافة الإخوان المسلمين الرسمية وبدأ الطالب الشاب يشعر بفقدان الأمل في قدرة الإخوان على التوحد من جديد ، وناء كاهله بعبء التفكير في حل تلك المفضلة الرهيبة ، كيف أن دين الله الذى وحد القبائل المتنافرة في أرض العرب لم يستطع توحيد دعاته ، ومجددى أمره في عالم اليوم ؟ الا يعيد ذلك إلى الأذهان ما حدث في عهد الفتنة الكبرى التى حاقت بجماعة المسلمين بعد صدر الإسلام ؟ ألم يكن كل المتحاربين يرفعون نفس راية الإسلام ، وهم يمزقون أوصال الأمة .

وظل يتجرع كأس التعاسة مع كل تصاعد جديد للخلافات الإخوانية ، إلى أن وجد نفسه ذات يوم في قلب معمة الصراع .. وكان ذلك إثر مقال تحت عنوان « حديث الجمعة » تعرض فيه صاحبه إلى الأزهر والأزهريين بما لا يعجبه فهاجت نفسه . وكتب مقالا للرد على هذا المقال كان عنوانه « آية البدعة في حديث الجمعة » ونشر هذا المقال في جريدة صوت الأمة وأحدث صدهاء - الأمر الذى جعل المرشد يرد عليه ويؤكد أن موقف الإخوان من الأزهر ، هو موقف الجنود من ضباطهم الرسميين !!

وشاء قدر الطالب الشاب أن تقع أحداث أخرى تنفص حياته ، فهو عندما غادر الاسكندرية في العام الماضى كان قد ترك في حوزة بعض الأصدقاء بعض الأسلحة التى كانت معدة لكى تستخدم ضد الإنجليز ، ولأمر ما فإنه عرف من مدير الأزهر أن هذه الأسلحة قد استخدمت حول معهد الاسكندرية ، وسقط من جرائنها بعض الضحايا ، وأن سلطات الأمن تحاصر المعهد لكى تقوم بواجبها . وخشى هو على أصدقائه الذين يعتقد أن العين عليهم ، فصارح الشيخ بما يخشاه وحدد أسماءهم ..

وكان هذا الشيخ غاية في النبل والإنسانية والوطنية ، فدبر خطته لكيلا يقع هؤلاء في الكمين وتم لهم الهرب من الاسكندرية إلى القاهرة .. وفي حجرة بشارع أحمد عمر ، وعلى مقربة من مواطن الصراع الإخوانى الحاد أقام هؤلاء الأصدقاء إقامتهم القلقة المهددة عددا من الشهور . إلى أن تم تحويل أوراقهم إلى معاهد دينية أخرى . أتوا فيها امتحان الثانوية الأزهرية بينما هم مطلوبون للقبض عليهم ، وتقديمهم للمحاكمة .

١١ - مقتل النفراشى رئيس الحكومة

وتداعت الاحداث بعد ذلك تداعيا مفرعا - فقد فشل رئيس الحكومة فى إيجاد حل للقضية الوطنية كما فشل فى إيجاد أى أمل للانفراج فى الاوضاع الداخلية المتأزمة ، وكانت المعتقلات غاصة بالوطنيين ، ولا شئ هناك إلا الحديث عن الخسائر التى تحيق بالجيش العربى التى حاربت من أجل منع تقسيم فلسطين ، وكان المتطوعون فى حرب المقاومة غير الرسمية يعودون فيتحدثون عما شهدوه أو عرفوه .. وفى هذا الجو المشحون بالألم ، وعلى التحديد فى يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ قتل عبد المجيد حسن رئيس الحكومة فى مدخل مبنى مجلس الوزراء .. واتضح أن القاتل واحد من جماعة الإخوان المسلمين .. عندئذ قامت الدنيا ولم تقعد . فالقاتل بصفته السابقة يعتقد أنه قد تقرب إلى الله تعالى بإزهاق روح المقتول ، ومعنى ذلك أن هذه مجرد بداية .. فكل من لهم صفة النفراشى سوف يقتلهم آخرون من نفس الجماعة وينفس الاعتقاد !!

وتبلورت خطة الانتقام فى رأس ابراهيم عبد الهادى رئيس الحكومة الجديد ، فأكد القرار بحل جمعية الإخوان المسلمين ، ثم لم يكتف بذلك ، بل أخذ يلاحقهم بالاعتقال والقبض التشريد ، وأخيرا بلغت المأساة قممها باغتيال المرشد العام للإخوان المسلمين .

١٢ - ظلمات الإرهاب :

كان الطالب الشاب انذاك فى كلية دار العلوم .. وكان الإرهاب الاسود قد خيم على كل مصر .. وكان الاساتذة والطلاب قد أحنوا رموسهم لتلك العاصفة . فلم يعد هناك ذلك القلب المفتوح لمناقشة قضايا المصير الوطنى مثلما كان يحدث فى الماضى ، بل كان هناك توجس وخوف من أن تطول أيدي الإرهاب فتتمدد لتخطف آخرين . وفى ظل هذا الجو الكئيب كانت الاحاديث تدور همسا ، عن أخبار الجبهة العسكرية وما تم فيها من تواطؤ ضد الجيش ، إلى جانب ما يحدث فى الجبهة الداخلية من توالى حملات القبض والاعتقال ، والمحاكمات والاحكام القاسية التى تصدر ضد المواطنين .. اما أخبار التعذيب والتنكيل بالمقبوض عليهم فكانت تثير فى النفوس كل ألوان التقرز والاشمئزاز !!

وشعر الطالب الشاب بأنه فى غربة عن كل شئ حوله ، فكل من كان يعرفهم من الشباب تقريبا مغيبون فى السجون والمعتقلات ، وحتى من بقى منهم خارج الأسوار لم يعد من السهل أن يتم اللقاء معه . فتلك مفامرة سيئة العاقبة فى أغلب الاحيان .

وانعكست ظلال الإرهاب الاسود على نفسية الطالب الشاب ، وبدأت مرحلة من التفكير القاتل تحاصره ، لقد راح يتصور أن طموحاته إلى التحرر الوطنى لم تكن إلا مجرد أوهام وخيالات أملاها الحماس الذاتى ، وكثيرا ما كان يستعيد المواقف والأشخاص والاحداث ، يصل به الأمر إلى حافة اليأس المرير .. هؤلاء هم الإخوان المسلمون يتذمرون باغتيال قائدهم ، ومن المؤكد أن لأخطائهم السياسية دخلا فى الذى حل بهم !!
وهؤلاء هم الطلاب والعمال الوطنيين قد بطشت بهم قوانين الدولة وإرهابها ولم تعد لهم القدرة على استئناف الجهاد من جديد !!

وهؤلاء هم اليساريون تبتلعهم السجون والمعتقلات ، ولا يبقى منهم سوى بقايا مشلولة وغير قادرة !!
وأخيرا هؤلاء هم الذين يحاربون فى الجبهة تعقد الدولة هدنة لتنسحب بهم غير مبالية بعار الهزيمة التى لحقتها بهم وبأمتهم .

فلا نحن حررنا مصر من الاستعمار الانجليزى ، ولا نحن ومعنا كل الجيوش العربية امكننا التغلب فى ساحة القتال مع عصابات المابام والهاجاناة وغيرها من عصابات اسرائيل الوليدة !!
والباقي على الساحة حكومة وقصر يكرهما كل الناس .. ولا يذكرون لهما إلا انهما ساهما فى ضياع فلسطين منذ اوقفوا القتال فى ٧ يناير ١٩٤٩ تمهيدا لتوقيع هدنة فى ٢٤ فبراير من نفس السنة .
كان التفكير فى كل هذه الجوانب يشقيه ، ويستحثه على البحث عن مخرج لنفسه ووطنه .. وعندما كان يلتقى عرضا ببعض من لهم مثل همومه فإنه كان يبوح بمكنونات تفكيره ، ويتمنى لو أسعفه محدث بما يخلق عنده بعض الامل فى أى شئ .
ولشد ما كانت تفيض به السعادة عندما يرى بعض المنشورات السرية التى كانت تصل إليه حاملة رأى الضباط الاحرار ، او غيرهم من بقايا تنظيمات اليسار . ذلك لأن مثل هذه المنشورات تعنى أن مصر لم تترك ، وإن تستكين .
وفى ظل هذا الجو النفسى لم يكن يقرأ ما يصل إليه ببصيرة المنتقد ، فحسبه أن هناك من يقول على المخاطرة بالتفكير الحر ، والكتابة والنشر فى ظل هذه الظروف الرهيبة التى تعيشها البلاد .
وعندما كان يطالع على الجدران شعارات المقاومة للحكم الملكى ، والاستعمار الانجليزى ، والباشوات الخونة ، فإن نفسه كانت تمتلئ بالفرح الغامر .
ومن خلال هذه الظروف تجدد فيه الامل رغم الإرهاب ، وسعى سعيه إلى الوصول إلى بعض الوطنيين المتحصنين بالسرية ، وقرر التعاون معهم ، وبالبذل مثلهم .. وكان اللقاء الذى تحول به مجرى حياته إلى مسار جديد .
واكبت تلك اللحظة الفاصلة فى حياة الطالب الشاب ، استشعار الجميع بأن النظام الملكى الاستعمارى قد أضحى معزولا عن الشعب ، وأن ابراهيم عبد الهادى لم يعد هو أو غيره من أحزاب الاقلية فى مستوى الموقف . وبخاصة بعد أن انكشفت لعبة الحرب الفلسطينية ، وما وقع فيها بسبب صفقات الأسلحة الفاسدة التى عقدها كبار رجال القصر .. لكى يسهلوا مهمة اسرائيل فى إلحاق الهزيمة بالجيش .
كما واكبت تلك اللحظة الفاصلة فى حياة المواطن الشاب ، زيادة التحركات السرية لفضح وكشف النظام وممارساته الوحشية ضد الوطنيين فى المنايا والسجون .
وكان كل ذلك فى إطار حالة اقتصادية سيئة يتراجع فيها دخل الفرد العادى إلى مستويات ضعيفة ، بينما تتكدس الثروات الفاحشة فى جيوب الاقلية القليلة من السكان .



الفصل الحادى عشر :

الكفاح السرى

١ - الموازنة :

كانت ظروف الإرهاب الاسود فى مصر ، قد فرضت الطريق الوحيد للكفاح السرى القاسى ، ولم يكن قرار الطالب الشاب بالانضمام إلى سلوك هذا الطريق بالامر السهل .. ذلك لانه بحكم خبرته السابقة كلها لم يكن يعرف إلا الكفاح العلنى المنفعل بحرارة الجموع الجماهيرية الصاخبة ، كما انه بحكم تلك الخبرة أيضا قد اصطدم مع اصحاب هذا الطريق فى بعض الاجتماعات التى أتت له بسبب إثارته الفجار حول « الدين » وإلى جانب ذلك - وهو الأهم - فإن النظام كان شديد الوطأة فى تعقبه للمكافحين . سرا إلى حد البشاعة . ومن هنا فإنه كان من المفروض على الطالب الشاب أن يتروى ، وأن يقوم بنوع من الموازنة يستطيع من خلاله أن يطمئن إلى صحة القرار الذى سوف يتخذه . وبالفعل تمت له هذه الموازنة بين الذى كان ، والذى سوف يكون .. بين طريق الكفاح السرى وبين الضمود والسكون . بين الجنوح إلى اليسار أو الركون إلى نظر اليمين غير الميمون . ومن عجيب أنه بعد تلك الموازنة ، لم يجد نفسه منجذبا إلا إلى طريق هؤلاء الذين أثروا الكفاح تحت رايات اليسار وكان عليه أن يتغلب على الحواجز النفسية التى تباعد بينه وبين هذا الطريق .. وأن يكون له معبرا يصل ما بين مفاهيمه التى تربى عليها . ومفاهيم هؤلاء اليساريين الغربية عليه .. ومن خلال التفكير الدائب ، تبينت له بعض الخيوط التى لم يلبث أن تشبث بها . وجعل منها نسيجا متكاملا ارتضاه ، واستراح إليه . وكانت لحة هذا النسيج وسداه هى أن الوجه الأساسى للماركسية هو الدفاع عن حقوق المظلومين والمضطهدين فى الأرض ، وتعبيد الطريق أمامهم لكى يقضوا نهائيا ولأول مرة فى التاريخ على جميع النظم الطبقية التى تولد الظلم والقهر والاستعباد . وفى هذا الوجه الأساسى فإن أى دين لا يسعه إلى أن يبارك ، ويدعوله بالانتصار ، ذلك لأن جوهر كل الأديان هو إقامة العدل بين الناس بالقضاء على شرور الانانية والإستعلاء على البشر . وحتى شعار التوحيد فى دين الإسلام ليس إلا دعوة للتحرر المطلق من قيود الاستعباد والعبادة لغير الله . وتدعيما لتلك الفكرة فإنه نظر إلى الدفاع عن الجور باعتباره انحرافا عن جادة العدل الذى يريده الله .. ومن ثم حكم على أصحابه بأنهم لا يلتزمون بجوهر الدين وأصله .. وعندئذ رن فى أذنه صوت الإمام محمد عبده حينما زار أوربا ولبس ما لدى أهلها من مكارم الأخلاق ، وسمعه يقول : لقد وجدت فى أوربا إسلاما وإن لم أجد مسلمين !! .. كما رنت فى أذنه تلك الكلمات المضيئة التى نقلها شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض السلف الذى يقول : « إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة . فالدينيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والإسلام !! »

ثم جلجلت تلك الكلمات الحاسمة لابن تيمية العظيم « إن العدل نظام كل شيء .. فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق .. ومتى لم نعلم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة ، .

وهكذا استقام بعد هذه الموازنة على طريق الكفاح السري ، واخذ يلتقى مع بعض هؤلاء اليساريين لقاءات محكومة بظروف الإرهاب الشاقة التي كانت عليها البلاد في عامي ٤٨ ، ٤٩ ، وكان هؤلاء اليساريون الذين يلقاهم خليطاً من الطلاب والموظفين المثقفين ، وبحكم علاقاته الحميمة مع بعض طلبة البعث الإسلامية فإنه قد تعرف على أنماط من الماركسيين الأكراد والفلسطينيين والسودانيين وغيرهم .. والجميع كانوا يعزفون لحن التحرير الكامل لأوطانهم المستعمرة أو شبه المستعمرة .

٣ - التجارب المثيرة :

واستأثرت به في تلك الاثناء تجارب الآخرين من أحزاب اليسار في شتى أقطار الأرض . وعلى الأخص تلك التجارب التي تتشابه ظروفها مع الظروف التي كانت عليها بلادنا في ذلك الوقت .

وفي مقدمة تلك التجارب الثورية التي استأثرت به كانت تجربة الحزب الشيوعي الصيني . ذلك لأنها بدأت معاصرة لثورة مصر الوطنية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى . وانطلقت تناضل من أجل تغيير المجتمع شبه الإقطاعي شبه المستعمر . وكانت بداية انطلاقها على أيدي نفر قليل من الرجال المؤمنين بأهداف التحرر الوطني والعدل الاجتماعي . ولم يلبث هذا النفر القليل أن ألقي ظلال تأثيره على كل الحياة الاجتماعية والسياسية في بلد كان سكانه آنذاك فوق الستمئة مليون إنسان . يعيشون في رفعة بالغة الاتساع . ويكتنفهم التخلف والإحباط والفساد من جميع الجوانب .

وكان أروع ما شدد انتباهه في تلك التجربة هذا الصمود الأسطوري الذي لم يعرف المستحيل مطلقاً . فعلى امتداد ثلاثين عاماً حافلة بالأحزان والمواجهة ، وممتلئة بشتى ألوان الفواجع ، لم تهتز ثقة هذا النفر القليل في النصر . وكانوا كلما إدركهم الفشل يرفعون راية الإصرار والتشبث قائلين : إنه مجرد الفشل الرابع أو السابع أو العاشر أو ما شئت من أرقام .

وكان يثير دهشته ذلك التحدي الجسور لكل القوى الرجعية الصينية المدعومة بخبرات وعناد الإمبريالية العالمية ، والتصدى الطليعي لشتى المفاهيم المغلوطة والأفكار المضللة ، والوقوف الحازم في مواجهة الغزاة اليابانيين بالدعوة إلى التحالف الوطني الواسع .

كما كان يثير إعجابه البالغ ما حدث أثناء الرحلة الطويلة بعد خيانة « الكومنتانج » للحلف الوطني الصيني . فهؤلاء هم قادة الثورة يرتحلون آلاف الأميال بثورتهم وأنصارهم إلى أقصى الأطراف في الصين خلال أسوأ الظروف وأقساها . حيث مات أكثر من بدعوا الارتحال قبل الوصول إلى نهايته . ومع ذلك فإن الباقين لم يثنوا ولم يلينوا ، ولم يتطرق اليأس لحظة إلى نفوسهم .

وفي غمار متابعته لتلك التجربة الفريدة استوقفته مسيرة الثورة بعد انتهاء تلك الرحلة العجيبة . لقد رأى قادة الحزب وأعضائه وأنصاره يزحفون من حيث إنتهوا في الاتجاه المعاكس . إنهم الآن يحررون المناطق الفلاحية منطقة إثر منطقة . ويقيمون في كل جزء يتم تحريره حكومته الثورية التي تحاكم المجرمين والخونة محاكمة شعبية عادلة . وتقوم بتوزيع الأراضي على الفلاحين المعدمين . وتبنى على أرضها مراكز السلطة الديمقراطية الشعبية . كما استوقفته أساليب المعارك التي أخذت تخوضها الثورة على جميع مستويات الرأي والفكر ، والسياسة ،

والتنظيم ، والحرب . واستولى على مشاعره ذلك التطبيق الخلاق لشعار « الانتصار بالشعب على جميع اعداء الشعب » . فالشعب عن طريق أوسع المشاركات الايجابية ، كان هو الركن الركين في كل انتصار يتم . وكان كل انتصار جزئى ينضاف إلى كل الانتصارات السابقة ، ويكوّن معها الرصيد الاكبر وهكذا !! ولكي يتعاظم هذا الرصيد فإن قادة الثورة لم يكونوا يتهاونون مع أى لون من ألوان الانحراف فهم مشغوفون دائما بإعمال مبدأ التطهير الثورى . والنقد الدائم للأساليب المنحرفة . ومن خلال ذلك كانوا يعيدون صياغة الاخلاق في مجتمع عشش فيه الفساد وبأض وأفرخ من عشرات القرون . إن التطهر الثورى والنقد الذاتى هو خبزهم اليومى كما كانوا يقولون . ولقد بهر عقله أنهم كانوا يُحرّمون إقتراف الانتقام الغوغائى ضد أعدائهم . لدرجة أنهم كانوا يحكمون على بعض كوادريهم بالموت إذا ما ارتكبوا مثل هذه الحماقات .

كما خلب لبه ذلك التفانى وضرب المثل الذى كان يقوم به أعضاء الحزب أيام المجاعة . فقد كان الواحد منهم رغم شدة الوهن يعمل ضعف الفرد العادى في زراعة الخضروات السريعة النمو . ويتقاضى عند الحصاد نصفه .. وحتى بعد اجتياز المجاعة وانتصار الثورة ، وفي أيام الحرب الكورية فإن أعضاء الحزب لم يتخلوا عن هذا التفانى المذهل . ففي مرحلة محددة من مسيرة الحرب بين الصينيين والأمريكان على الأرض الكورية تفتق ذهن قائد الجبهة الأمريكى عن إقامة خط دفاعى من الأسلاك الشائكة المكهربة لكي يمنع الصينيين من هوية الاقتحام المتلاحق لمواقعه . وبعد إقامة هذا الحائل المكهرب لم يجد قائد الجبهة الصينية مفرا من إذاعة إعلان يطلب فيه ألف متطوع من « الكوماندوز » لكي يجعلوا من أجسادهم جسرا عازلا لتيار الكهرباء السارى على تلك الأسلاك حتى يمكن الاقتحام .. وحدد فترة مدتها يومان فقط لكي يتلقى أسماء المتطوعين .. لكنه قبل أن تمر ساعات قليلة بعد هذا الإعلان كانت لديه قائمة بأسماء عشرة آلاف متطوع !!

أية مثالية ثورية تلك التى تجعل حياة الفرد هينة عليه إلى هذا الحد ؟ كيف بالله ثم إعداد هذا الفرد لكي يجعل من نفسه قربانا للصعق الكهربائى حتى يتمكن الجيش من المرور فوق جثته ؟ ما هو الثمن الذى سوف يحصل عليه لقاء تلك التضحية ؟

دارت هذه الأسئلة وعشرات غيرها مئات المرات في مخيلته وهويتابع التجارب الثورية المثيرة للآخرين . وبرزت امامه صور الأبطال من قادة الحركات الثورية في مختلف القارات والاقطار . ورأى في الأعداء الذين يحاربهم هؤلاء الأبطال صورة الأعداء الذين تحاربهم ثورة مصر . فالكل يحاربون الاستعمار الذى نشر نفوذه وقهره على شتى الأجناس ، وأتباع الديانات المختلفة . لا فرق لديه بين المسيحي والمسلم ، ولا تمييز عنده بين الهندوكى والبوذى .. الجميع من جميع القارات والبلدان يجب أن يكونوا في خدمة مصالحه وأن يصدروا له المواد الخام .. فهذا هو القانون الطبيعى للتطور الرأسمالى . الذى لا يحيا بغير الاستغلال . وهذا هو القانون الطبيعى للاستعمار الذى هو أعلى مراحل الرأسمالية .

ولقد استهوت في تلك الفترة بعض السير الشخصية لعظماء القادة الذين كانوا يضطلعون بأعباء العمل الثورى من أجل شعوبهم . وفطن إلى أن السمة المشتركة بين الجميع هي التجرد الكامل للرسالة التى آمنوا بها .. فكلهم مشبوب الاهتمام بالغير وليس بذاته .. يرى البسطاء والفقراء والمسحوقين أناسا جديرين بالتضحية من أجلهم وأهميتهم تفوق كل الاهميات . فهم الصناع الحقيقيون للحياة . ويسواعدهم وعرقهم تدور عجلات المصانع بالانتاج ، وتجدد الاراضى الشاسعة بالطيبات والثمار .

ومن أجل ذلك كان هؤلاء القادة شديدى الصرامة في الالتزام بقواعد الامانة والاخلاق ، لا مكان عندهم للكذابين والمستهترين ، والخادعين والمخدوعين . يحرصون على صقل انفسهم وانصارهم وتنقيتها من شوائب الطموحات الفردية والانانية الضيقة يكرهون الجبن والنذالة والتعالى والغرور ويرون فيها أخلاق المجتمع الذى

يسعون لتقويضه يمجدون المتواضعين الذين يسعون إلى التعلم من كل الشعب ويستلهمون المعارف من كل التراث الإنساني في تاريخه البعيد والقريب لا يصددهم عن ذلك أى لون من ألوان التعصب للوطن أو للعرق أو غيرهما . ركل الشعوب في منظورهم تستحق الحياة الحرة الكريمة ، وينبغى لها أن تتطور إلى أعلى المراتب الحضارية الممكنة .. يحرضون على تقويض العوائق المصطنعة التى تقف في طريق الشعوب ، ويؤكدون أن هذه العوائق إنما تفرضها المصالح الأثنية للطبقات التى تعيش على عرق الآخرين .

وهكذا اتسعت دائرة فهمه للتجارب الثورية المعاصرة ، وأدرك معنى التعاطف والتأخي الأسمى بين كل المناضلين من أجل الحرية والتقدم ، ولم يعد غريباً عليه أن يتفنى المناضلون المصريون بنضالات جوموكنيا في كينيا ، أو جاجان في غينيا ، أو ماوتس تونج في الصين ، أو مصطفى البرزاني في شمال العراق ، أو كيم إيل سونج وهوشى منه في جنوب شرقى آسيا .. فجميع هؤلاء وغيرهم إنما يعزفون لحن الثورة المؤذنة بالفجر الجديد . وهم من أجل ذلك أصدقاء حميمون رغم بعد المسافات وتعدد الجنسيات والمعتقدات . ورغم أنهم ربما لم يلتق أى منهم بالآخرين إلا عبر الاذاعات والصحف التى تهتم بنشر أخبار النضال ..

لكن النتيجة الأهم كانت هى الاستهانة الشديدة بالصعوبات التى كانت تمر بها حركة النضال في مصر . فقادة النضال المصرى في رايه بعد كل تلك الاطلاعات على تجارب الآخرين ينبغى أن يكونوا في نفس مستوى هؤلاء الأبطال . ذلك لأن المهام الكبار لا يحققها إلا الأبطال الكبار القادرون على حشد أوسع الجماهير

٢ - الحدث الجديد

ومن خلال هذه الاطلاعات على تجارب الآخرين المميزة ، وبالرغم من تعدد اللقاءات السابقة فإنها لم تكن تشفى غليل نفس الطالب الشاب ، وذلك لأنها كانت مقصورة على تبادل المعلومات ، والأفكار ، والأخبار ، التى لا تقضى إلى خطوات عملية نحو التغيير ، وبدأ يضيق ذرعاً بتلك الضبابية التى لا يستبين من خلالها الهدف .. وأخذ ينعم ، على زملاته ذلك الاستسلام إلى مجرد إصدار صحيفة سرية ، أو منشور شديد الفقر في شكله ومحتواه . كما أخذ يسألهم عن القيمة الحقيقية لتبادل تلك الكتيبات التى تحمل الحطط العامة للماركسية اللينينية إن لم تجد صداها في أرض الواقع

وبينما هو غارق في ضيقه الذى أحرق به ، نزل عليه في بيته من سلمه تقريراً عنوانه « تطور الرأسمالية وصراع الطبقات في مصر » ، وما إن تمت له دراسة هذا التقرير حتى أيقن أنه حدث جديد في حياة الماركسيين المصريين : ذلك لأنه كان تعبيراً عن وجهة نظر متكاملة لخريطة الواقع المصرى طبقياً ونضالياً منذ ما قبل عصر محمد على وحتى اللحظة الراهنة [أوائل يناير ١٩٥٠] .

ثم تبعت هذا التقرير دراسة أخرى عن « الثورة المصرية المقبلة » ، وكانت هذه الدراسة الثانية تفصيلاً لمواقف الطبقات المختلفة على أرضية الصراع الوطنى ، وتحديداً لمهام الطبقة العاملة حيال هذه الطبقات كل على حدة . مع تأصيل نظرى لهذا التحديد ، مستوحى من نظرية « ستالين » عن الثورة الوطنية في البلاد المستعمرة ! ونظرية ماوتس تونج التى على أساسها نجحت الثورة في الصين

وقد واكب التقريرين صدور برنامج يحمل اسم « الحزب الشيوعى المصرى » ، وكان هذا البرنامج يدعو إلى القضاء على النظام الملكى الاستبدادى ، وإقامة الجمهورية الشعبية ، ومصادرة الملكيات الزراعية الكبيرة بما يزيد عن خمسين فدانا ، وتأميم الاحتكارات والبنوك والمرافق العامة والمؤسسات الاستعمارية وإدارتها بواسطة العمال ، وإطلاق الحريات السياسية ، وبناء جيش شعبى ديمقراطى ، وإلغاء الجيش الأرستوقراطى ، وتحسين مستوى معيشة الطبقات الكادحة ، وفرض الضرائب التصاعدية على الدخل والأرباح غير العادية ، والتركات ، ونشر التعليم

الجاني ، وتحرير المرأة من قيود الحريم ، وحرية الشعب السوداني في تقرير مصيره ، وحرية الشعب الفلسطيني ، وحقه في تقرير مصيره بنفسه ، وتأييد كفاحه من أجل التحرير الكامل . الخ .

وعلى أساس من هذه الوثائق الثلاث انضم الطالب الشاب للحزب الشيوعي المصري ، وصار يمتحن لو تعاون كل المصريين في النضال الصادق من أجل تحقيق أهدافه ، وراح يستعيد النتائج التي توصل إليها من خلال الموازنة السابقة ، فتأكد له أن المناضلين قديسون يتعبدون في محارب التضحية والإخلاص والتفاني في سبيل تحقيق العدل والخير والحرية للجميع ..

وبالقياس المنطقي شغفه حب المناضلين في سبيل شعوبهم المظلومة ، فراح يتسمع أخبارهم ويضطرب للانتصارات التي يحرزونها في آسيا ، أو إفريقيا أو أمريكا اللاتينية . وبات يتسع قلبه لكل الجماعات الإنسانية التي تهب نفسها لتحرير أوطانها . وصار يكره الخصومات التي تقوم بين المناضلين مهما كانت عقائدهم التي يعتقدونها ، فكلهم يجمعهم الوقوف ضد العدو الذي يفرض ظلمه واضطهاده على الآخرين .

٤ - الشهيد والمظاهرة

وبينما هو مشغوف بالأمل في استئناف النضال المؤثر على أساس من الوثائق السابقة ، واثناء انهماكه في مناقشة بعض الطلاب السودانيين في مبنى دار العلوم بالمنيرة . قَدِمَ من همس بين السودانيين « صلاح بشري » مات في السجن !!

انفعل وانفعل معه بالخبر جميع من تلقوه من الطلاب ، وقال واحد لقد عثرنا منذ يومين على ورقة بخط يده القاها من نافذة سيارة السجن التي كانت تحمله الى المستشفى . وكان مكتوبا في هذه الورقة المرجو من يعثر على تلك الرسالة أن يوصلها إلى الطلبة السودانيين .. وكان مضمون الرسالة أنه مريض ويتماد المسئولون إهمال علاجه رغبة في قتله .. وطلب إبلاغ أهله بذلك !

بعد سماع هذا الخبر وقف الجميع واجمين للحظات قليلة ، ثم بدأ الجميع يتحركون في اتجاه الاستنجاد بالدكتور طه حسين وزير المعارف في حكومة الوفد التي تم تشكيلها منذ أيام قليلة .. واستجاب الدكتور الوزير مشكورا لرجاء الطلاب أن يساعدهم على ترحيل جثمانه إلى السودان الشقيق . وكانت إجراءات وإجراءات ، تم خلال القيام بها الاستعداد لوداع الشهيد ، وما إن حانت ساعة توديعه حتى اجتمع الآلاف في مظاهرة تقول : لن ننسك يا صلاح .. سوف نثار يا صلاح .. حسين طنطلوى قاتل صلاح .. الخ .. وسارت المظاهرة إلى مسجد عمر مكرم تحمل شعارات الثورة التي من أجلها سقط الشهيد .. وبعد الصلاة عليه ، وعند خروج جثمانه من المسجد تناثرت المنشورات الشيوعية في الميدان ، وذعر كبار رجال الأمن المكلفين بحماية الجنازة ، وظهر عليهم الحرج البالغ تحسبا لما سوف يقع عليهم من المسئولين في الحكومة

وتمتم الطالب الشاب في اسي

وصير أرضنا سجنا مشاعا
ويختلفان ضيقا واتساعا

اعد السجن للأحرار ظلما
هما سجنان يتفقان معنى

٥ - المناقشات الخصبية

باشتراك الطالب الشاب في جنازة الشهيد ، صلاح بشورى ، وضع لونه السياسي للقريبيين منه وبخاصة هؤلاء الذين كان له فضل تجنيدهم لجماعة الإخوان المسلمين . ومن ثم بدعوا تحت تأثير إخوانيتهم يزعمون الحلوه وبدأ هو تحت تأثير وطنيته يزعم تخلفهم عن إدراك الحقائق . وحصى وطيس المناقشة بينه وبينهم ، ولم يكن له بد من الترحيب بتلك المناقشات أشد الترحيب ذلك لأن ثقافته الأصلية هي ثقافتهم ، ومن ثم فإنه كان يتصور قدرته على إقناعهم بذات الثقافة التي يؤمنون بها

وكثيرا ما كانوا يزعمون أنه انفصل عن كل ما تعلمه ، بينما كان الواجب أن يظل في موقعه أبدا الدهر .. وحينئذ فإنهم كانوا يدهشون عندما يرد عليهم بأنه ليس هناك أدنى انفصال إلا في خيالاتهم هم فإذا سأل سألهم عن مقولة ماركس المشهورة ، الدين افيون الشعوب ، أسعفت خواطره بأن هذه المقولة المثيرة للجدل . ليست كل نظرية ماركس ، فهناك غير هذه المقولة بنيران هائل من المقولات الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والعلمية والأدبية لماركس ، وعلى من يريد إبطال نظرية ماركس أن يتصدى لكل مقولاتها . ثم يعلن الطالب الشاب أن هذه المقولة بذاتها مقولة خاطئة من زاوية أنها عممت حكمها على جميع الأديان في كل زمان ومكان ، ولم تقصر نفسها على الحكم على رجال الكنيسة الأوربيين الذين اشتهر عنهم الوقوف الكامل في معسكر الظالمين والظغاة علما بأن الدين أى دين لعب دورا مثيرا في حياة الأمم والشعوب . وهناك رجال دين كان لهم فضل القيادة والسيادة في معارك التحرير ولو عاش ماركس لرأى بعينه أن الدين الإسلامى قد ألهم أبناءه قيادة المعارك النضالية ضد الاستعمار في العصر الحديث

ومع ذلك فإن الماركسية ليست هي الوحيدة التي هاجمت الأديان ، فهناك فلسفات كثيرة وبخاصة الوضعية منها صنعت نفس الصنيع .. ومن عجب أن هذه الفلسفات كلها تتم دراستها في الكليات الرسمية للدولة ولا تهاجم إلا الماركسية فقط .. أليس ذلك يوحى بأن الماركسية لا تهاجم بسبب موقفها من الأديان ، وإنما تهاجم بسبب موقفها من إلغاء الامتيازات الطبقية ، ومصادرة الملكيات المستقلة لوسائل الإنتاج . وجعل السيادة الاجتماعية للطبقات الكادحة من العمال والفلاحين ؟؟

بمثل هذا المنطق كان الطالب الشاب يناقش القريبيين منه ، وكثيرا ما كان يقوله لهم من هو المجنون الذى يسمح لنفسه بتحقيق ما تتصورونه من المعاداة لقيم الدين ؟ ما هي الفوائد التي تعود على أى إنسان من محاربة المصل في صلاته ، أو الصائم في صيامه أو الحاج في حجه ؟

ثم كيف يجول في خواطرهم أن محاربة الظلم تعنى الخروج على الدين ؟ أو يرضى الله على ظلم الإنسان لآخيه الإنسان ؟ أليس جوهر الأديان كلها هو تحقيق الخير للإنسان بدره الشر ودفع أضراره ؟ وهل اتفاق الماركسية أو غيرها مع جوهر الأديان في هذا الاتجاه العام نحو الخير يجعلنا نكفر بالأديان أم نزداد إيمانا بها ؟

لكن المناقشات كانت تنتهى لتبدأ من جديد ، وكانت مهمته في كل مرة هي أن يوضح لخصومه أن الالتزام الأيديولوجى لا يعنى بالضرورة الاتفاق الكامل مع كل التفاصيل التي تتضمنها هذه الأيديولوجية أو تلك . بيد أن المتكششين كانوا يصرون على أن كل ماركس لابد أن يكون غير مؤمن بالأديان . وبخاصة الدين الإسلامى الحنيف وحتى عندما كان يذكرهم بأين الاختلافات الواضحة في داخل أصحاب الأيديولوجية الواحدة ولو كانت دينا من الأديان إنما تعكس درجات مختلفة من عدم الالتزام ببعض التفاصيل ، فإنهم كانوا يرمونه بالرون عن الأيديولوجية الماركسية ، ويقولون إن هذه الأيديولوجية لا تسمح بالاختلاف "

وعند هذا الحد كان يحيلهم إلى واقع الاختلافات الايديولوجية المتعددة بين الماركسيين في العالم . ثم يقول : إن الأجدر بالمناقشة هو تلك المواقف العملية التي يقضها الايديولوجيون من قضايا الحياة اليومية . فالمواقف العملية دائماً هي البرهان الحقيقي الدال ليس على مدى الالتزام فحسب ، وإنما على صلاح أو فساد تلك الايديولوجية ذاتها . ومن هنا فإن الأهم من كل تلك المناقشات أن ننظر إلى البرامج التي يقدمها الايديولوجيون للناس . فالناس في مجموعهم ليسوا فلاسفة يفهمون في الايديولوجيات ؛ ويستولى عليهم بريق النظريات ، وإنما هم أناس بسطاء ، ولهم مطالب وأهداف يرغبون في تحقيقها .

٦ - الحقائق المهمة :

وأفضت تلك المناقشات الخصبة إلى مجموعة من الحقائق المهمة ، فهو عندما اتضح له أن الحساسية البالغة ضد الماركسية ليس سببها الاساسى موقف ماركس من الدين ، وإنما سببها الاساسى هو موقف الماركسية من ملكية المال ووسائل الإنتاج . كان لابد له من العكوف على التأمل الهادئ لاستخلاص الحقائق المتعلقة بهذا الامر في دين الإسلام وطرح على نفسه كل الذي تعلمه من القرآن والسنة ومواقف الطلائع الاولى للدعوة المحمدية . وبدأ بالقرآن الكريم فأنكشف له أن آياته تتحدث صراحة عن ملكيته فتنسبها لله تعالى على سبيل الحقيقة ، بينما تنسبها للإنسان الحائز لها على سبيل المجاز . وكان النص القاطع في هذه المسألة قول الله تعالى « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » فالمال بمقتضى هذا النص مال الله . هو الذي يعطيه للأفراد لكي ينتفعوا به وينفعوا غيرهم . وإذا كان ملكية الأفراد ليست حقيقية وإنما هي مجازية .. خولها الله لهم لكي يستبقوا منها ما يكفيهم وأولادهم ، ثم ينفقوا الباقي في حاجات المجتمع .. وعلى ذلك فإن استئثار الأفراد بالمال ، وحجب نفقته عن الآخرين . بل وتسخيرهم في استغلال الآخرين وظلمهم من أجل البذخ والمتع الخاصة ، ليس أمراً ينسجم بقاؤه مع الفهم الصحيح لآيات القرآن الكريم .

وتأكد لديه هذا الفهم بما يعرفه الجميع من سيرة الرسول (ﷺ) ومواقفه تجاه ملكية المال : فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يهتم باقتناء الذهب والفضة ، ولا أثر عنه أنه تملك العقارات والضياع ، أو حث على التملك والحيازة وإن جاع الناس . كيف وهو القائل : ليس منا من بات شبعان وجاره جائع وكيف وهو الذي لا يريد تمليك ذريته أو زوجاته عن طريق الارث منه فيقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة ! كيف وهو الذي نزل عليه قول ربه .. والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب الأليم ؟ كيف . وكيف . مما لا تحصى من الأحاديث والمواقف !

أما مواقف الراشدين من أصحابه فكانت غاية في الإهتمام به (ﷺ) لم يكونوا طلاب مال ، ولم يؤثر عنهم غير التعفف ، والبذل ، والإيثار .. فالهم الحقيقي لأى منهم كان رعاية المصالح العامة للمسلمين ، والتخل المطلق عن حب التملك والمال . بل إنهم إذا امتلكوا شيئاً منه سارعوا إلى الجود به لكي يتم تسخيرهم في خدمة الجماعة المسلمة من غير ضن أو من .

هذا أبو بكر الصديق في بدء خلافته يأبى إلا أن يتكسب رزقه بمشقة التجارة . ولولا اعتراض الفاروق وبقيّة الصحابة لفعل . لقد أقنعوه بالعدول عن ذلك وطلبوا فرض ما يكفيهم من بيت مال المسلمين ، فلم يقبل سوى ثلاثة دراهم يعيش منها ويعول أهله !! وهذا عمر بن الخطاب الذي يقول : إن الفقر والغنى مطيتان لا أبالي أيهما أركب ؟ وسيرته كما يعرف

الجميع حافلة بصور العزوف عن الدنيا ، وتحري البعد عن المال ، ليس هو القائل ، والذي نفسى بيده ما من أحد إلا وله في هذا المال حق . وما من أحد لحق به من أحد . وما أنا فيه إلا كأحدهم .

وهذا عثمان بن عفان الذي جهز بماله جيش العسرة وقال هذا مال الله فلينفق في سبيل الله وهذا هو الإمام علي بن أبي طالب الذي يقول : إن بطننة الفنى هي انتقام الله للفقير . وقد فرض الله في أموال الأغنياء ، أموال الفقراء ، فما جاع فقير إلا من صنع غنى ، تماما كما تعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول : إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بالقدر الذي يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما صنع أغنيائهم . إلا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا ، ويعذبهم عذابا اليما .. !
بهذه الروح المتجردة عن أبهة الدنيا كان رسول الله وصحابته جميعا يتعاملون مع المال ، وبهذه الروح العزوف عن تملك المال أملوا على المفسرين والمتصوفين وشراح الحديث من بعدهم أن يقولوا : إن ملكية المال استخلاف منوط به صلاح المجتمع ، فإذا أساء المالك التصرف في هذا المال الذي استخلفه الله فيه ، وحوله إلى أداة ظلم واستغلال فإنه يجب تجريدته منه ، ويصبح هذا إجراء إسلاميا عادلا يرفع مصلحة المجموع .. ذلك لأن الأموال أموال الله ، والخلق عيال الله . وليس من العدل أن يسمح الله لمن أعطاه المال أن يظل متحكما في رقاب العباد ظلما لهم

وهذا الإمام الغزالي صاحب الإحياء يقول : إن المال مثل الماء ، والماء لا يشرب منه أكثر من الحاجة ، وهذا الإمام محمد عبده يقتبِع إسناده المال في القرآن الكريم فيجده في الأغلب مسندا إلى ضمير الجمع وفي الأقل مسندا إلى ضمير الفرد . فيستنتج من ذلك ، أن الله ينفبه بذلك على التكافل فكانه يقول . مال كل واحد منكم هو مال امتكم

أبعد هذا كله يسوغ لعامل مسلم أن يكفر أخاه لأنه يدعو إلى تأميم المال المستغل لعرق الشغيلة والكادحين الفقراء ؟

أبعد هذا كله يكون احتكار الأرض والمصنع وحبس إنتاجهما على سادة الإقطاع والمال هو الأمر الجدير باندفاع عنه ؟

ألا يدعو الإسلام صراحة لمحاربة الظالمين وعدم الركون إليهم ؟ ألم يقل الله تعالى : ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، ؟

ألا يكون أثما قلبه كل من تقاعس عن القتال في سبيل الله والمستضعفين ؟ ! أولم يقل الله تعالى : ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ؟

٧ - المناخ الجديد :

جاء الوفد إلى الحكم في بداية عام ١٩٥٠ ، وكانت مشاعر الشعب كلها معه بدليل أنه حصل في الانتخابات آنذاك على ٢٢٨ مقعدا من ٣١٩ . وبناء على هذا الفوز الساحق في الانتخابات تطلعت الجماهير الشعبية إلى نيل حقوقها الوطنية ، والديموقراطية والمطالب الاجتماعية . ولم تنتظر الجماهير إذنا من أحد بل هبت جموعها تعلن الإضرابات ، وتقوم بالمظاهرات ، وفي عام ٥٧ وحده وهو العام الذي حكم فيه الوفد وقع ٤٩ إضرابا عماليا ، ثم أخذت الفئات الأخرى تقوم بنفس العمل ، وكانت الصورة العامة للمجتمع تنبئ بأن الثورة المصرية قد استأنفت مسيرتها من جديد وفي ظل المناخ الجديد تحرك الفلاحون في مزارع الإقطاعيين ، كما حدث في كفر نجم حيث أحرقوا المحاصيل وماكينات

الري والسواقي ، وكما حدث في بهوت حيث تجمهروا ضد البدرأوى وحاصروا قصره ، وأحرقوا محاصيله ، وقتلوه بالحجارة ، وكما حدث في قرية ميت نقيبالة حيث أضربوا عن جنى محصول القطن .. وإلى كل واحدة من هذه الإقطاعيات كانت الحكومة الوفدية تصطدم بالفلاحين اصطداما داميا ، تماما كما كانت تصطدم بالإضرابات والمظاهرات العمالية في المدن .

ومن خلال كل هذه الأحداث بدأت تهتز كل أركان النظام ، وكان اليسار المصري في مواقع تلك الأحداث التي وفرها نسبيا ذلك المناخ الجديد الذي أعقب فترة الحكم الإرهابي لأحزاب الأقلية .

وإثناء هذه الفترة تحددت المواقف المختلفة للطبقات والهيئات والأفراد للطبقة العاملة ، والفلاحون ، والطلاب ، والمتقنون كلهم يتحركون في اتجاه الحصول على حقوقهم ، والباشوات كبار ملاك الأرض ، والحكام وعلى رأسهم الملك ، والانجليز من خلفهم يحاولون إخماد تلك التحركات بكل الأساليب والوسائل .

أما رجال الدين فقد انقسموا إلى فريقين .. فريق يؤيد الملك ويناصره ويخلع عليه القاب الملك الصالح ، وأمير المؤمنين الخ . وفريق يعارض النظام ، ويؤمن بالذي يؤمن به الشعب ويدعو إليه .

يقف الفريق الأول بالاعتناع أو بالنفاق موقف بعض رجال الكنيسة في أوروبا قبل نهضتها . هؤلاء الذين كانوا يساندون الطغيان والظلم دفاعا عن مصالحهم الخاصة ، وقد أساء هذا الفريق لنفسه أبلغ الإساءة عند الجماهير . كما أساء هذا الفريق أيضا إلى الدين الذي ينتسب إليه .

بينما كان الفريق الثاني يقف إلى جوار حركة الشعب يسندوها بالقلم أو باللسان ، ومن هذا الفريق الشيخ محمد سعد جلال ، والشيخ خالد محمد خالد وغيرهما . ولقد كان موقفهم شبيها بموقف الشرفاء من رجال الدين المسيحي الذين فهموا مقولات المسيحية فهما حقيقيا مخالفا لفهم هيئات الكهنوت التي كانت تبيع صكوك الغفران .

ونتيجة للمد الواسع شاعت في لغة الفلاس مفهومات الدين الحقيقية من مثل قول أبي زر الغفاري « عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه » ، ومن مثل قول بعض الباحثين المستشرقين : إذا كانت الماركسية تشيد بالعمل وتعتبره أساس كل قيمة ، فقرأنا الكريم يقول « قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ، ونبينا يمجّد العمل فيقول عن السيدة التي أصابها الخشونة من كثرة الكدح : هذه يد يحبها الله ورسوله .

٨ - الحركة المقيدة :

ومهما يكن من شيء فقد انخرط الطالب الشاب في سلك النضال من أجل مصر تحت راية الحزب الشيوعي المصري ، وكان هذا النضال محكوما بقواعد السرية المطلقة . ذلك لأن الضمان الوحيد لاستمرارية النضال كان هو التخفي عن أعين الدولة وأجهزتها .. ومن ثم فإنه ألف تلك الاجتماعات السرية التي يتم من خلالها تبادل التعليمات ، والنشرات ، والأخبار .. كما ألف الالتزام بترك الفضول عند المناقشات وإثناء الاجتماعات . ذلك لأن معنى السرية يفترض ألا تكشف إلا ما ينكشف لك . من خلال مسئول لا تعرف اسمه ، ولا عمله ، ولا مسكنه ، ولا أي جانب يدل عليه . وإذا حمل إليك بعض التعليمات من قيادة التنظيم فإنه يحملها من مجهولين له ، وإذا رفع تقريراً منك إلى المستوى الأعلى فإنه يرفع تقريراً من مجهول هو « س » مثلاً إلى مجهول هو « ل » وهكذا تكون الحركة داخل التنظيم السري حركة محكومة بشتى القيود ، وعليك أن تكون في غاية التحفظ والحذر ، عندما تفعل أو تقول إذ أن أي خطأ قد يلحق أضرارا فادحة بأعضاء التنظيم .. هؤلاء الذين يعتبرون عملة نادرة لا يسهل تعويضها عند فقدانها ..

إنهم يكافحون بالمخاطرة البطولية في كل لحظة من لحظات حياتهم . يقرعون بالمخاطرة ، ويكتبون بالمخاطرة ، ويناقشون بالمخاطرة ، ويعقدون الاجتماعات ويقومون بالاتصالات بالمخاطرة .. لا يهابون ولا يترددون في أداء ما يطلب

منهم مهما تكن الاحتمالات وإذا وقع واحد منهم في قبضة الدولة فإنه لا يبوح بشيء أو تمن عليه ولو وقع عليه شر ألوان التعذيب

وهكذا صار الطالب الشاب مرتبطا بقيود السرية التي حدث من انطلاقه . ولكنه بالرغم من تلك القيود كان يتلمس الفرص المواتية للحركة بين الجماهير الساخطة والغاضبة .. وكانت أخبار حركة الجماهير تنعكس عليه من مصدرين اثنين هما المطبوعات السرية ، والصحف العلنية .. ففي المطبوعات السرية كانت حركة الجماهير تنعكس بصور مختلفة نتيجة لتعدد التنظيمات التي تصدر تلك المطبوعات .. وفي الصحف العلنية كانت هناك دائما وجهة نظر الحكومة وكتابها حيال تلك الحركة والقائمين بها . وبقانون التأثير المتبادل بين كل من الحكومة والجماهير كانت المطبوعات السرية تعكس الأسباب والوقائع الخفية للمواقف الحكومية بهدف فضحها وتحريض الجماهير عليها . كما كانت الحكومة تحاول إخفاء صورتها المهترئة في أعين الجماهير .. والقصر على حد سواء .

دعى الطالب الشاب من قبل زملائه المغاربة للمشاركة في مؤتمر وطني يتم انعقاده بمبنى الجامع الأزهر للتنديد بجرام الإستعمار الفرنسي . وكان موعد المؤتمر بعد صلاة الجمعة .. وأسر إليه من دعاه أن يكون ممثلا للحزب الشيوعي المصري الذي يجب أن يعرف رأيه بالنسبة للقضية المغربية . وتلبية لهذه الدعوة ذهب إلى المؤتمر قبل انعقاده بوقت معقول ، ثم اندفع إلى المنبر بعد الصلاة ، وألقى من فوقه خطبة إثارية مختصرة دعا فيها لانعقاد المؤتمر .. وتعاقب بعده المتحدثون ، وفي أثناء تلك القى مجهول من الحاضرين كماً كبيراً من المنشورات الموقعة باسم الحزب الشيوعي المصري .. ولم يكن في تلك المنشورات ما يثير غضب السلطة سوى التوقيع .. فكل ما كان فيها أيده الحاضرون بما فيهم رجال الدين أنفسهم .. وارتفع مستوى الحماس بعد توزيع هذه المنشورات ، وتصاعدت الهتافات بحياة الشعوب العربية والإسلامية ويسقط الاستعمار العدو للدود لهذه الشعوب . ثم انتهى الأمر بإصدار قرارات المؤتمر التي تم إبلاغها إلى شتى الجهات وقبل أن يغادر المؤتمر مكان المؤتمر قبض البوليس على عدد من الطلاب اعتباطا لمجرد التذليل على النشاط القوى في تعقب الأحداث .

وفي اليوم التالي : نشرت الصحف وقائع المؤتمر ، وركزت جدا على منشور الحزب الشيوعي المصري الذي تم توزيعه في مبنى الجامع الأزهر !!

عندئذ توترت الأعصاب في القصر الملكي ، ودعى فؤاد سراج الدين وزير الداخلية للقاء المسؤولين هناك . ولم يجد بدا من تكتيب ما نشر في الصحف ، وإنكار أن هناك حزبا شيوعيا في مصر !! لكن راية الشعب جريدة الحزب الشيوعي المصري ردت عليه في نفس الأسبوع وأكدت أن الحزب الشيوعي المصري حقيقة واقعة رغم أنف سراج الدين وسادة سراج الدين .

هذا مثل واحد من أمثلة التحركات الجماهيرية وطريقة تناولها في الصحف الحكومية والمطبوعات السرية . ومنه يتضح أن حكومة الوفد التي جاءت بها الجماهير لكي تحقق أهدافها وتصون حركتها ، قد باتت تخشى هذه الجماهير ، وتعمل على تصيتها عن الحقائق إرضاء للقصر ، وصيانة لمصالحها في الحكم والتحكم .. ولولم يكن الطالب الشاب أسير القيود التي تفرضها السرية لكان له والأمثلة موقف أبعد من مجرد نشر خبر أو مقال في جريدة سرية محدودة التوزيع .

٩ - مساوئ الانقسام :

وكان للحزب الشيوعي المصري إلى جوار جريدته السياسية « راية الشعب » نشرة داخلية اسمها « الحقيقة » ، وفي هذه النشرة الداخلية كانت تتم المناقشات والدراسات النظرية العميقة ، وكان الهدف من إصدارها هو تربية الكادر القادر على القيادة

ومن خلال هذه النشرة الداخلية تعرف الطالب الشاب على حقائق الانقسامات الحادة في صفوف الحركة الشيوعية المصرية ، فهناك تنظيم « مدتو » ، أى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى ، وهناك التيار الثورى (ث ث) والنجم الاحمر الشيوعى ، وطلبة الشيوعيين المصريين (ط ش م) . ونواة الحزب الشيوعى المصرى . والحزب الشيوعى المصرى . وطلبة العمال .. وما إلى ذلك .

وكان لكل واحد من هذه التنظيمات مطبوعات التى دأبت « الحقيقة » على مناقشة كل منها . وكانت المناقشات جادة وحادة ، تحاول إبراز الأخطاء على أنها خيانات صارخة . إما للنظرية الماركسية اللينينية ، وإما للقضية الوطنية ، أولهما معا ، وكان للكتاب الذين يحررون هذه النشرة قدرات فائقة يستطيعون عن طريقها إثبات ما يرمون به خصومهم من اتهامات .

وعندما تبين له عمق مأساة الانقسام سلوره الشك فى أن تكون هناك بعض الأصابع الاستعمارية التى تجيد خلق وتغذية التفتت فى داخل الحركات الوطنية بشكل عام ، وحاول التعرف على هذه الحقيقة بإثارتها أثناء أحد الاجتماعات الحزبية .. فأكد له زملاؤه أن ذلك حقيقى فعلا ، وذكروا له أسماء بعض الأجانب الذين ينتسبون إلى المنظمات الشيوعية المصرية .. أو الذين يسيطرون على بعض هذه المنظمات !!

ولقد لعب هذا الانقسام دورا خطيرا فى حياة الشيوعيين المصريين . شغلهم بمحاربة أنفسهم عن محاربة الخصوم . وفتح الفرص للجواسيس والمخربين أن يندسوا بينهم . وبلبل الجماهير والوطنيين القريبين منهم . وصورهم بصورة العابثين فى نظر أصدقائهم والعاطفين عليهم .

ولقد انتقلت صورة هذا الانقسام عن طريق الكتابات فى الصحف الأجنبية إلى خارج الحدود ، وادعى كل على الآخر ما يشتهي من الإدعاءات .

وكان الطالب الشاب يشعر بالأسى عندما يفاجئه بعض المثقفين بما قرعوه من ادعاءات ماركسية ضد ماركسيين آخرين .. لكنه مع ذلك ظل على حزبيته وكأنه كان ينتظر تحقيق التوقعات التى يتوقعها الحزب من تصفية كل هذه المنظمات ، واجتذب المخلصين منها إلى صفوفه ، وكانت التسلمات التى تحدث من بعض أعضاء المنظمات الأخرى ترجع هذه التوقعات ، فكثير من أعضاء هذه المنظمات كانوا يقتنعون بوجهة نظر الحزب بعد الإطلاع على وثائقه ويطلبون الانضمام إليه . لكن ذلك لم يقض على مساوئ الانقسام ، ولم يجعل الشيوعيين قادرين على فرض أنفسهم كتيار قوى متجانس .

١٠ - ملخص الوثائق :

وكان الملخص المختصر لتلك الوثائق التى اعتمد عليها الحزب لتصفية الانقسام فى مصر يدور حول التطور الطبقي فيها منذ أيام المماليك ، مروراً بعصر محمد على واستيلائه على الأرض الزراعية . ثم عصر اسماعيل الذى أراد أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا ، ثم ثورة عرابى التى تمت هزيمتها بفضل خيانة الإقطاعيين وأحزابهم . إلى أن استأنفت مسيرتها بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد اللذين قعدت بهما الظروف عن بلوغ أهدافهما . ثم جاءت سنوات الحرب العالمية الأولى ١٤ - ١٩ وما تمخضت عنه ثورة سنة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول .. وكيف أن هذه الثورة لم تحقق انتصارها إلا فى حدود ما انتزعته البرجوازية المصرية من مكاسب . ديمقراطية نسبية . إلى أن كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ تلك التى كرست تجميد الثورة عند حدودها التى بلغتها وبخاصة بعد بروز الفاشية على النطاق العالمى . إلى أن جاءت الحرب العالمية الثانية فانتعشت الرأسمالية المصرية التى نشأت فى حضن الإستعمار وحقت لنفسها بعض المكاسب . وبرز إلى جوارها دور الطبقة العاملة المصرية التى أصبح لها بحكم

دورها التاريخي على نطاق العالم المعاصر دور القيادة للصراع الاجتماعي والوطني بقيادة حزبها الذي يعبر عن مصالحها ومصالح كل الطبقات ذات المصلحة في الثورة . وما هذه الطبقات الأخيرة إلا العمال والفلاحون والراسمالية الوطنية (الصغيرة والمتوسطة) إلى جانب المثقفين الثوريين والجنود أما الإستعمار والاقطاع والاحتكار (الراسمالية الكبيرة) فإنهم معسكر الأعداء الذي يجب القضاء عليه إتماما لمهام الثورة الوطنية التي بدأت منذ عهد عرابي ولم تستكمل حتى الآن

كانت الحقائق مبسطة في تلك الوثائق .. وكان مجرد تقديمها للأعضاء في غير الحزب يتكفل بجذب العديدين منهم . ذلك لأنهم ربما لم يكن لديهم دراسات شبيهة . وكان الطالب الشاب يسعد جدا كلما تم له كسب عضوجديد

١١ - ١٣ يناير سنة ١٩٥١ :

من خلال تلك الوثائق التي تم تلخيصها منذ قليل . تبين الطالب الشاب أن الثورة حدث اجتماعي له شروطه ، وظروفه ، وقواته الرئيسية والحليفة ، كما تبين له أن الثورة الوطنية إنما تعبر عن مصالح الطبقات الوطنية الراحبة في التخلص من الاستعمار وحلفائه . ومن هنا اندفع يخوض غمار النشاط العام من أجل تهيتة ظروف النصر لتلك الثورة الأمل . فهو يبدأ يومه بالذهاب إلى كليته لكي يمضي ساعات المحاضرات والدرس مع الأساتذة والزملاء . مشغولا بفهم ما يدور داخل القاعات والمدرجات ، فإذا حان وقت الانصراف نظر في « أجندة » مواعيده لكي يعرف أين وجهته . ويظل بعد ذلك ملكا للاجتماعات والمناقشات أحيانا إلى ما بعد منتصف الليل .

وهكذا تمضي به الأيام والليالي حتى جاء يوم ١٣ يناير ١٩٥١ . خرج الطلاب في هذا اليوم إلى مبنى وزارة الخارجية المصرية محتجين على سياسة المفاوضات مع الانجليز التي كانت تمارسها حكومة الوفد من أجل تعديل معاهدة ١٩٣٦ . وكان المتظاهرون قادمين من مبنى جامعة فؤاد الأول [القاهرة حاليا] ومن بعض الكليات والمدارس الأخرى . واستعاد الطالب الشاب ذكرياته القديمة عن تلقائية الكفاح الطلابي من أجل الوطن :

تصاعدت الشعارات الوطنية بسقوط الاستعمار .. وحياة مصر المستقلة ، وسقوط معاهدة الذل والعار ولا مساومة ولا مفاوضة الخ وسمع صلاح الدين باشا وزير الخارجية هدير الهتافات فخرج إلى الشرفة المواجهة للطلاب .. وبدأ الطلاب يناقشونه وهو يحاول الرد عليهم لمدة ساعتين اثنتين .. كانوا إذا سألوا لماذا لا تلفون المعاهدة وتقطعون المفاوضات ؟ رد عليهم بأن الحكومة إذ تفاوض فإنها لا تفرط .. والمعاهدة الموقعة من طرفين ليس من السهل إلغاؤها من طرف واحد !! وإذا قالوا إن مصلحة الوطن فوق الشكليات رد عليهم وإذا أمكن تحقيق مصلحة الوطن مع الحفاظ على الشكليات فما المانع ؟ وهكذا طالت المناقشات . وتخللتها شعارات عدائية ضد الوزير الأمر الذي ضيق صدره فحسم المناقشة بأن قال للطلاب لا تتكلموا باسم الشعب فأنتم لستم كل الشعب . وانصرف الطلاب حائقين . ولم يحدث معهم أي صدام .

١٢ - بطاقة التسول :

وعاد الطالب الشاب إلى منزله مهموما بتلك الكلمة التي أنهى بها الوزير مناقشته : وقال لنفسه : لو كان الوزير مواجهها بزحف شعبي حقيقي لما جرؤ أن يقول تلك الكلمة . وإن علينا بالفعل أن نحشد كل جماهير الشعب من أجل بلوغ أهدافها

وفي مساء نفس اليوم ذهب إلى مسجد الحسين حيث الاحتفال بمولده . وهناك شاهد الآلاف المؤلفة من الناس فتذكر قولة الوزير من جديد ، ودلف إلى المسجد وهو يفكر في الكيفية التي يمكن معها حشد الشعب والتحدث باسمه مع أية سلطة مهما كانت وظل هذا التفكير متسلطا عليه حتى غادر المسجد وركب الترام عائدا من حيث أتى ، وبينما هو جالس إلى جوار صديقه القديم الواعظ جاءه صبي صغير الجسم والسن كان منهمكا في توزيع بطاقات على الركاب وأعطاه واحدة منها .

تخيل للحظة أنها منشور سياسي شبيه بذلك الذي وزعه الطلاب اليوم في مظاهرة الصباح . فلما وصلت ليده وجد فيها ما يلي :

« سلاتي : انا تلميذ وابن مجاهد فقد صحته وبصره ومستقبله في سبيل الوطن ، ولعجزه فإنني اعوله والعائلة بتجارة الحكم والآيات القرآنية المزخرفة وإنني جدير بتعظيمكم ،

التلميذ

عادل البيومي

حينئذ شعر بدوار حقيقي يحتاج كل كيانه ، وغامت عيناه بالدموع ، ومد يده تلقائيا إلى قروش قليلة ناولها لهذا التلميذ . وقال له لن أشتري منك شيئا بهذه القروش ، وأرجو أن تترك لي فقط تلك « البطاقة » التي تحمل مشكلتك .. فرح التلميذ وانصرف تاركها « البطاقة » بينما ظل هو في مكانه مزلزل النفس يرتجف بدنه .. الأمر الذي دفع صديقه الواعظ إلى التهورين عليه ببعض الكلمات المعتادة في مثل هذه الظروف ، ورن في أذنيه من هذه الكلمات قوله : البلد فيها من البائسين ما لا يحصى ولا يعد !! وعند مفترق للطرق ترك صديقه وانصرف إلى منزله غير سعيد . وهناك أوقد المصباح وجلس إلى مكتبه المتواضع ، ووضع أمامه تلك « البطاقة » وأخذ يتأمل كلماتها التي صارت أمامه كأنها الخناجر المسمومة . تروع قلبه ، وتنهش وجدانه ، وتبعث فيه من الضيق والالام ما لا يقوى على احتماله !!

إن هذا الذي يتسول تلميذ عجز أبوه عن الكسب بسبب جهاده في سبيل الوطن ، ولعله كان واحدا من مشوهي حرب فلسطين . !! ولقد كان من حقه على الدولة أن ترعاه وترعى صغاره وزوجه - ولا تتركه لكي يتسول ابنه على هذا النحو الذي رآه . ترى أين المسئولون في هذا البلد ، وماذا يعملون ؟ وكيف يستطيع تلميذ تقسروا عليه الظروف على هذه الصورة أن ينجح في دراسته ؟ وأية جراح نفسية تمزقه وهو يتأمل الذي حدث له ولأسرته ؟

واسترسل الحوار الصامت المؤلم بينه وبين سطور تلك البطاقة حتى مطلع الفجر !! وسرح بفكره المؤرق إلى ما حدث أمس مع معالي وزير الخارجية الهام .. وربط بين سياسة الدولة والنظام الذي تقوم عليه ، وبين حدث البطاقة هذا .. وقالت له نفسه لو أن وزير الخارجية قد فقد صحته وبصره ومستقبله في سبيل الوطن هل يجوز على أولاده ما جاز على ذلك التلميذ من فقر وعوز ألجأه إلى التسول ؟ وبالطبع كانت الإجابة معروفة وواضحة وضوح الشمس التي أخذت أشعتها تقتحم عليه المكان . عندئذ تهيأ وخرج من منزله إلى كليته مبكرا ..

١٣ - العمل الخيري :

وفي طريقه إلى الكلية خطرت له فكرة اتخاذ تلك « البطاقة » وسيلة للإثارة الوطنية بين الطلاب !! ولكن كيف ؟ إن الذين شاركوا في مظاهرة الأمس من أبناء كليته نفر محدود ، أما أغلبية الطلاب فإنهم منصرفون عن السياسة والوطنية ، ولا يهمهم سوى الدرس والنجاح في نهاية العام

تري هل يجع في إثارته وحفر معهم عن طريق « البطاقة » ، التي أثارته وأرقت كل ليلة حتى مطلع الشمس .
ولم لا ؟ اليسوا بشرا مثله لهم نفس الإحساسات والوجدانات الإنسانية ؟ على كل حال فإنه لن يخسر شيئا إذا
ما جرب وحاول

وهكذا وصل إلى فناء الكلية فلم يجد أحدا فيها على الإطلاق ، واتجه من فوره إلى سبورة العرض القائمة في هذا
الفناء ، وبخط جميل واضح كتب هذا العنوان « منشور سياسي » ، وتحت هذا العنوان كتب السطور التالية
ما رايك أيها الزميل لو دعيت لحفل شائق تحبه ؟ وما رايك لو كان داعيك لهذا الحفل واحدا من
زملائك ؟ وما رايك لو كان هذا الحفل من أجل تكريمك أنت ؟ وما رايك لو كان سبب تكريمك هو نجاحك في
تحقيق حلم لك ؟ وما رايك لو كان هذا الحلم لا يقتصر اثره عليك وإنما يمتد إلى كل أبناء وطنك ؟ وما رايك لو
لم يقتصر تكريمك على هدية تهدى إليك . بل صار منشورا سياسيا يتداوله كل الناس ؟
اعتقد أنك لن تتوانى في تلبية تلك الدعوة ، وسوف تتجه فورا إلى المدرج الكبير لكي تطلع على هذا
المنشور الذي يخطو على أخطر المعلومات بالنسبة لحياة الوطن ومستقبله

وفي ركن من أركان « المدرج الكبير » ، المواجه للفناء وقف يرقب ما الذي سوف يحدث ؟ !! وكان سعيدا جدا
عندما أقبلت الطلائع الأولى من الطلاب ، والتفوا حول سبورة العرض قبل أن ينتبه الحرس الجامعي للأمر . وتكاثر
الطلاب بعد ذلك حتى غص بهم الفناء . إنهم مترددون ولم يقبلوا على المدرج الكبير . ربما لأن الدعوة غير موقعة
باسم صاحبها . وربما لأن كلمة « منشور سياسي » تثير فيهم نوعا من الخوف
لكن واحدا منهم بشيء من الفطنة عرف من الداعي ، وتسلس إليه ، وتفاهما على التعاون في جذب الطلاب إلى
المدرج : فصعد هذا الواحد فوق سور الممر القائم أمام المدرج وقال بصوته الأجش : أيها الزملاء : فتقاطروا إليه ،
وافتل مشكلة خاصة بطلبة الفرقة الأولى عرضها سريعا ثم نزل من فوق السور ليرتقى الطالب الشاب . ويتوجه
بالعقب الرقيق إلى مجموع الزملاء . ثم يدعوهم إلى دخول المدرج

وبدا حديثه عن قصة المظاهرة التي وقعت أمس ، وصفها ، ووصف المشاعر الحارة التي تضمنتها ،
والشعارات الوطنية التي هتفت بها ، والمناقشات الحامية التي دارت من خلالها مع معالي وزير الخارجية على النحو
المنشور في صحف صباح اليوم - ثم عرج بعد ذلك على مواقف الطلاب التي كانت أكثر من رائعة . إلى أن بلغ قول
الوزير للطلاب بعد أن ضيقوا عليه الخناق إنكم لستم شعب مصر
عندئذ انقلب وأخذ يندد بالوزير وبالحكومة ، وبكبار المسؤولين في القصر الملكي الذين يتواطئون على
المفاوضات والمساومات من أجل خيانة شعب مصر .. وهتف الطلاب في تلك اللحظة بسقوط الخونة .
ورجع هو إلى الحديث عما أعقب المظاهرة من تفكير في ضرورة حشد الشعب من أجل مواجهة كل المسؤولين
به - إلى أن تلقى منشورا سياسيا خطرا أنار له الطريق ..

وفي هذه اللحظة استخرج البطاقة وقراها ، ثم علق عليها مبينا أن محتواها أكثر من خطير . وبدأ يتحدث عن
مفهوم السيادة التي حملته كلمة سادت في بداية البطاقة . ثم انتقل إلى مفهوم التلمذة والجهاد .. الخ .. وكأنه كان
يريد أن يحمل كل من يسمعه مسئولية عدم الوقوف في وجه الحكومة التي لا يهم أعضاؤها غير البقاء في كراس
الحكم ..

وفي نهاية الحديث الذي استمر أكثر من ساعتين تم له اقتراح تكوين لجنة وطنية تكون مهمتها التحضير لمؤتمر
شعبي عام يحضره ممثلون عن كل التكتلات الطلابية والعمالية وغيرها .. وبالفعل تم تكوين تلك اللجنة ، وحددت
للهاام المطلوبة من كل واحد من أعضائها

وهكذا لعبت بطاقة التسول دورا إثاريا . اتسع نطاقه . واستمرت المحاولات من أجل انجلاحه شهورا طويلة ، وبذلك انطلق الطالب الشاب مثلما كان ينطلق في أيامه الخوالي بمدينة الاسكندرية . لولا هواجز السرية التي حدث كثيرا من خطواته

١٤ - إلغاء المعاهدة

انتهى العام الدراسي بتصاعد سريع لمستويات الكفاح الوطني في جميع مجالاته السياسية والاجتماعية . تفجرت الإضرابات الواسعة للعمال في شتى المراكز الصناعية بالمدن المصرية . ووقعت الصدامات الدامية بين الفلاحين والإقطاعيين في أكثر من إقليم ، ووقف المعلمون وغيرهم من طوائف الموظفين بصلابة يطلبون حقوقهم من الحكومة ، وتظاهر الطلاب في الجامعات والمدارس . وتزايدت النشرات والصحف السرية المنددة بموقف الحكومة من القضايا السياسية والاجتماعية وارتفع مستوى حماس الصحف الحزبية الوطنية وعلى الأخص بعد انكشاف جروح النظام من خلال فضائح المتاجرة بالأسلحة الفاسدة ، والمضاربات في بورصة القطن .

وحاولت الحكومة الوفدية ملاحقة تلك الأحداث ، والعمل على محاصرتها . ولكنها لم تستطع .. وربطت الجماهير بين نضالها ضد الاستعمار ونضالها من أجل التغير الاجتماعي .. وكانت المعزوفة التي تتردد في مكاتب المسئولين بالقصر أو بالحكومة أو بالسفارة البريطانية تتحدث عن الخطر الشيوعي الزاحف !! وعن ضرورة التصدي بموقف يحد من هذا الخطر !!

وبعد الكثير من المشاورات والمداولات وفي شهر أكتوبر ١٩٥١ أعلن « المجلس بلاشا » إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وتلقت الجماهير هذا الحدث الكبير وانطلقت مظاهراتها لتأييده ، بينما تاهب الشباب لخوض المعركة المسلحة من أجل إجلاء الإنجليز عن مصر .

وكان الطالب الشاب قد أنهى دراسته تولى كلية دار العلوم ، والتحق بمعهد التربية العالي للمعلمين بالقاهرة عندما وقع إلغاء المعاهدة .. وفي غمرة التعليقات على هذا الحدث أبدى أحد الأساتذة تشككه في جدية الهدف المتوخى من وراء هذا الاقرار ، وقال لابد من قرار آخر يحمل السلاح وتنظيم استخدامه ضد الإنجليز .. ولقد كنت أنتظر هذا القرار الآخر ولكنه لم يصدر "

رن في أذنيه هذا القول رنينه الخاص . ذلك لأن رأى الحزب الشيوعي المصري كان قريبا من هذا الرأى .. فحكومة الوفد الخائنة بحكم موقعها الطبقي لا يمكن أن تتخذ هذا القرار الوطني إلا مضطرة ، ومن ثم فإنها ثبت نية الغدر والنكوص عن تنفيذه إلى آخر مداه ..

وكان على رأس وزارة المعارف الدكتور طه حسين صاحب الدعوة إلى مجانية التعليم .. وكانت أحاديثه وتصريحاته تشبه الجهل بالحريق ، وتدعو إلى إطفائه بأي نوع من أنواع الماء .. ومن ثم فإنه كان ضد رفاهية البيداجوجيا على النحو الذي كانت عليه بمعاهد التربية في ذلك الحين ..

استغل الطالب الشاب هذه الفرصة ، واتجه إلى العمل لكي يجد موردا يعيش منه ، ويستطيع معه مواصلة النضال الذي احتدم أواره .

ومن هنا فكر في عقد مؤتمر لطلاب المعهد .. وعرض فكرته عن العمل قبل الحصول على دبلوم المعهد الذي تلزمه سنتان طويلتان منذ الآن . ونجح في اقناع المؤتمرين بالفكرة ، وتوجه مع وفد من الطلاب إلى مكتب الوزير وهناك عرض مطلب الطلاب الذي استقروا عليه . وطلب الاستغناء عن معاهد التربية في الفترة الحالية على الأقل .. وكان رد الوزير هو الترحيب بتعيين الطلاب مع رفض فكرة الاستغناء عن معاهد التربية . وقال إن تعيينك أمر ممكن ، وتعويضك عن الدراسات التربوية نستطيع تدبيره لك بدراسات أخرى صيفية : أو أية صورة أخرى .

والمهم أن الطالب الشاب قد أثمر نضاله ، وتم تعيينه مدرسا للغة العربية بمدينة الإسكندرية . وتغير نظام الدراسة بالمعهد العالي للتربية من عامين كاملين إلى عام واحد .

١٥ - العود على البدء

ما أبعد الفرق بين الأمس واليوم ، لقد حضر إلى الإسكندرية أول ما حضر صبيانا ساذجا خالي الذهن إلا من سور القرآن الكريم ، وبعض قواعد الحساب والإملاء . وهو اليوم يحضر إليها أستاذا للغة العربية والدين ، وملء رأسه ذكريات ، وخبرات ، وأفكار ، وآراء . وهموم !!

ولقد غادر الإسكندرية عندما غادرها زاهدا في العمل السياسي ، وهاربا من مساوئه التي ألمت به ، وهو اليوم يعود إليها شديد الشوق إلى استئناف رحلة النضال من أجل الوطن ولوبلغ الموت !!

تسلم عمله بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بمحرم بك ، والتحق في نفس الوقت بمعهد التربية العالي للمعلمين بالإسكندرية ، وكانت الأحداث السياسية تتفاقم ، والكفاح المسلح يتحول من شعار إلى عمل يمارسه الفدائيون المصريون ضد معسكرات الإنجليز الرابضة في قواعدهم بشرق البلاد

وانغمس إلى أذنيه في هذا الاتون ، يساهم في جمع المال وشراء السلاح ، ويلتقى بالقيادات العمالية من أجل تجنيد العناصر الفدائية القادرة على الاستمرار في المعارك حتى تحقيق النصر . ويجتمع مع بعض الشباب الذاهبين إلى القتال أو العائدين من القتال ، وقد شهد في تلك الفترة من النماذج الشجاعة الباسلة ما لا يمكن أن ينسى ، شباب متطوع جسور يمضى إلى الشرقية قريبا من معسكرات الأعداء .. وشباب متطوع جسور يتخفى عن الأعين وعن كشافات الأعداء لكي يهاجم وينسف - ويدمر ، ويقتل . ويموت ! وشباب متطوع جسور يمد بالإسلة والتدريب عليها !!

وهكذا تحرك الشعب المصري في ذلك الوقت إلى صانع ملحمة رائعة .. فقد كان المتطوعون يتقاطرون من جميع المدن المصرية إلى منطقة العمل الفدائي في كل يوم . وكانت كل أساليب التحصين والدفاع والحذر تفشل أمام الاقتحامات المتعدية .. ووقف العالم كله يتطلع ويحسب الحسابات المترتبة على تلك التحولات التي طرأت على الكفاح المصري .. وبدا واضحا للعيان أن هناك من يديرون الخط لاحتواء الموقف قبل فوات الأوان .

واستمرت مصر تغلي غليان المرجل لمدة ثلاثة شهور .. نوفمبر وديسمبر ١٩٥١ ، ويناير ١٩٥٢ .. إلى أن جاء يوم ٢٥ يناير المشهور . ذهبت القوات الانجليزية المدججة بالسلاح إلى مبنى محافظة الاسماعيلية ، ووجهت انذارا بإخلاء المبنى وتسليمه إليها .. وكان مبنى المحافظة مشغولا بموظفي المكاتب ، وبعض جنود الحراسة من رجال الشرطة . ولم يقبل المحافظ هذا الانذار واستبسلت الشرطة في المقاومة .. وسقط الضحايا بالعشرات في أشرف معركة ضد القوة الغشوم !!

وكان من نتيجة ذلك أن امتلأت مشاعر السخط والغضب في نفوس الوطنيين في كل مصر ، واندلعت المظاهرات الساحقة في مدينة القاهرة التي تأمر عليها الخونة واشعلوا فيها الحريق .

وقع هذا الحريق في ٢٦ يناير ١٩٥٢ . وبادرت حكومة الوفد في مساء نفس اليوم إلى إعلان الأحكام العرفية وفرض حظر التجول . ومطالبة الشعب بالهدوء .

وكان الواضح من تلاحق الأحداث على هذا النحو المأساوي ، أن الهدف هو ضرب حركة الشعب وتصفيته ووضع حد لهذا التصاعد في الكفاح المسلح الذي اقض مضاجع القصر والانجليز وقبلهم الحكومة . وما إن بامت حكومة الوفد بوزر إعلانها للأحكام العرفية حتى سقطت . وجاءت بعدها حكومة الهلالي باشا

التي استغلت قوانين الطوارئ فانقضت على الآلاف تقبض عليهم ، وتقدمهم للمحاكمات العسكرية السريعة بتهمة الاشتراك في إشعال الحريق

وجود رجال الأمن فرصتهم للقبض على بعض الوطنيين وإسناد تهمة التحريض على الحريق إليهم . وكان في مقدمة هؤلاء الأستاذ أحمد حسين رئيس الحزب الاشتراكي ..

بينما وقف اليسار موقف الإدانة للحكومة الوفدية . وللنظام الملكي الإستعماري ، وكتبت « راية الشعب » ، في ذلك الوقت مقالا تحت عنوان « نحن نتهم » ، أدانت فيه سراج الدين وزير الداخلية وكبار رجال القصر ، وأكدت أنهم تركوا البلد تحترق ولم يصدرُوا الأوامر اللازمة للقوات النظامية في الوقت المناسب . كما دافعت عن الأستاذ أحمد حسين . ومجموع الوطنيين الذين تلقى لهم تهمة الحريق من أجل أن يحاكموا ، ويخلص النظام من شرهم . وكانت المفارقات المؤلة : أن الإنجليز نعموا بالأمن في قواعدهم وزال عنهم القلق : بينما الوطنيون يتجرعون كنوس الإرهاب سجنا ، واعتقالا ، ومحاكمات ، ومطاردات .. وكانت انظار الدولة مركزة على اليسار الذي لعب دورا كبيرا في تفجير المواقف الطبقية والوطنية السابقة على إلغاء المعاهدة .. وراحت دوائر الأمن تعكف على التخطيط من أجل توجيه أعنف الضربات إلى اليسار وبخاصة بعد تزايد تنديده بالنظام المأزوم .

١٦ مقاومة الإحباط :

أصاب حرق القاهرة . وما نجم عنه من شيوع الإرهاب ، جميع المناضلين بالإحباط ، لم يبق إلا اليسار المتحصن بالسرية يرفع راية المقاومة ، وكانت صور المقاومة تتلخص في التنديد بالمؤامرات والتواطؤ والخيانة من خلال المطبوعات السرية وشعارات الحائط .. وكان الهدف من تلك المقاومة هو التوعية بالشرح والتوضيح لأبعاد تلك المخططات الرامية إلى أجهاض ثورة الشعب ، والقضاء على كل آماله ، وكانت المقاومة ترمى إلى محاولة الاستئناف الفعال للتضاللات المسلحة من جديد ..

وكان المدرس الشاب واحدا من أفراد تلك المقاومة .. لم تمنعه وظيفته ، ولا انتسابه للمعهد العالي للمعلمين من أن يقوم بواجبه الوطني لحظة واحدة ، فهو لا يعطى نفسه أى قسط من الراحة ، ولا يجنح إلى التسويف في أى عمل تستوجب مهنته أو دراسته أو نضاله .. وهكذا كان يفعل رفاقه الأبطال الذين كانوا يخوضون معركة المقاومة ضد أشرس القوى ، وفي ظل أسوأ الظروف .

وكثيرا ما كانوا يتناصحون في داخل الاجتماعات السرية بضرورة ضرب المثل في الصلابة ، والمقدرة على الاستمرار مهما تكن التضحيات .. وكانوا يستلهمون تراث المقاومة في ظل أبشع ظروف الإرهاب ضد النازية أو الفاشية . وكان اليقين الأول عندهم أن حكم الإرهاب لن يبقى لأنه ضد إرادة الجماهير التي لا تقهر .

وفي فترة المقاومة هذه تم له اللقاء مع السكرتير العام للحزب الشيوعي المصري ، ورأى فيه صورة عظيمة للجدية والإصرار ، والحزم ، والتفاؤل .. وازداد بعد هذا اللقاء أمله في نجاح المقاومة ، ودحر سلطات الإرهاب . فهو في حياته الطويلة السابقة قد تعلم أن المقاومة تبدأ بمجموعة قليلة من المخلصين . ثم يتسع مداها باتساع إلتزامها بقضايا الجماهير . وقد رتها على التعبير عن مطالبها الحقيقية الملحة .. وليس هناك اليوم ما هو أشد إلحاحا على الجماهير من طلب الحرية بأوسع معانيها ..

وهكذا تضاعف نشاطه . وازداد حرصه على الالتحام بالجماهير . يخوض إلى طلائعها الأوجال في جوف الليل ، ويعقد الاجتماعات في بعض الأماكن المهجورة ، ولا يبالي بصحته ولا بنوع طعامه أو شرابه . ثم يعود في كل ليلة خائر القوى لكى ينام نومة المقتول

١٧ إلى السجن من جديد

وظل على هذا الحال حتى تم القبض عليه في ليلة ١٥ / ٣ / ١٩٥١ .. وكان معه زميلان أحدهما من القاهرة والآخر من الإسكندرية . وعندما اقتاده البوليس السياسى إلى منزله كان متأكدا من أنهم لن يجدوا في منزله شيئا يدينه .. ومن أجل ذلك فإنه كان حريصا على عدم التفريط في كرامته . وكلما حاول أحد إهانته سارع بالرد .. وبالفعل لم يعثر لديه على شيء .. وعاد ليحقق معه ثم صدر قرار بإيداعه وزميليه سجن الحضرة بالإسكندرية .

لم يكن السجن شيئا جديدا عليه فقد سبق له النزول ضيفا عليه في فبراير ١٩٤٦ . لكن الجديد في هذه المرة هو تلك الأعداد الكبيرة من ضحايا المحاكمات العشوائية التى كان يضطلع بها قاض مهمام هو « حسين طنطاوى » . كان هؤلاء الضحايا مسلسلين في سلاسل الحديد ، ومعظمهم من جنود بلوكات النظام . وكانوا في انتظار ترحيلهم إلى الليمانات الكبرى لى يمضوا فترة العقوبة المحكوم بها على كل منهم . وكان القاضى كريما فلم يحكم بأقل من خمس سنوات اشغالا شاقة ، وزاد في كرمه مع البعض فحكم بالاشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما ..

التقى بهؤلاء الجنود وتحدث إليهم مستوثقا من اشتراكهم في حريق القاهرة - وعجب عندما بكى البعض منهم وهو يقسم أنه برىء .. بل وأنه كان في موقع خدمته بعيدا جدا عن منطقة الحريق !!

وأخيرا عزى نفسه بأن هذه الأحكام وليدة الظروف الاستثنائية ، وسوف تزول مع زوال تلك الظروف !! كانت نظرة إدارة السجن إلى اليساريين مستنقة من نظرة البوليس السياسى إليهم .. ومن هنا تم أيداع كل منهم في زنزانة انفرادية . ولم يسمح لهم بالالتقاء إلا وقت الفسحة المقررة لهم ... وعند أول لقاء اكتشف أن هناك آخرين سبقوه وزميليه إلى هذا السجن الرهيب . واشد ما كانت دهشته عندما حاول التعرف على هؤلاء فلم يردوا عليه إلا واحدا منهم .. كانوا ينتمون إلى تنظيمات أخرى غير التنظيم الذى ينتمى هو إليه ، وكان بعض هذه التنظيمات يفرض الصوم عن الكلام مع غير أعضائه اقتناعا بأن الجميع خونة !!

عجب جدا لهذا المسلك الشاذ .. وحاول التحدث مع أى منهم عشرات من المرات ولكنه لم يوفق !! ووضع ذلك الموقف في رأسه علامة استفهام كبرى حول هذا اللوغارتم الذى لا يمكن حله . إنسان مثقف عاقل . ضحى بنفسه دفاعا عن وطنه ويؤمن بأن الصوم عن الكلام وسيلة لإقناع الآخرين بضلال موقفهم !! أية قوة شريرة اقنعت بهذا الاعتقاد !! وظلت علامة الاستفهام معلقة إلى أن أجابت عنها التطورات فيما بعد .

كان الأفق مظلمًا بالنسبة للجميع .. فالإجراءات القضائية العادية مستحيلة في ظل الأحكام العرفية والامل في الإفراج في حكم العدم .. وكان على الجميع أن يحاربوا اليأس بالقراءات والمناقشات . والمتابعات الجادة للأحداث الجارية في البلاد .

أما هو فقد كانت له ظروفه الخاصة . إنه طالب بمعهد التربية ، وعليه أن يستعد للإمتحان الذى اقترب موعده .. ووفرت له إدارة السجن ظروف الاتصال بالمعهد من أجل عمل الإجراءات الكفيلة بدخول الامتحان - وطلب المعهد بحثين علميين قام بتقديمهما ، ومن ثم سمح له بدخول الامتحان .

كان يذهب مخفورا بحراسة مضاعفة ، ويجلس في داخل لجنة الامتحان محاطا بتلك الحراسة . ولا يفك الحديد من يديه إلا لحظة الكتابة !!

لم يكن الأمر مألوفًا لدى الطلاب والطالبات في اليوم الاول ، ولكنهم ألفوه واعتادوه بعد ذلك . وكانوا في كل يوم من أيام الامتحان يغمرونه بالهدايا . ثم يسلمونه المذكرات والكتب اللازمة لامتحان اليوم التالى . ولحسن حظه فإن الامتحانات كانت على نظام الأيام غير المتوالية ، الأمر الذى كان يسمح له بالذاكرة والاطلاع .

وهكذا مضى الامتحان الذى كان بمثابة استرواح من حياة السجن الكئيبة . وعاد إلى الزنزانة التى تعود عليها

وتعودت عليه . وأخذ يتذكر المشاعر الطيبة التي غمره بها زملاؤه وزميلاته وأساتذته . بل وحتى الضباط الذين كانوا يتولون حراسته . وكان كلما أمعن في التذكر استراحت نفسه إلى أن أحدا لا يعاديه غير السلطات ، أما أبناء الشعب الطيبون فإنهم يكونون له كل ألوان الاحترام وقد وفروا له كل ألوان المساعدة في حب وحنان ..
والمهم أنه بعد بضعة أسابيع قليلة ظهرت نتيجة الامتحان ، وأبلغه مدير السجن بنجاحه في الدبلوم وتهانيه وتهاني مدير المعهد . وكان من أثر ذلك أنه اصطنع لنفسه شيئا من البهجة التي شاركه فيها زملاؤه السجناء .
وكان آنذاك مرتبطا بعروس تنتظره خلف الأسوار ، فاتصل بوالدها الذي هو عمه وطلب إليه أن يزف خبر النجاح لعروسه .

وتكيف بعد ذلك مع جدران الزنزانة الخرساء .. إنها تحتويه ، وتحتوى سريرا ، وكرسيا ، ومنضدة ومراة . وإلى جوار ذلك « جريد » مغطى للاستعمال عند اللزوم . وكان في بابها خصاص ينظر منه الحارس كلما أراد الاطمئنان على السجن ، وكثيرا ما كان يضجر بالوحدة فيفرغ إلى هذا الخصاص ينظر منه إلى السجناء غير السياسيين . وكان من بين هؤلاء السجناء « سعد اسكندر » المعروف بسفاح كرموز لقد كان في ملابس المحكوم عليهم بالإعدام ومقيما في زنزانة مكشوفة . ويتمتع بحق الفسحة بعد أو قبل جميع المسجونين ..

رأه مرة وهو بباب زنزانته فاستوقفه ، وطلب منه إحضار سيجارة له فأحضرها .. وطلب سعد من الحارس أن يسمح له بالحديث إليه . ثم سأله عن اسمه وعمله وتهمته فلما عرف « السفاح » أن التهمة هي الشيوعية أفضى إليه بطروفيه التي أودت به إلى حبا المشنقة . واستدر عطفه في وداعة وهدوء لكي يكرر الحديث معه كلما استطاع ذلك .. وبالفعل دار الحديث مع هذا السفاح أكثر من مرة . وكان يصر على أنه بريء وأن محكمة النقض سوف تحكم ببرائته ، فكل ما نسب إليه من جرائم لم يقترفها ، وإنما لفقها له الفاشلون في العثور على المجرم الحقيقي ، ومحاميه قد عثر على أدلة البراءة ورفعها إلى المقامات العليا !! وكان متأكدا من أنه سيفرج عنه حتى ولو دخل غرفة الإعدام !!
وخلال تلك الفترة كان المدرس الشاب يوفر من طعامه الذي كان يستورد من أحسن مطاعم المدينة لكي يقدمه لهذا السفاح الذي ينتظر تنفيذ الإعدام . وكان فيما بينه وبين نفسه يقول إن جلاديه أنفسهم يعطفون عليه ، ويقدمون له كل ما يريد فهل أكون أنا أقل إنسانية منهم ؟

١٨ - إرهابيات الانتصار

وعلى الرغم من رتابة الحياة الراكدة في الزنازين ، فقد كانت زلازل الثورات التي اشتعلت في المستعمرات التقليدية منذ عام ١٩٤٥ تعكس نفسها على الأحداث التي تصورها الصحف المصرية ، وعلى الرغم من فداحة الإرهاب المفروض في مصر آنذاك فقد كانت الكتابات الداعية إلى التحرر تجد سبيلها إلى أنهار الجرائد الحزبية والحكومية

والنفث هو يوما إلى هذه الحقيقة فتشبت بها . وجعل منها موضوعا لمحاضرة ألقاها على زملائه خلال فرصة تحايلوا على إتاحتها لهم . وكان أهم ما جاء فيها هو أنه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية توجه العالم الذي أنهكته تلك الحرب إلى بناء السلام . ومن الواضح أن السلام الدائم المستتب لا يمكن تحقيقه والناس في كل مكان لم يتمتعوا بالمساواة في الحرية .. ولعله ليس صدفة أن يقول ميثاق الأمم المتحدة الذي أعلن في نفس العام الذي انتهت فيه تلك الحرب أن من أغراض الأمم المتحدة « تطوير العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالمساواة في الحقوق ، وتقرير المصير للشعوب » .

وجاء في المحاضرة أنه يذكر أن نصف عدد سكان العالم في عام ١٩٤٥ كان يعيش في أقاليم لم تصبح دولا مستقلة ذات سيادة الأمر الذي انعكس على ميثاق الأمم المتحدة الذي خصص ثلاثة من فصوله للحديث عن الأقاليم المستعمرة

وبالنظر إلى هذه الحقيقة فإن النضال ضد الاستعمار وقد بدأ استئناف معاركه منذ نهاية الحرب لن يخدم حتى تتم تصفية الاستعمار تصفية نهائية . وعرج بعد ذلك على وطأة الإرهاب التي يعاني منها المصريون فذكر أنها دليل ضعف الإستعمار والنظام المستند إليه . وأشار إلى أن هذه الوطأة رغم ثقلها لم تفلح في تثبيت دعائم النظام المتزعزعة ، ومن أجل ذلك تتعاقب الحكومات المختلفة في وقت قصير . كما أنها لم تفلح في القضاء على الصوت الحر بدليل أن المقاومة مُشتعة اللهب .. وكل ذلك يعتبر من إرهابات الانتصار . ليس في مصر وحدها . وإنما في كل البلاد والأقاليم المستعمرة .

قدم المدرس الشاب تلك المحاضرة في فناء السجن حيث كان وزملاؤه يستمتعون بضوء الشمس جالسين على الأرض ... ولم تتم مناقشتها إلا في أيام تالية كانوا ينجحون فيها في تحقيق تهيئة للجلوس معا .

والمهم أن جميع زملائه قد أيدوا الفكرة ، ودعموها بما كان يتيسر لهم من معلومات ، وراوا أن تلخيصا وافيا لتلك المناقشات ينبغي نقله إلى الزملاء في « خارج السجن » .. وعكف هو على محاولة التلخيص .. ولكن كيف ؟ إن عمليات التفتيش اليومية في الصباح والمساء لا تتيح فرصة الاحتفاظ بالقلم والورقة !! فإذا أمكن الحصول على الورقة والقلم بالمغالطة .. فكيف يمكن تأمينهما لحين الانتهاء من تلك المهمة الصعبة !!

أخيرا : وجد حلا تمثل في الاحتفاظ برصاصات القلم دون غلافها . وباستخدام دفاتر « البافرة » الخاصة بالسجائر .. أما الرصاصات فكان يلقاها على الأسفلت الأسود في أرضية الزنزانة . وأما ورق « البافرة » فكان يضعه في علبة « الدخان » ولم ينتبه أحد لتلك الحيلة .. وكان كلما فرغ من صفحات كتبها غلفها بغلاف من السلوفان النظيف . ودرسها في قلب الأطعمة التي كانت تتراكم لديه ..

وهكذا تهيأت له فرصة كتابة هذا التلخيص . وعرضه على الزملاء لإقراره . ثم بدأت المتاعب في كيفية الحصول على طريق مأمون لتوصيله - وأخيرا عثروا على هذا الطريق . ولكن قبل أن يتم استخدامه جاءت الأخبار التي اهتزت لها كل أسلاك البرق في شتى أنحاء العالم .

الفصل الثانى عشر

انفجار الثورة

١ - الخبر المثير :

اصبح الصباح ، وانفتحت الزنازين كالمعتاد فذهب النزلاء إلى دورة المياه ، ثم عادوا يتسلمون أغذيتهم ، ويتناولونها .. وبعد ذلك نزل الشيوعيون السبعة إلى فناء السجن لقضاء فسحتهم وفي هذه الأثناء طلب من الضابط المختص عرضه على مدير إدارة السجن ، وكان في يده طلب مكتوب تناوله الضابط وقراه فإذا هو موجه إلى مدير معهد التربية العالى للمعلمين بالاسكندرية ، يرجوه فيه أن يوافق على إتاحة فرصة مع بدء الدراسة فى المدارس لكى يتم امتحانه فى التربية العملية استكمالاً لنجاحه فى الدبلوم ، وخوفاً من أن يضيع عليه عام دراسى كامل بسبب عدم تمكنه من هذا الامتحان !! اقتنع الضابط وأمر بعرضه على سعادة مدير إدارة السجن . وعندما دخل عليه بادره قائلاً : أرجو الموافقة على إرسال طلبى هذا إلى المعهد .. وقدم الطلب .

لم يرد عليه المدير ولكنه ابتسم ، وزالت جهامة وجهه التى تقرضها طبيعة مهنته

، ثم قال : يحسن أن تنتظر فربما تذهب إلى المعهد بنفسك !!

تعجب من هذا الكلام وخطر فى باله أن قرار بالإفراج عنه وعن زميليه قد أصدرته النيابة ، ولكن كيف ؟ ولحق المدير أنه غير مصدق فقال : لقد زحف الجيش بقيادة اللواء محمد نجيب ، وحاصر الإذاعة ، وصدرت بيانات تشير إلى تغيير النظام والحكم فى مصر ..

لم يصدق السجن أذنيه من شدة الفرح .. وقال للمدير فى امتنان : ربنا يبشرك بالخير - ثم عاد إلى زملائه فأخبرهم بما سمع ، وتملكهم العجب للحظة . وسألوا بعض الحراس فأكدوا لهم الخبر . وغمرهم الشوق إلى الإطلاع على تفاصيل ما حدث ، فأرسلوا فى طلب شراء إحدى الجرائد ..

وسمع المدرس الشاب فى هذا اليوم ما أدهشه - فحراس السجن الفقراء جرى على السنة بعضهم أنه لابد من إصلاح حالهم فى هذا العهد الجديد . !!! والسجناء قال أكثرهم .. « ربنا ينصر العهد الجديد علشان ينصفونا ، وحتى السفاح سعد اسكندر قال لابد من محكمتة من جديد لكى تتم براءته .. وزميله اللذان جاء معه إلى السجن داعبهما الأمل فى الإفراج عنهما .. وهكذا الحدث الكبير الذى يتعلق به أمل الملايين بدأ يفرض نفسه حتى من قبل أن تتضح صورته .. ولما حصلوا على جريدة ، وطالعوا الأخبار فيها تملكتهم الفرحة الغامرة ، ثم أخذوا يتداولون الآراء فيما بينهم عن الموقف الذى يجب أن يتخذوه . وبعد قليل من المناقشة أجمعوا على أن تأييد الجيش فى موقفه هو الواجب المفروض عليهم الآن . ذلك لأن الجيش هو أحد قطاعات الشعب ، وتحركه فى اتجاه ضرب النظام الملكى يعنى حاجته إلى التفاف كل الشعب من حوله ..

وسارع المدرس الشاب إلى كتابة برقية تأييد أرسلها باسم اللواء محمد نجيب قائد حركة الجيش ، كتبها استناداً إلى هذا التحليل السريع السابق دون أن يعرف رأى الحزب الذى هو عضوفيه .

وفي صباح اليوم التالي جاءت الجرائد وقد انعكست على صفحاتها فرحة الجماهير العريضة ، وتطلعاتها الآملة في المستقبل الذي طالما تحرقت شوقا إليه . ودارت المناقشات الجادة حول المفزى العميق لهذه الحركة التي تحفظت على عمد للنظام الملكي ، والتي تتجه إلى خلع الملك . وظلت المناقشات تتجدد بين هذا العدد القليل من اليساريين حتى جاء يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ وتنازل الملك عن العرش لولي عهده أحمد فؤاد . واندلعت مظاهرات التأييد الشعبي الكاسح لهذا الإجراء .. فتأكد صدق التحليل الذي استند إليه التأييد المبروق به من السجن .. ثم جاء قرار إلغاء الألقاب مع قرار نيابة الإسكندرية الإخراج عن الثلاثي الذي قبض عليه في ملوس ، بعد دفع كفالة عشرة جنينيات عن كل منهم .

٢ - تلاطم الأحداث :

خرج من السجن إلى رحاب القرية التي ولد فيها ، حيث دفء الأهل ، ومتعة اللقاء بالأحباب ، وهناك رأى مستقبله يهتونه على أنه واحد ممن صنعوا هذه الثورة العظيمة ، ويظهرون من الشماعة بالعهد الملكي ما لا تخفى أسبابه .. فالقرى للجارة كانت في معظمها مملوكة للملك والأمراء والباشوات الإقطاعيين ، وكانت كل المظالم يتم إرتكابها وليس هناك من شفيع !!

عاد بعد ذلك إلى الإسكندرية وفي رأسه أن قادة حركة الجيش هم بالضرورة بين هؤلاء الضباط الذين كانت لهم جهود رائدة في حركة الفدائيين قبل حريق القاهرة . ومن غير المعقول أن يكون تصاعد التذمر في صفوف الجيش منذ نهاية ١٩٥١ بعيدا عن تأثيرهم . لقد قرأ منشورات الضباط الأحرار التي رحب بها وأيدها الحزب الشيوعي المصري منذ شهور بعيدة .. وهو الآن يشعر بأنهم من زملاء الكفاح الذي اشترك هو فيه مع الآلاف المؤلفة من أبناء الشعب .. إنه لا ينسى للواقف المشرفة للكثيرين منهم حينما وقعت انتخابات نادي الضباط . بل إنه لا ينسى التعاطف الذي أبداه الجيش نحو الشعب في ٢٦ يناير ١٩٥٢ حيث رفض إطلاق الرصاص على المتظاهرين ، وتعرض الكثير من أبنائه للمحاكمات .

وفي اليوم التالي لوصوله إلى الإسكندرية . علم أن الموقف الرسمي للحزب هو التنديد بحركة الجيش على أنها انقلاب فاشي دبره المستعمرون من أجل تصفية حركة الشعب ، وإعداد البلاد للمشاركة الحربية التي يريدونها العدوانيون . وعندما استفسر عن أسباب خلع الملك الذي كان في استطاعته أن يقوم بنفس المهمة أجيب بأن الملك أصبح ورقة مكشوفة . ومن أجل ذلك تمت التوضيح به لكي يلعب الدور غير المكشوفين .

وكانت وجهة النظر هذه يسندها عدد من القرائن .. فالانقلابات العسكرية في البلدان المستعمرة كانت لعبة أمريكية مشهورة . والانقلاب العسكري المصري صاحبه نشاط أمريكي ملحوظ قام به السفير الأمريكي « جيفرسون كالفرى » ، ومخاصة عند وداع الملك يوم ٢٦ يوليو . بالإضافة إلى الترحيبات الرسمية والصحفية في الولايات المتحدة الأمريكية بما كانوا يسمونه « العهد الجديد » .

على أن بعض الأحداث التي وقعت في مصر كانت من جملة القرائن المرجحة لهذه النظرة . فالمحاكمات الباطشة التي راح ضحيتها مصطفى خميس ومحمد حسن البقري وآخرون من عمال كفر الدوار . والعفو السياسي الذي أصدرته قيادة الانقلاب لكل الناس إلا الشيوعيين ، والاستمرار على نهج المفاوضات والمباحثات مع الإنجليز . كل ذلك كان يلقى بظلاله لثناء المناقشات الأولى لموقف الحزب من « العهد الجديد » .

أما ما عدا ذلك من إجراءات ثورية ك محاكمة عدلى مخلوم في قضية الثورة الاقطاعية المضادة ، وإصدار قوانين الإصلاح الزراعي وتحديد الملكية الزراعية بمائتي فدان الخ فإنها كانت تفسر على أنها من إجراءات الحماية للنظام ، والتنفيس عن صدور الفلاحين الضائعة !!

وحتى عندما تقاهم الأمريكان والإنجليز على ما كان يسمى « منظمة الدفاع للشرق الأوسط » ورفضه مجلس قيادة

الثورة في ديسمبر ١٩٥٢ فإن ذلك لم يفسر إلا بأنه مواقف من مواقف التضليل الفلشي !!

وتحت تأثير هذه النظرة التي اطلع على تفصيلاتها من خلال التحليلات والبيانات والمنشورات التي صدرت عن الحزب ، واقتناعا بأن استثناء الشيوعيين من الطوبيعكس رغبة استعمارية أمريكية . ورغبة في الانتصار لكل من وقع عليهم القمع الذي لم يميز بين عدو الثورة وصديقها ؛ فإنه أخذ يستأنف نشاطه مع حزبه ، معاديا لتلك القيادة الجديدة ، وساعيا لإسقاطها بمختلف الوسائل .

واحتدمت المواقف المتضادة بين الشيوعيين والحكومة . فكشرت الحكومة عن أنيابها . ووجهت عددا من الضربات القاسية للشيوعيين الذين تعاضم نشاطهم من أجل مقاومة الإرهاب . وكان تزايد الإرهاب من قبل الحكومة تأكيدا لنظرة الحزب الذي سبق الجميع إلى نعتها بانها حكومة إرهاب وتضليل . من أجل ذلك كانت الضربات لا توقف نشاط الحزب أو نموه .. وانتشر للحزب نفوذ قوى في بعض التكتلات العمالية . وبين أعداد كبيرة من الطلاب والمتقنين . وكان ذلك في حد ذاته يضاعف من شعار السلطة إلى مزيد من الإرهاب والضربات .

وفي سنة ١٩٥٣ قدمت محكمة عسكرية عرفت بمحكمة « الدجوى » أول قضية من قضايا الحزب الشيوعى المصرى . وقد حضر للشهادة في هذه القضية فضيلة المفتى الذى كان قد سبق له الإفتاء في حرمة البيسى كولا فاستقبله الشيوعيون المائلون أمام المحكمة بعاصفة من السخرية التي نشرتها الصحف آنذاك . والمهم أن رئيس المحكمة أمر بالقبض على المتهمين الذين لم يمثلوا بين يدي المحكمة .. وكان المدرس الشاب واحدا منهم . ومن حسن حظه أنه لم يكن بالإسكندرية في هذا الوقت ، الأمر الذى لم يمكن الشرطة من القبض عليه تنفيذا لأمر المحكمة .

٢ - سنوات الهرب :

علم بقرار محكمة « الدجوى » من الصحف ، وكان قد حضر إليه في قريته من أبلغه بأن رجال الأمن قد داهموا منزله بالإسكندرية . فقام من فورهِ وودع والديه ، ثم مضى إلى المجهول !! ركب إلى حاضره إقليم البحيرة . وقرر أن يذهب إلى بيت صديق قديم لا علاقة له بالنشاط السياسى . وبينما هو في طريقه إلى هذا الصديق لقيه أحد أقربائه الراغبين في السفر إلى حج بيت الله الحرام .. وأصر هذا الحاج خالى الذهن عما هو فيه على أن يذهب معه غدا إلى مبنى وزارة الداخلية من أجل تعديل مواعيد سفر بعض السيدات بحيث يصبحن من مسئوليته في رحلة الحج .

وحاول الهارب من أمر القبض عليه أن يتملص من هذه المأمرية الخطرة ، ولكن القريب الحاج لم يمكنه من ذلك . ومضى معه من غير أن يشعره بأن هناك أمراً بالقبض عليه ، وغشى معه في اليوم التالى عددا من المكاتب في قلب وزارة الداخلية ، وكان أثناء تجواله بين الممرات والمكاتب ممتلئ القلب بالسخرية من هذا النظام الذى يتعقبه ولا يستطيع أن يراه وهو مائل بين يديه ، وفي عقرداره .

وامضى مع قريبه ليلة سعيدة في رحاب حى « الحسين » حتى إذا أصبح الصباح قفلا راجعين إلى أهليهما في أعماق إحدى قرى البحيرة - وكان له في تلك القرية منزل خطيبته فعرج عليه . وبين مظاهر الحفاوة والترحيب به كان شارد الذهن مع تلك المغامرة التي وقعت له مع الحاج .. فلقد نجحت المقامرة ونجا من الوقوع في قبضة المسئولين عن الأمن .. وهكذا تصور أنه من الممكن أن يعيش الهاربون في مأمن ما لم يرشد عليهم أحد .

ومن مأمنه في منزل أهل خطيبته تم له التحرك والالتقاء ببعض المسئولين في الحزب ، وبعد أيام قليلة تلقى موعدا للانتقال إلى منطقة حزبية تؤمنه : ومنذ ذلك اليوم أصبح هاربا يعيش في حماية الرفاق والأصدقاء ! وقد وقعت له بعض المفارقات في اليوم الأول لهربه . فقد تلقاه عند وصوله للقاهرة زميل مجهول له ، وانتقل به هذا الزميل إلى منزل كان مقررا أن يأوى إليه ريثما يتم تدبير أمره .. وكان ذلك المنزل أيضا مجهولا له ، وعندما بلغ به الزميل

المجهول هذا البيت المجهول تقدم إلى الباب وطرقه لفتح الباب صديق معروف له منذ سنوات طوال . وفوجيء الزميل للمجهول بأنهما يتعائنان في شوق ولهفة .. فضحك وتواري عن أعينهما لكيلا يسمع من حوارهما شيئاً يهدد « الأمن » !! وبقي في هذا المنزل عدداً من الأيام ثم تلقى تكليفاً بأن ينتقل إلى مجال نضاله في قلب الريف من أعماق الصعيد ، وهناك في تلك المنطقة النائية نزل ضيفاً على أسرة مسيحية يوماً أو يومين ، ثم دبر له بعض الزملاء مكاناً يعيش فيه ..

كان ذلك في شهر يوليو ١٩٥٣ .. وكان عليه أن يبنى تنظيمًا في هذه المنطقة حيث توجد نواة من بعض العناصر التي تعرف القراءة والكتابة في الريف .. إلى جانب بعض الطلاب والموظفين . وبعد جولة أو جولتين تبين له من هو الأفضل من هؤلاء فشكل معهم هيئة قيادة محلية .. وبدأ يدرس معهم ويدعوهم إلى تجنيد من يستطيعون ممن تتوفر فيهم شروط الثورة والاخلاص والشرف .. ونظرا لأن الإرهاب هو المعرض الحقيقي على المقاومة ، فإنه وهيئة القيادة المحلية أخذوا يوسعون من دوائر نشاطهم ، ولم يجدوا صعوبة في دعوة الناس للمقاومة .

وخلال شهور معدودة كان هناك عدد كبير من الملتزمين بخط الحزب والعامين فيه . وواكب هذه الصورة الجديدة للعمل السري في الريف صدور جريدة خاصة تحمل اسم « الفلاح » وكانت هذه الجريدة في البداية يُحررها أبناء تلك المنطقة من قلب الريف ، ثم بدأ يشترك في تحريرها أبناء بعض المناطق الأخرى في الوجه البحري .

ورأت قيادة الحزب أن توكل إليه أمر المناطق الريفية في مصر ، فأتسع النطاق الخاص بنشاطه ، وأصبح عليه أن يمارس العمل الحزبي في أكثر من منطقة ريفية ..

وبالرغم من الصعوبات الكبيرة التي لقيها وهارب فإنه لم تقترهه ، ولم تلن عزيمته ، وساعده شبابه على توسيع قواعد النضال الحزبي في الريف ، فتكونت اللجان العديدة في المناطق العديدة ، وراحت المنشورات والنشرات والصحف الحزبية تغمر وجه المساحات الواسعة من أرض الريف .. وانتاب الذعر دوائر الأمن التي اتضح أنها فاشلة في محاصرة هذا النشاط الكبير .. فالحزب الشيوعي المصري لم يبق محصوراً في القاهرة والإسكندرية ، وإنما امتد نشاطه إلى الأقاليم المختلفة .. الأمر الذي فرض على قمة السلطة أن تعترف بوجود المنظمات الشيوعية . وقوتها التنظيمية الجديدة . واضطرتها الظروف الجديدة إلى مناقشة الآراء والأفكار التي ترد في مطبوعات الحزب .. فإذا قال الحزب عن الجلاء الذي زعمت السلطة تحقيقه إنه جلاء مزيف سارعت الدولة إلى كتابة اللافتات الضخمة التي تقول : إن الجلاء الذي حققناه جلاء حقيقي . وبلغ الأمر بالدولة حد طبع « راية الشعب » بنفس صورتها المألوفة لقرائها ، وقام أتباع الحكومة بتوزيعها على الجماهير حاملة شعار المطرقة والمنجل ، ومفرغة من مضمونها الثوري المعروف ، لكي توهم الجماهير بأن الحزب الشيوعي للمصري قد انقلب على سياسته ، وأضحى يؤيد الحكومة . الأمر الذي جعل الحزب يحذر الجماهير من الانخداع بتلك الأساليب المزيفة . ويدعو إلى مضاعفة النضال في سبيل دحرها .

وهكذا صار المناضل الهارب ورفاقه الأبطال يشكلون قوة ينتشر تأثيرها على الرغم من قلة عددهم ، وضعف إمكاناتهم ، ومطاردة السلطات لهم وانقلابت مطبوعاتهم السرية إلى « مطبوعات علفية » مزورة تعترف السلطة بأنها أكثر رواجاً عند الجماهير من كل صحف الحكومة ووسائل إعلامها !!

لكن المناضل الهارب - وبالرغم من كل ذلك - لم يكن راضياً عن نفسه ولا عن الأساليب التي يمارس بها النضال .. ذلك لأنه كان يحيا حياة الهارب الذي لا يستقر به المقام في أي مكان إلا ريثما يجتمع مع لجنة أو مجموعة ، يتدارسون القرارات والنشرات ، ويناقشون الظروف والملابسات ، ويتخذون في ضوء ذلك ما يشاؤون من التوجيهات - ثم بعد ذلك يطلق إلى مكان آخر بينه وبين المكان الأول سفر يوم أو بعض يوم "

وهكذا كانت حياته مستقرقة في وسائل المواصلات ترافقه حقيبة يصنع فيها بعض ملابسه وأوراقه ، وكثيراً ما كان يتم في الحقول ، أو في الأماكن المهجورة حتى يكون بعيداً عن أيدي السلطات " وكثيراً ما كان يشعر بالمطاردة ، فيغير

مساره ، أو مركبته ، أو ملابسه ، حتى يطمئن إلى انقطاع المطاردة !! وفى عديد من الأحيان كان يحتفى برصيد الأصدقاء الذين اكتسب مويتهم منذ أيام الدراسة . وكانوا دائما يقدرون ظروفه ويمنحونه من كل ما يملكون لكي يصوبه ، ويحفظوا عليه . وبعض هؤلاء كانوا من الإخوان المسلمين أو بعض الجماعات السيسيسية الأخرى وكل ذلك كان يضاف على حياته لونا من الضيق . فالناس كل الناس لهم أملكن استقرارهم وراحتهم إلا هو .. والناس كل الناس يتمتعون بالأمن النسبى بينما هو محروم منه .. ولقد دفعته هذه المعاناة دفعا إلى التحلل من خطيئته السابقة على أيام الهرب .. وكان يعزى نفسه بأن الزواج سوف يأتى في يوم من الأيام . أما الآن فإن عليه أن يظل مشغولا بهموم الكفاح وحدها .

وكانت هموم الكفاح الملحة في نظره تتلخص في أمرين : تحريك أوسع الجماهير في الريف ، ووقف الضربات المتلاحقة للحزب . ذلك لأن جريدة « الفلاح » ، الناجحة في مخاطبة عقول الفلاحين عن طريق قصر أبوابها على مشكلاتهم ، وآلامهم ، وأمانيتهم سوف تقل مجرد ورقة ما لم تلتف حولها تنظيمات جماهيرية واسعة ، والتنظيمات الجماهيرية في الريف تتطلب الإقامة الدائمة لعدد من المناضلين في جزء منه على الأقل ، كما تتطلب التحرك العملي مع الجماهير إلى مواقع السلطات ، لكي تصبح هذه المواجهة قوية ومثلا يحتذى به الآخرون .

أما الضربات المتلاحقة للحزب فإنها كانت تحرمه من الكثيرين من أعضائه وقادته الأكفاء ، وتبعاً لذلك فإن أعباء المناضل تتضاعف ويثقل حملها على من لم يتم ضربهم بعد .

وكان المناضل الهارب يسعى جهده لكي يقيم للحزب قواعد الثابتة في قلب الريف ، كما كان يسعى جهده إلى تأمين نفسه ومن يعمل معهم . وتحصينهم ضد الضربات .. ومع هذا فإنه قد انشغل عن هذين المهمين الكبيرين بمحاولات ملء الفراغ الذي كان يتركه ضحايا الضربات . فإثر كل ضربة كانت تقع على الحزب كانت دوائر الأمن تتصور أنها هي الضربة القاضية ، ثم تقاجأ باستئناف النشاط ، ومضاعفته بأقوى مما كان .

٣ - مفارقات عجيبة :

وحفلت حياة المناضل الهارب في تلك الفترة بالعديد من المفارقات العجيبة . فعلى الرغم من أنه كان مطلوبا القبض عليه . وشنت أجهزة الدولة تتبعه ، وعلى الرغم من أنه كان يستخدم العديد من الأسماء التنكرية في عمله السرى الذي كان منقطعاً له . وعلى الرغم من خطورة الالتقاء - ولو بالصدفة - مع أى من الأهل أو الأصدقاء أو المعارف القدامى إلا أنه وهو الدائم التنقل بين أرجاء الأقاليم والحواضر المصرية المختلفة . كان لابد أن يجد نفسه في مواجهات مفاجئة مع بعض هؤلاء في كثير من الأحيان .

وكانت تلك المواجهات المفاجئة تنطوى على صور من المآزق التي لا يسهل نسيانها . فكثير من عارفه لم تكن لهم دراية بهربه . وكانوا حينما يرونه يتذكرون أيام الدراسة ، وعلاقات الزمالة القديمة : فيقبلون عليه في شوق ولهفة . وينادونه باسمه الحقيقي الذي يعرفونه وفي مثل هذه الحالات كان ينكر أنه صاحب هذا الاسم ويسارع إلى الفكك من ذلك اللقاء قبل أن ينتبه أحد إليه . هذا إذا كان معه من يعرفه باسم آخر . أما إذا كان وحده فإنه كان يلوز بمن يلقاه ، ويتقبل منه كل المجاملات المصرية الأصلية ، ويخترع له من الأسباب والعلل ما يبرره وجوده في هذا المكان الذي التقيا فيه ، وغالباً ما كان يخفى تطورات حياته فيزعم أنه يعمل بوظيفة كذا في مكان كذا ويظل يراوغ ويمكر حتى يمر هذا الموقف بسلام .

لكن هناك من كانوا يعرفون أنه مطارده وهارب ومطلوب القبض عليه ، وهؤلاء كانت تختلف بهم المواقف في لحظة الالتقاء المفاجيء به . فبعضهم كان يرتبك ، وبضطرب وتبدو عليه آمارات الذعر الشديد . ذلك لأن المناضل الهارب في نظر هذا البعض كان من الشياطين المردة القادرين على الاختفاء ، وتخطى الحدود . ولم يكن خيال هذا

البعض يتسع إلى رؤيته في الشكل المألوف للناس !! وعندئذ فإنه كان يضحك مستخفا بهذا الذعر الذي ليس له أى مبرر . وكان يقبل على هؤلاء المرتبكين فيطمئنهم ، ويطمئن منهم على الأهل والأصدقاء والمعارف . وقد يميل معهم إلى مقهى فيجلس وإياهم عليه لبعض الوقت . وقد يعضى إلى منزل أحدهم ليحظى بأكله شهية أو نومة مريحة .

أما بعضهم الآخر فكان حينما يراه بالمفاجأة لا يذعر ولا يرتبك ولا يبدو عليه أى اضطراب . وإنما يتلطف بالقدوم عليه في حذر ويقلقه ، ثم يتحدث إليه بالهمس كأنما يخشى عليه أن ينكشف أمره ، أو تلحظه أعين الرقباء . ومن هذا الصنف الأخير أحد أقربائه المستنيرين . رآه في مركبة عامة وانتبه إليه فلم يقبل عليه إلا بعد أن خلا مقعد ملاصق لمقعده . وعندئذ سار هذا القريب المستنير إلى هذا المقعد واستقر فيه بهدوء .. ثم مالت رأسه ميلا خفيفا وهمس في أذن المناضل الهارب : حمد الله على السلامة . قالها وهو يعتمد ألا يسمعها أحد غيره . ثم ظللا يتهامسان حتى بلغت المركبة مقهى مسيرتها فنزلا معا .. وبعد أن تأكد القريب المستنير من أنه ليس مشغولا ولا متبوعا من أجهزة الأمن أصر على استضافته ..

وكان المناضل الهارب في تلك الليلة محتاجا إلى مكان يأوى إليه بعد أن طرق أكثر من باب ولم يجد أحدا يستقبله .. من أجل ذلك فإنه لم يمانع في تلك الاستضافة بشرط ألا يعلم أهل البيت من هو الضيف وهناك في منزل المضيف ، وجد غرفة مخصصة لنومه ، وخوانا عليه من أصناف الطعام ما هو محروم منه منذ زمن طويل . وبعد أن تعشيا وجلسا يتحدثان فاجأه المضيف بما ليس في الحسبان :

زعم له أن إحدى القيادات الهامة في مجلس قيادة الثورة أبدت استعدادها لإلغاء محاكمته في القضية التي كانت السبب المباشر في هربه ، بشرط أن يعدل عن الاستمرار في صفوف اليسار .. وأضاف المضيف بعد ذلك : أن تلك القيادة تعهدت بمنحه مركزا سياسيا ممتازا .. ثم أردف قائلا : ترى هل توافق ؟

عندئذ تفحصه المناضل الهارب بعينه ثم أطره بالتساؤلات العديدة عن تلك القيادة من هي ؟ وعن العلاقة التي جمعت المضيف عليها . وعن تناول هذا الموضوع مع تلك القيادة وكيفيته ، وعن نوعية العبارات التي أثير بها ذكر المناضل الهارب الخ . وبعد تلك التساؤلات ونحوها تأكد له أن الأمر جد لا هزل فيه ، وأنه من الممكن تحديد موعد للقاء تلك القيادة عن طريق الهاتف الآن !!

وهنا سردت القشعريرة في كل بدنه . وأحس بأن الأرض تدور به وبالمكان الذي يجلسان فيه . وابتلعه الصمت لفترة غير قصيرة تصور فيها مضيفه أن يكون قد أصابه مكروه ، فنادى عليه بطلب إيقاظه .. وما إن أفاق من تلك الغاشية التي نزلت به حتى قال لمضيفه متلطفًا : أرجو أن تعفينى حتى من مجرد الرد على هذا العرض المهيمن . فأننى تعرف أننى مقتنع تماما بما أنا عليه . وهيهات أن يصرفنى طلب الراحة عن شيء اقتنعت به !! ناهيك عن أننى لا أستطيع أن أخون ولو كان الثمن هو أعلى المناصب !!

قال ذلك وسكت . ومع سكوته بهت المضيف ولاذ لسانه بالصمت !! وضلا صامتين فترة غير قصيرة ثم أخيرا افترقا . ومضى المناضل الهارب إلى مكان نومه . لكنه لم ينم !! هذا الفراش الوثير كأنه الشوك . ورأسه تطن بعشرات الاحتمالات ، والخوف من المجهول يطارد خياله . إنه الآن في حاجة إلى مكان آخر غير هذا المكان لكى ينسى ما حدث من مضيفه !!

نظر إلى ساعته فرآها تقترب من الثانية عشرة عند منتصف الليل .. وتذكر أن على مقربة من هذا المنزل الذى ينزل فيه كوخا صغيرا في عزبة مجاورة كان يقصد إليه قبل أن يلقي بالمفاجأة مضيفه . وحدثته نفسه أن يذهب الآن إلى صديقه الفلاح الشاب الذى يسكن هذا الكوخ لكى يقضى الليل عنده . وما إن خطر هذا الخاطر في نفسه حتى قفز من فراشه ، وكتب ورقة يعتذر فيها عن الخروج مبكرا لأمر هام لم يشأ معه إزعاج النائمين . وترك الورقة في مكانه .

وتسلل إلى الباب الخارجى وانصرف بين نباح الكلاب وصياح الديكة .
وهناك فى الكوخ وجد صديقه الفلاح الشاب يخلى له سريره زوجيته الحديثة ، ويحتفى بمقدمه كأروع ما يكون الاحتفاء . ويصر على النوم إلى جواره لكي يكون فى خدمته إذا احتاج أى شيء .
وهذات نفس المفاضل الهارب ، فنام نوما عميقا لم يستيقظ منه إلا وشمس الضحا تضع يدها فوق رأسه المتعب المكدود من خلف شبك الكوخ .
استيقظ فألقى أمه قد أحنت ظهرها ومالت برأسها على وجهه وهى جالسة إلى جواره فوق السرير .
لم يصدق عينيه !! كيف أنت إلى هنا من قريتها البعيدة ياترى ؟ ومن الذى أعلمها بأمر وجودى فى هذا المكان ؟ .. واكتشف بعد ذلك أن صديقه الفلاح الشاب هو الذى انفلت إليها بع أن اطمأن إلى استغراقه فى النوم لكي يمكنها من أن تراه !!
وكان أعظم ما تحدثت به إليه الأم فى هذا اليوم : أياك أن تخون !! قالتها وهوى فترق عنها بينما الدوموع تنهمر من عينيها غزيرة ساخنة .

؟ - مطاردات المتخبطين

وكانت تلك المواجهات المفاجئة تترك خلفها العديد من الهمس الخائف الحذر ؛ فكل واحد رآه فى مكان ما . كان يوشوش الآخرين عن رؤيته فى هذا المكان ، وكانت هذه الوشوشة تسرى بين الناس مصحوبة بشتى المبالغات الشاذة عن الأوصاف والصور التى رثى عليها ، وكان فى بعض هذه المبالغات ما يثير الشوق أو الفزع . وقد تردت تلك المبالغات مثقلة ببعض الأقوال والأحاديث التى لم ينطق بها لسانه .
ومهما يكن من شيء فقد كانت تلك الوشوشات تنتشر وتسرى إلى أن تبلغ المصامع الحادة للسلطات ، وعند ذلك فإنها كانت تجد فى طلبه حيث حانت رؤيته لأى إنسان . همس بأنه رآه . ذلك لأن السلطات كانت تتوهم دائما أن كل مكان يراه الناس فيه لابد أن يكون محتويا على فروع للتنظيم السرى الذى يتبعه .. ومن ثم فإنها كانت ترصد الأرضاء فى عشرات الأماكن المتباعدة من غير طائل .
وأحيانا كانت السلطات التى تطارده تستدعى من يتحدثون عن الالتقاء به . فتستجوبهم وتطيل استجوابهم . وكثيرا ما كانت تهددهم بمختلف التهديدات ، وتطلب منهم الإبلاغ عنه فور رؤيته لكن المهم أنها لم تكن تصل إلى شيء يفيدها على الإطلاق .
وكانت السلطات تعتقد آنذاك أنه يتردد على أهله وأفراد عائلته . ومن ثم كانت تشن المداهمات على قريته التى ولد فيها بشكل دورى . وكانت أخبار تلك المداهمات الدورية تترامى إلى سمع المفاضل الهارب فيطرب لها .. ذلك لأنها إن دلت على شيء فإنما تدل على أن المطاردات تتخبط ولا تعرف الطريق إليه .
على أن تلك المداهمات كانت تضىء جوا أسطوريا ليس على سكان قريته فحسب ، ولكن على جميع القرى المجاورة لها . فما إن تنتهى المداهمة حتى يأخذ الناس فى الحديث عن هذا المناضل الطائر الذى لا يمكن اصطياده .
وكثيرا ما كانت تنعقد الجلسات الليلية للقرويين فتساق على ألسنتهم عبارات الإعجاب بتلك القدرة الخارقة التى يتمتع بها ، وهذه الحيل الشيطانية التى تمكنه من الإفلات من أيدي الحكومة . لكن بعض الحاقدين على أقربائه لم يكونوا يطربون لهذا الإعجاب بل يتضايقون منه . وبعضهم كان يتجاسر فيبشر بأنه لابد من وقوعه فى قبضة السلطات إن عاجلا أو آجلا .. وعندئذ كان ينشب الخصام واللاد ، وتثور المعارك الظاهرة والخفية ، وتظل عقول الناس مشغولة بكل هذا الوقت طويلا ..

ومن هنا كانت السلطات تتصل بخصوم أقربائه وتحرضهم على مساعدتها في القبض عليه . غير أن ذلك لم يحدث أبدا .. ربما لأن أهل الريف يتخاصمون في وضوح وينفرون بطبعتهم من أساليب الوحشية والغدر . ولأن المناضل الهارب كان قد اكتسب من طول الممارسة خبرة جعلته يلتزم الحذر الدقيق في كل تحركاته . فهو لا ينام في مكان واحد ليلتين متواليتين . وهو عند الاجتماع مع زملائه لا يستقر في مجلسه قبل أن يتأكد من وجود منفذ يستطيع اللجوء إليه لو داهمت السلطات مكان الاجتماع . وهو في ليالي الصيف يفضل المبيت في الحقول على المبيت في المنازل .. وكثيرا ما كان يتخذ قرارا بتغيير امكنة الاجتماعات فور انعقادها . وكان لا يعلم أحدا عن ساعة قدومه من هنا لو من هناك . كما كان يختار من المواصلات أبعدا عن ظنون المطاردين ومالوفهم فقد يركب النيل رغم وجود القطار . وقد يفضل استخدام الدواب في المسافات القصيرة على السيارات ، وقد يختار المواصلات الذاهبة في عكس الاتجاه الذي يريده إلى أن يطمئن فيمضي إلى حيث يريد .

ومهما يكن من شيء فإنه نجح في جعل المطاردين يتخبطون بشأنه أشد أنواع التخبط . فبينما هم متأكدون من وجوده في مصر عن طريق بعض المشاهدات التي تصل إليهم أخبارها . فإنهم لا يكادون يتلقون خبرا عن رؤيته هنا حتى يأتيهم خبر ثان برؤيته هناك . وما إن يخكموا خطتهم للقبض عليه حتى يفاجئوا بأنه غير موجود حيث تحروا ضبطه .

تأكد يوما من أنه مراقب . وكان ذلك في مكان عام بمدينة القاهرة . نصح من كان معه بالخروج من هذا المكان . وبقي بعض الوقت متشاغلا بقراءة بعض الصحف وعينه على من كان يراقبه . وبعد قليل قام إلى دورة المياه تاركا في مكان جلوسه صطفه ، وطلبه سجايره ، وجراب منظاره وحقيبة أوراقه الصغيرة . وكوب الشاي الذي لم يشرب منه شربة واحدة .. ومن باب جانبي عند دورة المياه خرج إلى الشارع . وتذكر أن له صديقا منصوفا يذهب للدرس عن شيفه في مثل هذا اليوم . فيم شطر هذا الشيخ .. وجلس في حلقة الدرس مع المريدين حتى ما بعد منتصف الليل . وبعد انتهاء الدرس مضى مع صديقه إلى منزله . وفي مخيلته هؤلاء المراقبون الذين لا يزالون في مركز المراقبة اطمئنانا إلى أنه قد ترك أغراضه وذهب إلى دورة المياه ، ولابد من أنه سوف يعود !!

٣ - محاولة اغتيال عبد الناصر :

وفي ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤ تم الإتفاق بين الحكومتين المصرية والإنجليزية على مبادئ اتفاقية طالت المفاوضات من أجل الوصول إليها منذ أوائل مايو سنة ١٩٥٣ . كانت مصر طيلة الفترة السابقة تطالب بالجلء غير المشروط . أما الآن فقد قبلت بالتزام بريطانيا تجاه تركيا .. وأصبح من حقها الرجوع إلى قواعد في مصر لو حدث عدوان على تركيا . هذا البند وبند أخرى في الاتفاقية أثارت اعتراضات واسعة من جموع الوطنيين في مصر وكان على رأس المعارضين جماعة الإخوان المسلمين ، والتنظيمات الملوكسية . أما القوى السياسية القديمة فإنها لم يظهر لها نشاط معارض يذكر .. ذلك لأن قرار حل الأحزاب الذي باشرته الثورة ضدها قد قضى على قدرتها . وأقعدتها عن العمل السياسي المحفوظ وكان هدف المعارضين إسقاط هذه الاتفاقية قبل أن يتم التوقيع النهائي عليها ومن أجل ذلك أصدر الحزب الشيوعي المصري كتيبا بعنوان « الجلء المزيف » ناقش فيه بنود الاتفاقية وبين المخاطر التي تنطوي عليها سياسيا واقتصاديا وعسكريا ، ودعا الشعب إلى إسقاطها . ووقف الإخوان المسلمون من جانبهم ينددون بهذه الاتفاقية ، ويسعون إلى إسقاطها كذلك .. وحاول الطرفان إقامة جبهة بينهما لتحقيق الهدف المشترك . لكن الاتفاقية لم تلبث أن حظيت بالتوقيع النهائي عليها في أكتوبر سنة ١٩٥٤ . وبهذا التوقيع النهائي بدأ التحدي يفرض نفسه . فوعدت محاولة اغتيال جمال عبد الناصر بميدان المنشية في الاسكندرية يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٥٤

وبوقوع هذه المحاولة صدر قرار بتصفية الإخوان المسلمين الذين كانوا قد تم حل جماعتهم بقرار سابق في ١٣ يناير سنة ١٩٥٤

وأدى القرار الصادر بتصفية الإخوان المسلمين إلى تداعيات مؤسفة وأليمة . فلقد هجم انصار الحكومة وأجهزتها هجمة شرسة مدفوعة بتأثير ما حدث في المنشية ، ومستفيدة من غوغائية الإحباط لاهية مارس ١٩٥٤ تلك التي كانت تهتف بسقوط الحرية والديموقراطية .. وخلال أسابيع قليلة كان الإخوان المسلمون قد تم الزج بهم في أعماق السجون بالآلاف ، وكان معظمهم قد دفع بهم إلى السجن الحربي لكي يمارس عليهم شر أنواع التعذيب .. ولقد شهد المناضل الهارب بعينه بعض عمليات التصفية في شوارع المدن . وكان قد سبق تلك الأحداث الدامية تسديد ضربة قوية إلى الحزب الشيوعي المصري . فأصبح عبء الدفاع عن ضحايا الإرهاب ثقيلًا ، وبات تنظيم اللجان الخاصة بالدفاع عن المسجونين والمعتقلين في أول الواجبات التي يدعو إليها الحزب .

وفي غمرة تلك الأحداث الرهيبة ، وعلى التحديد في يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٩٥٤ تمت تنحية اللواء محمد نجيب عن منصب الرئاسة . وانفرد عبد الناصر بكل السلطة في يده . وفي ظل تلك السلطة المطلقة بدأت محاكمات الإخوان المسلمين ، وشهدت محكمة الشعب التي كانت تقوم بالمحاكمات أعجب المناقشات . وتكشفت عشرات الحقائق . وانتهت تلك المحاكمات إلى أكبر مجموعة من أحكام الإدانة في تاريخ البلاد .

وعانى المناضل الهارب في تلك الفترة من أثر الإرهاب في كل مكان . في المدن أو في القرى . بين العمال أو المثقفين . حتى في المركبات العامة كان هنالك نوع من الوجوم والخوف المرتسم على الوجوه .

وعادت إلى الأذهان صور الإرهاب الأسود . الذي كانت تمارسه حكومة إبراهيم عبد الهادي في عهد الملك . وشاع الشك وعدم الثقة في نفوس المصريين فكان الحديث عن أخبار التنكيل والتعذيب لا يدور إلا بالهمس !! ودأب الكثيرون من الوطنيين على التفكير في الهرب إلى خارج الوطن .. وتمكن بعضهم بالفعل من تحقيق ذلك .

لكن صوت المعارضة الشجاعة ظل يرتفع من خلال المطبوعات السرية التي كان يصدرها الحزب الشيوعي المصري ووقف الحزب بصلابة إلى جانب الدفاع الصادق عن قضايا الحرية . فندد بالأساليب البربرية التي كان يمارسها الجلادون في السجن الحربي وغيره من السجون . ونظم العائلات والأسر للمطالبة بالإفراج عن أبنائها وعائلتها . وساعد على إطلاع الرأي العام العالمي على حقائق الوضع في مصر .

وظل الحزب ملتزمًا بخط المعاداة للسلطة الحاكمة باعتبارها سلطة عصابة فاشية مسخرة في خدمة الاستعمار العالمي . وهدفها هو جرم مصر إلى أتون الحرب العالمية الثالثة ، حتى بعد أن ذهب عبد الناصر إلى باندونج في أبريل سنة ١٩٥٥ وأعلن عداؤه للاستعمار وارتباطه بسياسة عدم الانحياز واعترافه بالعين الشعبية ، ومعارضته لحلف بغداد . وحتى بعد شراء السلاح من تشيكوسلوفاكيا ، والاتجاه إلى التفاوض للحصول على معونات اقتصادية سوفيتية ، فإن الحزب لم تثن قناته وظل على عداوته المطلق لتلك السلطة التي سلمت السودان للإنجليز ، وربطت مصر مع بريطانيا وتركيا في حلف عسكري معاد للاتحاد السوفييتي بتوقيع معاهدة سنة ١٩٥٤ .

٤ - ضربة فبراير سنة ١٩٥٦ :

كان الحزب قد ضرب في مايو سنة ١٩٥٥ - وما إن استعاد قوته حتى لحقته ضربة أخرى في ٦ فبراير ١٩٥٦ - وفي هذه الضربة الأخيرة قبض على المناضل الهارب بعد قرابة ثلاث سنوات من بداية الهرب . وكان ذلك في مدينة الاسكندرية ، وفي حوالى الثامنة عشرة مساءً وكان وراء تمكن البوليس من القبض عليه في هذه المرة فرط التعب

والإرهاق . فقد خرج من مدينته بنها في صباح اليوم السابق متجها إلى الزقازيق - وبعد أداء عمل حزين فيها ، ركب منها عند الظهر في اتجاه المفزلة . وهناك أيضا قام بعمل حزين ثانٍ ، ثم عاد إلى المنصورة فادى عملا حزيبا ثالثا ، وركب القطار إلى طنطا لكي يتجه منها إلى الاسكندرية فيصلها مع الصباح ، ثم يستمر في دوامة اجتماعات ، وتدابير ، حتى الحادية عشرة مساء فيتجه إلى بيت صديق من أصدقاء الدراسة مع أنه كان قد قرر المبيت خارج الاسكندرية . لكن الإنهاك والإرهاق قعدا به عن المضي إلى وجهته التي قررها ... وهكذا وجد نفسه بعد ساعة واحدة من بلوغ بيت هذا الصديق قبضة رجال الأمن .. هو وضييف كان معه والشقيقتان صاحبا المسكن الذي التجأ إليه .

ويتفتيشه عثرا على خطاب كان مرسلًا إليه على هذا المنزل الذي قبض عليه فيه ، وكان الخطاب من خطيبته التي كانت تعمل مدرسة للغة الإنجليزية في إحدى مدارس الزقازيق . ولم يكن الخطاب فيه ما يرشد إلى كاتبته بشخصها من قريب أو بعيد . كما لم يكن فيه ما يقطع بأن الخطاب موجه إليه ..

ولم يهتم للأمر فإنه منذ زمن بعيد قد سلح نفسه ضد الاعتراف بأية معلومات تفيد البوليس في تعقب الآخرين . وبعد عدد من الإجراءات ركب رجال الأمن المعتزون به إلى القاهرة عبر الطريق الصحراوي . وكانت برودة الجو بالغة القسوة عندما حاول بعض الضباط أن يألوا من معنوياته بالتحدث عن ضحاياهم ومغانمهم التي غنموا من وراء حملتهم الليلية ، ولم يقبل الصمت بل راح يرد عليهم إلى أن نصحهم كبيرهم بالكف عن الكلام . وبعد الاستدفاء في استراحة الطريق ببعض المشروبات مضت القافلة إلى إدارة المباحث العامة بالقاهرة - وكان ذلك في حوالي الثالثة صباحا .. وهناك لفت نظره ذلك التهلل البادئ على وجوه الضباط . والذي عبر عنه بعضهم بالقبل والعناق الحار !!

وبعد دقائق قليلة أدخلوه على رئيس المباحث العامة الذي كان ينتظره . وأدار معه بعض المناقشات الهادفة إلى معرفة بعض المعلومات ، وحاول التلطف إليه لكنه لم يفلح .. فهدد ، وتوعد ، ثم أمر بإخراجه من مكتبه خرج مخفورا بعدد من الحراس المسكين به ، وقادوه إلى غرفة بها مكاتب ، وموظفون ، وأثناء ذهابه إليها شهد للمقبوض عليهم وكانوا بضع عشرات ، يفترشون البلاط ، لم يكونوا كلهم من ذوي النشاط السياسي وإنما العدد الأكبر منهم كان من الأصدقاء والعاطفين . وكان أشد ما أزعجه هو رؤية خطيبته بين هؤلاء الجالسين في الطرقات المجاورة لمكاتب الضباط .

تبادل التحية مع بعض المقبوض عليهم ، ثم شعر بالرغبة الشديدة في النوم ، ولكنه رأى خطيبته تسند ظهرها إلى الحائط غافية من شدة الإرهاق فخلع معطفه وألقاه عليها ، ثم ارتقى فوق أحد المكاتب وتمدد ونام .. ولم ينس أن يحذر حراسه في الغرفة من فتح النوافذ لأنه كثيرا ما يرى نفسه يحلم بالطيران . ولم يشعر بعد ذلك بشيء على الإطلاق . وفي حوالي الثامنة صباحا أيقظوه وذهبوا به إلى غرفة وجد فيها عددا من كبار الضباط في وزارة الداخلية . وبالحال من لحظات تملأ النفس بالآلم والحسرة عندما تعاون هؤلاء على استجوابه لمعرفة أسرارها التي لا يمكن الإفصاح عنها !! لقد هددوه وتوعدوه ، وطلبوا منه أن يرد على أسئلتهم الفضولية ولكنه لم يأبه لهم !!

زعم كبيرهم أن كل شيء معروف لديهم ، ولكنهم فقط يريدون تفسير تلك الرموز التي عثروا عليها في أجندته . ما هذه للعصا ؟ وما تلك اليمامة ؟ ماذا تقصد بالفتاح ؟ وكان الرد على كل تلك الأسئلة وأمثالها - لا تهتموا فتلك مجرد حركات عابثة قام بها القلم في لحظات الملل !!

أخيرا ينسوا منه ، وعزلوه عن كل المقبوض عليهم في غرفة مملوءة بالموظفين والضباط . واستمر خمسة أيام كاملة في مبنى مباحث أمن الدولة ينتظر دوره في التحقيق الذي كانت تجريه النيابة في نفس المبنى .. فلما جاء عليه الدور أحس بحركة غير عادية يقوم بها بعض الضباط قبل دخوله إلى غرفة التحقيق . وتوقع الشر المعروف عند محاولة انتزاع الاعترافات

بالقوة ، فقرر الصمود مهما تكن درجات التعذيب المحتملة ، ثم دخل إلى غرفة التحقيق حيث وجد بها عددا من ضباط الأمن - وقبل أن يوجه له أى سؤال طلب من وكيل النيابة ألا يسمح لغير المحقق بالبقاء في الغرفة . وفهم وكيل النيابة ما يعنيه فأشار إشارة مفهومة بعدها خرج الضباط من الغرفة .

وبدا الاستجواب على النحو المألوف ، وأستمر وقتا طويلا لم يعترف خلاله أى اعتراف ، وانكر كل ما أسند إليه من اتهامات .. ثم خرج من غرفة التحقيق ليرى نفسه هو المتهم الوحيد الباقي في مبنى المباحث العامة . أعادوه إلى الغرفة التي تعود عليها ، وعلى الموظفين العاملين فيها . وكانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا .. وسأل عن المقبوض عليهم فأجيب بأنهم تم ترحيلهم !! وسأل إلى أين ؟ فلم يجبه أحد .

وساورته الوسوس حول مصيره . فهؤلاء الضباط ينظرون إليه على أنه متهم شديد الخطورة ، ومن أجل ذلك استبقوه بعيدا عن كل المتهمين .. وها هم أولاء نقلوهم إلى بعض السجون . ولا بد أنهم يدخرون له سجنا يليق بخطورته . واتجه ذهنه إلى السجن الحربي ذي السمعة السيئة ، وفكر في الذي ينتظره هناك وقرر الصمود أيضا .. وبرزت أمام عينيه صور العديدين من المناضلين الأبطال في المواقف المشابهة ، وصمم على ألا يكون أقل من أى منهم . وبينما هو مستغرق في تلك الوسوس ، كانت الاتصالات التليفونية لا تنقطع ، وكانت الحركات بين المكاتب على قدم وساق ، وصور له خياله أن لكل ذلك صلة وثيقة بمصيره الذي لا بد أنه يتقرر الآن .

ولبح عنوانا في إحدى الصحف على بعض المكاتب يشير إلى صفقة للأسلحة تعاقبت عليها الحكومة مع تشيكوسلوفاكيا !! وتسمرت عيناه على هذا العنوان ، وراح يجرى بتفكيره وراء هذا التغير السياسي المثير !! وتردد في رأسه أكثر من سؤال عن صحة المواقف التي كان يقفها الحزب من الحكومة . ولم يستبعد أن يكون الخبر مجرد مناورة قصد بها حث الدول الغربية على تسليح مصر !!

وظل غارقا في دوامة التساؤلات والوسوس ، يحاول حل هذا اللغز المعير . كيف تتجه الحكومة إلى الاستعانة بالدول الاشتراكية وهي تقبض على الاشتراكيين وتعذبهم في نفس الوقت ؟؟ !!



الفصل الثالث عشر :

رحلة السجون والمعتقلات

١ - سجن الاستئناف :

وعندما اشارت الساعة إلى الرابعة مساءً انقطع حبل التساؤلات والوساوس بقدم عدد من رجال الأمن أمسكوا به . واقتادوه إلى سيارة فارغة تحرسها سيارتان فارهتان أيضا إحداهما من الخلف والأخرى من الامام .. وفى كل واحدة من هذه السيارات كان عدد من كبار الضباط يرقبون الموقف .

لم يكن يعرف إلى أين يتجه ركب السيارات الثلاث .. إلى أن بلغت سجن الاستئناف فتوقفت . وانفتح باب السجن لكى يتم تسليمه .. وعمدت إدارة السجن فوراً إلى اتخاذ الإجراءات المعمول بها ، وهى ليست غريبة عليه ، فقد سبق أن أجريت معه عدداً من المرات . لكن الغريب كان هو رفض المعاملة الخاصة للمسجونين السياسيين ! تلك المعاملة التى كانت مقررة فى لوائح السجون المصرية ، وبمقتضاها لم يكن ينظر إلى المسجون السياسى على أنه مجرم بعادية المجتمع ، وإنما كان ينظر إليه على أنه صاحب رأى يجب أن يحترم شخصه مهما كان الاختلاف مع رايه . ومن ثم كان يأكل ويشرب ويلبس وينام بشكل مميز طيلة البقاء فى السجن . أما الآن فى المسجون السياسى ينام على « البرش » ، ويأكل « اليمك » ، ويشرب من « الجريد » ، ولا يلبس إلا ملابس السجن الكالحة !! وعليه فوق ذلك أن يعانى من وطأة التعذيب النفسى والبدنى لسحق معنوياته ، وإذلال كرامته .

وكانت أولى الإجراءات التى نفذت إجراء حلق الشعر ، وخلع الملابس المدنية والدخول فى ملابس السجن ، ثم قاده الحراس إلى داخل العنبر حيث فتحوا له باب زنزانه ودفعوه إلى داخلها ثم صفقوا الباب . وفى داخل تلك الزنزانه كان هناك خمسة من زملائه الذين سبقوه ، ما إن رأوه حتى تعلقوا به وعانقوه سعداء بقدومه عليهم . فقد كانوا يظنونهم إنما تخلف عنهم لكى يستضاف فى السجن الحربى ، واكد لهم أن نفس الظن طاف برأسه ولا يزال يطوف ، ويعتقد أنه هنا « فزول مؤقت » .

وعلم منهم أنهم وصلوا منذ الصباح . وأنهم لم يقع عليهم أى اعتداء . وأن كل المقبوض عليهم هنا ما عدا البنات وكن ثلاثاً تم ترحيلهم إلى سجن مصر . وبدأ الكرم المصرى يعبر عن نفسه ، فقدموا مائدة الطعام الذى يتكون من الخبز و « اليمك » الذى تعفف عنه البعض لسوء طهيهِ ، فما كان منه إلا أن مد يده وأخذ يأكل قائلاً : لا تتأفقا ولا تتعفقا ، فهذا هو الطعام الذى سوف تاكلونه لعدد طويل من السنين !! وتشجع الجميع فأكلوا . ثم جلسوا يدخنون ويتذكرون ما وقع لكل منهم منذ قبض عليه إلى أن حضر إلى السجن ..

وبعد ذلك ناموا كما تنام الأسماك فى عتبة السردين . وبدأت تساورهم أفكار المقاومة منذ الصباح التالى ، فطلبوا مقابلة مدير السجن وسمح لهم . ووقفوا امامه يناقشونه ويطلبون منه حق الإنسان وكان من بينهم المحامى دارس القانون ، وأستاذ الجامعة . والصحفى ، والمهندس ، وكلهم طبعاً من المشتغلين بالسياسة .. فاستقلوا كل معلوماتهم وهم يتحدثون

إليه مؤكدين أنهم يعاملون معاملة غير إنسانية وغير قانونية . وكان المدير واسع الصدر فلم يضيق بالمناقشة ، فإذا احتكموا إلى نصوص لائحة السجن قال لهم إن الذى يقوم على تنفيذ اللائحة هو الذى أصدر التعليمات بالمعاملة التى تنكرونها . وهكذا امتدت المناقشة من غير طائل . وطلب منهم كتابة مذكرة ووعد برفعها فوراً إلى المسؤولين

٢ - موقف سيسى جديد

كان سجن القناطر الخيرية غاصا بأعداد كبيرة من الشيوعيين الذين قبض عليهم سنوات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ . وكانت حياتهم نوعاً من المتاعب المتعمدة التى لا ترحم ، وكانوا يناضلون ببسالة ضد تلك المتاعب ، وكثيراً ما كان للجلد والتأديب الانفرادى يستخدم ضدهم ، وكان ضباط السجن يتقنون فى ابتكار وسائل الاستفزاز والتعذيب تنفيذاً لأوامر وتوجيهات المباحث العامة

علم « النزيل المؤقت » بكل ذلك فور وصوله من سجن الاستئناف ، فلم يدهش . واستعد نفسياً لجميع الاحتمالات ، وطبقاً لتوصيات المباحث العامة أنزلته إدارة السجن فى زنزانة انفرادية . ولم يلبث غير يوم أو يومين حتى جرب التعذيب والعيش فقط على الخبز والماء مدة أسبوع كامل

عاد بعد ذلك إلى زملائه . وكانوا لا يكفون عن مصارعة الظروف والإدارة فى كل وقت وحين . لكن صراهم الأكبر كان ضد أنفسهم . فالانقسامات القائمة بينهم كانت أشد ضراوة عليهم من عنت السلطة أو إرهابها . وكان عليه أن يخوض كل تلك الصراعات مثلهم ، صراهم ضد الحراس المدرعين . وصراهم ضد الجوع والمرض من أجل الطعام والدواء ، وصراهم من أجل البحث عن المتاعب فى سراديب التأويلات الفكرية والسياسية المصحوبة بشتى ألوان التجريح .

رب بريق الصراع هذه . وردت لرفاق الحزب صورة من تقرير جديد قدمه سكرتيره العام . وكان هذا التقرير يحمل تقصداً كاملاً لكل المقولات السابقة عن الحكم الفاشى ، وعمالته للاستعمار ، ومعاداته لطبقات الشعب ، وانتهى التقرير إلى الدعوة إلى تأييد الحكومة باعتبارها حكومة وطنية تناضل من أجل الاستقلال الوطنى ، وتقود الشعب فى صراعه العادل ضد الإمبريالية العالمية !!

وفجر هذا التقرير صراعاً ضارياً بين رفاق الحزب أنفسهم هؤلاء الذين ألفوا المقولات والمفاهيم التى كافحوا فى ظلها ، وضحوا من أجلها .. وكانت بالنسبة لآى منهم فى أعلى درجات اليقين . وانتهاز يساريو التنظيمات الأخرى هذه الفرصة فنزلوا بكل قوتهم إلى طبة الصراع لكى يؤكدوا أن أصحاب المواقف والنظريات الخاطئة لابد لهم من نقد أنفسهم نقداً يتناول الأسس الفكرية التى أوقعتهم فى الخطأ . وكان هذا الصراع المحتدم - رغم التضيق والإرهاب ، والجلد - تتم إدارته عن طريق الورق والأقلام : فكانت تقررات اللقالات والتقارير الضافية ، وكانت المناقشات الطويلة بين المتصارعين تجرى كلما سنحت فرص اللقاء

٣ - العدوان الثلاثى :

كل ذلك بينما المواقف السياسية للحكومة تتجه بخطوات سريعة نحو الاصطدام بكل الدوائر الاستعمارية فى العالم ، فلقد نجحت مصر فى الحصول على قرار سوفيتى بتسليح جيشها ، وشكل ذلك الحدث عنصراً جديداً فى السياسة الدولية . فالدول الغربية تصورته إخلالاً بالتوازن الذى كانت حريصة عليه فى منطقة الشرق الأوسط ، وبخاصة بعد جلاء الإنجليز فى ١٨ / ٦ / ١٩٥٦ - ومن أجل ذلك فقد كان على الدول الغربية أن تدبر أمورها مع إسرائيل لكى تدمر القوات

المصرية قبل أن يكتمل إعدادها ، وتسقط النظام المصري قبل أن يستقل خطره ..
ووجدت الدوائر الغربية فرصتها إلى استدراج القيادة المصرية للحرب من مدخل السد العالي .. ففي ١٩ يوليو
سنة ١٩٥٦ أبلغت الولايات المتحدة سفير مصر بواشنطن قرارها بسحب عرضها المشاركة في تمويل مشروع السد
العالي .. وبعد أيام قليلة حدث انفجارا حذو الولايات المتحدة ، وبذلك سقط التزام البنك الدولي المبني على أساس موافقة
الدولتين .

وجاء هذا الموقف من الغرب بمثابة اشعال الفتيل في برميل البارود . فانتهاز عبد الناصر فرصة الاحتلال السنوي
بذكرى ثورة يوليو وأعلن قيام قناة السويس .

وانفتح الباب على مصراعيه لأحداث كثيرة متوالية ، وتحركات عسكرية كبيرة ، انتهت بصدام مسلح مع بريطانيا
وفرنسا بمعلومة اسرائيل من أجل السيطرة على قناة السويس . كان ذلك في ٣٠ أكتوبر ١٩٥٦ ، وفي صباح أول نوفمبر
ذهب عبد الناصر إلى الأزهر وألقى بعد صلاة الجمعة خطابا شعبيا شرح فيه أهداف العدوان ، وقرار الانسحاب من
سيناء ثم أطلق شعاره الذي تبنته الجماهير « سنقاتل » وبدأ الاستعداد لحرب شعبية ، فتم تجنيد المتطوعين ووزعت
الآلاف من قطع الأسلحة .. وكان الأمل إطالة أمد المعركة .

كل ذلك كان يحدث في مصر ، وعلى أرضها ، بينما شيوعيو الحزب مودعون في سجن مصر ينتظرون تصديق الحاكم
العسكري على الأحكام التي صدرت ضدهم منذ أسابيع قليلة !! أية مرارة كانوا يشعرون بها وطائرات العدو فوق رؤوسهم
في سماء القاهرة بينما هم محرومون من شرف الدفاع والعمل الذي عاشوا يحلمون به عددا طويلا من السنين ؟
ومع ذلك فقد أعلن اليساريون مواقفهم داخل وخارج السجون المصرية ، وكانت كلها تمتلئ بالتأييد الجار والمؤازرة
الصديقة ضد الاستعمار ، وظلوا على هذه المواقف رغم المحاكمات والأحكام . ولعبت دورها المشرف بعض القيادات الشيوعية
في مدينة « بورسعيد » إثر سقوطها في يد الأعداء - وكان أروع ما حدث في تلك الفترة هو التحام الجماهير مع قيادتها
والوقوف صفا واحدا رغم كل الجراح !!

ولقى العدوان الثلاثي من المجتمع الدولي ما يستحق من الإدانة والتنديد . وتوجه السوفييت بإنذارهم التاريخي
الذي تسبب في وقف إطلاق النار على مصر .

٤ - الثقة المفقودة :

ولقد أسهم هذا الموقف في دفع العلاقات المصرية السوفيتية نحو مستوى جديد فتوثقت العلاقات العسكرية
والاقتصادية ليس مع السوفييت وحدهم ، وإنما مع كل بلدان العالم الاشتراكي . إلا أن ذلك لم يغير من فكر عبد
الناصر المعادي لليسار الماركسي في مصر - فلم يستجب أبدا ليدهم المدودة إليه . ومضى إلى التصديق على الأحكام
التي كانت قد صدرت ضدهم ثم قامت الأجهزة المختصة بترحيلهم إلى ليمان طرة . ومنه تم ترحيلهم إلى الواحات
الخارجية لكي يمضوا أعواما طويلا ما بين « جناح » و « المحاريق » في قلب الصحراء الغربية .

وكانت الطريقة التي ترحيلهم بها هي سلسلتهم كل مجموعة في سلسلة واحدة . ثم وضعهم داخل السيارات المغلقة
إلى القطارات ذات العربات المغلقة .. وفي صباح بارد قارس البرودة بلغوا محطة قطار الواحات . فركبوه وانطلق بهم حوالى
ثمانى ساعات ثم توقف عن المسير . ونزلوا من القطار محاولين إصلاحه بأنفسهم ولكن هيهات !!

كان الخط الحديدي خطأ مفردا . وكانت إلى جوار هذا الخط المفرد أعمدة تليفونية موازية له ، تحمل سلكين من
« نجع حمادى » إلى الخارجة . وكان القطار مكونا من عربتين اثنتين صغيرتين .. وعندما نزل الركاب حاول السائق
الاتصال تليفونيا عن طريق تركيب سماعة على السلكين الممتدين عبر الصحراء ولكنه فشل .. وارتبك الضباط المسئولون عن

توصيل السجناء بعد أن خيم الليل على الصحراء الواسعة ، وصار واضحاً أنه لا مفر من المبيت حتى يتم إصلاح القطار في صباح الغد .

وشاعت برودة الصحراء في الأجساد ، فاحتطب السجناء وقوداً من خشب « الطرفة » ، وأوقدوا النيران طلباً للاستدفاء . عندئذٍ شاركهم الضباط والجنود بهجة الدفء ، وتسلى الجميع بصناعة الشاي وتناوله . وكان من بين السجناء طالب طب مفرم بإشاعة الأيناس في النفوس المستوحشة : فاطلق حنجرته مع الأغنيات الوطنية التي كانت ذائعة في ذلك الحين .. يا سابق الغليون عدّ الكنال عدّ .. ويرد عليه زملاؤه ، عدّ .. الخ .. وفي ظل ذلك الجو المفعم بعشرات بل مئات المشاعر المختلفة ، كانت هناك فكرة واحدة تلح على النزول المؤقت ، ماذا تريده السلطة من الاستمرار في تلك المعاناة للياسر ؟ لماذا هذا النفي إلى الصحارى بينما العالم كله يعرف تأييدهم لتلك السلطة : وهل من المعقول أن تكون السلطة غير واثقة فيمن اقتحموا بورسعيد المحتلة ، ونظموا لجان المقاومة الشعبية بها ؟ .

وظل بين اليقظة ، والنوم ، والتفكير ، والتلهي بأغنيات الدكتور إلى أن أصبح الصباح . ما أروع أن تشرق الشمس بدفئها إثر ليل باردٍ طويل ، وما أبهى انعكاس الضوء على الرمال التي تتخللها بعض النباتات البرية الظامّة ! وما أحب انطلاق البصر والأقدام في تلك الرحاب الواسعة ! إن الشعور السائد الآن بين المسجونين أنهم منطلقون . خصوصاً بعد أن فك ضباطهم السلاسل اطمئناناً إلى أن أحداً منهم لن يستطيع الهرب .

في حوالى التاسعة صباحاً تم إصلاح القطار وأطلق صفارته إيذاناً باستئناف الرحلة ، وسارت القافلة بين مناظر الصحراء المتنوعة من صخور بركانية ، وغرود ، وتلال ، وجبال حتى بلغت الخارجة .. ومن هناك تم حشر السجناء في سيارات مغلقة إلى أن بلغوا معسكراً مسوراً بالأسلاك الشائكة ، ويقوم في داخله مئات الخيام !!

هذا إذن هو سجن « جناح » ، وما هم أولاء القائمون على إدارته ، وبعد إجراءات قليلة استقبلهم زملاؤهم الذين سبقوهم إلى هذا المكان السحيق .. وتعرفوا على خيامهم التي أعدت لإقامتهم .

وعندئذٍ ارتقى كل أفراد الرحلة الشاقة على فُرُشهم طلباً للراحة من عناء السفر الطويل !! وبدأ لون من الحياة جديد ..

٥ - السجن المفتوح :

كان هذا السجن في تلك البقعة النائية يشبه معسكراً من معسكرات الجيش . مساحة واسعة من أرض الصحراء محدودة بسور من الأسلاك الشائكة ، وفيه قامت ثلاث مجموعات من الخيام ، لثلاث مجموعات من السجناء الشيوعيين .. والإخوان المسلمون ، وتفصل بين هؤلاء وأولئك خيام المسجونين في الجرائم العادية . وكان النزلاء في هذا المعسكر يخدمون أنفسهم ، فهم الذين يعجنون ويخبزون وهم الذين يطبخون ويطهون ما يأكلون .. وكان يشرف عليهم مجموعة من الضباط والجنود ، ولم تكن هناك زنازين ، أو عنابر ، ولا أبواب .. اللهم إلا بوابة شبيهة ببوابات المزلقات في المدن .

وفي هذه العزلة الرهيبة قام مجتمع خاص ، يتعامل فيه الجميع تعاملاً خاصاً ، فالكل كانوا شركاء في عذاب البعد عن الحياة التي يحياها الناس ، لم يكن هناك ما يؤنسهم كل ليلة سوى عواء الذئاب الجائعة في الصحراء ، ولم يكونوا يستطيعون الحصول على طعامهم إلا بشق الأنفس . بينهم وبين العمران الذي يرد منه غذاؤهم أكثر من ٢٥٠ كيلومتراً . وكثيراً ما كانت السيارات تتعطل في الطريق فتحدث الأزمات الحادة ويتعرض النزلاء للجوع .. وفوق ذلك فإن الخضروات واللحوم كان يعتريها التلف في بعض الأحيان ، ولا يبقى للنزلاء إلا البقول الجافة المحشوة بالسوس . ومع ذلك كله فإن هذا المجتمع المعزول كانت تغمره البهجة عندما يأتي الزوار عبر مئات الأميال ، أو عندما ترد

الخطابات الدافئة بحرارة الشوق الذي يرسله الأهل والأحباب .

كان الجميع يتساوون في الشعور بالعزلة ، ولا فرق بين نزير وحارس ؛ ومن أجل ذلك فإن روح المعاونة كانت هي السائدة ، وكانت مساندة الكل للكل أمرا مفروغا منه عند الازمات .

لم يكن هناك طب يمكن الفرز إليه في لحظات الخطر إلا الأطباء من النزلاء ، ولم تكن هناك أدوية يمكن تناولها إلا في صيدلية النزلاء ، ولم يكن هناك ماء إلا من استخراج النزلاء ، ولم هناك خبز إلا من صنع النزلاء !!

صحيح أن بعض الجنود والضباط كانوا يستحضرون بعض الطيور والبيض من « أم عمر » وهي تاجرة كيفية للبصر تقيم معها ابنتها في خباء على مقربة من هذا السجن المفتوح .. لكن ذلك كان مقصورا عليهم وحدهم عندما ينتهون القيام بالأجازات . أما النزلاء فهيهات أن يظفروا بشيء من ذلك .

جلس « الفزيرل الوقت » مع نفسه لكي يكتب خطابات لبعض أهله وخطيبته نزيلة سجن النساء بالقناطر الخيرية عندما قام عليه صديق عزيز لم يره منذ سنوات طوال .. وكان هذا الصديق واحدا من الإخوان المسلمين النزلاء .. قام إليه ، ورحب به ، ثم أجلسه ، إلى جواره ، وحياء .. وأخذا يتبادلان الحديث حول المسائل الخاصة والعامة : إلى ما شاء الله من الوقت .. وبعد أن انصرف هذا الصديق تقدم منه أحد زملائه وسأله عن عمق العلاقة الحميمة مع هذا الأخ « المعارض » فأخبره بأنه صديق قديم يعتز به ثم أرفف : وما حكاية « المعارض » هذه ؟ ماذا تعنى بها ؟ فقال زميله : هنا في المعسكر نوعان من الإخوان المسلمين : مؤيدون للحكومة وهؤلاء أصدقاؤنا ، ومعارضون للحكومة وهؤلاء ليسوا بأصدقائنا . الأولون تجاوبوا مع الموقف الوطني ضد العدوان الثلاثي ، والآخرين لم يتجاوبوا وكان شعارهم الذي يرددونه « لا عدوان إلا على الظالمين » !!

قال النزيرل « المؤقت » : إننا نقيم كلنا في مكان واحد ، ونحن وأمثالنا من نزلاء الليمانات والسجون والمناقي . كلنا ضحايا لنظام واحد وإن اختلفت المناهج والإيديولوجيات .. كلنا اتحدت مواقفنا من السلطة عند إبرام معاهدة سنة ١٩٥٤ اثم ما هو الفرق العمل عند السلطة بين من يؤيد أو يعارض ؟ أو لسنا نحسن الشيوعيين من غلاة المؤيدين ؟ ما هو وقع هذا التأييد على صاحب القرار في مصر ؟

وقبل أن ينبرى له زميله بالرد طلب منه أن يسمح له بكتابة الخطابات التي يجب أن تسلم في الصباح إلى إدارة السجن ..

وبعد الفراغ من كتابة الخطابات جلس النزيرل « المؤقت » مع نفسه يتأمل عمق المأساة التي تردت إليهما الأحوال في مصر .. هؤلاء النزلاء السياسيون من الشيوعيين والإخوان المسلمين هم من خلاصة الوطنيين المهمومين بأمر بلادهم . وأى منهم لا يقل حماسه لوطنه عن حماس عبد الناصر ، والكثير من منهم ناضلوا في وقت مبكر وصمدوا على خط النضال حتى هذه اللحظات .. وهم في معظمهم مؤيدون للحكومة ، ومن المؤكد أنهم لو كانوا غير مخلصين في هذا التأييد لما أعلنوه . فكلهم وقفوا في مواجهة الخطر من غير خوف . وكلهم يستطيع أن يصمد على معارضته لو كان مقتنعا بها .. لكنهم ومن خلال الاقتناع الكامل يؤيدون المواقف العظيمة للحكومة ضد إسرائيل وكل الدول التي تساندها أية مأساة تلك التي تفرض على عبد الناصر التنكيل بأصدقائه ومؤيديه ؟ وما الفائدة التي سوف يجنيها من وراء الاستمرار على هذه السياسة ؟ إن السياسي الحق يدرك ببعد النظره فداحة المخاطر التي تحيق بوطنه من جراء تمزيق الصفوف ، ومن أجل ذلك فإنه يتألف القلوب النافرة عنه فكيف بالمقبلة عليه ؟

ولم يزل النزيرل « المؤقت » مع هذه التأويلات والتأملات حتى غلبه النوم فنام .

٦ - التنظيم الجديد للحياة

وفرضت الحياة على نزلاء هذا السجن المفتوح من الشيوعيين تنظيماً خاصاً لحياتهم ، وكان الأساس الذي ارتضوه لهذا التنظيم هو تطبيق مبدأ المساواة في كل شيء . فالكُل يجب أن يعمل في جميع أنواع العمل حسب دوره . من إعداد للعجين إلى تسويته في الفرن . إلى ملء الخزانات بالماء إلى تنظيف الأواني والخيام الخ . فالكُل يجب أن تصادر الواردات التي ترد إليه لحساب المجموع . نقود . أطعمة . ملابس أدوية الخ . فالكُل يرد إليه ما يساوي مائة جنيه ، والذي يرد إليه ما يساوي جنيهاً واحداً ، والذي لا يرد إليه شيء بالمرة . كلهم عند التوزيع متساوون .. الكُل يتحمل الكُل يأخذ نصيبه العادل مما يرد .

وإلى تضي الحياة محتملة فإنهم كانوا يشغلون أوقاتهم بما يفيد . فهذا يقوم بالتدريس لمحرومية الجنود أو النزلاء المعاقين . وهذا يترجم كتباً في الاقتصاد أو في السياسة أو في الفن ، وذلك يلتقط من الأثير كل أخبار العالم الخ الكُل يعمل ، والكُل يقرأ ، والكُل يكتب ، والكُل يناقش ، والكُل يتلوه عن مأساة العزلة بزرعة الخضروات والزهور .

وكان انقسام النزلاء إخواناً وشيوعيين . ثم إلى إخوان مؤيديين ، وإخوان معارضين . ثم إلى شيوعيين في تنظيم وآخرين في تنظيم آخر . كان كل ذلك دافعاً إلى الصراع السياسي والفكري ، ومن أجل ذلك كان الجميع يتبارون في الحوار الجاد . وكل يريد حمل الآخرين على الاقتناع برأيه

ول بعض الأحيان لم يكن الصراع محكوماً بالعقل ، ومن أجل ذلك تتدخل الأيدي ، وتحدث الاشتباكات الحامية والدامية ، وبخاصة بين المؤيديين والمعارضين من الإخوان المسلمين .

ول قلب هذا الصراع المتعدد الجوانب ، والذي لم تخمد جذوته بين الشيوعيين حتى بعد إعلانهم الوحدة . كان لابد للنزلاء المؤقت أن يضطرب كالأخرين في قلب المعمة ، مولياً برأيه حيناً ، ومدافعاً عن وجهة نظره حيناً آخر ، ومنتمصراً لمن ترقى حجه إلى مستوى الاقتناع في كثير من الأحيان

وكأن إنساناً في هذه الدنيا كان له بعض الأصدقاء المقربين إلى قلبه وكان في مقدمتهم ابن النوبة البطل محمد مختار جمعة .. هذا الذي قبض عليه ، ومورست معه أسوأ صور التعذيب البدني بالكي بالنار شهراً كاملاً فلم يضعف . إلى أن بلغ أمره المشير عبد الحكيم عامر فذهب إليه في السجن الحربي ورآه في أسوأ حالات فسأله إن كان له أولاد يريد تربيتهم فأجاب لا أريد تربية أولادى على أشلاء الآخرين !! حينئذ أمر المشير بالكف عن تعذيبه ولما حوكم عسكرياً وصدر عليه الحكم بعشر سنوات قدر المشير بطولته وخفف الحكم إلى عامين اثنين .

كما كان في مقدمتهم كذلك الدكتور محجوب الذي كان يتقن في إدخال السعادة على قلوب الآخرين . وكلا هذين الصديقين تعرض في هذا السجن المفتوح لمحنة تهزه ولم يهتز . أما الأول فقد فقد ولده في بورسعيد عند احتلالها . وأما الآخر فقد فقد شقيقه الضابط الشاب

وكثيراً ما كان هؤلاء الثلاثة يقضون الليل بطوله ساهرين ساخطين على تلك الألوان السقيمة من الصراع ، ومستعنين على الاستمرار في السهر بالبحث عن لقمة هنا ، وكوب شاي هناك وكثيراً ما كانوا ينتهون إلى أن الذي يحدث في هذا المعسكر سوف يؤدي إلى التصفية الكاملة للشيوعيين المصريين . فالكُل عجزت الدولة عن تحقيقه فيهم .. سوف يحققونه بأنفسهم في أنفسهم ، وإلا فما معنى أن تكون لكل هذا الصراع تلك الضراوة والرغبة في الانتقام ؟؟ ليس واضحاً لهؤلاء المتصارعين أنهم جميعاً بين فكي السلطة ، وأن تأثير الصحيح والخاطيء من الآراء لحن يتجاوز تلك البقعة الجرداء التي يعيشون فيها ؟

٧ - درء تهمة الإلحاد :

هذا الاتهام - ومن هنا كان يعتمد إلى لقاء الشيوخ ويسألهم لماذا لا تعظوننا نحن أيضا ؟ فكانوا يصارحونه بأن الشيوعيين ملحدون لا يؤمنون بالاديان السماوية عامة ، ولا بالدين الإسلامى شكل خاص ، وهنا كان يقول لهم : إن الهداة لا يتضح أثرهم إلا من خلال مطاردة الإلحاد بالرأى والمناقشة .. فعليهم أن يستمعوا الآراء المفلوطة ثم بعد ذلك يدحرونها ، ويضعون مكانها الآراء الصائبة . أليس كذلك ؟ فإذا قالوا بلى : بدأ فى عرض رأيه فى تلك المسألة الشائكة ، وكان يقيم أركان رأيه على أساس : أن جوهر الأديان السماوية جميعا هو تحقيق الخير للإنسان وهذا امر لا يمكن الاختلاف عليه . ثم إن الله تعالى لم يجعلها ديناً واحداً من أول الامر وإنما عددها على تعاقب الأزمنة ومقتضيات الأحوال . مراعاة لسنن التطور المحكوم بنواميسه الاجتماعية التى تجعل من المجتمع السابق نطاقاً أضيق من المجتمع اللاحق .. ومن أجل ذلك تفاوتت نسب الخير المقررة فى كل دين ، وأصبحت أقل أو أكثر حسب درجات التطور فى المجتمعات المختلفة .. ومن ثم اختلفت الشرائع الحاكمة لأحوال الناس طبقاً لما انقضاه تغير أحوالهم . وهذا أمر ثان لا يمكن الاختلاف عليه .

فلما جاء الإسلام وهودين الله الخاتم رأينا هذا المفهوم فى التدرج الواضح عند تشريع بعض الأحكام كتحريم الخمر مثلاً .. فهو لم يصدر قراراً بتحريم الخمر مرة واحدة وإنما تدرج إلى التحريم عبر مراحل : أولها ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون .. فإذا ما انتهوا عن الدخول إلى الصلاة وهم سكارى ، واستقروا على هذا الانتهاء رغم إباحة الخمر فى غير أوقات الصلاة جاءت المرحلة الثانية « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما » ، فإذا ما وعوا هذه الحقيقة . وأصبحوا أقل إقبالاً على الخمر بحكم أن فيها إثمًا كبيراً أكبر من نفعها ، واستقروا بعد ذلك على هذا المعنى فهما وسلوكاً أصبح الجوهمياً لإصدار حكم التحريم القاطع .. « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » . بل إن بعض الأحكام التشريعية ثم نسخها بعد تقريرها مراعاة لتغير مقتضيات الأحوال - وذلك من غير شك أمر ثالث لا يمكن الاختلاف عليه

ثم يضرب الإسلام مثله الأعلى فى مراعاة سنن التطور والارتقاء . عندما نراه يقرر بعض الأحكام وهو يعمل على إلغائها ، والمثل الواضح هنا هو « الرق » ، لقد أقر الإسلام نظام الرق والاسترقاق ولم ترد أية من آيات القرآن بتحريم « الرق » ، ولا بالنهى عن الاسترقاق . كما لم يرد حديث شريف أيضاً بهذا التحريم .. ومع ذلك فإنه فتح المنافذ المؤدية إلى إلغائه وتحرير الرقيق ، فالذى يظاهر من زوجه يعتق رقبة ، والذى يقع فى جريمة قتل خطأ يعتق رقبة ، والذى يفطر عامداً فى نهار رمضان يعتق رقبة .. الخ وإذن فإن روح الإسلام مع إلغاء الرق وتحريمه رغم عدم وجود النص القاطع فى ذلك ، ولعل الاستئناس بهذه الروح هو الذى فتح باب التحرير بسبب الاستيلاء والمكاتبة على ما هو مبسوط فى كتب الفقهاء

ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول دون خوف : إن إباحة الرق فى الإسلام كانت إباحة مؤقتة مراعى فيها نوعية الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى تقرر فيها تلك الإباحة فإذا ما تلاحقت التطورات الاجتماعية ، وارتفعت أفهام البشر إلى حد اعتبار الرق سبة فى جبين الإنسانية ، ثم انعقد مؤتمر دولى لتحرير الرقيق ، فإنه من المؤكد أن المسلم المستنير سوف تكون يده أول يد تمتد للتوقيع على وثيقة التحريم المطلق للرقيق ، وهذا أمر رابع لا يمكن الاختلاف عليه

هذه المسلمات عينها يجب أن تحكم تفكيرنا إذا أردنا تحقيق الخير الاقتصادى للناس . ولا يجوز لأحد أن يتهم أحداً بالإلحاد لمجرد تحكيمه لهذه المسلمات فى هذا الجانب . فالإسلام قد فرض فى أموال الأغنياء زكاة سماها

« الحق المعلوم ، لكفالة الفقراء ، وتحقيق المصالح العامة للمجتمع . ومقادير الزكاة مقننة تقنينها فقها بعلوم الشريعة .. ومع ذلك فإن الضرورات الاجتماعية قد تجبرنا على تغيير هذه المقادير المقررة ، وقد يمتد هذا التغيير إلى حد المصادرة الكاملة لهذا المال إذا عرفنا أن ملكيته كانت غصبا ، أو إختلاسا ، أو اقترن بها الاستغلال والظلم للفادح . أو توقف على مصادرتها صلاح حال الأمة .. وعندئذ فإننا نكون مع روح الإسلام الصحيح التى عبر عنها ابن الخطاب قائلا : « إذا جاع المسلمون فلا مال لأحد » !!
وعلى ذلك فإن التحصن بإباحة الملكية الخاصة مطلقا ، كالتحصن بإباحة الاسترقاق مطلقا أمر بين الخطأ ، ولا يدل إلا على التحيز لجانب الأغنياء ولو مات الفقراء من شدة الجوع ، وهذا هو السر فى اتهام الشيوعيين بالإلحاد .. أو يكون المرء ملحدا لأنه يطلب حق المستضعفين من الأقوياء ؟ وكيف يكون الحال لو استمرت الأمور على ما هى عليه من تركيز الثروات فى أيدي القلة بينما الأغلبية الساحقة لاتجد القوت ؟ أيقود ذلك إلى السلم والسلام فى المجتمع ؟ إنكم بهذا المقياس يجب أن تقولوا بإلحاد عبد الناصر الذى صادر أملاك الاسرة التى كانت مالكة فى مصر ؟ فهل تقولون ؟

وفى كل مرة كان النزول المؤقت ، يدلى بهذا المنطق أو شبهه كان الشيوخ يعلنون موافقتهم على تلك الأساسيات من فهمه لجوهر الأديان لكن بعضهم كان يسأل عن قضية الاعتقاد فى الغيب ، وموقف الماركسية منها . وعندئذ فإنه كان يجب بأن قضية الغيب وما وراء الغيب قضية لا يؤمن بها الفلاسفة الوضعيون والماديون على اختلاف مدارسهم . وهى قضية صراع أزلى دائم بين الفلاسفة والمفكرين من أقدم العصور . ويتصدى لمناقشة هذه القضية مع هؤلاء المفكرين للغيب معسكر بأكمله من المثاليين .. ومن المؤكد أن الله تعالى يريد لهذه القضية أن تظل هكذا موضع خلاف فكرى إلى أن تقوم الساعة . ذلك لأن الغيب يُصَدَّق بالإيمان ولا يحقق بالبحث .. وسوف يظل للإيمان أهله وللبحث طرده وعظه .. ولكن انذى يمكن حسمه هو هذا الجانب العملى الذى يمكن تحديده بالإجابة عن هذا السؤال إلى جانب من يجب أن يقف المسلم الغنى الجائر أم الفقير الجائر : من هو الذى يقف مع روح وجوهر الاسلام والأديان السماوية كلها ذاك الذى يحارب الظالمين ، أم ذاك الذى يحارب المستذلين ؟ وغالبا ما كان الحرج يعقد اللسنة فلا تجيب عن تلك التساؤلات .

٨ - صراع ما بعد الوحدة

ولما أسفر الصراع فى داخل اليسار المصرى عن توحيد كل فصائله الرئيسية فى مصر بإعلان حزب ٨ يناير سنة ١٩٥٨ ، تقاطل أصحاب النوايا الطيبة ، وتصورا أن عهدا جديدا قد بدأت تظهر شمس على أفق النضال المصرى من أجل استكمال الاستقلال ، والتفرغ التام لتحقيق كل أهداف الكفاح الوطنى . وبخاصة بعد أن تحررت البلاد سياسيا باستقاط معاهدة الجلاء منذ لول يناير سنة ١٩٥٧ ، وبتحصيل البنوك والشركات الاستعمارية التقليدية . لكن عُقد الانقسامات الطويلة ، والعداوات القديمة بين الفصائل الماركسية والوطنية ظلت هى المناخ المسيطر على المواقف المختلفة : فعبد الناصر وحكومته لم يحدوا عن خط تصفية اليسار بكافة أشكاله ، وعمروا بعد الوحدة الى استباق القرارات التى سوف يصدرها الحزب الشيوعى ببعض المطالب الجماهيرية والإعلان عن اتجاه الحكومة إلى اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتحقيقها قبل أن تنزل مطبوعات الحزب المطالبة بها . كما عمدوا إلى إجراء بعض أنواع الحوار مع قادة الحزب من أجل إنهاء وجوده .. أما اليساريون أنفسهم فإنهم - رغم وحدتهم - ظلوا على ما كانوا عليه . من روح التربص والانقسام ، فكل فصيلة لا ترضى بغير السيادة على بقية الفصائل الأخرى ، ومن ثم كان السائد بينهم ليس الاتجاه إلى تدعيم الوحدة ، وإنما الاتجاه إلى هدمها !! وبلغ الصراع ذروته وبخاصة فى السجن المفتوح بحناح . وانتهى الأمر إلى الانقسام من جديد

وهكذا استمر تمزيق الصفوف هو القانون السائد الذى يحكم سلوك السلطة تجاه اليسار ، وسلوك اليساريين تجاه بعضهم البعض .

ولم يكف النزيل « المؤقت » يتنفس الصعداء بإعلان الوحدة ، حتى دخل معمعة الصراع الضارى ، ولم يعد أحد يراه إلا منحازا إلى رأى دون آخر ، وكان عليه أن يكرر كل ما كان يمارسه فى القديم . مع زيادة أن الصراع الانقسامى قد تدعت مراكزه فى داخل كل من التنظيميين اللذين آل إليهما الانقسام .

وكان إذا اختلى إلى نفسه تملكه السأم والملل ، والألم . ولم يكن يخفف عنه سوى تلك الخطابات التى كانت تصل إليه من خطيبته نزيله سجن النساء . لقد كانت هى الأخرى تخوض معركة الصراع مع زميلاتها هناك . لكنها - وبالرغم من ذلك - كانت تشد قلبه بعيدا عن لهيب السياسة ، وجفاف الصحراء المجذبة ، وتجنح به إلى الترطيب العاطفى ، والحنان المخلص . فيهرب من لأواء الصراع إلى واحة الشعر الوارفة الظلال ؛ فقد كانت خطيبته خصبة القلب والروح . مملوءة بالحب والإنسانية والإلهام ، وكان يرى من خلال خطاباتها إليه كل ألوان البهجة والأمل السعيد .

كتب إليها ذات مرة يقول : القمر فى الصحراء غير القمر فى المدينة ، وكلمة الحب الندية التى تبعثين بها فى كل خطاب أقرؤه لها مذاق خاص تحت ضوء هذا القمر الذى اجلس إليه وحدى الآن بعيدا عن ضوضاء التصارعين والمتطاحنين من عشاق طواحين الهواء .. إننى الآن أسمع صوتك العذب الرقيق رغم آلاف الكيلومترات التى تفصل بيننا ، ولا أكاد أرى غير نور وجهك الذى تحجبه جدران السجن الصماء . إن صوتك بين فى أذنى رنين صوت هذا الكروان الصحراوى الذى يفرد الآن . كما أن صورة وجهك تتألق أمامى فى قرص هذا القمر الذى يطيل النظر إلى وأطيل النظر إليه .

أتمنى أن تكونى الآن مثل فى نشوة لقاء حقيقى بين حبيبين تعاهدا على ألا يفترقا ولو حتى بالموت .

٩ - فى سجن المحاريق

بعد قرابة العامين فى سجن « جناح » المفتوح ، ثم نقل كل المسجونين السياسيين إلى سجن آخر فى الصحراء ، وكان هذا السجن يتميز عن سابقه بأنه مسور بسور عال تعلوه الأسلاك الشائكة المشدودة على دعائم الحديد ، وكان يضم ثلاثة عنابر ، ومبنى للإدارة ، وآخر للمرافق والمخازن ، وقد بنته الدولة خصيصا لهؤلاء السجناء الخطيرين ، وكيف لا تفعل ذلك وقد اتخذ الإنجليز من المحاريق منفى لخصومهم من الوطنيين المصريين فى الماضى ؟

أصبح المسجونون فى هذا السجن الجديد محكومين بالجدران ، والأبواب ذات القضبان ، وصار سهلا على إدارة السجن فرض أساليب القهر عليهم أكثر من السابق . وهكذا بدأت مرحلة جديدة من المعاناة ، التى لم تستطع أن تقتل روح المقاومة عند الشيوعيين ؛ فعلى الرغم من الأبواب والأسوار والحراس المدججين بالسلح . كانت هناك الاجتماعات السياسية الواسعة والمحدودة والمناقشات المستفيضة والمختصرة ، والصحف والمؤلفات المحلية والعالمية ، إلى جانب الفصول الخاصة بتعليم اللغات ، والتوفر على ممارسة الفنون الجميلة من رسم ونحت وتمثيل . نعم . فقد كانت كل نتاجات الفكر والثقافة فى شتى أرجاء المعمورة ترد مهربة بمختلف الوسائل إلى داخل الزنازين التى يحبس فيها الشيوعيون فى سجن المحاريق . وفى هذه الظروف الجديدة بهذا السجن الجديد تلقى السجناء أخبار « ثورة العراق » ، التى قادها عبد الكريم قاسم واضطلع فى نجاحها الشيوعيون العراقيون بدور بالغ الأهمية ، كما تلقوا أخبار وحدة مصر وسوريا . ونجاح ثورة الجزائر ، واليمن ، وغيرها من الانتصارات الراقعة التى أحرزتها الثورة العربية . كما تلقوا أخبار الانتكاسات والإحباطات التى وقعت بعد ذلك متمثلة فى الإنقسامات ضد ثورة العراق ، والحرب الصليبية التى شنها عبد الناصر ضد الشيوعيين ، والانتفاض على الوحدة المصرية السورية الخ

وكانوا على عهدهم مع جميع تلك التطورات في غاية الإيجابية . يدلون برأيهم عبر القنوات الرسمية مع كل حدث ويحاولون إقناع عبد الناصر بوجهة نظرهم في تحليل الأحداث الواقعة ، كما كانوا يقومون بتهريب آرائهم إلى الصحف والمجلات العالمية . كل ذلك من أجل التأثير بقدر ما يستطيعون في مجرى الأحداث ومن العجيب أنهم عند رصد الأحداث من أجل تحليلها كانوا يرجعون الانتصارات دائما إلى الجهود الموحدة التي حققتها ، كما كانوا يرجعون الانتكاسات والإحباطات دائما إلى التمزقات والاختلافات . ومع ذلك فإنهم لم يكونوا قادرين على توحيد أنفسهم !!

ولقد كان النزيل « المؤقت » في أعماق نفسه يشعر بهذا التناقض الغريب عند تحليل كل حدث من هذه الأحداث الكبار . فهو كما تعلم لا يستطيع أن يقتنع بأن فاقد الشيء يمكنه أن يعطيه ، ومن هنا فإنه كان يقول : لو تحدثنا نحن لأمكنا صنع التوحيد في كل مصر .

١٠ - عملية الإجهاض

ومع نهاية عام ١٩٥٨ ، وبداية عام ١٩٥٩ اطل قرن « الشيطان » على أمة العرب ، فاكتملت موجة غلبة من التشنج ، وعلى الأخص في مصر . وكان المركز الذي ارتكز عليه المنشجون هو الدور الواضح للشيوعيين في ثورة العراق لم يرض هذا الدور كل أعداء الشيوعية في العالم ، فاتخذوا منه وسيلة لإثارة الخوف عند بعض فصائل الحركة الوطنية العربية ، وأغرت هذه الفصائل بالإلتحام مع الشيوعيين في معركة يكون هدفها تمزيق وحدة الوطنيين العرب ، واستجابت بالفعل تلك الفصائل لهذا الاغراء فاندفعت الأحداث الدامية تسيطر أخبارها على وسائل الإعلام في مصر ، ونزل رئيس الجمهورية بنفسه إلى الساحة المشتعلة بالهيب ، فأخذ يضرب بكل قوته في الشيوعية والشيوعيين . واندفعت وراءه كل القوى المعادية للشيوعية في كل من مصر وسوريا والعراق ، وانطلقت أبواق الدعاية المشبوهة كالكلاب المسعورة ، وتعرض الشيوعيون في ذلك الوقت لعمليات التصفية الجسدية في أكثر من مكان . واحتفلت حكومة مصر في ليلة عيد الميلاد بتجريد حملة شديدة للقبض على الوطنيين والاشتراكيين وأنصار السلام الشرفاء .

ولم يقتصر أثر ذلك على المحيطين الداخلي والعربي ، وإنما امتد إلى المحيط العالمي ، فساعت العلاقات مع المعسكر الاشتراكي ، وتعرضت إذاعاتها وقادتها للشتم والاعتراءات .

وظلت عمليات التعذيب الوحشية في كل من معتقل الفيوم ، وأبو زعبل ، والوحدات الخارجة مستمرة عدة شهور طويلة ، تعرض فيها الشيوعيون لآلوان من التنكيل لا يشبهها إلا عمليات الحزب النازي في عهد هتلر !! كانوا يتلقون بالضرب بالعصى الغليظة من لحظة دخولهم إلى المعتقل إلى ساعات النوم كل يوم .. وكانت الأسباب اللازمة لتبرير الضرب تحت الطلب دائما فإذا سئل المعتقل عن اسمه كان ذلك مبررا للضرب . وإذا نطق باسمه بصوت منخفض قيل له ارفع صوتك بالضرب ، وإذا رفع صوته قيل له كيف تعلو صوتك ؟ بالضرب ، وإذا سكوت قيل له انطق بالضرب وإذا مشى بطيئا ضرب ليسرع ، وإذا أسرع ضرب ليبطئ وهكذا .. مما لا يستطاع سرده اشفاقا على أعصاب القراء واستمر الحال هكذا إلى أن قتل المناضل المعروف شهدي عطيه الشافعي الذي سبقه الكثيرون من القتلى وضحايا التعذيب !!

ولقد شهد النزيل « المؤقت » صورا من العنف الارهابي في سجن المحاريق كان يقودها ويشرف على تنفيذها جنرالات كبار يحضرون من القاهرة خصيصا لممارسة هوايتهم في تنظيم الضرب الجماعي والتكدير بالجملة . كما شهد تنفيذ السياسة المرسومة للإللال والإرهاق المعنوي والبدني ، وكانت العناصر الفعالة في تلك السياسة تتمثل في تجريد النزلاء من ممتلكاتهم الهزيلة ، وإضرام النار فيها إلى جانب تجويعهم ومنع الدواء عن مرضاهم أو المصابين منهم بجراح ورضوض

التعذيب بالإضافة إلى تكليفهم أعمال السخرة الانتقامية وهم حفاة .

كما شهد النزير « المؤقت » مهزلة استعراض البطولة في لحظات التعذيب ، فهذا الجنرال الكبير الذى يتخذ موقعه على كرسى مريح خارج بوابة السجن . ويأمر ضباطه بصف الجنود صفين متوازيين من نقطة تبدأ عن الجنرال ، وتنتهى بباب عنبر المعتقلين بطول مائتى متر ، وفى يد كل جندي « شومته » وبين الجندي والجندي مسافة لا تزيد عن مترين اثنين ثم فى عسكرية معتزة بقوتها يأمر الجنرال بصوت عال : هاتوهم واحد واحد !! وفى عسكرية منضبطة يتم تنفيذ الخطة على النحو التالى -

يخرج المعتقل بعد المناداة عليه ليجد نفسه محاطا بصفيين من الجنود « البواسل » كلهم يهوى عليه بشومته وهو يجرى إلى أن يصل إلى مركز « القيادة » فيؤمر بخلع ملابسه لكي يضرب عاريا أمام « الجنرال » ثم يؤمر بخطف قطعتين من ملابس السجن المكومة فى كومتين إلى جوار مركز الجنرالية .. كومة للسرراويل وأخرى للسترات وبعد اختطاف الملابس يؤمر بالجرى راجعا وهو عريان لكي يتم اكمال تعذيبه حتى يصل عنبره وقد ظفر بأكبر حظ من الضربات . وسالت دماؤه من أكثر من مكان فى جسده .. وهكذا ينادى على غيره ثم غيره لساعات طويلة وكأنما هذا الجنرال يتلذذ برؤية التعذيب . أو يتصور أنه يقود معركة حربية سوف يخلدها التاريخ !!

ولقد رأى النزير « المؤقت » أثناء حملات التعذيب البربرية من صور البطولة مالا يمكن أن ينسى .. هؤلاء الذين لا بطاطنون رموسهم أمام الجنرال ويهتفون بسقوطه وهم يضربون . وأولئك الذين يلتفتون للضباط منهم فيقومون بالعمل عنهم لكي يتحملوا هم الضرب . هؤلاء الذين يوفرون طعامهم القليل لإخوانهم المنفوسين من الطعام . والابطال الذين رفضوا الاتصياح للجلادين فلم يستنكروا مبادئهم رغم قسوة المحنة .. كل هذه النماذج المصرية المشرفة كانت موضع إعجاب الجلادين أنفسهم ، ولقد ظهر هذا الإعجاب فى أكثر من موقف . بل إن هذا الإعجاب قد عبر عن نفسه بانسياب الدموع فى بعض اللحظات من عيون كبار الضباط . الموكل إليهم أمر التعذيب .

ومن عجب أن هذه الصور النادرة من البطولة . تلك التى كانت تنال تقدير الجلادين وإعجابهم كان أصحابها يهدرون قيمتها عمليا عندما تطفئ عليهم نزعات الإنقسام والإمعان فى حماقات العداوة الفكرية أو السياسية لنفس رفاق الطريق الأقوياء

١١ - الاستمرار فى خطة التصنيفية ..

وبفضل الجهود الدبلوماسية التى بذلت بكل الإصرار والدأب تبصيرا بعواقب الأمور .. طرا نوع من الهدوء النفسى على الموقف فى مصر . وبخاصة بعد استشهاد شهيدى عطية الشافعى بليمان أبى زعبل . لكن سياسة تصنيفية الشيوعيين لم تتوقف ، وإنما اتخذت صورة جديدة . هى الإغراء بالإفراج عن العناصر الضعيفة ، وتقديم النكير على العناصر الصامدة ، وكانت العناصر الصامدة فى « المحاريق » قد عازمت على صمودها ، ورتبت نفسها على الاستمرار فى الاعتقال مهما طال أمده . ومن ثم أنشأت مزرعة كبير على مقربة من مبنى السجن ، وظهرت أصر الحصول على الخضروات الطازجة منها بشكل دائم ، ولم تشأ أن ترفع راية التسليم بالذى كانت تروده السلطات منها . وهوات على عمليات الفضح والمقاومة لكل المعاملات غير القانونية التى تتعرض لها .

وكان لا يزال للحزب الشيوعى المصرى بقاؤه خارج الاسوار ، فكان يلعب دوره فى عملية الدفاع عن الواقعين تحت ضغوط التصنيفية خلف جدران السجون

**واكتفاء تلك المظلمة البطولية لاخطار التصفية تعددت وجهات النظر من جديد في تحديد هوية السلطة . فالذين
نظروا إلى عدوانية وحراسة السياسة المتبعة ضد الشيوعية والشيوعيين رأوا فيها سلطة لكبار الراسماليين
والاحتكاريين في مصر !! ورأوا في تصديدها لمحاربة الشيوعية على النطاق العربي رغبة في أن تكون الاحتكارية
المصرية هي المسيطرة على السوق العربي . أما الذين نظروا إلى المواقف الوطنية المتوالية ضد الاستعمار فإنهم لم
يظفروا جانب العدوانية على الشيوعيين . وقالوا إنها سلطة البرجوازية الوطنية ذات الطبيعة المزدوجة . الخ وهم
الجميع قرأنهم كل يدافع من وجهة نظره محاولا تسويدها وجعلها ملزمة للآخرين .. ولكن هيهات !! لظول البعد عن
لحي الواقع لا يعطى فرصة للتصور الصحيح .**

واستمرت التصفية على طريقة الإغراء للمستنكرين بالإفراج عنهم . وتشديد النكير على الصامدين بالإبقاء عليهم
خلف جدران السجون . إلى أن حان موعد الإفراج عن النزيل « الموقوت » ، وكان ذلك في يوم ٦ فبراير سنة ١٩٦١ . إنه اليوم
انتهى عقوبة الأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات .. ومن حقه الإفراج عنه طبقا لأحكام القانون . لكن الذي حدث هو ترحيله
إلى مبنى المباحث العامة . وهناك تمت محاصرته ومحاولة الإجهاز على معنوياته بطلب دفع مقابل للإفراج عنه . وكان المقابل
المطلوب هو التعهد بعدم الاشتغال بالسياسة مستقبلا ، وإلا فإنه سوف يعود من حيث أتى . قال لهم إن ذلك ليس من
حقكم . وقرر أن الاشتغال بالسياسة حق كل مواطن بالطبيعة ، وذكر لهم أن بعض المفكرين عرفوا الإنسان بأنه حيوان
سياسي . وأنه هو شخصيا اشتغل بالسياسة منذ كان فتى يافعا حديث السن والخبرة بالحياة . ومن غير الممكن أن يقلع عما
تعوده كل هذا العمر الطويل .

عندئذ أصروا على استخدام الضغط عليه أولا بالتشفي فيه فأبلغوه أن خطيبته قد تزوجت من شخص آخر بعد
الاقراج عنها . فلما ظهر لهم عدم اهتمامه بهذا الأمر لجئوا إلى التلويح له بحاجة والديه المرهقين صحيا إليه . وبدأ عليه
أيضا عدم الاهتمام ؛ فأحالوه إلى قسم السيدة زينب وتركوه هناك رثيما يتم استخدام كل أساليب الضغط معه . وفي قسم
السيدة زينب جامعوه بالديه بيكيان ويطلبان منه كتابة التعهد ليخرج . فافهمهما أن المسألة ليس مسألة تعهد . وإنما هي
محاولة لإجباره على الخيانة .. خيانة الضمير ، والزلاء ، وكل القيم الفاضلة . عندئذ انصرفا عنه وقالت له أمه لا تفعل ذلك
يلولدى ولك الله .

ودامت المساومة أياما طويلة ، فلما تأكد لهم أنه لن يخضع أعادوه ثانية إلى « المحاريق » ، وكانت هناك محطة يتم
الترحيل منها هي سجن القلعة بالقاهرة . وفي هذه المحطة التقى بزميل آخر كان له نفس الموقف كما التقى بابو سيف
يوسف الذى قبض عليه حديثا ، والذى كان يقوم بقيادة الحزب في الخارج
وبعد أيام قليلة في سجن القلعة عاد إلى « المحاريق » من جديد ، عاد لينهى إلى زملائه كل ما حدث معه . ولبيؤكد لهم
إن سياسة الدولة هي الإصرار على التصفية ، وإن كل المقاومات التى لجأنا إليها لن تفيد ، ولابد من البحث عن طرق أخرى
للمقاومة .

وفي تصوير موقفه من المساومة والضغط الذى رفض الخضوع إليه انشددهم زجليته التى كتبها من واقع انفعاله بهذا
السلوك اللا إنسانى الذى اتبعه معه رجال الأمن « الاعزاء » .

وانسمة عصر ماشيه في مصر من غير قيده بتمخطر مع قلوب المراكبية
ما بين شطين وزرع اخضر ، وزهر جميل زاهى منور وناس رايحة وناس جاية
أنا زيك هنا نسمة لكن محبوس بقى لى سنين ورا قضبان مصدية
ونفسى أعيش هناك عندك ، وأتمخطر كده زيك واشوف الدنيا بعنيه

لكين ازاي ؟ قولى لى ازاي يانسمة عصر ؟
 قولى لى ازاي ؟ وزنزانتى لها بواب بالفين ناب وعين صفرة مابتتمشى
 قولى لى ازاي وفيه خطاف فى باب السجن متقسم ومتصدر كداف وشى ؟
 عايز يخطف سواد عيني عايز يخطف بياض قلبى عايز حاجات مابتهموشى
 عايز شر فى كمان راخر عايزنى ادوس بدون إحساس على عشى
 ويفضل إيه من الدنيا لو انا خدت كتوز عمرى وفيه أقعد وفيه أمشى - ؟
 واعيش ازاي ، قولى لى ازاي يا نسمة عصر ؟
 يا نسمة عصر أنا قلبى صحيح محروم ومجروح ومكوى بنار
 عشان أمى اللى ولدتنى وعايزه تشوفنى موشى قادره وليلها نهار
 عشان والدى اللى موشى قادر ولا بعكازه يتمشى ولا بيشوف ولا بيسمع وعقله طار
 لكن برضه الشرف غالى مايبهونش ومر المرطعم العار
 ولازم برضه استحمل . وح استحمل يانسمة عصر ..

١٢ - الإضراب عن الطعام

وفى أوائل يوليو سنة ١٩٦١ وبعد ترتيب خاص بمقتضاء تحدث أكبر إثارة ممكنة على جميع المستويات المحلية والعالمية ، تقرر الدخول فى معركة إضراب عن الطعام ، وبدأ المعركة بأربعة فقط من النزلاء كان من بينهم النزلاء « المؤقت » ، وتم عزله فى غرفة خاصة بهم ، وحاولت إدارة السجن اقناعهم بالعدول عن الإضراب ولكنهم رفضوا بعد أن قدموا قائمة بمطالبهم . وبعد يومين انضم إلى المضربين عدد آخر . وبعد يومين آخرين انضم إلى المضربين عدد ثالث .. وهكذا حتى بلغ عدد المضربين أكثر من مائة . وتلاقت مع هذا الإضراب عن الطعام موجة من الإثارة قام بها الأهالى والكثيرون من المدافعين عن الحريات .. فإنعكس أثر ذلك على جو سجن المحاربين أرسلت الدولة من القاهرة تعزيزات كبيرة للقوات المكلفة بالحراسة ، وضاعفت من تسليح هذه القوات ، وزرعتها فى كل شبر من الأفنية ، وفوق الأسوار .. وكان يخلل للرأى أن هناك معركة حربية وشيكة .

واستمر الإضراب سبعة عشر يوما سقط فيها أكثر من واحد من شدة الإعياء ونقلوا إلى مستشفى الخارجة وفى اليوم السابع عشر وفى حوالى السادسة مساء تم إبلاغ المضربين أن مندوبين من أعلى مستويات الدولة يريدون أن يحققوا أسباب الإضراب والمطالب الذى يطلبها المضربون ..

وجملت النزلاء « المؤقت » قدماء على إعياء إلى مدخل العنبر - وشهد العشرات من الضباط والرتب الكبيرة ، وبعضاً من أعضاء نيابة أمن الدولة يجلسون فى صدر المدخل ، وقد تسلطت على الجميع أضواء إضافية غير معتادة . بينما جلس عدد من المضربين حفاة الأقدام ، هزيلة الأجسام ، غائري العين . مرسل اللعى والشوارب فى ملابس السجن الرثة . وبدأ أعجب حوار تتجلى فيه قوة الإنسان عندما يتحول إلى إرادة مجردة من أى غرض حتى ولو كان هذا الغرض لقمة من العيش . وكان المحاورون من المضربين يستعملون لغة القوة فيقولون ، نحن نرفض التدخل الفظ فى عقائد الناس ، وترفض الوسائل غير الإنسانية التى تستعملها السلطات مع خصومها السياسيين . نحن ندين كل صور الخروج على القانون فى معاملة السياسيين بعمامة والشيوعيين بشكل خاص .. نحن .. نحن الخ وفى نهاية الحوار كتبت الطالب فى المحضر الرسم الذى باشرته النيابة ، وقيل إنها ستحملها إلى رئاسة الجمهورية .. وستلقى كل العطف والتقدير ..

١٣ - الإجراءات الاشتراكية

وانتهى الإضراب عند هذا الحد وفى سبيل يوم الذى تلا إنهاء الإضراب أعلن عبد الناصر عددا من الإجراءات « الاشتراكية » بواسطتها تم تأمين البنوك والشركات الرأسمالية فى مصر . وعندئذ بدأ لنزلاء سجن المحاربين من الشيوعيين أن أبعدا جديدة للعمل الوطنى قد أخذت تتضح .. وكما هى العادة بدأت المناقشات تكشف عن انقسام فى الرأى .. فالبعض رأى فى هذه الإجراءات أنها نوع من رأسمالية الدولة « الاحتكارية » والبعض رأى أنها تعبير عن جناح اشتراكى فى السلطة .. والبعض رأى أنها إجراءات متقدمة تقوم بها البورجوازية الوطنية ذات الطبيعة المزدوجة . واقترب باتخاذ هذه الإجراءات عدد من المواقف الوطنية الهامة . فلقد ألقت مصر بثقلها إلى جانب القوى الوطنية فى الكونفدرال دفاعا عن وحدة أراضيها .. وفعلت وتعمل نفس الشيء مع ثورة الجزائر فى صراعها ضد فرنسا . ومن أجل ذلك علمت إلى الأذهان أيام ما قبل سنة ١٩٥٩ وأصبحت هناك إمكانية للتراجع عن سياسة التصفية فى نظر البعض على الأقل ، ذلك لأن رفع راية الاشتراكية بإجراءات يوليو تقتضى التعاون مع الاشتراكيين الحقيقيين الذين رفعوا شعارات الاشتراكية قبل كل الناس فى مصر . لكن عبد الناصر لم يتراجع عن سياسة التصفية !!

وانكسار الشيوعيين يتصارعون فيما بينهم حول دلالة الإجراءات الأخيرة ، والنتائج السياسية التى سوف تقترب عليها

وكان من الواضح أن هذه الإجراءات قد أضافت إلى أعداء الثورة عددا من الفئات ، فأخذوا يتربصون بها ، ويتحينون الفرص للانقضاض عليها ، وبالفعل قام بعض تلك الفئات ممثلين فى قادة دمشق العسكريين بانقلاب ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ . وانهارت دولة الوحدة . وانهارت بانهيائها مكانة عبد الناصر فى نظر الكثيرين من أعدائه وأصدقائه على السواء .. فبادرت إسرائيل بالتهديد العسكرى لقطع الطريق على أى تراجع إلى دولة الوحدة من جديد ، وكثفت تركيا حشودها على الحدود السورية ، وتدفقت الأموال لشراء ولاء القبائل السورية . الخ .

مرة أخرى كان من المفروض أن يعنى الرئيس الدرس وأن يعيد حساباته بحيث يعرف من هم الأعداء ومن هم الأصدقاء ولكن هيهات ، فلقد انعقد عزمه على الجمود حيث هو منذ سنوات طوال . البلد بلده ، والأمر أمره ، وهو لا يثق إلا فى حواريه وأتباعه

صحيح أنه حاول فيما بعد أن تكون له جبهة واسعة ، من خلال المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى العربى ، وصحيح أنه قدم فى هذا المؤتمر نظريته المعروفة فى صورة الميثاق الوطنى الذى اجتهد فيه لكى يكون معبرا عن المصالح المستقبلية للشعب المصرى .. بيد أن هذه المحاولة لم تثمر ولم يكن لها أى حصاد على الإطلاق ، فالمتسلقون والمتنقون بالسلطة قد تظاهروا بالالتفاف حول الميثاق . بينما هم فى الحقيقة كانوا يقومون بعمليات تخريب منظمة ضد الثورة .

وهكذا استمر فنزلاء المحاربين يعانون بينما استمر عبد الناصر ضاغطا عليهم ، ومنصرفا إلى تحقيق طموحاته حتى جاء يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٦٢ وأذاع راديو صنعاء إعلان مجلس قيادة الثورة برئاسة عبد الله السلال قيام الجمهورية العربية اليمنية . وخلال ساعات اعترفت مصر بالنظام الجديد ، وحذرت القوى الأجنبية من التدخل ضد ثورة اليمن . ولم تلبث هذه الجبهة الجديدة للعمل الناصرى أن استحوذت على الاهتمام البالغ من كل القوى ذات المصالح فى المنطقة ولدة خمس سنوات كاملة ، وكانت من قبل أحداث ثورة الجزائر التى اختارت للجزائر بمقتضاها طريق الاستقلال منذ يوليو سنة ١٩٦٢ . قد ردت بعض الاعتبار لعبد الناصر بعد انهيار دولة الوحدة .

كان التصور الناصري أن مساندة ثورة اليمن سوف ينتهي إلى ما انتهت إليه مساندة ثورة الجزائر ، بمعنى أن تقتصر تلك المساندة على الدعم السياسى لها إلى أن يتولى رجالها تأمينها ، وإخضاع كل البلاد لنفوذها .. لكن الجيش اليمنى قد انهزل ، وفرد البدر ، من صنعاء ، ولم تعد الثورة اليمينية قادرة على حكم اليمن دون سند من القوات المسلحة المصرية .. ومن ثم تورط عبد الناصر وأرسل قوات إلى اليمن أعلن عنها في ١٥ ديسمبر سنة ١٩٦٢ بالاستناد إلى معاهدة دفاع مشترك كان قد تم توقيعها بين مصر واليمن قبل شهرين من هذا الإعلان . ويردود الفعل لتطورات القتال كان يتم دعم القوات العسكرية بقوات جديدة دائما ، كما كان يتم إمدادها بالمال والسلاح . وظلت الحرب دائرية ولم تستطع الثورة اليمينية استئصال شافة الملكين الذين كانوا يخضعون لهم نصف البلاد حتى جاء عام ١٩٦٥ الذى اجتمع فيه عبد الناصر وفيصل ووقعوا اتفاقية « جدة » وحدد الحل في الرجوع إلى شعب اليمن لتقرير ما يرضيه في استفتاء يجرى في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٦ .

ولحظ النزول « المؤقت » فيما بعد من متابعة الأحداث في اليمن أنه في نهاية مارس سنة ١٩٦٤ ضربت بريطانيا منطقة « حريب » في شرق اليمن . واعتبرت مصر أن هذه العملية موجهة لها ، فرد عبد الناصر على هذا الحدث الخطير بقراره مساعدة الشعب العربى في الجنوب المحتل .. وحينئذ سأل نفسه من أين لعبد الناصر كل هذه الاموال والأسلحة التى يشهرها في وجه الاستعمار في كل مكان ؟ وكان من المؤكد أن لتعاونه مع بلدان الاشتراكية أثره الواضح في إقداره على دوره الذى يقوم به في جميع الأرجاء

١٤ - افراج بالجملة :

وفي الرابع من ابريل سنة ١٩٦٤ تم الافراج عن جميع المعتقلين والمسجونين الشيوعيين في مصر ، وكان ذلك لمناسبة قدوم خروشوف الذى حضر لافتتاح المرحلة الاولى من السد العالى .

وخرج النزول « المؤقت » في هذا اليوم ، ضمن من خرجوا وعاد إلى أهله بعد غياب دام أحد عشر عاما بالكمال والتمام عاد سعيدا مغتبطا لأنه لم يحزن رأسه ، ولم يرضخ لكل محاولات الضغط عليه ، واجتمع إليه الناس ليهنئوه ، وبكل الشوق إليهم أخذ يحدثهم ويحدثهم ، ويحدثهم وهم مبهورون بأحاديثه . واستمرت تلك التهانى الفامرة أكثر من اسبوع الامر الذى أزعج دوائر الامن فاستدعته وطلبت منه الامتناع عن مقابلة الناس والتحدث إليهم . وكان رده أن طلب منهم إقامة نقاط مسلحة في مدخل القرية من جميع الجهات لكي تقوم هى بمنع القادمين كما تشاء ، وبين لهم أنه ليس في قدرته مصادرة المشاعر التى تغمره بالحب والامل .. ثم نعى عليهم هذا التخلف الفكرى في فهم معنى « الامن » الذى يجب أن يكون مواكبا للتطورات السياسية الراهنة .. وقال لهم إن معنى الامن اليوم مرتبط بمعنى الفرحة التى تغمر القلوب الظامنة إلى احبابها الذين كانوا غائبين عنها في غياب السجون .. وهذا هو الامن المستنير الواعى بحقائق الأمور . أما امن التربص والترصد ، والخوف من التقدميين فذاك امن الامس الذى نرجوا لا يعود .. امن المعتقلات والسجون .. وليس امن الافراج والانفراج والإقبال على إطلاق الحريات .

وتظاهرة القيادات الامنية بالاعتناع بهذا المنطق ، ولم تستطع الممارسة في صحته ، فمصر اليوم في مهرجان الاستقبالات الشعبية الصاخبة لزعيم الشيوعية العالمية ، الرفيق خروشوف ، الشيوعيون الغائبون عن الساحة قد عادوا من المنافي والمعتقلات . وكل ذلك من إجراءات السياسة العليا للبلاد ..

ولما رجع إلى قريته فكر في الامر .. وقال لنفسه إن المتاعب لا تزال تتعقبنا ، ولعل أهونها تلك المتاعب الامنية التى لم تستوعب مصادرها تلك الظروف الجديدة التى تمر بها البلاد . وأوهم نفسه بأن القيادة السياسية سوف تتكفل بتبديد تلك المتاعب إذا أرادت أن تجعل لهذا الافراج مضمونا سياسيا ذا بيل ..

١٥ - زراعة الألغام

لكنه اكتشف بعد ذلك ، أن سلطات الأمن ، وقادة الاتحاد الاشتراكي العربى فى الإقليم يسبون فى خط واحد هو خط زرع الألغام فى طريق العائدين من المنايا ، فكلهم كانوا يتظاهرون بالقبول لمبدأ التعاون معهم ، ولكنهم كانوا ينطوون على الحقد الدفين ، والرغبات الشريرة ضدهم . وظن فى أول الأمر أن مرجع ذلك هو القصور المحلى فى فهم الاتجاه العام للدولة ، فالتقى بالعديدين من زملاء رحلته الشاقة ، ورأى أنهم يعانون من نفس الذى يعانى منه .. والتقى ذلك الضوء على أن من بيدهم الأمر لا يضمرون للاشتراكى إلا كل ألوان العداة ، ومن أجل ذلك فإنهم يخشون لو تمكن الاشتراكيون الحقيقيون من العمل السياسى المؤثر . ويحرصون على بث الألغام أمام كل منهم حتى يقطعوا عليه الطريق .

وكان من المفهوم أن سياسة زرع الألغام ليست بعيدة عن إرادة القيادة المطلقة للرئيس عبد الناصر .. ومن ثم كن على الشيوعيين أن يختاروا بين العمل السياسى المستقل فى مواجهة الإتحاد الاشتراكي وبالرغم منه ، وبين أن ينضموا إلى الإتحاد الاشتراكي ليعملوا من داخله .. وكان الاختيار الذى أثروه هو إعلان حل منابرهم المستقلة ، ورغبتهم الانضمام إلى الإتحاد الاشتراكي العربى للكفاح من خلاله . وكان ذلك فى حد ذاته قبولاً لمبدأ التصفية التى دفعوا أغلى سنوات أعمارهم فى سبيل هزيمته

وبعد قرار الحل وقف كل الشيوعيين على باب الإتحاد الاشتراكي يطرقونه فلم يستمع إليهم أحد ، ولم يتم قبول بعضهم إلا من خلال بعض الشروط والمواصفات .. وهذا هو حق أى تنظيم فى قبول أعضائه .. أما الأغلبية السليقة ممن لم تنطبق عليهم الشروط فإنهم تم إقصاؤهم بمختلف الطرق والوسائل .

وشعر المناضل القديم بالأسى ، ولم يقبل الاستسلام بسهولة . فأخذ يكتب التقارير الضافية إلى عبد الناصر . وكان فى تلك التقارير يضع رؤيته للموقف السياسى فى تطورات الميمنة ، فيقدم من خلال واقع الذى بدأ يستوعبه صور الفراق السياسى المتمثل فى عدم الارتباط بين من بيدهم أمانة العمل السياسى وجماهير الشعب ، وقال فى تقاريره إن الجماهير فى وادى المعاناة . ورجال الإتحاد الاشتراكي والحكم المحلى فى وادى الترف والمباهاة .. الأولون محرومون ، والآخرين منهومون ، ومن هنا فإن الأغلبية الساحقة من الشعب فى حالة من الغيظ والحقد على هؤلاء « الاشتراكيين » المهلفين والملمعين ، واستنتج مرة فى أحد تقاريره أن البلد مفتوحة أمام المؤامرات ووسائل الغدر ، وأن أى هجوم عليها سوف لا تحمد عقباه ، ورتب على ذلك المطالبة بالتحام القيادة بالشعب متخطية أعناق تلك الحواجز القائمة بينها وبينه ، ومظهرة للأرض من تلك الألغام التى يبيثها المغرضون فى طريق المخلصين .

والتقى فكر بعض القيادات فى قمة الإتحاد الاشتراكي العربى مع روح تلك التقارير وغيرها ، ونشطت أمانة الدعوة والفكر بقيادة السيد / كمال رفعت . وبدلاً من أن يثمر ذلك تغييره إلى الأحسن ، فإنه دفع البعض إلى التآمر المفضوح ، وكأنما كان الغرض الأهم لهؤلاء المتآمرين هو قطع الطريق على أى اتصال بين القيادة والشعب .

إلى أن حدث مقتل « صلاح حسين » فى قرية « كمشيش » وبأيدى عناصر الثورة المضادة . عندئذ أحس عبد الناصر بالخطر ، ودخل بكل ثقله فى معركة تصفية الإقطاع ، وانتعشت الآمال التقدمية فى تدارك الموقف المتدهور داخلياً . ونشطت العناصر اليسارية فى التوعية بمخاطر الاحتمالات الميمنة ، حيث لم ينس الاستعمار تأثره فى هزيمة سنة ١٩٥٦ ، وحيث كان يعانى من جراء ما حدث فى الجزائر واليمن وغيرها من بلاد أفريقيا السوداء . وحيث مصر اليوم مجعدة اقتصادياً ومفككة أوصالها .

لكن الأمور لم يتعدل مسارها ، ولم تستطع كل القوى التقدمية وعلى رأسها الزعيم جمال عبد الناصر أن تفعل شيئاً قاصداً .. الأمر الذى مهد الطريق لنجاح المباغطة الإسرائيلية التى ألحقت الهزيمة المفجعة بالجيش المصرى فى حرب يونيو سنة ١٩٦٧

١٦ - مرارة الهزيمة

كانت الهزيمة صدمة مروعة لكل المشاعر الوطنية ، وتربت عليها من الإحباط والشعور بخيبة الأمل ما جعل عبد الناصر يتنحى عن مركزه في السلطة . لولا وقوف الشعب ضد رغبته ، ولأن وطأة الهزيمة كانت ثقيلة فإنها حطمت جهاز القيادات العسكرية وفي مقدمتها المشير عبد الحكيم عامر ..

وكان لابد من إعادة الحسابات السياسية والعسكرية ، حيث كان الهدف البعيد لتلك الهزيمة هو تحويل مجرى التاريخ المصري والعربي إلى طريق الاحتواء في أحضان الامبريالية من جديد ، بحيث تنتكس كل المكاسب التي تحققت ، وتصبح مصر دولة تابعة للنفوذ الرأسمالي العالمي متلما كانت في الماضي . ومن خلال هذه التبعية تتم تصفية القضية الفلسطينية ، وتخدم نيران الصراع ضد الاستعمار في المناطق المحيطة .

ولم يكن هناك ظرف يتطلب حشد كل الفصائل الوطنية أفضل من هذا الظرف ولا أشد ضرورة منه ، وبدأ اليساريون يحاولون العمل على لمة الشتات الممزق لكي تستأنف المسيرة الوطنية من جديد . وتطوع بعضهم للعيش في المناطق المحتلة من العريش أو غزة لكي ينظم المقاومة ضد الاحتلال . ولكن الذين مهدوا للهزيمة كانوا مصريين على استمرارها . فلم يمدوا أيديهم إلى هؤلاء اليساريين ، بل بدعوا يدسون لهم ، وبخاصة بعد المظاهرات الاحتجاجية للطلبة في بداية سنة ١٩٦٨ . حيث صدرت أحكام هزيلة ضد بعض العسكريين لمسئوليتهم عن الهزيمة . وفي ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ أصدر عبد الناصر بيانا حاول فيه الرد على جميع التساؤلات المثارة ، وقدم به دليلا جديدا للعمل الوطني في مرحلة ما بعد الهزيمة ، لكنه لم يقترب من حل عقدة التمزق بين القوى الوطنية . المبعثرة الجهود ..

وبدا للجميع أن عبد الناصر - وبالرغم من كل ما حدث - لا يستطيع التخلي عن الحكم الفردي المعتمد فقط على أجهزة الأمن ، وتقارير المخابرات ، علما بأنه كان معلوما للجميع أن تلك السياسة بعينها هي التي جلبت الهزيمة ..

وحاول المناضل القديم أن يعيد التذكير بتقاريره السابقة فقال: إن كل أجهزة الدولة ينبغي أن تخضع لرقابة الشعب عليها ، وذلك بفتح كل الطرق المؤدية إلى النقد الصريح ، والتبصير بالعواقب الوخيمة لسلوك بعض القيادات التي تحولت بمراقبتها التي تعمل فيها إلى إقطاعيات ومراكز نفوذ ، تعيد إلى الذهن عهد أمراء المماليك .. قال ذلك مكتوبا وأرسله إلى عبد الناصر إبراء للزمة ، وكان يقوله أمام بعض المسؤولين إبراء للذمة أيضا . ورخص لنفسه بعد ذلك أن يعلن رأيه للناس الذين يثقون فيه ، وكان يزعم أن مزيدا من الهزائم في انتظارنا ما دمنا لم نغير منهج الحكم القائم على الخوف من الالتقاء بأعرض الجماهير . ومهما كانت النتائج التي سوف تسفر عنها حرب الاستنزاف فإننا لن ننجو من تلك الهزائم .

ويبدو أن الاستعمار قد استغل الاستمرار في تلك السياسة ، وتوجه بضربته هذه المرة عن طريق تدبير مذبحة أيلول الأسود ضد الفلسطينيين في عمان . فقد كان معروفا أن عبد الناصر هو الزعيم الحريص على حماية المنظمات الفلسطينية ، رغم تصاعد هجماتها ضد مصر بسبب قبول مبادرة « روجرز » التي بمقتضاها تم وقف إطلاق النار . ومن ثم استتارت المخابرات المركزية الأمريكية صدامات « أيلول » ، الأسود بين الملك حسين والمنظمات الفلسطينية . وبدأت الصدامات من محاولة إخضاع المنظمات للأوامر العسكرية للقيادة الأردنية . تلك القيادة التي خشيت من تصاعد ثورة المقاومة الفلسطينية على النظام الأردني بعد وقوع محاولة لاغتيال الملك حسين في يونيو سنة ١٩٧٠ أعقبتها محاولة أخرى في أول سبتمبر من نفس العام .

وفي ١٦ سبتمبر رأس الملك حكومة عسكرية شكلها ، وقام الجيش الأردني بتطويق العاصمة ، ولم يلبث أن بدأ الصدام مع المنظمات بهدف إجلائها عن عمان ، ومعظم المدن الأردنية . وكان واضحا أن هذا الصدام تتعاطف معه التهديدات السافرة من الولايات المتحدة الأمريكية بالتدخل المباشر لوتدخلت سوريا أو العراق ، والتحركات السريعة لحاملات الطائرات في شرق البحر الأبيض ، والمسارعة إلى تسليم طائرات الفانتوم لإسرائيل ، واستمر الصدام يتصاعد إلى أن انعقد في يومى ٢٢ ، ٢٣ سبتمبر اجتماع الملوك والرؤساء العرب الذى دعا إليه عبد الناصر .. وفي ٢٧ سبتمبر تم توقيع اتفاق وقف إطلاق النار بين الملك حسين وياسر عرفات . وبعد وداعه للأمير الكويت في يوم ٢٨ سبتمبر سقط عبد الناصر صريعا لإعياء مفاجيء أنهى شعلة حياته .

كان المناضل القديم إذ ذاك نزيلا مرة أخرى بليلتين طوة ، فقد تم القبض عليه وعلى مجموعة من الأدباء في ليلة ٩ سبتمبر سنة ١٩٧٠ لسبب لا يعرفه ، وقد اتضح له فيما بعد أن بعض مرتزقة النظام كتب تقريرا إلى المخابرات العامة وأومها شدة حرصه على النظام ، فقامت بالتحفظ على هؤلاء الأدباء الذين كانوا يطلقون على أنفسهم « أدباء الرصيف » معهم ذلك المناضل القديم ، الذى فوجيء بالامر . وقد بقى بعد ذلك بضعة أسابيع كانت أقسى على نفسه من كل سنوات السجن والاعتقال في الماضى ، إلى أن خرج في أوائل نوفمبر سنة ١٩٧٠ .

المهم أن وفاة عبد الناصر كانت إيذانا بأن كل شيء سوف يتغير ، ومن أجل ذلك خرجت مصر كلها تودع جثمانه وتصرخ من أعماقها لفقده ، وتبكي فيه مصيرها من بعده ، فكان كل أهل مصر كانوا يتوقعون ما سوف يحدث من بعده لهم ، وللأمة العربية كلها .

وبالانتهاء من تشييع جنازته ، وتولى نائبه أنور السادات أسدل الستار على مرحلة من مراحل العمل الوطنى في مصر ، وبدأت مرحلة أخرى .



الفصل الرابع عشر

مرحلة السادات

براءة الاستهلال :

خرج المناضل القديم من « ليمان طره » وكان الآن قد صار فوق الخامسة والأربعين من عمره ، وأصبح زوجا وأبا لطفلين صغيرين . خرج معه « لبيب الرصيف » بعد أن اقتنعت سلطات الأمن أنهم لا يشكلون خطرا على الدولة بالمعنى المفهوم . وكان قد ترك هناك في « الليمان » بعض المعتقلين اليساريين الذين لا يعرفون أيضا لماذا تم اعتقالهم !! وعزم على توضيح وجهة نظره في سياسة الاعتقال بعامة ، وسياسة اعتقال اليساريين بشكل خاص .. ومن ثم كتب تقريرا أرسله إلى السادات الذي كان قد أعلن أنه جاء إلى الشعب على طريق عبد الناصر . طريق الميثاق الوطني ، وبيان ٣٠ مارس . والعمل على « إزالة آثار العدوان » وفي هذا التقرير شرح أن السبب الأساسي في وقوع هزيمة سنة ١٩٦٧ هو عدم الثقة في الشعب ، وأقصاؤه بعوازل المنتفعين والمرتزة عن الالتحام بقيادته الثورية المتمثلة في الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، كما أوضح أن اللعب على التخويف من اليساريين كان ولا يزال هو الورقة التي يعمل بها أعداء النظم المتظاهرون له بالولاء .. واستخلص من كل ما عرضه في هذا التقرير ضرورة وقف هذه السياسة ، والإفراج عن المعتقلين السياسيين ، وبناء أعرض جبهة تقف خلف القيادة السياسية من غير حواجز لكي تنجح في إزالة آثار العدوان .

وكان عبد الناصر قبل رحيله قد وافق على وقف إطلاق النار لأجل ينتهي في ٥ نوفمبر سنة ١٩٧٠ ، لكن الرئيس السادات بعد مداوات ومناقشات لم يشأ التمسك بهذا الوعد السابق ، وإنما أعلن مد وقف إطلاق النار لثلاثة أشهر أخرى تنتهي في يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١ !!

وانتظرت الجماهير المتمللة ما سوف يحدث بعد هذا التاريخ ، فالرئيس السادات قد تم الاستفتاء على رئاسته ، وامتلك كل أدوات السلطة بين يديه ، ولا بد أنه يريد أن يسمح عار الهزيمة عن جبين مصر !! لكن يوم ٤ فبراير لم يكن نهاية لوقف إطلاق النار ، وإنما بدءا لمبادرة جديدة مد فيها السادات وقف إطلاق النار ثلاثين يوما أخرى على أن يتم خلالها سحب جزئي لقوات إسرائيل شرق القناة ، وفي مقابل ذلك يتم تطهير القناة وإعادة فتحها للملاحة الدولية .. وكانت هذه المبادرة تشبه اقتراحا لموشي ديان عرضه على الحكومة الإسرائيلية في أواخر سنة ١٩٧٠ ، ومضمونه أن تنسحب القوات الإسرائيلية عشرين ميلا شرقى القناة في اتجاه الممرات ، وأن تعيد مصر فتح قناة السويس للملاحة الدولية [عرف ذلك فيما بعد] .

ودخلت مصر بعد ذلك في حوار ممتد حول مشروع « يلرنج » الذي رفضته إسرائيل .. واتضح من خلال تلك المناورات السياسية للشعب صحة الشعار الذي أطلقه عبد الناصر إثر الهزيمة في ١٩٦٧ .. « ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة » .

وأطلق السادات بالوثقة المعروفة بعام « الحسم » ، بينما استدار للعاملين معه في قمة السلطة فصفاهم في ١٥ مايو سنة ١٩٧١ وأصبح وحده المضطلع بالمسئولية الكاملة عن إدارة العمل الوطني في البلاد ، ولكي يوهب الجماهير بصدق نواياه فإنه لجأ إلى تمثيلية إحراق الاشرطة التي كان يستخدمها النظام في تسجيل كل شيء عن ضحاياه . !!

وكجزء من برعة الاستهلال للعهد الساداتي راح يتغنى بالديموقراطية السليمة التي كانت شعارا معطلا طوال الفترة السابقة ، كما تغنى بصدقة السوفييت وقال في مدحهم ما لم يقله المتنبي في كلفور الإخشيدي ، فهم الذين حضروا ومعهم الصينية يوم وفاة عبد الناصر . وهم الاصدقاء الذين يقفون معنا في كل الأزمات ، وهم الذين يمدوننا بالسلاح الذي سوف نحرره الأرض المغتصبة .. وهم وهم الخ .

وتتويجا لهذا المديح وبعد أحداث ١٥ مايو سنة ١٩٧١ بعشرة أيام فقط . وقع السادات مع بودجورني رئيس مجلس السوفيت الاعلى معاهدة « الصداقة والتعاون » بين البلدين ، وقد نصت هذه المعاهدة على قيام صداقة راسخة لا تنقسم عراها بين البلدين والشعبين ، وأكدت بذل جهودهما للتوصل إلى سلام دائم وعادل في الشرق الاوسط ، ودعت البلدين إلى التشاور على مختلف المستويات وبانتظام حول جميع المسائل الهامة التي تخص مصالحهما .

٢ - لعبة الخديعة :

لم يكن السادات مخلصا لسياسة سلفه من أولها إلى آخرها .. وقد كان يكيل المديح لعبد الناصر في حياته . كما كان يكيل المديح للسوفييت بعد مماته .. لكنه كان يخفي نواياه وأهدافه الخاصة في كلتا الحالتين . فهو مع عبد الناصر قد نقض كل البنين الذي بناه ، أعوانه أقصاهم وصفاهم ، ووثائقه التاريخية الفاهما ونجاها ، وحتى تنظيم الاتحاد الاشتراكي حله واستعاض عنه بحزب مصر ، الذي تحول إلى الحزب الوطني . وهو مع السوفييت الذين وقع معهم معاهدة « الصداقة والتعاون » كان يلقامهم بوجه ، ويلقى الأمريكان بوجه آخر .

كانت عينه على هدف الارتقاء في أحضان أمريكا وهو يفارض السوفييت ، ففي الوقت الذي يرسل فيه الوفود تلوا الوفود إلى موسكو ، كان يعد عدته للانتقاض على كل شيء تم الاتفاق عليه .

تماما مثما فعل مع برنامج العمل الوطني الذي قدمه إلى المؤتمر القومي في يوليو سنة ١٩٧١ باعتباره تطبيقا اشتراكيا . بينما كان يعد العدة للتحلل من كل بند فيه . ولقد بالغ السادات في سياسة الخديعة فجعل في وزارته وزيرين ماركسيين . وهولم يكن يضمّر للماركسيين إلا شر الوان العدا .

كان المناضل القديم في تلك الفترة ، بين الترقب والارتباب ، وكانت حركة الشوارع المصري يسودها التذمر من الوقوف موقف « اللا حرب واللا سلم » وقد عبرت الجماهير الطلابية عن هذه الحركة باعلان رفضها للاستمرار في تلك السياسة ، وأظهرت احتجاجها العنيف أكثر من مرة .. وأصبح على السادات أن يقدم لتلك الحركة ما يشغلها ريثما يستجمع قوته .

ومن أجل ذلك فإنه قام بزيارة الاتحاد السوفيتي في شهرى فبراير وابريل سنة ١٩٧٢ ، وعاد من كل زيارة ليدلى بتصريحات راضية عن النتائج التي توصل إليها . وفي شهر مايو زار الماريشال جريشكو وزير الدفاع القاهرة . وكذلك في يونيو زار الفريق صادق موسكو وعاد أيضا مطمئنا إلى نتائج زيارته .

وبينما الانطباع العام عند الجماهير من تعدد تلك الزيارات هو تدعيم الصداقة والتحالف خدمة لهدف إزالة آثار العدوان أصدر السادات قراره في يوليو سنة ١٩٧٢ بطرد الخبراء السوفييت من مصر ..

وهنا انزعج المناضل القديم ، وعبر عن انزعاجه بطريقته التي تعود عليها منذ أصبح فردا لا ينتمى لتنظيم .. فكتب مرة أخرى إلى السادات لكي يوضح رأيه في هذا القرار الذي اعتبره منافيا للحكمة السياسية إن كنا لم نزل بعد على الولاء لإزالة آثار العدوان ، وللصداقة التي جعلنا لها معاهدة لم يمض على توقيعها أكثر من عام .

كان يعلم أن هذه الكتابة لن يكون لها أى أثر ، ولكنه كان يعزى نفسه بأنه أراحها وعبر عما بداخله ، وكان يعنى قلبه بأن يكون هناك آخرون يصنعون نفس الصنيع فيشعر السادات بنوع من الاعتراض على هذا الاتجاه . واكتشف أن هناك من شاركه رأيه وكتب حول هذا المعنى معترضا على الإساءة إلى علاقاتنا مع الاصدقاء .. واستبان للجميع أن السادات في الظروف الحالية يدير وجهه عن الاتحاد السوفيتي إلى الولايات المتحدة الأمريكية من خلال التحليلات والتعليقات التي انسابت في صحافة الغرب .

وساد القلق كل الأوساط الوطنية خوفا من تجميد الوضع على شاطئ قناة السويس إلى أجل غير مسمى . وافتتح الباب للمساومات الأمريكية بغية توفير الحل السلمى طبقا لشروط من هنا ، وشروط من هناك .

٣ - الانتظار المحمل :

وهكذا بقيت مصر في وضع المنتظر منذ انتهى عام الحسم بدون حسم ، وعبر عام آخر مليء بالمفاجآت والتردد . وأعقب القرار المصري بإنهاء مهمة الخبراء السوفيت مبادرة أمريكية أجراها الدكتور كيسنجر دعا فيها إلى محادثات سرية . ذلك لأنه قد ظفر أخيرا بما كان قد لوح به سنة ١٩٧٠ من ضرورة طرد السوفيت من مصر . وجاءت مبادرته تلك في ٢٦ يوليو ١٩٧٢ ، ووافق عليها السادات من فوره لأنه كان ينتظرها . ولأن السياسة الأمريكية قد أحرزت النجاح في دق أسفين بين مصر والاتحاد السوفيتي ، ولأنها مدركة تماما لضعف الموقف المصري الذي تحتل أرضه إسرائيل منذ سنوات طوال . فإنها بدأت تحاول إملاء وجهة نظرها على الموقف . وأرسل الدكتور كيسنجر في ٢٩ سبتمبر من نفس العام رسالة إلى السادات .. وكان الإصرار فيها على بعض الشروط دليلا على الاستخفاف بوزن مصر . فبينما كان السادات يطلب انسحابا جزئيا من شرق القناة . جاءت رسالة كيسنجر لتؤكد أن بدء المباحثات يجب ألا تسبقه أية شروط !! وأن هدف الخطوة الأولى للمباحثات هو تحديد ما يمكن تحقيقه ، عمليا ، وأن التقدم في المباحثات يجب أن يكون محكوما بالقرار رقم ٢٤٢ الصادر عن مجلس الأمن !!

في هذه الأثناء كان المناضل القديم لم يفقد حماسه ، على الرغم من اقترابه من سن الخمسين . لكنه كان مشدودا إلى عمله الوظيفي في التربية والتعليم ، ويحاول انفاق كل طاقته في مهنته التي يحبها ، ولم يكن ذلك يمنعه من متابعة الأحداث السياسية والانفعال بها .. وكثيرا ما كان يقول : السياسة دأى وبلائى . ولا القمس من غيرها شغلانى .

قرأ مضمون الرسالة في بعض الصحف الأجنبية . ورأى فيها صورة من رسالة بيغن للنقراشى في سنة ١٩٤٥ . واشتد حنقه وضيقة مثما حدث في الماضي ، لكن هذا الحنق وهذا الضيق . لم يستطع أن ينقله إلى موقع التفكير الإيجابي في خطة للخلاص ، أو لبدء الخلاص على الأقل . كما حدث إذ ذاك !! فهو في الماضي كان شابا مندفعاً قادرا على التحرك وتحريك الشباب إلى ما يريد .. أما الآن فإنه شيخ ولو أراد الحركة فإن من حوله ليسوا سوى موظفين مجاهدين مثقلين بالأعباء !!

وهكذا لم يجد بدا من الكتابة إلى بعض الاصدقاء القدامى يطلب إليهم إبداء الرأي في مخاطر الطريق المزرى الذي وصلنا إليه .. طريق الخضوع للاتجاهات الأمريكية الممالئة لإسرائيل .

وفي بداية سنة ١٩٧٣ حدثت اتصالات بالجانب السوفيتي كان هدفها التخلص من آثار القرار الخاص بإعفاء الخبراء عن العمل في مصر ، وانتعشت الآمال مرة أخرى في دعم الموقف العسكري المصري ، بحيث نستطيع أن نضع حدا لمسألة القلاع الأمريكي بمصير الحل السلمي الذي تريد الولايات المتحدة من ورائه تحقيق المغانم لإسرائيل . وكان من الواضح أن الصدام لا بد منه فالشعب لم يعد قادرا على الاستمرار في وقف إطلاق النار . وأن المسألة مسألة وقت لا غير .

صحيح أن السادات وحكومته كانوا متهمين بعدم الجدية في خوض حرب ضد إسرائيل . وصحيح أن المفاوضات مع الأمريكيين كانت ولا تزال موصولة ، وصحيح أن الأمريكيين كانوا لا يزالون يعملون على تفويض الصداقة السوفيتية لمصر .. لكن كل ذلك لم يكن ليوقف عقبة في طريق الحرب من أجل تحرير الأرض . ومن أجل ذلك وقف السادات في عيد العمال يدعو إلى المواجهة الشاملة ، وكسر الجمود الذي تريد أمريكا وإسرائيل فرضه علينا ، واتهم الرئيس الأمريكي بأنه أقر رفضه العدوان على مصر سنة ١٩٦٧ . وقال إن هدف الولايات المتحدة هو الحفاظ على وقف إطلاق النار ومحاولة أن تحقق بالمفاوضات ما عجزت إسرائيل عن تحقيقه بالحرب .. وأعلن أن مصر ترفض حلا مرحليا أو حلا منفردا ، وطلب بدء المواجهة الشاملة التي يتسع نطاقها إلى ميدان الطاقة ، وقال إن مهمتنا الأولى هي تحرير الأرض .. ودعا إلى قيام كل عربي بمسئوليته . كما دعا إلى تعبئة الدول غير المنحازة والإفريقية .

وبعد هذا الخطاب الذي جاء انعكاسا للطريق المسدود الذي وقعت فيه القضية اهتم كل من بريجنيف ونيكسون بإبداء الرأي والنصح للحكومة المصرية . بريجنيف من أرضية عدم الثقة في مستوى التدريب العسكري وتدريب الكوادر . ونيكسون من أرضية الحرص على أمن إسرائيل الذي وضعه في مقابل اهتمام العرب بالسيادة . واقترح الحل من خلال سياسة خطوة خطوة ..

وفي يونيو ١٩٧٣ وبعد انعقاد قمة واشنطن الذي أطلق عليه « قمة الوفاق » بدأ الإعلام المصري يهاجم السوفيت على أساس أن عهد الوفاق قد أنهى دور الاتحاد السوفيتي في المنطقة العربية ، وبالطبع لم يفت الوفاق في غضد الشعب المصري ، وراح يتهيا نفسيا لموقعة قادمة ، ولكنه ومن طول معاناته كان غير واثق من جدية الاتجاه إلى انحسار الذي طالما سمع عنه دون أن يراه .

٤ - ملحمة العبور :

واقترح الجيش المصري بجنوده وضباطه « البواسل » قناة السويس في يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . وفتحوا الثغرات في الساتر الترابي ، وأنشئوا الكباري ، وأخذوا يتدفقون إلى الشاطئ الشرقي في حماية المدفعية المصرية والطيران المصري . وبسرعة فائقة تمكنوا من حصار خط « بارليف » على مسافة ١٧٠ كيلو مترا من بورسعيد ، وحتى السويس ، ولم يتنصف ليل هذا اليوم إلا وكانت الدبابات والمدفعية الثقيلة قد عبرت إلى شرق القناة .

وفي نفس الوقت الذي بدأ فيه الاقتحام المصري بقوة الطيران ، كان هناك اقتحام مماثل على الجبهة السورية .

ولقد واكب التحرك العسكري على الجبهتين موقف عربي موحد .. تم من خلاله حصار باب المندب ، ومنع جميع السفن المتجهة إلى إيلات عبر البحر الأحمر . كما تم من خلاله القيام بالمساندة الفعالة للقوات الضاربة . وطار الدكتور كيسانجر إلى السعودية والأردن - وطلب من الملك فيصل التدخل لدى كل من مصر وسوريا لوقف العمليات ، مهددا بأن إسرائيل سوف تتمكن من دحر الهجوم العربي . لكن الملك فيصل لم يستجب لطلب

كيسنجر ، ورفض المبادرة الأمريكية ما لم يتقرر انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة ، والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني .. ولم يكتف الملك بذلك وإنما بعث إلى السادات برقية يؤكد فيها أننا نقف بجانبكم بكل امكاناتنا .

رواصلت القوات المصرية تقدمها في يوم ٧ إلى أن بلغت القنطرة شرق ، على الرغم من الهجوم المضاد الذي كانت تحاوله إسرائيل - واستمر التقدم يومى ٨ ، ٩ بينما كان الوضع على جبهة الجولان متجها إلى التراجع !! وانفتح الباب على مصراعيه للاتصالات الدولية بهدف وقف القتال . وبدأ للولايات المتحدة الأمريكية أن إسرائيل في مأزق صعب . حيث عجزت عن هزيمة قواتنا على نحو ما كانت تتوقع .. ومن هنا بادرت أمريكا إلى اتخاذ إجراءات عسكرية في شرق البحر الأبيض ، بفرض حرمان السوفيت من حرية العمل في هذه المنطقة . فأرسلت حاملة طائرات من أفيبا لكى تكون على مقربة من مسرح العمليات ، بينما ألغت إجازات ضباط وجنود الجيش السادس الأمريكى .. وكان ذلك في يوم ٧ أكتوبر أى بعد العبور بيوم واحد .

وبحلول يوم ١٠ أكتوبر كان الموقف على الجبهة السورية يتعرض للانهييار . وكان قد اتضح للقيادة المصرية أن أمريكا قد أقامت جسرا جويا ينقل الأسلحة والمتطوعين إلى إسرائيل ، بل وفي يوم ١٣ رصدت القوات المصرية طائرة استطلاع أمريكية تجوب السماء المصرية من بورسعيد حتى السويس حتى القاهرة فالدلتا إلى أن خرجت من غرب الاسكندرية .. وعندئذ وبالرغم من كل الانتصارات التى تحققت عمدت السلطة المصرية إلى تقديم غصن الزيتون ، في شكل رسالة بعثت بها إلى كل من الحكومتين الأمريكية والسوفيتية عرضت فيها وقف إطلاق النار وانسحاب القوات الإسرائيلية إلى خطوط ما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ تحت إشراف عقد مؤتمر سلام بإشراف الأمم المتحدة تشترك فيه الأطراف المعنية بما في ذلك الفلسطينيين والدول الكبرى .

وعاد إلى ذهن المناضل القديم ما وقع عام ١٩٤٩ من إيقاف القتال أثناء الحرب العربية الاسرائيلية الأولى . وأحس بأننا على أبواب هزيمة جديدة ، ولم يلبث أن صدق حدسه ففي يوم ١٤ أكتوبر بدأ انقلاب الصورة . حيث دارت المعارك ومنيت مصر بخسارة حسيمة في الدبابات وفي يوم ١٥ أكتوبر بدأت إسرائيل هجومها المضاد - وفي يوم ١٦ أكتوبر حدث العبور المضاد من شرق القناة إلى غربها ، وأعلنت رئيسة وزراء إسرائيل في الكنيست . أن جيش الدفاع الإسرائيلي تعمل بعض عناصره الآن إلى الغرب من قناة السويس . وتقاتل في إفريقيا !!

وجاء كوسيجين إلى مصر ، ومكث بها ثلاثة أيام متوالية ، ثم عاد إلى بلاده ليبدأ البحث عن حل لمشكلة الشرق الأوسط من خلال دعوة لوقف إطلاق النار في المواقع الحالية . وكانت المواقع الحالية قد أصبح فيها الإسرائيليون في مدينة السويس أو حولها ، ويقطعون طرق الإمدادات للجيش الثالث المصرى في شرق القناة !!

وأخذت الإدارة الأمريكية تغدق البلايين على إسرائيل .. وأعلنت الدول العربية حظر صادرات البترول .. ولكن الحرب كانت قد تقررت نتائجها وأجهض نصر الاقتحام العظيم . وانقلب الحال إلى صالح إسرائيل وأمريكا لفترة طويلة ثقيلة .

٥ - هموم وأحزان :

صدر قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار منذ يوم ٢١ أكتوبر ، ولكن إسرائيل لم تلتزم به ، الأمر الذى دعا إلى اتخاذ أكثر من قرار بعد ذلك . وحتى يوم ٢٥ أكتوبر لم تكن إسرائيل تسمح بتوصيل امدادات المياه للجيش الثالث . وبدأ القلق يستبد بالشعب وبالمستولين في وقت واحد .. وطلبت القيادة المصرية من واشنطن المساعدة في الاتفاق على إرسال مواد طبية للجيش الثالث ، وقال السادات في طلبه : إن استمرار الموقف الإسرائيلي سوف يؤثر

على زيارة الدكتور كيسنجر للقاهرة ، التي نعد لها مقترحات نرجو ان تكون نقطة تحول نحو إقامة سلام دائم ،

وكانت الاستجابة الفورية من كيسنجر الذى طلب من إسرائيل السماح بمرور قولات أطعمة ومياه وأدوية إلى السويس والجيش الثالث . ومع ذلك فإنها لم تستجب بل بادرت بشن هجمات برية وجوية على مواقع الجيش الثالث . وهكذا إلى أن رضخت مصر للاجتماع والتفاوض حول (وقف إطلاق النار والامداد) وبدأت المفاوضات المعروفة بمفاوضات الكيلو ١٠١ تحت إشراف الأمم المتحدة في يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٧٣ .. ولم تصل الامدادات إلا يوم ٢٩ أكتوبر ..

ولقد برزت خلال تلك الفترة خصائص الشعب المصرى في كل من السويس . ومواقع الجيش الثالث الميدانى ، فالشعب المصرى في السويس لم يركع أمام الهجوم الإسرائيلى وإنما قاومه واضطره إلى الخروج منها ، ولم يرهيه قطع الماء عنه بل قاوم وصمد وجلب الماء من كل طريق تيسر له .

أما جنود الجيش الثالث .. فقد احتملوا ما لا يمكن احتماله ، وصبروا على الجوع والظما ، والأمراض من غير دواء .. أياما طويلة ، ومع ذلك فإن ذخيرتهم الحية كانت تنطلق على العدو كلما هاجم أو سعى إلى الهجوم . ولم يكن أفراد الشعب في داخل البلاد مصدقين بما وقع . كيف تحول نصر ٦ أكتوبر إلى محاصرة لأبنائنا في الجبهة ؟ من الذى أوقعنا في هذه المصيدة بعد أن كنا منتصرين وكان زمام الأمر في يدنا ؟ لماذا توقف جيشنا منذ ١٠ أكتوبر عن التقدم والإقتحام بنفس المعدل الذى بدأ به ؟

ومن خلال تلك التساؤلات الحزينة رأى المناضل القديم أن في الأمر سرأ سوف تكشف عنه الأيام . ورأى أن مفتاح هذا السر يكمن في تلك الانفرادية التى حرص عليها « السادات » منذ أطاح بأعوانه في ١٥ مايو سنة ١٩٧١ .. فهو منذ هذا التاريخ يتصرف في مصر ، وأهل مصر ، كما كان يتصرف سلفه العظيم .. ينفرد باتخاذ ما يشاء من القرارات ، ويمليها من خلال ما يسميه بالمؤسسات ، ويقبل العاملون معه على تنفيذها دون أية مناقشات !!

لقد عكست رسائله يومى ٢٣ ، ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ إلى كل من موسكو وواشنطن كل الهموم والأحزان التى منيت بها مصر ، فلقد كان مصير مدينة السويس ، والجيش الثالث الميدانى ، بل ومصير الأمة كلها في كف القدر .

وبدلا من أن يحاسب السادات ومن معه على هذا المصير المحزن بدأت ، التبريرات ، والتماس الأعذار وقيل أن القوة العسكرية العربية التى جاءت بعد أسبوع من بدء الاقتتال إلى سوريا لم تكن معدة الأعداد الكافى ولذلك فإنها فقدت فعاليتها ، كما قيل إن قوة البترول العربية لم تدخل إلا في يوم ٢٠ أكتوبر أى بعد بدء المعركة بأسبوعين وهذا أضعف المعركة .. كما قيل إن القوة العسكرية السوفيتية والسياسية أيضا لم تكن على استعداد للالتحام الكامل معنا في اللحظات الفاصلة .. وعندما جاعوا في ٢٣ ، ٢٤ أكتوبر ليلقوا بكل ثقلهم في الحرب لم تكن نحن في حالة تسمح بالتنسيق الكامل معهم . فقد هدد الأمريكان باحتمالات الصدام النووى على أرضنا ، ووعدوا باستخدام نفوذهم لدى إسرائيل . الأمر الذى جعل مصر تتراجع يوم ٢٥ أكتوبر عن طلب قوات مشتركة لتنفيذ وقف إطلاق النار .

لكن كل ما قبل كان جزءا من الحقيقة ، أما الجزء الرئيسى والأهم فإنه لم يقله أحد .. فلولم يكن فرعون مصر باغيا لما أدركه وقومه الفرق . تلك هى « الحقيقة » التى سيطرت بنتائجها المحزنة على عيد رمضان المبارك في ذلك الوقت .

٢ - تنبؤات مزعجة :

أصبح الصباح في يوم عيد الفطر الحزين ، وانتقل المناضل القديم إلى قريته للاشتراك في تقبل التمازي فيمن مات له من الأقرباء المقربين .

وهناك في المنزل الأثري للأسرة . تجمع القادمون من هنا وهناك لكي يقوموا بواجب العزاء . وكان الكثير منهم من هواة الثرثرة في المجالس العامة ، فأخذوا يتناوشون بالرأى الارتجالي حول الحرب ، والحصار ، والثغرة ، وموقف الدول الكبرى من مصر وإسرائيل . الخ . وكان المحور الذي تدور حوله المناوشات تلك المعاناة القاسية التي يعانيها الجيش الثالث شرقى القناة ، وأبناء مدينة السويس المحاصرة . وتناثرت الأخبار المزعجة عن الشهداء والمفقودين ، والمصابين الخ .

وامتد حبل الأحاديث ، وتشعبت بها المسالك ، وتخللتها بعض الألفاظ الريفية العادة . وكان الاتجاه الغالب على تلك الأحاديث هو اتجاه الحيرة والشك في صحة الأخبار التي تذيعها إذاعة الوطن ، وترجيح صدق الأخبار التي تذيعها الإذاعات الأجنبية وبخاصة إذاعة لندن وإسرائيل .

كل ذلك يحدث بينما هو غارق في صمت عميق لم يحاول معه حتى المشاركة بالنظر إلى وجوده المتحدثين .. ونجاة طلب إليه بعض الحاضرين إبداء رأيه فيما أثير من موضوعات .. ذلك لأنهم لم يتعودوا منه السكوت في مثل هذه المواقف من قبل .

ولكنه امتنع عن الحديث معتذرا بأنه متوعد ، ولا يستطيع المشاركة بالرأى في كل هذه المسائل المثارة .. وكان واضحا أن هذا الاعتذار مجرد ستار يريد أن يخفى وراءه حتى لا يعرف أحد رأيه .. ومن ثم عادوا إلى الإلحاح عليه ، واستثاروا فيه الكوامن القديمة عندما قال أحدهم : إن المسألة التي تعدق بالوطن أكبر من كل التوقعات ، وأنت قد عودتنا السبق في مثل هذه الظروف . لا إلى القول فقط ، بل إلى العمل والتضحية مهما تكن النتائج . وإذا لم يعرب المرء عن رأيه في مثل تلك الحالات التي نحن عليها فمتى وأين ينبغي له الإعراب عن رأيه ؟

وامام هذا الإلحاح المثير فإن الكلمات بدأت تجرى على لسانه وأصغى الجميع .. قال المناضل القديم : نحن في حرب فعلية مع الأعداء منذ السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ .. والحرب بطبيعتها تحتل النصر ، كما تحتل الهزيمة . وإذا كانت هذه الحرب التي نخوضها قد أعطينا حلالة النصر في بدايتها ، فإن أعدائنا قد أرادوا التأثير لأنفسهم حتى لا تطول سعادتنا بهذا الانتصار الذي أحرزناه في البداية . ولقد تم لهم النجاح فيما أرادوا ، ففتحوا ثغرة نفذوا منها ، واقتحموا القناة مثلما أقتحمناها نحن في أول الأمر . ثم هاجموا مدينة السويس ، وأقاموا حصارا محكما على طرق الإمدادات للجيش الثالث !! وأصبحت الحرب تدور على أرضنا نحن شرقى وغربى قناة السويس !! لكن هذا النجاح ليس نهاية العالم .. وحتى لو أنهزمتنا هذه المرة أيضا فإننا نستطيع الانتصار مرة أخرى ولو طال المدى . وإذن فإن الحزن على فقد الأبناء . واستشهادهم لا ينبغي أن يكون له من نفوسنا أى مكان !! فقط يجب أن نعتد أبصارنا إلى المستقبل بكل احتمالاته لكي نرتب أنفسنا على مواجهة تلك الاحتمالات مهما تكن قسوتها .

وعندئذ تقلقل في مجلسه شيخ هرم كان قد اشترك في الحديث منذ قليل . ودعا المناضل القديم إلى الإفصاح عن تلك الاحتمالات المستقبلية كما يراها .

فقال المناضل القديم أيا سيدى أنا لست عرافا ، ولا منجما ، ولا أستطيع الرجم بالغيب . لكننى قد سمعت كما سمعتم مقالة رئيس الجمهورية التي حددت موقفه من مسار الحرب بعد أن اكتشف حجم المساعدات الأمريكية العاجلة التي تلقتها إسرائيل .. وأظنهم فهمتم كما فهمت من تلك المقالة أن الحرب قد تقرر مصيرها بإعلان الرئيس : أننا لا نحارب أمريكا .. فالمنى الواضح لهذا الإعلان أن الرئيس منذ اليوم سوف يخضع للمشيشة

الأمريكية التي فرضت عليه قوة إسرائيل ، ولم تتركه لينعم بنشوة الانتصار عليها .

قال الشيخ المتفائل : وهل تقبل روسيا بذلك ؟

قال المناضل القديم : لا أعتقد أنها تقبل ، ولكن قبول صاحب المشكلة هو الأساس ، فالصداقة كما نعرف جميعا لها قوانينها الخاصة بها . ومن أول هذه القوانين حرية اختيار الصديق وفقا لوجهة نظر من يختار وليس لوجهة نظر طرف ثالث .. وأظننا نعرف أن كثيرا من الأصدقاء نفاجتهم الأيام بأنهم كانوا مخدوعين عند اختيارهم للأصدقاء الذين اثروهم . وأن كثيرا من الأعداء ينقلبون مع الأيام إلى أصدقاء .. هذا بالمستوى الشخصى العادى . وأما بمستوى الدول فالمسألة مسألة المصالح التي تخدمها علاقات الصداقة أو العداء . وعلى رأس هذه المصالح في معظم الأحيان تلك المصالح الاقتصادية .

قال الشيخ المتفائل : واية مصلحة اقتصادية في أن نصادق الذين يدعمون اعدائنا ؟

قال المناضل القديم : حتى الآن نحن لم نصادق اعدائنا .. ولكننا سوف نصادقهم .

- والعرب ؟ قالها الشيخ في دهشة واستنكار . فأجابه المناضل القديم قائلا : إن العرب في نهاية الامر لن يستطيعوا قتال اسرائيل إذا تخلت مصر عنهم . ويخيل إلى إن رئيس الجمهورية قد حسب حساباته ، ورتب نفسه على العمل وفق خط سياسى جديد . خط يضع في مقدمة حيثياته أن تجاوز الواقع الحالى لن يكون إلا بأجيال أخرى من العرب القادمين مع المستقبل غير المنظور .

وانتفض الشيخ منزعا وصاح : معنى أننا الآن مرغمون على التسليم بالامر الواقع رغم مرارته وإن علينا أن نعانى ولسنوات أخرى من آثار الهزائم حتى تأتى تلك الاجيال الجديدة من العرب ، وأن كل تلك النصحيات التي قدمناها منذ أربعينات القرن العشرين وحتى الآن قد ضاعت هباء !! بالخيبة الأمل الكبرى إذا صح هذا الكلام !! عندئذ اهتز المجلس بصوت أحد الشباب القادمين من الجبهة لمناسبة العيد قائلا هذا هو الواقع !! واتجهت الانظار كلها إليه وكأنها تسأله الإيضاح لرايه فقال : نحن لا نستطيع الاستمرار في القتال حاليا مع إسرائيل إلا به شاعر الراغبين في الانتحار !!

وهنا قطع عليه المناضل القديم حبل تفكيره حتى لا يسترسل في الحديث ، وقال بدلا عنه حقيقة التصريح الذى أفضى به السادات لا يدل على أنه يرغب الاستمرار في القتال . وتبعاً لذلك فإننا نستطيع القول بأنه سوت يعدد إلى المهادنة والمصالحة ما استطاع إلى ذلك سبيلا . بل ولربما وضع يده في أيدي الإسرائيليين ووقع معهم معاهدة شبيهة بتلك التي وقعت مصر مع الانجليز في عام ١٩٣٦ . ذلك لأن سيادته ليس من طينة الزعماء الذين لا تهمهم أمريكا ، فيعلنون استعدادهم للحرب معها عشرين سنة بعد عشرين سنة سابقة إلى أن يرغموها على الانسحاب كما هو حادث في فيتنام ..

وعند هذا كان قد استشعر الخطر من الاستمرار في سوق التنبؤات المزعجة على هذا النحو فتوقف عن الحديث زاعما أنه قد تأخر عن موعد هام ولاذ مسرعا بالانصراف .

وكانما تلك التنبؤات كانت قراءة في صفحات المستقبل الذى جاءت به الأيام بتسلسلها على النحو التالى :

٦ - العم سام يكسب الجولة :

في التاسع والعشرين من اكتوبر سنة ١٩٧٣ التقى اسماعيل فهمي بالدكتور كيسنجر لكى يفهمه أن الهدف من هذا اللقاء هو إزالة التوتر الذى كانت عليه علاقات البلدين مدة ٢٠ عاما . وأن الرئيس السادات يريد تعديلا جوهريا تجاه الولايات المتحدة واسرائيل !! [عرف ذلك فيما بعد]

وقال كيسنجر إنه لا يريد أن يبدد جهده من أجل تحقيق هدف صغير هو إعادة إسرائيل إلى خط ٢٢ أكتوبر ، بل يفضل التركيز على دعم وقف إطلاق النار لكي يصبح منطلقا لمفاوضات السلام كما أبدى رأيه في تعطيل ضخ البترول العربى إلى الولايات المتحدة ، وقال إنه لا يستحث جهود السلام !! وهكذا بدأت مصر تترضى العم سام وبدأ العم سام على رأيه . ولم يكن في وسع مصر التي تواجه عند الكيلو ١٠١ مفاوضات مع واثع الهزيمة التي لا يتنازل الإسرائيليون فيها عن أى شيء من غير ثمن لرفع حصارهم عن منطقة السويس إلا أن ترضخ لما يراه العم سام .

وبالفعل وافقت مصر من خلال إتفاقية النقاط الست التي تم توقيعها يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٧٣ على ما رآته أمريكا في « واشنطن » وجاءت النقطة الأولى لتقول :

● إن الاتفاق قد تم على التركيز على التسوية العامة بدلا من الإصرار على عودة الإسرائيليين إلى خط ٢٢ أكتوبر .. كما جاءت النقطة الأخيرة لتقرر .

● الاتفاق على إعادة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية . وكان هذا هو المراد من رب العباد « فض الاشتباك مع الولايات المتحدة الأمريكية » وليس مع إسرائيل !! فهي وحدها القادرة على تحريك الموقف بدون التعاون مع الاتحاد السوفيتي .

ولما أصرت إسرائيل في مباحثات الكيلو ١٠١ على عدم مناقشة العودة إلى خط ٢٢ أكتوبر طالبت مصر بتحقيق فض الاشتباك مباشرة وفورا .. لكن الدكتور كيسنجر رد بأن فك الاشتباك سيكون أول الموضوعات على جدول أعمال مؤتمر السلام . وليس شرطا مسبقا لعقد المؤتمر . فلقد كانت للولايات المتحدة خطط عملها وتوقيعاتها .

وهكذا يتأكد أنه لن يكون هناك إلا ما يريده العم سام !! ودليل ذلك أن كيسنجر هو الذى اتفق مع الطرفين في أوائل ديسمبر سنة ١٩٧٣ على الإطار العام لفض الاشتباك .. وتضمن هذا الإطار انسحاب إسرائيل إلى مسافة ٣٠ كيلو مترا شرقى القناة ، وتخفيف القوات المصرية في شرق القناة . على أن تفصل بين الطرفين قوات دولية ثم أعلن في نهاية زيارته للقاهرة أن الفصل بين القوات سيكون على رأس الموضوعات التي سوف تبحث في المرحلة الأولى لمؤتمر جنيف ..

ومن جديد عادت مصر إلى دوامات المفاوضات والمحادثات ، والمساومات التي كانت قد انتهت منها منذ عام

١٩٥٤ !!

وفي ٢١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ انعقد مؤتمر السلام بجنيف وحضرته مصر والأردن وإسرائيل بينما تخلت سوريا .. ومكث انعقاد المؤتمر أياما دونما نتيجة تذكر !! ثم جاءت اتفاقية فك الاشتباك رقم ١ التي أبرمت أسسها في فندق كترأكت بأسوان بين كيسنجر وأنور السادات . وبمقتضى تلك الاتفاقية أصبح من حق مصر الاحتفاظ في شرق القناة بفرقتين و ٢٠٠ دبابة مع عدم وضع مدفعية أو صواريخ أرض جو .. كما أصبح من حق إسرائيل بأن تستبقى قواتها إلى الشرق من سيناء .. على أن تكون المنطقة بين قوات البلدين منزوعة السلاح وتعمل فيها دوريات الأمم المتحدة .. ويجب أن يبدأ تطهير القناة وبناء مدن القناة عندما يتم الانسحاب الإسرائيلي على أن يسمح للسفن الإسرائيلية بعبور القناة عند فتحها ، وتم الإعلان عن تلك الاتفاقية في مساء ١٧ يناير سنة ١٩٧٤ .

وظهر للجميع أن العم سام . هو الذى كسب الجولة ، فهو الآن يتحرك على المسرح السياسى في المنطقة دون أن ينازعه أحد .. يقول فتمثل كل من مصر وإسرائيل . على أن المثير أنه كان يتحرك دائما من منطلق الحماية الكاملة لإسرائيل ، الأمر الذى جعل السادات يطالب بالحيدة النزيفة بين الطرفين . ولم يبخل العم سام بالتظاهر بصورة

المحايد . وعلى ذلك فإن السادات في يوم ١٧ إبريل من نفس العام يدلى بتصريحاته التي يقول فيها . « لقد أمكن تحييد أمريكا فلم تعد تقع في معسكر إسرائيل وأنها ستتعامل مع مصر وإسرائيل على قدم المساواة !!

٧ - التفكير للأصدقاء :

منذ شهر يناير سنة ١٩٧٤ ، كانت اللقاءات مع « العم سام » ممثلا في الدكتور كيسنجر تتم في الخفاء . وكان ذلك تطبيقا لرأى أبداه كيسنجر عشية إجهاض نصر ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . الأمر الذي دعا القائد السوفيتي بريجنيف إلى أن يسأل إسماعيل فهمي وزير الخارجية تقديم المزيد من المعلومات عن مباحثات كيسنجر .. وكان ذلك يوم ١٨ يناير سنة ١٩٨٤

ورد الرئيس السادات على ذلك بما يفيد إثارة عقد اتفاقية فض الاشتباك لأنه لم يكن ممكنا مناقشة تفاصيل الحل النهائي في مؤتمر جنيف نظرا لتغيب سوريا عن الاجتماع .. ولم ينس السادات مبالغة في التلميح أن يقول « إن مركزنا سيزداد قوة وفعالية باستمرار الدعم السوفيتي لقواتنا في مواجهة ما امدت به أمريكا إسرائيل » . ودعا لدعم الصداقة بين البلدين !! ونسى السادات أوتناسي أنه من قبل أعلن يوم ١٧ يناير : أننا نتجه إلى تحقيق التوازن في علاقاتنا بالدولتين العظميين !!

وفي ٢٨ إبريل أعلن السادات أنه نظرا لعدم استجابة السوفيت لطلبات التسليح فقد قررت مصر تنويع مصادر السلاح !! ولم ينس مرة أخرى أن يعمه بأننا نعمل على استمرار الصداقة ، ولا نعمل على سوء التفاهم !! ولما طلب بريجنيف الرد على السؤال المحدد إلى أين نتجه ، وأهم من ذلك إلى أين يجب أن نتجه ؟ تحدث السادات بما يفيد أن الولايات المتحدة عرضت التسوية السياسية منذ ديسمبر الماضي ، وتحقق ذلك في اتفاقية فض الاشتباك في يناير سنة ١٩٧٤ . وكان من الطبيعي أن يحدث ذلك دونما استئذان من السوفيت فضلا عن أنهم لا يملكون التأثير في الوضع . وقرر أن السوفيت لا يستريحون لاتجاهنا لتحقيق التوازن في العلاقات مع القوتين العظميين . وأضاف متحديا : لقد أعطينا الأمريكيين اتفاقية ، وتسهيلات لخمس سنوات - ثم عاد للتلميح ، ولكننا سنبقى التسهيلات السوفيتية ، ومعاهدة الصداقة والتعاون ولو أنها أصبحت غير ذات موضوع !!

وفي ١٤ أكتوبر وصل وفد مصري كبير إلى موسكو ؛ وعلى رأس هذا الوفد كان إسماعيل فهمي وزير الخارجية وقدم خطابا للرئيس بريجنيف في صباح يوم ١٥ .. وعلى الرغم من كل الكلام الملفف الجميل ، فقد قيل إن بريجنيف رد ردا محددا بما يلي :^(١)

١ - أبرم السوفيت عقود تسليح لمصر قيمتها ٥٢٦٧ مليون روبل . نفذ منها ما قيمته ٤٩٦٨ مليون روبل وتم في حرب أكتوبر تسليم ما قيمته ٦٠١ مليون روبل .

٢ - أن وقف إطلاق النار تم بطلب من مصر وسوريا ، وتم استصدار قرار بتطبيق فوري للقرار ٢٤٢ ويعقد مؤتمر للسلام . ولكنهم سمعوا بعد ذلك من الصحف عن توقيع اتفاقية فض الاشتباك ، وبينما الصداقة تلزمنا بتبادل الآراء .

ثم إن التعاون يفترض أن يتم : تبادل المنفعة ؛ ولكن ذلك غير محقق ، فالاتحاد السوفيتي قدم التسليح والاقتصاد (١٥٠ مشروعا) وقدم قروضا طويلة الأجل ويريد الآن استرداد هذه الديون ، وأن ارتفاع أسعار الخامات يعتبر لمصلحة سداد مصر لديونها الآن . وهذا يناقش في القمة .

وطالب من وزير الخارجية أن ينقل للرئيس السادات أنه سيزور القاهرة في منتصف الثاني من شهر يناير

سنة ٧٥ . وكان من المنتظر أن يفسح الرئيس السادات الطريق لتلك الزيارة التي أرسل الوفد الكبير لى يطلبها ولكن الذى حدث هو العكس ، فقد تجاهلت القاهرة السوفيت ، واستبعدتهم من مباحثات كيسانجر التي كانت تدور في جولة جديدة . في ٨ ديسمبر سنة ٧٤ . الأمر الذى دعا السوفيت إلى التحذير من مخاطر التحركات الجزئية نحو التسوية النهائية المتفق على تحقيقها من خلال مؤتمر جنيف الذى كانوا يرجون انعقاده في شهر فبراير سنة ١٩٧٥ .

وبدا أن السادات ماضٍ في طريق التنكر للأصدقاء القدامى ، ترحيبا بالأصدقاء الجدد ، ومن ثم لم يحضر بروجينيف للقاهرة ولم يدم التمسك بمؤتمر السلام في جنيف باعتباره الطريق المأمون الممكن - وحدثت تحولات جذرية في السياسة المصرية تجاه كل من الولايات المتحدة وإسرائيل . فقد أعيد فتح قناة السويس للملاحة ، وحقق الأمريكيون اتفاقية ثانية لفض الاشتباك . وانتصرت سياسة الخطوة خطوة ، وتم الاسترخاء في الجهود السياسية ، وخسر السوفيت معركتهم في الشرق الأوسط بفضل سياسة السادات التي انتقواها منذ شعر بهزيمة الدفرسوار بل ربما منذ سنوات قبل ذلك في غشية توليه السلطة في البلاد !!

٨ - فض الاشتباك :

بجهود أمريكية دحوب ، تم توقيع اتفاقية إسرائيلية مصرية لفض الاشتباك في خريف سنة ١٩٧٥ . وفي إطار تلك الاتفاقية تقدمت أمريكا باقتراح قبله الطرفان ، وكان هذا الاقتراح يقضى بإنشاء نظام للإنذار المبكر ، يتضمن محطة رقابة وإنذار مبكر استراتيجي لكل منهما ، ويديرها طاقم وطني لا يزيد عدد أفرادهِ عن ٢٥٠ فردا ، وثلاث محطات إنذار مبكر تكتيكي يديرها طاقم أمريكي لا يزيد عدد أفرادهِ عن ٢٠٠ .

واتفق البلدان على توفير المساعدات الأمريكية لتشغيل جهاز الإنذار المبكر المصري ، والمنشأ في المنطقة العازلة .. والتزمت أمريكا بالتشاور مع مصر في حالة خرق إسرائيل للاتفاقية .

أى هوان هذا ؟ هكذا قال المفاضل القديم عندما طالع الصحف ، وكان آنذاك يعمل في الرياض ، وكان إلى جواره بعض الزملاء المصريين فدعاهم إلى مطالعة الصحف .. وعلق قائلا نحن منذ اليوم في حملة أمريكا !! فهذه الاتفاقية ليست مؤقتة وقد تستمر عشرات السنين وهذه الاتفاقية تستبعد النضال العسكري . ولا تضع في اعتبارها باقى الجبهات العربية .

وكان من الطبيعي أن تلقى سياسة السادات هذه معارضة عربية وسوفيتية .. الأمر الذى دفع أصحاب الأقلام الحكومية للدفاع عن هذه السياسة بكل قوتهم ، كما دفع السوفيت إلى مخاطبة الحكومة المصرية برسالة تندد بروح المعادة تجاه الاتحاد السوفيتي . صاحب المواقف المبدئية التي ألزم نفسه فيها بمساعدة من يخوضون النضال من أجل الاستقلال الوطنى ، وأشارت الرسالة إلى تلك المواقف التي يعرفها المصريون منذ عام ١٩٥٦ . ثم نعت الرسالة على الحكومة المصرية أنها تسوى بين الاتحاد السوفيتي والإمبريالية . مما يعد تشويها متعمدا للمساعدات ومبادئ السياسة السوفيتية . وكانت هذه الرسالة في أكتوبر سنة ١٩٧٥ .

وهكذا كان فض الاشتباك الثانى سببا في إحداث اشتباكات كثيرة مع الأصدقاء هؤلاء الذين لم يقتربوا من معاهدة الصداقة والتعاون بالمساس ، بل اعتبروها أساسا للعلاقات الطويلة الأجل . وأكدوا على لسان بروجينيف في المؤتمر الخامس والعشرين أنهم سيظلون أوفياء للخط المبدئي في تدعيمها !

لكن السادات وقد كان حريصا على أن يكون فض الاشتباك وسيلة لنقض كل شيء في العلاقات المصرية السوفيتية ، دعا مجلس الشعب للانعقاد ، وألقى خطابا حول العلاقات المصرية السوفيتية وبناء على اقتراح منه أصدر المجلس قرارا بإنهاء معاهدة الصداقة والتعاون بين البلدين ، والموقعة في عام ١٩٧١ .

وجاء ذلك دليلا جديدا على السياسة المعاللة للأمريكان ، وبرهانا قاطعا على معاداة الصداقة مع السوفيت . ولم ير السوفيت من جانبهم في هذا الإجراء إلا وضع نهاية قانونية للمعاهدة التي كانت في شلل فعلي قبل إلغائها .

٩ - الحل السلمي ومؤتمر جنيف :

بعد اتفاقية فض الاشتباك الثاني مع إسرائيل ، وإلغاء معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتي .. ساد الاسترخاء موقف مصر ، التي سلمت أمر مستقبلها لمشينة الولايات المتحدة بعد أن أهدرت ثقل الاتحاد السوفيتي . ولذلك فإن عقد مؤتمر جنيف للوصول من خلاله إلى حل سلمي للمشكلة أصبح موضوعا للمعاطلة والتسويق !!

ولم يكن من المعقول أن يظل الجمود والركود هو الوجه الوحيد الذي يستمر القبول به ، وبخاصة بعد نجاح اليمين بقيادة الليكود في انتخابات إسرائيل ومجيء مناحم بيجن صاحب الماضى العريق في التعصب ضد العرب . ومن أجل ذلك : أعلن وزير خارجية مصر أن موقفها مبني على رفض التنازل عن « بوصة » من الأراضي ، وعلى ضرورة إنشاء دولة فلسطينية . ثم هدد بأنه في حالة عدم تحقيق ذلك فالحرب الشاملة سياسية واقتصادية وبتروولية تبقى وسيلتنا القانونية لتحرير الأرض . لكن ذلك لم يحرك ساكنا لدى أى من أمريكا أو إسرائيل .. وعلى العكس راحت إسرائيل تمعن في التأكيد على رفض العودة إلى خطوط سنة ٦٧ . أو إشراك الفلسطينيين في « مؤتمر جنيف » ، وأتبع ذلك بضم الضفة الغربية وتعزيز إنشاء المستعمرات في الأرض المحتلة .

وحتى عندما اتفقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على عقد مؤتمر جنيف في أكتوبر سنة ١٩٧٧ عمدت إسرائيل إلى رفض الذهاب للمؤتمر الدولي ، وتوصلت إلى اتفاق مع الولايات المتحدة يؤكد قرارى مجلس الأمن ٢٤٢ ، ٣٣٨ باعتبارهما الأساس الذى يقوم عليه استئناف المؤتمر وإيس بيان الدولتين الذى يدعو إلى حل المسائل الفلسطينية بما في ذلك إقرار حقوق الشعب الفلسطينى !!

وهكذا لم يعد هناك أمل في عقد « مؤتمر جنيف » ، ولم يعد هناك طريق للحل السلمي ؟ ! وكان من المتعين البحث عن طريق الحل بالقوة .. بيد أن هذا الطريق كان قد أضحى مسدودا بعد أن رجحت كفة القوة الإسرائيلية ، وخفت موازين القوة العربية . وعلى الأخص عندما فقدت حليفها الذى كان يمكن أن يعدها بالقوة .

١٠ - زيارة القدس :

وهكذا لم يجد السادات من حل سوى القيام بمبادرته التي قام فيها بزيارة القدس يوم السبت ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٧ .. وكان المناضل القديم إذ ذاك في عرفة أداء لمناسك الحج ، وفي صباح عيد الأضحى المبارك وبينما كان السادات في المسجد الأقصى .. كانت المناقشات السياسية هي العنصر البارز في نشاط الحجيج . كل المسلمين والعرب يلتمسون من الحجاج المصريين تفسيراً لهذا الموقف الذى وقفه السادات . واجتهد المناضل القديم في محاولات الإقناع بأن هذا الموقف هو الشيء الوحيد الممكن في هذه الظروف . ذلك لأن محصلات مواقف القوة لم تصل بالعرب إلى الانتصار الحاسم الذى يجعلهم سادة الموقف !!

وهناك في الكنيسة الإسرائيلية أعلن السادات قبوله بالحدود الآمنة لإسرائيل ، وبحقها في أن تعيش مع جيرانها العرب في أمن واطمئنان .. ثم ألزم نفسه بقبول كل الضمانات الدولية التي تتصورها إسرائيل وممن ترصاه .

ورتب السادات على هذا الإعلان ضرورة الحل السلمي الذي لا يستقيم مع إحتلال أرض الغير ولا مع تجاهل الشعب الفلسطيني الذي اعتصبت أرضه .

ومن خلال هذا الموقف دعا إلى إتفاق سلام يقوم على إنهاء الإحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية التي احتلت في عام ١٩٦٧ ، وتحقيق الحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني وحقه في تقرير مصيره بما في ذلك حقه في إقامة دولته . وحق كل دول المنطقة في العيش في سلام داخل حدودها الآمنة والمضمونة عن طريق إجراءات يتفق عليها تكفل الأمن المناسب للحدود الدولية ، بالإضافة إلى الضمانات الدولية المناسبة .. وإنهاء حالة الحرب القائمة في المنطقة !! واعترف السادات بأنه عندما قرر هذه الزيارة إنما اختار الخروج على كل السوابق والتقاليد التي عرفتھا الدول المتحاربة . فعلى الرغم من إحتلال الأراضي العربية فإنه لم يُحجم ولم يتردد واتخذ قراره بكل [صفاء الايمان وطهارته]

ولقد لقيت المبادرة الساداتية ردود فعل متباينة .. رضى عنها « كلتر » ، وحيثها « لوربا » ، وسمتها فرنسا مبادرة « شجاعة » .

لكن الأشقاء العرب لم يروا فيها غير اتجاه منفرد إلى حل مستقل يتباعد عن التزامه بالقضية الفلسطينية ، ويهدم اتحاد الإرادة العربية ، ويحرضها على الدخول في متاهات الإنقسام ومع ذلك فإن السادات لم يبال بأى اعتراض ، وراح يسعى من خطوة إلى خطوة حتى تم توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل وفق شروط قبلها وارتضاها .. وسارت مصر وحدها بعد ذلك إلى أن سقط السادات في حادث « المنصة » سنة ١٩٨١ .

١١ - إسرائيل في العهد الجديد :

بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد ظهرت آثارها المباشرة في عديد من الاتجاهات فلقد اهدرت قيمة المؤتمر الدولى في حل المشكلة وأحلت محله أسلوب المباحثات المباشرة بين مصر وإسرائيل وبمشاركة الولايات المتحدة ، كما قضت على التضامن العربى الذى كان قد أثبت فاعليته في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ففى هذه الحرب دخلت سوريا المعركة وكذلك العراق ، ولقد أرسل البعض قواته إلى الميدان ، بينما اشترى البعض سلاحا للحرب . أو فرض الحظر البترولى الخ . وبالقضاء على التضامن العربى انفردت إسرائيل بالأرض المحتلة ووسعت نطاق المستعمرات فيها ، ومارست كل أساليب القمع للقضاء على الروح الوطنية الفلسطينية . ويفضل الاتفاقيات أصبحت إسرائيل مطلقة اليد في كل المنطقة العربية . فتجاسرت على غزو لبنان ، وحصار بيروت ، والإعتداء على تونس ، وضرب المفاعل النووى العراقى الخ .

وكسبت إسرائيل من هذه الاتفاقيات مزيدا من الدعم الأمريكى فعقدت معها الولايات المتحدة معاهدة الدفاع الاستراتيجى ودعتها للمشاركة في حرب الكواكب ، وضمنت تفوقها العسكرى . وإلى جانب ذلك فقد ساهمت إسرائيل ولم تنزل تساهم في توريد الأسلحة لإيران التى تستخدمها في حرب الخليج بهدف انهك الدول العربية . والقضاء على فعالية المصادر البتروولية التى كانت تستخدمها في الحرب معها .

ولقد نجحت إسرائيل في تحقيق حلمها القديم بإبعاد مصر عن المعركة التى يخوضها العرب ضدها . فجعلت من مبادرة السادات مجرد حل منفرد . انسحبت بمقتضاه من سيناء انسحابا مشروطا بتقييد السيادة المصرية على أراضيها من خلال محطات الإنذار المبكر - والقوات المتعددة الجنسية - والمناطق المحدودة التسليح الخ .

وهكذا اكسبت مبادرة السادات إسرائيل قوة إلى قوتها ، ولم يكن ذلك بسبب قلة الإمكانيات المتاحة للعرب ، وإنما بسبب ضعف الإرادة والتخاذل ، فلقد كانت معنا كل الدول العربية ، وكل الدول الاشتراكية ، وكل دول عدم الانحياز .. وكان من الممكن أن نضع الخيار العسكري في حسابنا ولا نسقطه كما فعل السادات الذى تطوع بالموافقة على أن تكون حرب ٧٣ هى آخر الحروب .

١٢ - التدهور الاقتصادى :

تابع المناضل القديم كل تلك الأحداث والنتائج في الميدان السياسى ، والفكرى . ولم يغفل عن متابعة التطورات الاقتصادية التى واكبتها ، فهو قد تعلم أن الاقتصاد هو عصب الحياة ، وبمقدار التحولات الطارئة عليه تكون تلك التحولات السياسية والعسكرية والثقافية والأخلاقية والجمالية وغيرها .

ومن ثم فإنه كان يهتم بالربط بين تلك الانتكاسات السياسية وبين السياسة التى اعتمدها السادات طريقا للتطور فى مصر .. فهو عندما يتجه بكلية إلى الاعتماد على الغرب وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية فى حل مشكلاته السياسية لابد له فى نفس الوقت أن يفتح لهم أبواب الاستثمار فى بلاده .. ومن أجل ذلك فإنه انتهج نهج الذهاب إلى عواصم الغرب للاجتماع برجال الأعمال وتقديم التسهيلات تلو التسهيلات !!

وتدفقت رموس الأموال فى شكل قروض ، أو منح ، أو مشاريع استثمارية أو تسهيلات ائتمانية الخ ولم يكن يغيب عن فطنة أحد فى مصر أن القروض التى تحولت إلى ديون باهظة هى التى تسببت فى احتلال مصر من أكثر من قرن من الزمان .. ففى البداية كانت شركة قناة السويس الممولة برأسمال الاستعمار الإنجليزى والفرنسى ، ثم تحولت مصر بعد ذلك إلى مجال من مجالات الاستثمار الربوى ، وتحول معها المصريون إلى مجرد خدم للقروض وفوائدها ، وعن طريق الدين وصندوق الدين بدأ التغلغل فى أعمال الحكومة والانتقاص من السيادة الوطنية . وهكذا تحولت مصر من بلد مستقل إلى بلد مستعمر .

كان ذلك فى الماضى البعيد ، وظللنا نناضل أكثر من سبعين سنة حتى ظفرنا بالاستقلال !! علما بأن ديون ذلك الماضى لا يمكن أن تقارن بديون الحاضر . وتبعاً لذلك فإن نفوذ الدائنين فى الماضى كانت نسبته أقل .. ومع ذلك فإنه قد استدعى الثورة عليه !!

وكان المناضل القديم يعلن رأيه للأصدقاء المخلصين ، ويزعم لهم أن فداحة الديون وخطرها ليست بالامر الهين . فلقد أحدثت الديون فى حياتنا نوعاً من الانقلاب على العلاقات المصرية الدولية ، أدى إلى انقلاب آخر فى مجريات حياتنا اليومية : فمع الديون التى استندناها واعتماد سياسة الانفتاح المطلق على الغرب ، وفدت علينا ظواهر التضخم وارتفاع الأسعار بمتواليات مذهلة .. ومع الديون التى استندناها واعتماد سياسة الانفتاح المطلق على الغرب أمسكت بخناقنا أزمت البطالة والغذاء والإسكان . الخ وأصبح من المألوف أن يتخرج أبناؤنا من شتى دور العلم ليقعدوا على قارعة الطريق فى انتظار « الفرج » بالسنوات الطوال !! ومع الديون التى استندناها واعتماد سياسة الانفتاح المطلق على الغرب زحفت منتجاته على كل منافذ التوزيع لمنتجاتنا المعاملة ، وبمضى عدد قليل من السنين تورمت جيوب المنتفعين بالسمسرة والربح الحرام ، وأصبحنا نواجه جرائم الاختلاس والنصب ، والاحتيال والرشوة على أنها ظواهر مألوفة !

وسع الديون والانفتاح على الغرب هاجمتنا تجارة المخدرات ، وتهريب السموم ، كما هاجمتنا صفقات الأغذية الفاسدة ، وماكولات الكلاب ..

وهكذا أصبحت الديون عقبة كاداء في طريق تقدمنا ، فكلما رسمنا خطة للتغلب على مصاعبنا وقفنا الفوائد والاقساط المستحق سدادهما لكي نقول لنا من أين نستطيعون تمويل خطتكم وأنا أستغرق المليارات من ميزانيتكم ؟ وكان اصدقاء المناضل القديم يشاركونه فيما يراه ، ويعتقدون معه أن تخطى العقبات السياسية والاقتصادية والعسكرية رهن بتغيير شامل ينبغي إحداثه من خلال تدبيرات جسورة . ونضالات قوية ، وحشود كبيرة من أعرض الجماهير .

وتطلعت الآمال بالمناضل القديم إلى الكيفية التي يمكن أن يتم بها هذا التغيير . ولم يجد بدا من التأمل في دروس الماضي بكل أشواقه وتحدياته ، لكيلا يقع مرة أخرى في مواقع الخطأ القديم .

وما زالت به التأملات ، تنتقل به من مضيض اليأس ، إلى تطلعات المستقبل مدّة غير قصيرة .. إلى أن وقف على حقائق الظروف القائمة فاحتسبها هي الثمار الذي جنتها مصر من رحلتها الطويلة المعاصرة .. ومن هنا انطلق الى استخلاص تلك الدروس ..



الفصل الخامس عشر

حصار السنين

١ - الحصار الشخصي :

انتهى المناضل القديم إلى الشعور بخيبة الأمل عدة مرات عبر رحلته الطويلة مع الأشواق والمتاعب ، ولكنه في كل مرة كان يقول لا بأس . فقد تعلمت شيئا مما انتهيت إليه ، وعلى أن أستأنف المسيرة من جديد بشرط أن أتجنب الوقوع في نفس الخطأ السابق .

وعند نهاية المرحلة الساداتية التي عصفت بنصر أكتوبر وأجهضته ، وقنعت بالسلام المنفرد مع إسرائيل على حساب التضامن العربي لم يجد لديه القدرة على ابتلاع شعوره بتلك الخيبة الكبيرة ، ورأى في الذي انتهينا إليه نكسة عميقة يحتاج التخلص منها إلى عشرات السنين !! فهو قد كان في الأيام الخمسة الأولى لحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ يتطلع إلى يوم تصير فيه مقاليد الأمور إلى الجيل المنتصر . جيل العبور ، والتضحيات الأسطورية ، وقهر غرور الأعداء . وكان متأكدا من أن هذا اليوم سوف يكون يوم الانطلاق بمصر وامتها العربية إلى أبعد الآفاق في التقدم والرفق . لكنه - وبكل الأسف والمرارة - قد وجد نفسه ومصره ، وأمه في عمق هاوية الهزيمة من جديد ، ومن خلال مسلسل المباحثات والاتفاقيات التي قيدتنا بقيود شبيهة بقيود معاهدة سنة ١٩٣٦ ! ولقد ضاعف من ألمه أنه لم يعد شابا يمتلك القدرة على التحدي ومصارعة الأوهام .

وظافت برأسه لطيف ماضيه فاهتاجت نفسه . لقد كان يطمح أن يكون واحدا من العلماء المبرزين وتملك الأدوات التي كادت تبلفه تلك الفاية ، ولكنه ضحى بهذا الطموح لكي يساهم في تحرير وطنه وأمه عن طريق الاشتغال بالسياسة !! ولقد اشتغل بالسياسة أول ما اشتغل مع جماعة الإخوان المسلمين ، ولكنه ضحى بهذه العلاقة عندما اكتشف ما يشككه في قدرة تلك الجماعة على تحقيق أهداف الوطن والاستقلال . ولقد أعطى اليسار الماركسي كل ثقته وقدراته إلى حد التفاني ، وضحى بأجمل أيام عمره ولكنه لم يحصد معه هذا اليسار الماركسي غير الانتكاس !! وأخيرا رغب أن يعمل تحت إمرة عبد الناصر فلم يجد غير الألفام تزرع تحت قدميه !!

وبعد هزيمة النظام الناصري في سنة ١٩٦٧ ، وفي الوقت الذي كان يجب الكشف فيه عن كل أسباب الهزيمة لم يستطع الوقوف مكتوف اليدين ، وأبدى رأيه مستعدا لشر العواقب . وعاد إلى السجن من جديد !! وبعد كل ذلك جاء انقلاب ١٥ مايو سنة ١٩٧١ وتغنى بشعارات الديمقراطية فلم يلبث أن اقتحم على المسئولين أبوابهم وقدم رؤيته لنوع الديمقراطية التي بها ، وبها وحدها يمكن العبور إلى الانتصار ولكنهم صدوه بعد أن شكروه ، وسلطوا عليه أعين الرقباء .

ومع كل ذلك فإنه لم يسقط إلى حضيض عدم المبالاة ، ولم يصبح مجرد واحد من الموظفين غير المهتمين إلا بالحصول على رواتبهم . بل أخذ يشق طريقه في عمله الوظيفي بحماس ثورى ملحوظ ، وكان يقول لجميع من حوله لابد لكى ننصر أن نصبح من ذوى المبادئ الكبيرة .

هو إذن لم تستأثر به أعماله الوظيفية ، ولا حياته الأسرية ، ولا هموم الأولاد والسهر على تدبير شئونهم ، ولم يشغله شيء عن الولاء المطلق للأهداف النبيلة والمثل العليا . ومن أجل ذلك فإنه ظل يتعب قلبه بالمناقشات في شتى وديان الفكر والمعرفة . وكثيرا ما كان يغبط نفسه لامتلاكه أسلحة فكرية وثقافية لم يكن له أن يحصل عليها لو لم يخض هذا المخاض الذى انتهى به إلى منتهاه .

شيء واحد كان يؤله غاية الألم ويضايقه أشد الضيق ، فهو منذ بواكير الشباب قد تعود أن يكون صاحب تأثير يرضى عنه - في مجريات الحياة ، ولكنه الآن لا يستطيع أن يمارس هذا التأثير ! وكيف ؟ لقد أصبحت حياته مثقلة بقيود العجز عن الحركة الدموب ، فلم تعد لديه قدرة على صنع الأحداث ، أو إبطال آثارها الضارة . غاية ما يمكنه القيام به هو الحوار والمناقشة . وغالبا ما يكون ذلك في صالون أو مكتب أو نادٍ مريح !!

ولقد حاول مرارا العودة إلى رفاق الأملس كى يخفف عن نفسه حرقه الألم ولكن هيهات !! فرفاق الأملس قد تفرقوا شذرا مذر ، وكيف كل منهم نفسه على موقع يخصه ، ولم يعد هناك من يترابطون حول فكرة كاملة مثيرة : وحتى الذين تجمعوا في حزب التجمع لم يجد نفسه منجذبا إليهم إلا بمقدار ما يمثلون من ذكريات . ومن ثم كان إحساسه بالمرارة يزداد ، وكان كلما أراد أن يبيت فيمن حوله القدرة على العمل الفعال يشعر بالفشل . ذلك لأن الذى يريد أن يقود إلى العمل الفعال لابد أن يكون ذا عمل فعال . ورضى الله عن قال : « أفتم إلى قائدٍ فعال أحوج منكم إلى قائدٍ قوال » .

ومن هنا حاول التنقيب في أغوار نفسه عن أسباب عجزه عن الحركة الفعالة المؤثرة . إلى أن اكتشف أن الذى كان يكسبه القدرة في الماضى إنما كان نوعا من الثقة الكبيرة بالنفس . وكانت تلك الثقة مستلزمة من الالتحام الدائم بالجماهير ، وكانت الجماهير في مواقعها المختلفة تغل بالثورة والسخط على الواقع الاجتماعى الذى تعيش فيه . أما اليوم فإن شرط الثقة الكبيرة بالنفس لا يمكن ادعاؤه . وتبعاً لذلك فإن القدرة على التأثير الفعال تغدو مجرد أمنية يشفق إليها .

٢ - الحصاد المصرى :

وعلى سطح الواقع المصرى حاول المناضل القديم أن يرقب الحصاد . حصاد تضحيات الشعب وأبطاله منذ أيام عرابى وحتى الآن .. القتل الشهداء ، والسجناء الأبرياء ، والمشوهون التعساء ، ضحايا عهد الخديوى توفيق ، والخديوى عباس ، والسلطان ثم الملك فؤاد ، وأمير المؤمنين فاروق . ونظام عبد الناصروالسادات . ضحايا ثورة سنة ١٨٨٢ ، وسنة ١٩١٩ . ضحايا مظاهرات الطلبة في سنة ١٩٣٥ ، ومظاهرات العمال والطلبة في سنة ١٩٤٦ . ضحايا الكفاح المسلح في سنة ١٩٥١ - ضحايا حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ ، ضحايا حروب ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٧٣ . ضحايا الحزب الوطنى القديم وحزب الوفد ، ومصر الفتاة ، والإخوان المسلمين والشيوعيين . كل هذه التضحيات الجسيمة من أجل التحرر والتقدم ما الذى خلفته لنا من الحصاد ؟

وأبصر المناضل القديم فرق سطح الواقع جانبين من الحصاد - أحدهما إيجابى والآخر سلبى .. فأما الجانب الإيجابى فإنه يتمثل في تلك الإنجازات الثورية التى لم يعد من الممكن الرجوع عنها . ومن أهمها - ولا شك - طرد الاستعمار القديم من مصر . ومطاردته في البلاد العربية في الخمسينات والستينات ، وإجباره على التخفى خلف

أقنعة المساعدات والمعونات والقروض . وكذلك اقتلاع النظام الملكى وإحلال النظام الجمهورى محله . إلى جانب بناء السد العالى . ومصانع الحديد والصلب ، ومئات الصناعات الوطنية التى كانت مجرد أحلام . بالإضافة إلى تغيير الخريطة الاجتماعية ، على إثر الإجراءات الثورية التى قضت بإلغاء الملكيات الزراعية الكبيرة وتأميم الاحتكارات والبنوك الاستعمارية ، وإقامة القطاع العام .

وأما الجانب السلبي فإنه يتمثل فى الأزمت المسكة بخناقنا فى نواحى الإسكان والمرافق ، والتعليم ، والصحة إلى جانب النقص فى المواد الأساسية للغذاء . والتسيب الخلقى فى المعاملات الجارية بين الناس ، وسوء الإدارة فى أجهزة الدولة . وشيوع ظواهر الاختلاس والنصب ، والإتجار فى سموم المخدرات من كوكايين وهيروين وغيرهما . إلى جانب التضخم وارتفاع الاسعار المتوالى . نتيجة للانفتاح على دول الغرب سياسيا واقتصاديا وعسكريا . مع التسامح فى معاملة العناصر الطفيلية التى تركزت فى أيديها معظم ثروات البلاد .

ومن هذا القبيل أيضا ظهور الاتجاهات الإرهابية فى حقل العمل السياسى ، وسيطرة روح التسلق والنفاق فى الحياة العامة إلى جانب التفكك ، وعدم المبالاة عند أغلبية المواطنين .

كل ذلك وما إليه أصبح جزءا لا يتجزأ من نسيج حياتنا بعد كل تلك التضحيات التاريخية الطويلة . وأضحت مصر عاجزة عن اللحاق بركب الحضارة من غير قفزة ثورية تغير بها هذا الجانب من سلبيات الحصاد . واندلع فى ضميره لهيب الشوق إلى المساهمة فى تلك القفزة ولو بجهد العاجز .

٣ - الحصاد العربى :

وعلى امتداد الساحة العربية تبدو صورة الحصاد فادحة ، فعلى الرغم من كل التضحيات الباهظة منذ ثورة الشريف حسين عند أوائل القرن ، وحتى اللحظة الراهنة .. وعلى الرغم من ضحايا ثورات لبنان ، وسوريا والعراق ، واليمن ، والجزائر وليبيا وتونس وفلسطين والسودان ، فإن الحصاد الذى كان يبشر بالخير وبخاصة أثناء حرب العصور ، قد تحول إلى حصاد مرهق ينضج باليأس . ذلك لأن عوامل الهزيمة قد ارتدت بجميع أبناء المنطقة العربية إلى الوراء . فانكمش كل عربى داخل ذاته ، ولم يعد يفكر إلا فى الحفاظ على نفسه ، ومن ثم شاع التمزق والتفرق والتناحر بين الجميع . تارة بإسم الدين ، وأخرى بإسم الوطنية ، وثالثة بإسم تأمين الحدود .

ومن جراء ذلك طمع الطامعون فى تلك التركة الممزقة فأعدوا عدتهم لابتلاعها ، وأخذوا يساعدون على شن الحروب تلو الحروب بين الأشقاء بغية الإجهاد عليهم بعد إرهابهم ، وإزهاق كل قواهم .

وما هم أولاء ينفقون الجزء الأعظم من دخولهم البترولية على شراء الأسلحة التى يقتتلون بها ، بعد أن أودعوا مئات المليارات فى بنوك أعدائهم ، لكى يتم توظيفها فى مساعدة من يكيدون لهم . وهكذا لم يبق على الساحة سوى هؤلاء الصامدين من الفلسطينيين والعراقيين المثخنين بالجراح . هؤلاء الذين يصارعون الموت من أجل الحياة فى كل لحظة تمر بهم ومنذ أمد بعيد .

ومن أعجب العجب أن إيزان الشيوعية المسلمة . بمساعدة إسرائيل الصهيونية (المسالمة) توالى هجماتها . العدوانية على الأراضى العربية الإسلامية حتى بعد صدور القرارات الدولية بوقف القتال !! ولعل الأخطر والأخطر أن تحتذى بعض الدول العربية بأعلام أمريكا لكى تحاول المرور ببترونها من مياه الخليج !! أو أن تستدعى أمريكا لكى تقيم القواعد على أراضيها حماية لأمنها !!

من الذى كان يتصور أن يكون حصاد النضال البطولى للشعوب العربية منذ عهد الأمير عبد القادر الجزائرى ، وعبد الكريم الخطابى ، وعمر المختار هو هذا الحصاد المر ؟ أين الشهامة والإباء العربى المعروف ؟

أين روابط الدم واللغة والتراث والدين ؟

بتلك التساؤلات وأمثالها هتف لسان المناضل القديم آلاف المرات ! ورنث في أذنيه أصوات بعض الشباب الذين يرغبون في التغير فانتبه إليهم ، وروع قلبه أنهم يطلقون نيرانهم في غير اتجاه ، وراح يرنو إلى المستقبل المنتظر لهؤلاء الشباب .. ترى هل يكون مستقبلهم أحسن حالا من الذي كان مستقبله في يوم من الايام ؟ أم تراهم سوف يصرعون ويقذفهم موج الفشل إلى شواطئ النسيان ؟

ودار في رأسه أن يناشد الشباب العربي في كل الاقطار كي يبحثوا لأوطانهم عن طريق يتحدون عليه ، درءا لمخاطر الفرقة والتمزق !. فما أوصلنا إلى ما وصلنا إليه غير التشرذم والشتات ، ولو استهنا بما نحن فيه اليوم فلن يكون مستقبلنا غير المزيد من الهوان !!

لكنه تمنى لو تضافرت الجهود على هذه المناشدة من كل مناضلي الأجيال القديمة ، بحيث تكون تلك المناشدة إحدى بدايات بحث جديد ، فالشباب القادرون الآن على التضحية بأنفسهم في سبيل هدف مضمحل !! سوف يكونون أقدر لو اقتنعوا بالهدف الصحيح .

٤ - خطوات على الطريق :

واقناعا بأن تلك هي البداية التي يجب أن نبدأ بها فإنه أجرى حوارا متصلا مع بعض الشباب . واعتمد هذا الحوار على محورين اثنين : أما المحور الاول فهو محور المواطنة ، وأما المحور الثاني فهو محور الدين . وكان الذي يحاوره حول هذين المحورين أول الأمر شاب شديد الإخلاص ، والذكاء ، والثقافة ، كان عائدا من السجن بعد تبرئة ساحته من المشاركة في بعض الجرائم السياسية . سأله في أول الأمر إن كان يضايقه محاولة التعرف على فكره فقال لا .. وعندئذ سأله عن هذا الفكر فقال في أيجاز شديد : نحن نسعى إلى إصلاح دنيا الناس بالدين ، ونرى أن الذين يعترضون طريقنا من الداء الأعداء للدين . ومن أجل ذلك فإننا يجب أن نجاهدكم بأدنى درجات الجهاد وأعلاها ، حتى نبلغ الغاية التي نريد .

قال المناضل القديم : بارك الله فيكم وفي نواياكم الطيبة ، وحماسكم العظيم ، لكنني أرجو أن تحدد لي دنيا الناس التي تريدون إصلاحها .. أهى دنيا كل الناس في الكرة الأرضية أم هى دنيا خاصه لأناس مخصوصين ؟

قال الشاب : رسالة الإسلام عامة والدنيا التي نريد إصلاحها بالقطع هى دنيا كل الناس !!

قال المناضل القديم : مرة أخرى بارك الله في هممكم العالية وعزمكم الكبير .. ولكن هل يمكن تحقيق هذا الإصلاح الذى تريدونه دفعة واحدة ؟

قال الشاب : طبعا لا !! ولكن ذلك يستلزم وقتا ومراحل !!

قال المناضل القديم : هذا عظيم وإذن فإن هناك منطقة للبدء لابد من تعيينها .

قال الشاب : نعم .

قال المناضل القديم : وكيفية للبدء لابد من تصورها .

قال الشاب : نعم .

قال المناضل القديم : هل يمكننى تحديد منطقة البدء بالوطن ؟

سارع الشاب : نعم .

قال المناضل القديم : وهل يمكننى تصور الكيفية بأنها الدعوة المقنعة لاهل هذا الوطن !

وجاءت إجابة الشاب أيضا : نعم .

قال المناضل القديم : ولكن الوطن ليس مقصورا على المسلمين وحدهم . فهل ندعو المواطنين غير المسلمين أيضا أم تقتصر في دعوتنا على المسلمين وحدهم ؟

قال الشاب : قلت دعوة الإسلام عامة .

قال المناضل القديم : دعوة الاسلام العامة سمحت بوجود جيران وأصهار من أصحاب الديانات السعائوية الأخرى ولم تفرض عليهم نفسها .. بل احترمت عقائدهم وقننت قانون عدم التفرقة في المعاملة .. لهم ما لنا وعليهم ما علينا . أليس كذلك ؟

قال الشاب : بلى .. لهم ما لنا وعليهم ما علينا ولكننا لا نكف عن دعوتهم للإسلام ..

قال المناضل القديم : وإذا رفضوا ؟

قال الشاب : ندعهم وشأنهم .. عندئذ هتف المناضل القديم .. بارك الله فيك . وإذن فمحال الدعوة في نطاق الوطن هم المسلمون وحدهم .

قال الشاب : لو كانوا مسلمين ما دعوناهم إلى الاسلام . فالمبرر المنطقي لدعوتهم هو أنهم غير مسلمين .

قال المناضل القديم : قل لى بالله كيف تدعوهم ؟ هل تقول لهم : تعالوا أيها الكافرون لكي أدعوكم إلى الإسلام أم ماذا ؟

قال الشاب : لا .. لن أقول لهم أيها الكافرون إلا إذا اعترضوا طريقي .

قال المناضل القديم : حسن هذا .. إذن ستقول لهم تعالوا أيها المسلمون ؟

قال الشاب : لا . أقول لهم تعالوا أيها الناس .

قال المناضل القديم : كما قال القرآن الكريم في دعوة أهل الكتاب « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا البعض أربا من دون الله » ،

قال الشاب : نعم ..

قال المناضل القديم : ولكنهم سيقولون لك على الفور نحن لا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . ودليلنا أننا نشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. فماذا أنت قائل لهم ؟

قال الشاب : إنهم يكذبون ولو كانوا صادقين لما كانت هناك تلك الأنواع الكثيرة من الفساد !!

قال المناضل القديم : أمر صدقهم وعدم صدقهم مفوض إلى ربهم الذى يعلم السرواخفى .. أليس كذلك ؟

سكت الشاب ولم يتكلم .. ثم استأذن في أن يأخذ هودورا سائلا الذى يتلقى الإجابات .

فقال له المناضل القديم : سل ما بدا لك ..

قال الشاب في هدوء : أعتقد أن دين الإسلام مطبق في الأرض ؟

قال المناضل القديم : أعتقد ولا أعتقد .

قال الشاب في انفعال : وكيف ؟

قال المناضل القديم : الإسلام أركانه الأساسية مطبقة في شتى أقطار الأرض : فالمسلمون يشهدون الشهادتين ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويصومون رمضان ، ويحجون بيت الله الحرام . والإسلام شرائعه في المعاملات والحدود ملتزم بها ضمنا في عديد من بلاد العالم الإسلامى ،

وصراحه في المملكة العربية السعودية . لكن غير المطبق هو الأخلاق الفاضلة التي يحض عليها الإسلام .

قال الشاب في غضب : ولكن لماذا لا يتم الالتزام بمكارم الأخلاق الإسلامية ؟

قال المناضل القديم : لا فتقاد القدوة والمثل الهادى إلى مكارم الأخلاق .

قال الشاب في تحد : وكيف يمكن إيجاد القدوة والمثل ؟

قال المناضل القديم في صبر : أنت تعرف أن القدوة والمثل الطيب لا تخلقه عصا الإكراه ، أو استعمال القوة .

فمكارم الأخلاق في الأصل صفات سلوكية يتحلّى بها من يتربى عليها ، ولكي يتعلمها

غيرك منك . فإنك يجب أن تكون قد تربيت عليها ، وأصبحت من لوازمك التي

لا تنفك عنك .

قال الشاب في دهشة : معنى ذلك أن الطريق الذي يجب أن يسلكه راغبوا الإصلاح بالدين هو طريق التربية ؟!

قال المناضل القديم : وهل تشك في ذلك ؟ ألم يسلك الرسل كلهم هذا الطريق ؟ ألا تعرف أن رسول الإسلام كان

يربى أصحابه الذين آمنوا على أخلاق الإسلام وكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم هي المدرسة

الأولى التي رباهم فيها ؟ إنك تعرف ولا شك - قوله النبي المشهورة « إنما بعثت لأتمم مكارم

الأخلاق » ، وأنت لابد معترف بأن جوهر الغايات التي يقود إليها الدين لا يمكن أن يتحقق

إلا من خلال التربية .

قال الشاب مقاطعا : لكن عوامل الإفساد والغواية لها السيطرة الكاملة ، ومن ثم فإنها أقوى من دروس المربين !

قال المناضل القديم : ومن هنا صعوبة الرسالات وفضل المرسلين .

ولم يبد على الشاب أنه اقتنع بذلك .. فقال للمناضل القديم : أنا غير مقتنع بما تقول حتى

الآن ، ومع هذا فإننى أعد بالتفكير فيه . لكننى قبل ذلك أرجو أن تدلنى على عيوب التصدى

بالقوة للدفاع عن أغراض الدين . أليس من أحاديث الرسول « من رأى منكم منكرا فليغيره

بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » ؟

قال المناضل القديم : ليست المسألة بهذه البساطة فالرسول إذ تحدث بهذا الحديث كان يربى سامعيه على التزام

السلوك الخلقى الكريم . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر - المعروف هو مكارم الأخلاق ،

والمنكر هو مساوئ الأخلاق ومن الحق أن نتصور أن الرسول بذلك الحديث كان يحرض على

استخدام السلاح عند مواجهة أى منكر ، وإلا فلماذا لم نجد كل من سمع الرسول يستخدم

السيف أو الرمح أو السهم عندما يرى أى منكر ؟

عندئذٍ قاطعه الشاب قائلا : وكيف يتم تغيير المنكر باليد ؟

قال المناضل القديم : لا تقاطع : فمن المنكرات ما يمكنك تغييره بيدك مثل كف عدوان جائر على أخيه المسلم . بمنعه

من مواصلة هذا العدوان نصرة لنفسه ، ونصرة لمن يقع فريسة لجوره ، تحقيقا لأمر الرسول

« انصر أخاك ظالما أو مظلوما » .

ومن المنكرات ما لا تقوى وحدك على تغييره بيدك . لأنه في طبيعته يحتاج إلى تعاون عدد كبير

لتغييره ، ومثل هذا المنكر يستلزم استخدام لسانك لكى تجند المساعدين لك على التغيير .

أما التعبير بالقلب فإنه لا يكون إلا إذا لم يقيسرك التعبير باليد أو باللسان . وغالبا ما يكون

مقترف المنكر في هذه الحالة أقوى منك ومن الآخرين جميعا . وحينئذٍ فإنك يجب أن تستعمل

داخلك في التفكير والتدبير لهذا التغيير . أما أن نفهم من هذا الحديث أن كل مسلم مكلف عند رؤية أى منكر من أى إنسان أن يستعمل يده وما تحمل من سيف أو مدفع فهذا مالا يمكن تصور أن الهادى الأمين قد حض عليه لما يجره من الفوضى وسوء الحال .
تماما مثلما نفهم من هذا الحديث أن نكون سلبيين عندما لا نستطيع التغيير إلا بالقلب .
فالتغيير بالقلب أصعب مراتب التغيير فيما يبدو .

قال الشاب : وفريضة الجهاد - ياسيدى - ؟ هل الجهاد أيضا غير مفروض ؟
قال المناضل القديم : من قال ذلك ؟ إن الجهاد فريضة من فرائض الدين ، وبها يتم إعلاء شأن المسلمين ، وفرض العدل والحق بين الناس أجمعين !! لكنك تعرف - يابنى - أن الجهاد يعنى أولا الدفاع عن أرض المسلمين ضد أعدائهم . ولا يعنى أبدا مقاتلة المسلمين للمسلمين . أنسيت قولة الرسول « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار » قالوا هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : لأنه كان حريصا على قتل صاحبه !!

قال الشاب : ولكن من المسلمين من يقفون في صف أعداء المسلمين .
قال المناضل القديم : هؤلاء شأنهم شأن قطاع الطرق لا يرحمهم القانون . وينفذ فيهم حكم الإعدام .. لكنك أنت لست المكلف بالحكم عليهم بل ولا يجوز لأى أحد أن يتهم أى أحد بالخيانة ثم يجعل من نفسه سلطة اتهام وحكم وتنفيذ في وقت واحد .

قال الشاب : حيرتنى .. إن الخونة يعملون لحساب أعداء الإسلام ، ويدلونهم على عورات المسلمين فيمكنونهم من رقابتنا ، ويتسببون تبعا لذلك في أسوأ الهزائم . اليس كذلك ؟

قال المناضل القديم : بلى .. ولكن من الذى له حق إصدار الحكم بأن هذا خائن أو غير خائن ؟
قال الشاب : أمير المسلمين ..

قال المناضل القديم : ومن هو هذا الأمير ؟

قال الشاب : من ارتضته الجماعة الإسلامية لى يكون أميرا لها ؟

قال المناضل القديم : وما تعنى بالجماعة الإسلامية ؟

قال الشاب : أنت تريد محاصرتى ، وتصر على أنه لا يستحق لقب أمير المسلمين غير « الحاكم » ومن ثم فهو وحده من وجهة نظرك الذى يستطيع أن يصدر الحكم بالخيانة . اليس كذلك ؟

قال المناضل القديم : بلى ولكن معنى المحاصرة لم يخطر على بالى .. فأنت تعرف أن الجماعة الإسلامية لا يمكن أن تكون حفنة من الأفراد الذين جعلوا لهم أميرا ، وأرادوا فرض إمارته على عموم المسلمين !!

قال الشاب : ألم يقل الرسول . إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحداكم ؟

قال المناضل القديم : بلى .. ولكن إمارة واحد على اثنين لا تسوغ له حق الإمارة على غيرهما .

ولا الإسراف في تجاوز المعلومات المقررة والأحكام الشرعية .

فقال الشاب في مرارة : وهل تستطيع أن تدلنى على بعض صور هذا التجاوز ؟

قال المناضل القديم : نعم أستطيع ، والصور كثيرة يكتفى منها بمثلين اثنين .. مثل الالتواء بفهم النصوص القرآنية ، ومثل محاولة التشبه بالمعصوم في حقوق الطاعة .

قال الشاب : لم أفهم وأرجو الإيضاح .

قال المناضل القديم : صبرا على . فأنت تعرف أن آيات القرآن الكريم الخاصة بالجهاد قد نزلت من السماء للتوجيه

إلى محاربة أعداء الدين من كفار قريش أو غيرهم مثل قوله تعالى « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ومثل قوله أيضا « يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال » فإذا اجترأ بعض الأمراء وادعى أن الآية الأولى تدعو إلى شراء المسدسات والقنابل وإعدادها للغدر بالأمم من المسلمين فإنه يكون بذلك قد التوى بفهم النص عن غرضه الحقيقي الذي نزل من أجله .

وكذلك الحال بالنسبة للنص الثانى إذا ما استشهد به أى أمير لكى يحرض أتباعه على قتال مواطنيه وأهل ملته .

أما فيما يتعلق بالمثل الثانى فإنك تعرف أن بعض « الأمراء » يطلبون من أتباعهم حق الطاعة المطلقة أو « العمياء » كما يسمونها زاعمين أن هذا هو ما كان يفعله أتباع الرسول مع الرسول .. ومن ثم فإنه حق كل « أمير » يتولى الإمارة وباسم هذا الحق يطلبون من الأبناء معاداة آبائهم . وفسخ خطوبة أخواتهم الخ وطبعا التجاوز هاهنا لى غاية الوضوح . أفهمت .. يابنى . أم لا تزال فى حاجة إلى إيضاح ؟

قال الشاب : ربما أكون قد فهمت ما تقصد إليه ولكننى لا أزال غير مقتنع بوجهة نظرك : فنحن نعانى - ياسيدى - فى بلاد الإسلام من الهوان ما يجب أن يدفعنا دفعا إلى العمل على إصلاح أحوالنا . وأنت بهذه الطريقة لا تشجعنا على تلمس سبل الإصلاح التى نريد .

قال المناضل القديم : أرجو أن تتذكر الآن ماسبق أن قلته عن التربية التى تعتمد على القدوة والمثل الطيب . فهذا وحده هو السبيل الأقوم والأدوم والأشوق فى نفس الوقت .

قال الشاب : يا سيدى نحن الشباب لا نستطيع التعلق بالحبال الطويلة الممتدة فى المجهول .. ومن أجل ذلك فإننا راغبون فى العمل والتغيير الفوريين ، ونرى أن أقصر الطرق وأسهلها هو الإصلاح بالدين الواضح الذى توارثناه عن أسلافنا ، وتجاهلنا العمل به .

قال المناضل القديم : بيدوا أننا فى حاجة إلى جلسة أخرى لكى نستكمل المحاوره .. ووافق الشاب بالإيماء ثم انصرف على أمل اللقاء فى موعد جديد .

٥ - مسئولية الأحزاب السياسية :

بعد انصراف الشاب حاول المناضل القديم أن يتعمق المشكلات التى خلقت - برد الفعل - ما يصطلح الناس على تسميته باسم « التطرف » أو « الإرهاب » الذى يمارسه بعض الشباب من أجل « الإصلاح » وزعم لنفسه أن أولى المشكلات التى يواجهها الشباب هى عجز الكبار عن إقناعهم بأى منطق معقول .

فالشباب فى الفترة الحالية يعيشون لونا من التطور والنبض السريع فى كل بلاد العالم نتيجة للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية المتراكمة ، وهم فى بلادنا يقعون تحت ضغوط التخلف وضيق سبل العيش . وينظر الكثيرون منهم إلى المستقبل بعيون اليائسين من الحصول على الوظيفة والمسكن اللائق . وجيل الآباء عاجز عن تقديم الحلول ، أو الإرشاد إليها . أو فتح أبواب الأمل الذى يجتذبهم إليه ويدفعهم إلى التفانى فى سبيله .

ومن المعروف أن الشباب فى مراحل نموه يمر بفترة المراهقة الفكرية التى هى أخطر عليه من المراهقة الجسدية ومن ثم فإنه ينجذب إلى محاولات اختراق الواقع بأى سلاح يتاح له ، وبأى ثمن يدفعه ولو كان الحياة .

هذا الشباب لم تستطع الدولة بكل مؤسساتها ، ولا الأحزاب السياسية بكل نشاطاتها ، ولا الجمعيات الأهلية بكل جهودها أن تقدم له ما يبنى به عن الوقوع فى السلبيات التى يشكو منها الجميع .

ومن هنا يتضح أن حل المشكلة يكمن في تهيئة الشباب لكي يعيشوا عصرهم متفهمين لقضايا الفكرية والدينية ، وقادرين على الاختيار السليم بين المواقف المختلفة ..^١
ويعنى ذلك أول ما يعنى .. إشاعة الثقافة القادرة على توسيع مدارك الشباب واحتوائه للأفكار ، واحترامه للحوار ، وبيان مواقفنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية من المجتمع العالمى بطروقه المختلفة .. كما يعنى إشراك الشباب إشراكا حقيقيا في خدمة وتنمية المجتمع بأية صورة ممكنة .. خدمات عامة للمحافظة على البيئة أو الصحة ، أو محو الأمية أو إصلاح الأراضى أو إنشاء المجتمعات الجديدة . الخ .
كل ذلك وما إليه يفضى بالشباب إلى تحقيق ذاته ، ويخلق فيه روح الولاء للمجتمع ، ويكسب حياته معنى جديدا .

ومن المؤكد أن هذه هي مسئولية الأحزاب السياسية التى تتصدى للقيادة ، وتعمل على تغيير وجه الحياة إلى الأفضل .. فبدون الشباب الواعى بقضايا عصره وبلده ، والمنتمى بكلية إلى تراب وطنه سوف يستحيل أى تغير ..
وعند هذا الحد من التفكير رأى نفسه يتجه إلى واحد من الأعضاء في حزب معارض ويدعو لزيارته .. وبعد المجاملات المألوفة سأل هذا العضو عن أخبار حزبه وخطته المستقبلية ، وكان ذلك عقب الانتخابات التى تم إجراؤها في أوائل سنة ١٩٨٧ .

قال عضو الحزب المعارض : عرفت طبعا - أن الانتخابات قد تم تزويرها بواسطة مسئولى الأمن .

قال المناضل القديم : لا أعرف .. ولكن كيف ؟

قال العضو : ألم تدل بصوتك ؟

قال المناضل القديم : بلى .. ولكن ما علاقة إولانى بصوتى بتزوير الانتخابات بواسطة مسئولى الأمن ؟

قال العضو : هناك علاقة أكيدة - فأنت لابد - قد لاحظت أن جماهير الناخبين لم تذهب للجانب الانتخاب في أغلبها ، ولابد أنك قد لاحظت أيضا أن الذين حضروا لم يكونوا موالين لحزب الحكومة ؟

قال المناضل القديم : فلنفرض أن ذلك صحيح .. ولنفرض كذلك أن الحكومة قد حرصت على إسقاط أحزاب المعارضة بالتزوير ، وأن هذه هي خطتها في كل انتخابات سبق إجراؤها فلماذا لم تفرض المعارضة وجودها على الموقف .

قال العضو : وكيف تفرض المعارضة وجودها على الموقف مع سيطرة الحكومة على جميع مقدرات البلاد . الإعلام المسموع والمرئى ، والصحف ، ومصالح الناس . الخ ؟

قال المناضل القديم : كل الحكومات لها تلك السيطرة . فهل معنى ذلك أن أية معارضة لا تقدر على فرض نفسها أبد الدهر ، أم ماذا ؟

قال العضو : يجب أن تجرى الانتخابات عن طريق حكومة محايدة تعطى للجميع فرصهم المتساوية !! وفى هذه الحالة تأتى النتائج معبرة عن رأى العام تعبيرا دقيقا ، ولا يمكن تزويرها .

قال المناضل القديم : أعتقد أن للمسألة وجه آخر ينبغى الالتفات إليه .

قال العضو : وما هو هذا الوجه الآخر ؟

قال المناضل القديم : أعتقد أن الذى يحسم الموقف دائما في جميع الانتخابات هم أفراد الشعب ، وأن قدرة الشعب على الحسم رهن بمدى ثقته في الأحزاب أو المرشحين المعروضين عليه . ومن هنا فإن المعارضة القادرة على تحريك أغلبية الجماهير في اتجاهها لابد أن تنتصر .

قال العضو : معنى ذلك أنك تريد أن تلقى باللوم على المعارضة ..

قال المناضل القديم : كلا .. فكل من المعارضة والحكومة قد حصلوا حسب الإحصاءات الرسمية على نصف الأصوات المقيدة في جداول الانتخابات منذ عهد بعيد . ونسبة هذه الأصوات فيما أظن لا تزيد عن ١٥ ٪ من مجموع أهل مصر . أى أن المعارضة والحكومة لا يمثلون بما حصلوا عليه من أصوات سوى الأقلية القليلة من الشعب المصرى .

قال العضو : هذا صحيح . ولكن من السبب في ذلك ؟

قال المناضل القديم : السبب في ذلك هو انعزال الحكومة والمعارضة عن ٨٥ ٪ من مجموع الناس في مصر ، وهذا شيء لا يمكن تجاهله مهما قيل مدحا أو قذحا في تلك الانتخابات . وإذا أردنا دقة الوصف للنتائج التى أسفرت عنها الانتخابات فإننا يجب أن نقول إنها محصلة فشل الجميع في الحصول على ثقة الأغلبية من هذا الشعب ..

قال العضو : ولكن لماذا تحقق هذا الفشل من وجهة نظرك ؟

قال المناضل القديم : أعتقد أن السبب الأساسى للفشل هو عدم القدرة على القيام بمواقف عملية تعبر عن آلام وطموحات الشعب . فالأصل أن الشعب لا يمنح ثقته إلا للأعمال الكبيرة التى تدل على إخلاص صادق وتقان عظيم .

قال العضو : أوضح القول حتى أفهم .

قال المناضل القديم : أعتقد أنك معنى في أن كل ما يقدم للشعب اليوم يدور أغلبه في إطار الكلمات البليغة والخطب المنمقة ، والمقالات الضافية . اللهم إلا ما تستند إليه الحكومة من إنجازات عملية في الإسكان ، والمجتمعات الجديدة ، وحل مشكلة المواصلات . الخ . ومن هنا فإن الشعب لا يمكنه أن يمنح ثقته لمجرد الكلام .. فكم سنع الشعب وصدق ، ثم اكتشف أنه مخدوع .

قال العضو : كأنك تحتقر دور الكلام في تنوير الشعب وكسب ثقته .

قال المناضل القديم : لا . لكننى أقول إن كسب الثقة مداره الأعمال قبل الأقوال . وأعنى بالأعمال ذلك النوع من المواقف التى تهز المشاعر ، وتحرك الوجدانات تجاه تغيير الواقع الاليم الذى يعيشه الناس فيه .

قال العضو : زدنى إيضاحا .

قال المناضل القديم : خذ الامثلة من تاريخنا . فمثلا عرابي ورفاقه عندما أدركوا أن وراء إرهاب الشعب آنذاك ، وطأة الدين ، وتدخل الدائنين في شئون البلاد .. ماذا فعلوا ؟ تصدوا عمليا لضرب هذا التدخل ، ووضع حد لآثاره المدمرة ، ومن هنا وقف خلفهم جميع أهل مصر على إختلاف طوائفهم ، يسندون ظهورهم ، ويحمون ثورتهم ، وينشرون رسالتهم في كل مكان .

قال العضو : لكن الكلام كان سابقا على الموقف العملي ، ومواكبا له .

قال المناضل القديم : طبعا . ولكن انحياز الجماهير لم يكن للكلام وإنما كان للموقف العملي الذى هو أقوى من كل كلام .

قال العضو : تقصد أن الاعتماد على الكلام وحده لا يمكن أن يستحوذ على الثقة القادرة على تغيير الأوضاع سواء في الانتخابات أو غيرها .

قال المناضل القديم : دعنى - إذا سمحت - أكمل فكرتى .. إن الذى يكابده الشعب .. أى شعب شيء واقع ملموس . وكل الذى يريده هو تغيير تلك المكابدة وهذا العناء وهو لا يصفى إلى الكلام عن واقعه إلا إذا لمس فيه الصدق ، والصدق لا يتأكد إلى من خلال التحرك الفعلي الذى يقدم

عليه المعبرون عن مصالح الشعب . ولتنتظر الى حالة الشعب المصرى خلال سنوات الحرب العالمية الاولى .. معاناة وإرهاق وتسخير فى خدمة سلطات الاحتلال - وهذا بذاته محرض بليغ على الثورة وكان هناك العشرات والمئات وربما الالاف الذين تداولوا تلك المعاناة بالكلام . لكن مسعدا ورفاقه الذين حملوا مطالب الشعب إلى المعتمد البريطانى هم الذين ظفروا بثقة الشعب لأنهم هم الذين أقدموا على هذا الموقف العمل . وكانت النتيجة الحتمية هى التفاف كل الشعب من حولهم ، يأترب بأمرهم ، وينفذ توجيهاتهم . ويسخر من خصومهم على النحو الذى سجلته أحداث تلك الفترة من تاريخ مصر .

قال عضو الحزب المعارض : كل ذلك من المسلمات التى لا يختلف أحد عليها . ولكن قل لى - بربك - ما هو الموقف العمل الذى تدعو إليه ؟

قال المناضل القديم : أعتقد أن الموقف العمل المنشود لابد أن يرتبط بمطلب أساسى يكون فى تحقيقه الحل الاكيد لشتى المشكلات .

قال العضو المعارض : لا أفهم ..

قال المناضل القديم : فى الماضى كان المطلب الأساسى هو التخلص من الاستعمار الإنجليزى . وكان كل واحد من افراد الشعب المصرى يؤمن بأن تحقيق هذا المطلب كفيل بحل مشكلات الفقر والجهل والمرض الخ . ونحن اليوم لابد لنا من معرفة هذا المطلب الأساسى الذى لو حققناه لا نطلقنا فى حل مشكلات الإنتاج والتعليم والإسكان والصحة الخ . وأنا أعتقد أن كل حزب يتصدى للقيادة لابد وأن يكتشف ذلك المطلب الأساسى ، ويكتشف السبل المؤدية إلى تحقيقه تجنيدا لطاقت كل الشعب ، وبخاصة الشباب الذى لا يعرف أين يتجه .

قال العضو المعارض : إن لكل حزب برنامجا الخاص به ، وكل حزب يدعى أن برنامجه هو افضل البرامج للقضاء على كل المشكلات .

قال المناضل القديم : أعلم ذلك .. وأعلم أن لكل حزب صحيفته أو صحفه ومع ذلك فإننى أزعم أن الجماهير لا تستطيع أن تمنح ثقتها لى منها على النحو الحاسم . ذلك لأن المطلب الأساسى غائب ولم يمكن تحديده .

قال العضو المعارض : الديك أنت ما يساعد على التجديد ؟

قال المناضل القديم : نعم . فمن المعروف أن بلادنا تمر بأخطر الأزمات الاقتصادية ، ورئيس الدولة شخصيا يقول إن الخروج من هذه الأزمة رهن بمضاعفة الإنتاج .. والكل يؤمن بهذا الشعار الحقيقى .. ولكن (ما باليد - العين بصيره واليد قصيره !!) مضاعفة الإنتاج تستلزم نفقات كثيرة ، ونحن لا نستطيع توفيرها . لماذا ؟ لأننا أسرى سداد الفوائد وأقساط الديون ، ويقدر الخبراء أننا بحاجة إلى سداد ٤ مليارات فى كل عام .. ولأن هذه المليارات لا يمكن تدبيرها فإننا نسلك أحد طريقين .. إما الاقتراض والاستدانة من جديد . وأما المطالبة بإعادة جدولة الديون .. ومن هنا يظل شعار مضاعفة الإنتاج مجرد شعار لا يمكن تحقيقه بالشكل الذى يسمح بحل المشكلات .. وتظل مدارسنا بدون مقاعد وأبنيتها بدون إضافات مسعفة ، وتظل مستشفياتنا تشكو قلة الامكانيات والأدوية ، وتظل معالجاتنا لمشكلات الإسكان والتوسع الأفقى فى الزراعة مجرد مساح ينقصها عصب المال ..

ترى لماذا لا تكون هناك جسارة عملية شبيهة بتلك الجسارة البرازيلية التى أعلنت استحالة الوفاء بأقساط الديون وفوائدها فى الوقت الذى تتصدى فيه للبناء ؟

لماذا لا نقول للدائنين . [كثر الف خيركم] ولكننا غير قادرين على مواصلة السداد ونرجو أجلا لا تقل مدته عن ربع قرن من الزمان ؟؟

لماذا لا يكون مطلبنا الأساسى اليوم هو التخلص من أعباء الديون ؟ إن التضخم والفلاء وانخفاض قيمة الجنيه المصرى ، وانهيار التعليم ، واللهاث وراء حل مشكلات المواصلات وغيرها دون جدوى .. كل ذلك مرتبط بفداحة حجم وأعباء الديون .

إن الديون هى أداة الاستعمار الحديث فى استغلال الشعوب والدول النامية فلماذا لا نقول ذلك ، ونربط حركتنا اليومية بالنضال الجاد من أجل التخلص من تلك الأداة ؟

قال العضو المعارض : أرجو أن أكون قد فهمت أن المطلب الأساسى الذى يجب أن تتركز كل الجهود من أجل تحقيقه هو التخلص من الديون . ولنا لقاء آخر إن شاء الله .

قال المناضل القديم : لن تنصرف قبل أن أضيف أن شعار التخلص من أعباء الديون يجب أن يكون شعار كل الأحزاب بما فيها حزب السلطة .. وأن أنجح الأحزاب فى التصدى العملى للنضال من أجل تحقيقه هو الذى سوف يكسب ثقة كل الجماهير .

٦ - دروس من الماضى :

بعد هذا الحوار الطويل مع عضو الحزب المعارض تراءى له أن يفكر فى صواب مقولته الأخيرة التى ادعى بها أن أغلبية الجماهير بينها وبين من يتصدون لقيادتها من الأحزاب المختلفة فجوة من عدم الثقة .. وأثناء عملية التفكير هذه برزت له تجارب الماضى المؤلمة ، وتذكر أن تلك الفجوة كانت هى الاحتياطى الذى مكن أعداء الوطن من الفتك به ، وضرب تقدمه .

عندئذٍ تملكه الفزع وتمنى لو تمثل الجميع دروس الماضى . دروس أعوام ما قبل سنة ١٩٦٧ يوم استطاع هؤلاء الأعداء وهم دائما عليهم بكل أحوالنا أن ينفذوا إلى ضربتنا من خلال تلك الفجوة .. فلقد عرفوا أن هناك الكثيرين ممن ادعوا الولاء لقيادة عبد الناصر قد أحاطوا به وعزلوه عن حرارة الشعب الذى يقوده ، وفرضوا أنفسهم لكى يكونوا همزات الوصل بينه وبين الناس ، وكثيرا ما لجئوا إلى التلغيق والتزييق ، والخداع ، والإيهام حتى يضمنوا البقاء فى مقاعدهم الوثيرة التى تدر عليهم المال الوفير ..

بدعوا أعوانا للنظام الذى عاد عليهم بالمكاسب . فتحولوا عن معاداة النظام إلى استغلال مواقعهم منه فى تحقيق مصالحهم الذاتية أولا وأخيرا .. ومن ثم أخذوا يصورون الواقع على هواهم . وتعمدوا إبعاد الصور الحقيقية عن القيادة . بل ودفعوا تلك القيادة إلى اتخاذ المواقف العدائية من أصدق الأصدقاء . وهكذا انشغلت القيادة بأخطار وهمية ، وغفلت عن الخطر القاتل الذى كان يمثلته هؤلاء (الأصدقاء) إلى أن وقعت الهزيمة التى مفصل فيها عشرة آلاف شهيد غير الجرحى وغير خسارة المعدات التى بلغت ١٠٠ ٪ من القاذفات الثقيلة والخفيفة ، ٨٥ ٪ من المقاتلات القاذفة ، ٨٥ ٪ من معدات القوات البرية .. إلى جانب ضياع كل أرضنا شرق قناة السويس .

فلما وقع المحذور ، وسقطت دولة المخابرات ، وفقدت مصر جمال عبد الناصر ، سارع الجميع إلى تمثيل نفس الدور مع السادات ، وانتقلوا معه من الاتحاد الاشتراكى إلى حزب مصر .. ثم إلى الحزب الوطنى .. وظلوا على ولائهم لأنفسهم . يواصلون أعمالهم البهلوانية إلى أن حدثت أحداث سبتمبر المشهورة وأعقبها حادث المنصة المروع

وإذا هم كما تعود المناضل القديم أن يراهم يريدون لأنفسهم نفس مراد هم القديم فيبالغون في المراءاة والتزييف حتى ليشعر المرء بالغثيان . ويعمدون إلى محاولة إبعاد الشعب عن قيادة الرئيس (مبارك) لولا أنه يستطيع الاختراق ، والنزول إلى حقول الانتاج ومواقع اللقاء الحى بالجماهير . ولولا أنه يصر على عدم المساس بأصحاب الاقلام والآراء المختلفة ، ولولا أنه لا يصدق أى كلام إلا بعد برهان ودليل .

ومع كل هذا فإنه لم يحد من نسبة الـ ٩٩,٩ ٪ عند إجراء الاستفتاءات إلا بالقدر الذى أوصلها إلى ٩٧,١٢ ٪ فقط .

صحيح أنه أحدث ثغرة في جدار الطبقة العازلة بسياسة التحرك المباشر إلى مواقع العمل والإنتاج . وصحيح أنه يدأب على مناشدة جميع المواطنين كي ينفضوا عنهم غبار السلبية وعدم المبالاة ، وأن ينهضوا إلى العمل الإيجابى الفعال لكي يقاوموا معه كل ألوان الانحراف والخروج على مقتضيات الوطنية الصحيحة ، وصحيح أن بعض ملامح الصورة الموروثة من عهدين سبقا قد اعتراها التغيير . لكن الحقيقة أن البعض لا يزالون يستمرنون النفاق والكذب وتزويق الواقع وتزويره . وهؤلاء لا يساعدون على خلق جسور الثقة بين كل من يريد أن يكون إيجابيا وبين قمة النظام الحالى في مصر .

٧ - عودة إلى الحوار :

وبينما هو مستغرق في هذا التفكير قدم عليه الشاب الذى افترق عنه على موعد بجلسة أخرى لاستكمال حوارهما السابق .

قال المناضل القديم : أهلا بمن وعد ووفى .

قال الشاب : إننى اليوم باق معك حتى نستكمل الحوار الذى بدأناه ، وأرانى اليوم مضطرا إلى البدء بالهجوم على كل من يدعو إلى تبثيط همم الشباب وصرفهم عن الجهاد .. وأخشى أن أقول إن هؤلاء هم ألد أعداء الإسلام .

قال المناضل القديم : على رسلك يا أخى - حتى تقنعنى أو اقنعك .

قال الشاب : لا .. لن تقنعنى . ولن أوافق على أية مقالة تدعونى إلى التخلي عن الجهاد .

قال المناضل القديم : لن أدعوك إلى ذلك إلا إذا فقد عقل فإطمئن . فقط أريد أن نحدد سويا نوع هذا الجهاد ومحاوراته ذلك لأن بعض الاعمال لا تدخل في باب الجهاد بل في باب حماقة ، ويحسبها الناس على الإسلام وهى ليست منه .

قال الشاب حائقا : مثل ماذا ؟

قال المناضل القديم : مثل اللجوء إلى القوة في التصدى للمعاصى الظاهرة ، كتعطيم زجاجات الخمر ، وحرق أشرطة « الفيديو » الخ .

قال الشاب : تعطيم زجاجات الخمر ، وحرق أشرطة الجنس حماقة ؟

قال المناضل القديم : نعم حماقة . لأنه لا يوقف شرب الخمر ، ولا يمنع المتاجرة بالأسلحة . بل يثير الشغب فقط . ولا شك أن تغيير المنكر غير المشاغبة عليه . ليس كذلك ؟

قال الشاب : ولكن كيف يمكن إيقاف شرب الخمر ومنع المتاجرة بالأسلحة ؟

قال المناضل القديم : بإحدى وسيلتين لا ثالث لهما .. الوسيلة الأولى هى قرار الحاكم صاحب السلطة ، والوسيلة الثانية هى تربية روح البغض في نفوس الناس لكل ما هو محرم .

قال الشاب : مرة أخرى التربية طويلة المدى . ومصيرها المجهول !
قال المناضل القديم : يا أخى تمهل بالصبر - فإن الأصل في الجريمة أنها خروج على القانون ، والمعاصي والمناكر ليست هي القاعدة ولكنها الشذوذ . وهي لم تصر شذوذاً إلا لأن القاعدة العامة هي النفور منها ، ومن أجل ذلك فإننا كلما أمعنا في توسيع قاعدة الالتزام بالقوانين الأخلاقية والدينية . ضاقت المساحة التي يتحرك عليها العصاة . بل ولربما تلاشت تماماً .
قال الشاب : وبناء على هذا الرأي . فإننا لا نقاوم الغواية والشر وإنما ننشغل بتحسين مستوى الأخلاق عن طريق التربية .. اليس هذا هو الذى تريد ؟

قال المناضل القديم : لا وربك .. لم أرد هذا وإن أريده .. فمقاومة الغواية والشر لا تكون إلا بالتنديد الذى يحمل الحكام على اتخاذ القرارات المانعة لهما ، ويحمل الناس على النفور المطلق منها . والآن قل لي كيف تقاوم المسكرات غير المعبأة في زجاجات ، والتي يتم تعاطيها والاتجار فيها خلف متاريس الكتمان ؟ مثلاً الهيروين . والكوكاكين وغيرهما . الديك قدرة على تغيير هذه المنكرات ودفع ضررها بغير الاستناد إلى السلطة ، وتحصين الأبناء ضد تعاطيها ؟
قال الشاب في نبرة هادئة : إذا كان الأمر كذلك فإن قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يمكن أن يكون لها مضمون عملي بين جمع الشباب .

قال المناضل القديم : كيف وفي المجتمع الإسلامى على مدار التاريخ رجاله الذين يتصدون لمحاولة التغيير ؟
قال الشاب : ومتى تم لهم هذا التغيير ياترى ؟
قال المناضل القديم : أوتنسى قول الله تعالى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ؟ » ، ألا تعتقد أن الفشل في التغيير دائماً يكون بسبب عدم النجاح في تغيير ما بالأنفس سواء كانت هذه أنفس الدعاة إلى الخير أو المدعويين له ؟

قال الشاب : لا أفهم إلا أن الفشل في التغيير كان بسبب افتقاد القوة الحاملة عليه . ولو كان هناك ما يدعم دعوة الخير من قوة ما فشلت أبداً ..

قال المناضل القديم : أية قوة ؟
قال الشاب : قوة الإيمان القلبي ، ثم السواعد الفتية ، والأسلحة اللازمة لإخافة الأعداء .
قال المناضل القديم : اعتقد أنه لم يكن هناك من هو أقوى إيماناً من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومع ذلك فإنه لم يتقدم لتحطيم الأصنام التي هي أبشع منكر إلا بعد فتح مكة . أى بعد أن أصبح للإسلام سلطة فارضة لما تريد .

قال الشاب : أريد أن تدلني وغيرى من شباب المسلمين على ما يجب أن تعمله لإصلاح بلادنا .
قال المناضل القديم : إن أمامكم من فرص العمل في هذا السبيل ما لا يمكن أن يحصى ولا يعد . فأنتم تستطيعون تسخير حماسكم في تحصيل العلم الذى تعددت روافده إلى أبعد مدى كما تستطيعون تقديم الخدمات الاجتماعية في مجال العلاج والنظافة والمحافظة على البيئة وتعمير الأرض تعويضاً لهذه الأمة عن التخلف .. وكذلك أنتم تستطيعون التعاون على شق الطرق والقنوات . كما تستطيعون محو عار الأمية ، والمساهمة في تحفيظ القرآن الكريم .. وإلى جوار ذلك كله فإن مشكلات الوطن والأمة في حاجة إلى دراسات المتخصصين لكي تقدموا الحلول العلمية الناجحة ، بدلا من الشعارات العارية عن المضمون .

قال الشاب : بالمناسبة ما رأيكم في الصراع المسلح الذي يخوضه الشباب المسلم اليوم في عديد من الجبهات ؟

قال المناضل القديم : هذا صراع إن يكن ضد عدو يحتل أرض المسلمين أو يعتدى عليها فهو صراع مقدس ، ويجب تأييده ومساندته من جميع المسلمين .. أما إذا كان من نوع الصراع القائم بين « أمل » ومخيمات الفلسطينيين في لبنان ، أو بين الإيرانيين والعراقيين فهو صراع بين الإخوة المسلمين يجب شجبه والانتصار فيه للطائفة المعتدى عليها تطبيقا للآية الكريمة .. « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن نجت أحدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبيعى حتى تطفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

قال الشاب : وبالمناسبة أيضا ما رأيكم في قتل الحاكم الذي يمالئ أعداء المسلمين . ولا يحكم بالعدل ؟
قال المناضل القديم : ليس هناك من نصوص القرآن والسنة ما يرخص بقتل حاكم ولا محكوم ، وبدعة القتل غدرا للحكام كانت في تاريخ الإسلام سببا لكل النكبات التي لحقت بالمسلمين طوال القرون الماضية . على أن الأعمال دائما تقاس بالنتائج المترتبة عليها .. ومن المؤكد أن اغتيال الحاكم يفتح الأبواب لشر مستطير ، ولا يترتب عليه أبدا أى تغيير مفيد .

قال الشاب : وهكذا يجب أن نستسلم للطغاة من حكامنا ، ولا نحاول التخلص منهم !!

قال المناضل القديم : لا يا أخى - فإن التخلص من الحكام الطغاة له طريق آخر غير القتل والاغتيال .

قال الشاب : وما هو هذا الطريق يا سيدي ؟

قال المناضل القديم : طريق جمع الناس على رأى واحد يتمكن من إسقاطهم واختيار غيرهم من العادلين .

قال الشاب : ومن الذى يجمع الناس على هذا الرأى الواحد ؟

قال المناضل القديم : أهل البصر والبصيرة من المحكومين بوسيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال الشاب : وإذا كان الحاكم لا يدع لأهل البصر والبصيرة أية فرصة لممارسة تلك الوسيلة ؟

قال المناضل القديم : في هذه الحالة يصبحون مجبرين على التخفى عنه لكى يهيئوا فرصتهم بعيدا عن رؤيته . وفي التاريخ القديم والحديث أمثلة كثيرة لذلك .

قال الشاب : مرة أخرى أراك أرهقنى . وأرجو استكمال المناقشة في وقت آخر .

قال المناضل القديم : ليس قبل أن تعرف أن الطريق الذى أشرت إليه هو طريق الديمقراطية .

٨ - أزمة الديمقراطية :

كانت كلمة الديمقراطية هي التى جرت على لسانه عند آخر الحوار الذى لم يصبر الشاب على مواصلته . وكانت الإيحاءات العميقة لتلك الكلمة لا تزال تملك عليه عقله ووجدانه حينما ساقطت الصدفة إليه أحد الأصدقاء القدامى .. وكانا لم يلتقيا منذ أعوام طوال . فتملكت كلا منهما حرارة اللقاء . وشد كل منهما على يدي الآخر سعيدا ، ثم تبادلوا طرفا من المجاملات غير المعتادة ، وجلسا مبهورين بهذه الصدفة السعيدة إلى أن امتد بينهما حبل الحديث .

المناضل القديم : منذ ساعة واحدة كان معى شاب ذكى مهموم بهموم بلده وأمته . ومن ذوى الحماس القادرين على التضحية . وكان يناقش معى عددا من القضايا بوجهة النظر الإسلامية .

- الصديق** : وإلى أى شيء انتهيتما يا ترى ؟
- المناضل القديم** : إلى محاولة الكشف عن أنسب الطرق للتخلص من الحكام الطغاة ، درءا لمفهوم الاغتيالات- والغدر
- الصديق** : وهل اكتشفتما هذا الطريق أم لا تزالان في طور البحث والتنقيب ؟
- المناضل القديم** : قلت له إن طريق الديمقراطية هو الطريق الوحيد للتغيير والتخلص من النظم الجائرة
- الصديق** : وهل وافقك على ذلك ؟
- المناضل القديم** : ليس بعد .
- الصديق** : وماذا تعنى بطريق الديمقراطية ؟
- المناضل القديم** : أعنى طريق تعدد المنابر السياسية بتعدد المصالح المتعارضة في داخل المجتمع ، وإتاحة الفرص المتساوية للجميع لكي يعبروا عن آرائهم بكافة طرق التعبير الممكنة دون خوف من السلطة ، أو تدخل منها .
- الصديق** : وهل هناك سلطة يمكنها أن تقف على الحياد ، وتدع للجميع تلك الفرص المتساوية ؟
- المناضل القديم** : أبدا .. ليست هناك سلطة محايدة بالمرّة .. فكل سلطة تقوم على أساس الانحياز لشريحة معينة من شرائح المصالح المتجانسة في المجتمع .. لكن عليها أن تعترف بأن أصحاب المصالح المغايرة لمصالحها لهم حقوق الانحياز لمصالحهم والدفاع عنها بكافة الطرق التي تستخدمها السلطة في هذا المجال .
- الصديق** : لكن كل سلطة تدعى أنها غير منحازة، وأنها تدافع عن جميع الشرائح والطبقات، ومن ثم فإنها ترفض التسليم بتلك الحقوق التي تتحدث عنها .
- المناضل القديم** : الادعاء شيء ، والواقع شيء آخر .
- الصديق** : ومن الذي يحمل السلطة على التسليم بهذا الواقع ؟
- المناضل القديم** : قوة الواقع نفسه .
- الصديق** : لا أفهم .
- المناضل القديم** : أريد أن أقول إن السلطة التي تتعنت ولا تخضع لواقعية الواقع الملء بالمصالح المتناقضة في المجتمع ، تضع نفسها في مواجهة صراع حاد ينتهي بها عن طريق أجنتها الواعية إلى الاعتراف بهذا الواقع ، ومن ثم تنبثق التعددية ، ويسمح بالمعارضة .
- الصديق** : وما قيمة المعارضة إذا لم تتمكن من تغيير ظروف المجتمع والسلطة فيه ؟
- المناضل القديم** : قيمتها الحقيقية في أن تلعب دورها السياسي بمهارة تتيح لها هذا التغيير عن طريق الانتخابات التي تمكنها من الحصول على الأغلبية ومن ثم تقبض على السلطة .
- الصديق** : ماذا تقصد ؟
- المناضل القديم** : أقصد أن أقول : إن المعارض الحقيقي شخص يملك مشروعا سياسيا بديلا لذلك المشروع الذي يعارضه ، ونظرا لأن هذا المشروع الذي يعارضه له سلطة تحميه ، وتحمي من خلاله المصالح التي تفرضه ، فإنه من البدهي أن يتجه المعارض إلى محاولة فرض مشروعه عن طريق الجماهير . فهي وحدها التي تستطيع أن تسقط المشروع الذي تعارضه ، وتفرض مشروعا الذي تلقن به .
- الصديق** : لكن السلطة بمختلف الحيل والالاعيب تعمل على كسب الجماهير إلى صفها هي ، فيفقد المعارض سنده الذي يمكنه الاستناد إليه .

المناضل القديم ذلك حق السلطة أيضا كما هو حق المعارضة - لكن السلطة لا تستطيع كسب الجماهير إلا في حالة ضعف قدرة المعارضة على الالتحام بتلك الجماهير . حينئذ تلوذ المعارضة بالتنديد القوي بأفعال السلطة . وتقف عند حد الصياح بأن الديمقراطية في أزمة .

الصديق أزمة الديمقراطية في بلادنا شيء واقع ، فمنذ حادث المنصة والعمل جار بقوانين الطوارئ التي تتيح الاعتقال والبطش بكل من يعارض السلطة .

المناضل القديم : لا اعتقد أن أزمة الديمقراطية في بلادنا مردها إلى إعمال قوانين الطوارئ وإنما مردها الخوف من إعمال قوانين الطوارئ ..

الصديق : وهل هناك فرق بين الأمرين من وجهة نظرك ؟

المناضل القديم : نعم . هناك فرق .. فقوانين الطوارئ لم تمنع من وجود عدد كبير من المعارضين تحت سقف المجلس النيابي . جنبا إلى جنب مع نواب الحكومة ، ولو كانت المعارضة أقوى لا يمكن الحصول على الأغلبية رغم إعمال قوانين الطوارئ .

الصديق : كأنك تريد أن تقول إن المعارضة هي المسئولة عن عدم التغيير .

المناضل القديم إن الوقوف بالمعارضة عن حدود الكلمات المكتوبة أو المنطوقة ضد المشروع المطلوب اسقاطه لا يمكن أن يؤدي إلى أي تغير . ودليل ذلك أن أيا من أحزاب المعارضة رغم حرية التعبير والنشر لم يستطع أن يجعل الجماهير تتبنى مشروعه وتؤمن به وتتحرك معه حركته الايجابية الواعية .

الصديق : معنى ذلك أن الجماهير في واد ، والمعارضة في واد آخر . ولكن لماذا تعجز المعارضة عن إقناع الجماهير بمشاريعها البديلة .

المناضل القديم : اعتقد أن الأحزاب المعارضة قد توصلت إلى مشاريعها السياسية أو برامجها من خلال دراسات معزولة عن حرارة الحركة الجماهيرية اليومية . ومن ثم فإنها لم تأت معبرة عن الواقع الحي لحياة تلك الجماهير . كما اعتقد أن أصحاب تلك المشروعات أو « البرامج » لم يحاولوا تجاوز الاجتماعات التي يعقدونها مع أنصارهم ، والمقالات التي يدبجونها في صحفهم اليومية أو الأسبوعية إلى النضالات العملية .. على أن الأهم من كل ذلك هو أن الجماهير من طول ما عانت من التجارب الفاشلة قد فقدت ثقتها في أية تجربة يُعرض عليها الاشتراك فيها .

الصديق أنا معك في هذه الملاحظة الأخيرة ، فلقد جربت الجماهير أن تستمع وتثق وربما تشارك في التنظيمات الرسمية من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومي ، فالإتحاد الاشتراكي ، فحزب مصر ، فالحزب الوطني .. كما جربت الجماهير أن تستمع وتثق وربما تشارك في تنظيمات اليمين واليسار على اختلاف أسمائها .. وكان الحصاد المريع بالنسبة للتنظيمات الرسمية هو الاقتناع الكامل بأن المسيطرين عليها كانوا وما زالون في معظمهم لا يعملون إلا لأصوالهم الشخصية ، وحتى اتبعوها في عهد السادات .. وهي نفس الأساليب التي يتبعونها الآن . أما الحصاد بالنسبة للتنظيمات غير الرسمية فهو تعرضها لشر أنواع التكنيل التي أفقدتها القدرة على تحقيق أهدافها .

المناضل القديم إذن فنحن متفقان على أن سلبية الجماهير محتاجة إلى جهود غير عادية تقوم على دعائم الصدق الديمقراطي من جانب المعارضة أولا ، والرعى العميق بدور المعارضة من جانب الحكومة بعد ذلك

- الصديق** : ماذا تعنى بالصدق الديمقراطي ؟
- المناضل القديم** : اعنى الصدق الذى يحتذى بمظلة الديمقراطية التى يرفعها رئيس الدولة بحيث تنكشف للجماهير كل الوعود الزائفة ، والحقائق المضللة ، والاكاذيب الملفقة التى منيت بها من قبل
- الصديق** : وماذا تعنى بالوعى العميق من جانب الحكومة ؟
- المناضل القديم** : اعنى ان تعى الحكومة ان معيار التقدم والخروج من مأزقنا الحالية إنما يتمثل فى فتح كل الابواب امام المعارضة العلنية لكى تشعر الجماهير بأنه لم يعد هناك أى مبرر للخوف ..
- الصديق** : من الواضح أننا استرسلنا فى الحديث عن أزمة الديمقراطية ، وأنت تعتقد ان حل كل المشكلات بأيدى الجماهير التى لها أن تؤيد أو تعارض من غير خوف ولا إكراه .
- المناضل القديم** : وهل تعتقد أنت غير ذلك ؟ الست معنى فى أن الجماهير التى عانت من الإرهاب ، والتعذيب الجماعى ، قد تداعت عليها عوامل الإحباط التى أفضت إلى هزيمة ١٩٦٧ ؟ ألا تعتقد أنه لو كانت هناك حرية التعبير التى استطاعت أن تدل على مزالق الخطر قبل وقوعه ألم نكن نستطيع النجاة من مصيدة الهزيمة أو حتى الحد منها ؟ اليس الضمود العراقى فى وجه الزحف الفارس الرهيب ثمرة لالتحام القيادة العراقية بجماهير الشعب العراقى ؟
- الصديق** : أنا لا أجادل فى شيء مما تقول .. ولكننى أود أعرف لماذا تظل الجماهير على سلبيتها رغم أن الديمقراطية - هى - المناخ السائد الآن ؟
- المناضل القديم** : تذكر - يا صديقى - ان تاريخنا السياسى المعاصر ليس إلا سلسلة موصولة الحلقات ، وأن نصر أكتوبر ، حلقة متصلة بحرب الاستنزاف قبلها ، ومتصل بها من الطرف الآخر ثغرة السويس ، ومباحثات فك الارتباط .. وتذكر أن الجماهير التى وعدنا السلاطات بالزبد والعسل المصفى اثناء وبعد رحلة القدس الشهيرة ، هى نفس الجماهير التى لم تجن غير ثمار الحنضل من آثار الانفتاح الاقتصادى وفوضاه ، وما ترتب عليها من غلاء فاحش ، وتغيرات اجتماعية رديئة .
- الصديق** : لكن ذلك أدعى إلى التحرك الإيجابى فيما أظن .
- المناضل القديم** : ظنك صحيح لو أن هناك من قيادات المعارضة من يستطيع التحريك ، وإزالة رين اليأس ، وإعادة الثقة المفقودة إلى مكانها من قلوب الناس .
- الصديق** : ولماذا تعمل دائما على المعارضة ؟
- المناضل القديم** : لأن الحكومة بحكم الظروف التى تجعل منها قبلة للمنتفعين والراغبين فى المحافظة على صوالحهم الشخصية . لا تكون مؤهلة لهذا الدور . إن مهمتها وأنصارها هى الوقوف ضد التغيير . أفهمت ؟
- الصديق** : نعم فهمت .. ولكننى اعتقد أن الحكومة تستطيع أن تساهم فى القضاء على سلبية الجماهير وإحلال الإيجابية محلها .
- المناضل القديم** : نعم . وتستطيع أكثر من أن تساهم . لو ألغت القوانين المقيدة للحريات وأعطت القوى السياسية المختلفة حقها فى التنظيم الحزبى ، ورفعت يدها عن الحركة النقابية ، وجعلت الإشراف على الانتخابات من حق السلطة القضائية ، وكفّت عن محاربة من ليسوا فى حزب الحكومة الخ .
- الصديق** : وهل تفعل ؟
- المناضل القديم** : لا أعتقد . ومن أجل ذلك فإن الدور الأكثر إلحاحا هو دور المعارضة .

الصادق كل المعارضة ؟
 المناضل القديم كل المعارضة بما فيها هؤلاء الذين لم يتبينوا بعد الطريق
 الصديق امتدت بنا المناقشات بسبب كلمة قلتها أنت للمهموم بهموم بلده . ويبدو أن داء المناقشات قد
 تمكن من نفوسنا ولن يبرحها إلا بالموت

٩ - خِبرَاتُ الأَمْسِ :

عكف المناضل القديم على نفسه بعد أن مضى عنه هذا الصديق يفكر في هؤلاء الذين لم يتبينوا بعد الطريق ..
 إنهم يبدعون نفس البدايات التي بدأ هوبها منذ ما يقرب من نصف قرن . يبدعون بالمحاولات الطائشة ، والخطط غير
 المحكمة ، والأعمال التي لا تحقق ما يريدون .. وهم ولا شك .. يطلبون الحقيقة التي لو وقفوا عليها لأمكنهم
 تصحيح الاتجاه .

ترى لماذا كتب علينا ذلك التقطع المتوالى بين خبرة الأجيال ؟ لم لم نجد نحن في جيلنا تراثا نضاليا منقى من
 الشوائب تعتمد عليه ؟ ولم لم يجد هؤلاء في جيلهم ما لم نجده نحن في جيلنا ؟ وماذا يكون الحال لو تكررت أخطاء
 جيلنا عند ثوري ذلك الجيل الجديد ؟

وعند هذا الحد من التفكير تملكه الفزع ، وسمع لسانه يقول : لقد قمت بالمشاركة الايجابية النشيطة مع كتاب
 الثورة المصرية في فترات متعاقبة منذ بداية الأربعينات وحتى منتصف السبعينات ، وباستطاعتك الآن أن تقدم ولو
 إشارات قليلة إلى الأخطاء التي يجب تجنبها .. فلتفعل في غير ما تحامل ولا اختلاق ..

قال سافعل ولكن من الذى يضمن أن تعنى الإشارات عن العبارات ، وأن يكتفى الجيل الصاعد بأقوال من
 سبقوه فيتجنب كل خطأ يمكن أن يقع فيه ؟

إن تجدد الأزمنة يقتضى تجدد التحديات ، وتجدد التحديات يقتضى تجدد المواقف . راجحة لهذه التحديات
 ومع تحدد المواقف دائما احتمالات الخطأ . ومن ثم فإن قصارى الإشارات إلى أخطاء الماضى أنها قد تفيد رواد
 المستقبل إذا تشابهت المواقف ..

وبينما هو مستغرق مع نفسه في هذا الحوار الذاتى قدم عليه ذلك الشاب الذى استمرأ المناقشة معه ، بعد أن
 لمس فيه صدق الحجة ، والبعد عن نصب فخاخ التآمر .

قال الشاب في تحفز : دعنا من الحديث في هذه المرة عما يجب أن يكون لكن نتعرف ولو بسرعة على أسباب عدم
 تحقيقه حتى الآن . فمن خلال المناقشات السابقة لاحظت عليك أنك تتكلم بثقة العارف
 القادر . ولحظت أن في كلامك ما يدل على سبقك للمساهمة في العمل من أجل مصر والإسلام .
 ومن أجل ذلك فإننى أرجوك أن تفهمنى لماذا لم يكن ما يجب أن يكون إلى اليوم ؟

قال المناضل القديم : ولماذا لا نكمل مناقشتنا السابقة ثم بعد ذلك أجيبك إلى ما تريد ؟

قال الشاب : لاداعى للإطالة . فنحن الشباب نعشق العجلة ، ونتمنى لو وصلنا إلى الهدف وصول القذائف
 المنطلقة إلى أجواز الفضاء .

قال المناضل القديم . فليكن ذلك كذلك ، ولكننا كنا انتهينا في الحديث السابق إلى ما يمكن اعتباره مدخلا إلى الذى
 تريد .

قال الشاب لا تتهرب من الإجابة عما طلبت الآن ، وإلا كان ذلك دليلا عندى على بطلان كل ما سبق أن
 قلته لى

قال المناضل القديم : امرى - إذن - لله . وأبدا بالثناء على ذلكك الذى هداك إلى أنى ساهمت فى العمل من أجل مصر والإسلام . ثم أدعو الله أن يوفقنى إلى تحقيق رغبتك فى الفهم

قال الشاب : كلى إصغاء إليك .

قال المناضل القديم : تعلم أننا حينما بدأنا العمل من أجل مصر والإسلام كنا فتية غير ناضجين ولم يكن هناك تراث ثورى موصول يمكن أن نتزود به ، وكان هادينا هو الحماس الذاتى فى جميع الخطوات ، ومن أجل ذلك فإننا ارتجلنا الاجتهاد والمواقف ارتجالا ومن ثم فإن اجتهادنا ومواقفنا ملأتها الأخطاء .

قال الشاب : أوضح هذه الأخطاء ..

قال المناضل القديم : لا تقاطعنى وسوف أوضح لك كل شئ . فانا إذ احدثك الآن إنما احدثك عن تجربة جيل كامل من الوطنيين فى مصر ، وليس عن تجربتى وحدى . ومن غير المعقول أن أقدم لك إلا العام من الأخطاء التى وقع فيها جميع العاملين فى الحقل الوطنى .

قال الشاب : لا بأس .. ولكننى أريد مع الاسترسال فى الحديث ضرب بعض الأمثلة للإيضاح .

قال المناضل القديم : لك ما تريد إن شاء الله .. وأعود لأوضح لك أن ما يجب أن يكون كان هم جيلنا بأكمله . ولقد اضطلع بالدور الأكبر فى سبيل تحقيقه جماعة الإخوان المسلمين ، وجماعات اليسار الماركسى ، وتنظيم الضباط الأحرار إلى جانب فرق أخرى .. الوطنيين والاشتراكيين وغيرهم . وكانت المشكلة الكبرى التى تواجههم هى مشكلة التخلص من الاستعمار .. وكان من الممكن لهم أن يتعاونوا فى سبيل حل تلك المشكلة ولكنهم اختلفوا حول سبل حلها . وكان من الممكن أن تكون خلافاتهم خلافات أصدقاء ، ولكنهم أصروا على أن تكون خلافاتهم خلافات أعداء .. وهذا هو أبشع الأخطاء التى وقع فيها الجميع بدون استثناء - فالإخوان المسلمون الذين تعلموا من قيادتهم قولها : لعل من أخطر النواحي فى حياة الأمم النامضة ، وهى فى فجر نهضتها ، اختلاف الدعوات ، واختلاط الصيحات ، وتعدد المناهج ، وتباين الخطط والطرائق ، وكثرة المتصدين للترزعم والقيادة ، وكل ذلك تفريق للجهود ، وتوزيع للقوى يتعذر معه الوصول إلى الغايات ؟

هؤلاء الإخوان هم الذين صارعوا الفرق الوطنية الأخرى بروح العداء ، وانتهى بهم الحال إلى استعمال السلاح بدلا من استعمال الكلمة .. وكانت النتيجة هى الفتك بهم بعد محاولة اغتيال عبد الناصر ١٩٥٤ .

قال الشاب : وعلى من تقع مسئولية ذلك ؟

قال المناضل القديم : تقع على الجميع بالطبع . فمهما حاول أى طرف التنصل من تلك المسئولية فإنه لن يستطيع ذلك لأنه كان من الممكن الوصول إلى اتفاق مشترك طالما الجميع فى نفس الصف المناضل ضد الاستعمار .

قال الشاب : واليسار الماركسى ما مدى مسئوليته فى هذا الجانب ؟

قال المناضل القديم : مسئوليته موازية ومتساوية مع مسئولية الأطراف الأخرى . ذلك لأنه كان يرفع شعار الجبهة الوطنية ، ويدعو إلى تحالف كل القوى الثورية من أجل الحصول على الاستقلال فلم يكن مستساغا بمنطقة هو أن يمارس تلك الاختلافات العدائية التى وصلت إلى حد اتهام الأطراف

الأخرى بالعمالة والخيانة

اعتقد أن مسئولية الحكم الوطنى بعد ١٩٥٢ كانت هى المسئولية الأولى - لأن امكانية قبول الاتفاق أو رفضه كانت فى يده هو ، وليست فى يد أى طرف من الأطراف الأخرى

ربما لو كنت أنت مكانهم لما استطعت أن تفعل غير ما فعلوا

معنى ذلك أنك تعفيهم من مسئولية الأخطاء

لا لكننى مكثف بأن أجعل نصيبهم من المسئولية مساويا لغيرهم .

ولما تصر على الاكتفاء بذلك ؟

لأننى اعتقد أن سبب الوقوع فى خطيئة الصراع العدائى كان واحدا عن الجميع . ذلك لأن كل جناح من هذه الأجنحة قد عجز عن تبين الحدود الوطنية لمواقف الآخرين . علما بأن الهدف الرئيسى للجميع كان هو طرد الانجليز من مصر . فالإخوان المسلمون من منطلق الاستلزام لتراث الإسلام لا يمكن أن يقروا بإحتلال بلادهم وهى من أرض الإسلام . واليساريون الماركسيون من منطلق الإيمان بإزالة كل أسباب قهر الإنسان لأخيه الإنسان لا يمكن أن يفرطوا فى حقوق وطنهم المقهور لحساب عدوهم القاهر . والضباط الوطنيون من منطلق المعاناة فى الحرب الفلسطينية الأولى ومع العمليات الفدائية فى منطقة القناة ١٩٥١ لا يمكن أن يتواطئوا مع أعدائهم وأعداء وطنهم المستعبد .

ولكن لماذا ذلك العجز الذى أصاب الجميع ؟

لسببين اثنين .. الأول هو قصور النظر عند كل جناح بحيث لم يتبين الجوانب الوطنية فى الأجنحة الأخرى . والثانى هو الانزلاق وراء تصوير الأعداء للواقع فى بلادنا .. فالذى يستعيد الأحداث الآن يتذكر أن الإخوان المسلمين لم يروا فى اليسار الماركسى سوى الإلحاد والتأمر على الإسلام . كما يتذكر أن اليسار الماركسى لم ير فى قيادات الإخوان المسلمين إلا عجلاء ومضللين باسم الإسلام .. أما الحكم الوطنى فإنه لم ير فى كل من الفريقين السابقين غير منافسين على السلطة ، يريدون نهبا والفوز بمغانمها . على حين لم ير الفريقان فى السلطة غير حكومة تريد تسليم البلاد للمستعمرين .. ومن ثم قادت تلك البدايات الخاطئة فى الفهم إلى أسوأ ألوان الصراع .

هذا فى جانب القصور فى النظر . فماذا عن جانب تصوير الواقع من وجهة نظر الأعداء ؟

فى هذا الجانب يمكنك إذا رجعت لما كانت تنشره الصحف العالمية نقلا عن وكالات الأنباء أنذاك أن ترى تصويرا شيطانيا مثيرا للرعب كان هدفه تأجيج نار العداوة فى قلوب جناح الحاكمين على وجه الخصوص

وكيف يصدق الحكام تصوير الأعداء الذين يحاربونهم ؟

أمر التصديق والتكذيب لمزاعم الأعداء مسألة معقدة ، فالسلطة فى حد ذاتها مفسدة ، تغرى صاحبها بالعمل الدعوى على حمايتها .. والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة كما تقول الحكمة اليونانية القديمة . ومن هنا فقد اغتتم الوصوليون والانتهازيون فرصة الاختلافات الناشئة عن اختلاف المواقف والمعطيات والمنطلقات ، وراحوا ينفخون فى نفس الكيد الذى ينفخ فيه الأعداء ، حتى تصور الحكام أن تحت كل حجر فى أرض الوطن من يتربص بهم . ومن ثم

شددوا النكير ، واصطنع عبد الدوس لنفسه أجهزة فوق أجهزة ، فوق أجهزة من المرتزقين بالنميمة والدس . وتمزقت نفوس المواطنين شرمزق . وكان هذا هو أسوأ أنواع الحصاد الذى جعل من الحكم الوطنى حكما أشد فى استبداده من حكم المستعمرين المتبريرين ولاشك أن ذلك قد أدى إلى تعويق ما كان يجب أن يكون

قال الشاب

أهذا هو كل ما لديك يا سيدى ؟

قال المناضل القديم

لا .. بل لدى الكثير الذى لم أقله بعد

قال الشاب

إذن فقل كل ما لديك حتى أفهم .

قال المناضل القديم

هناك خطأ آخر لا يقل سوءا عن الخطأ السابق ، بل ولربما كان هو الأساس الذى منه تفرعت

كل صور العداء التى أسلفنا ذكرها

قال الشاب

وما هو هذا الخطأ ؟

قال المناضل القديم

تستطيع تسميته خطأ التفكير الذاتى . فعلى امتداد ساحة العمل الوطنى فى مصر ، وفى شتى

الجماعات والتنظيمات الوطنية ، لم يكن هناك التجرد الكامل من أجل الأهداف والغايات

النبيلة ، وتبعاً لذلك فإن موضوعية الفكر كانت مفقودة

قال الشاب

مرة أخرى أرجو الإيضاح

قال المناضل القديم

سأوضح .. ولكنى أناشدك الله ألا تتعلمل فجماعة الإخوان المسلمين كانت ترى أنها هى التى

سوف تعيد للدين مجده الضائع ، وأن من عداها من المسلمين يجب أن يكونوا فى ركابها لكى

تتم نجاتهم من الفرق ، ومن هنا وضعوا المصلحة الذاتية لجماعتهم معياراً لكل شيء . فلم

يستطيعوا قبول مبدأ التفاهم مع الجماعات والأطراف الأخرى .

قال الشاب

ذاك شأن كل جماعة ذات أهداف تريد تحقيقها لا بد أن تعتصم بهذه الأهداف وتترك

ما عداها ..

قال المناضل القديم

ليس ما قلته إنكار تمسك الجماعات بأهدافها .. لكنها عند التعامل مع الواقع لابد أن تعترف

بمقائمه الموضوعية .. وإلا انفصلت عنه وجعلت من نفسها حكماً وفيما عليه دونما سند غير

الادعاء . خذ مثلاً تلك المقولات المشابهة فى تاريخ الإسلام القديم وعلى الأخص مقولة

الخوارج التى انبعثت من قلب الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان . لقد تجاهلت تلك المقولة قاعدة

الإسلام الذهبية التى تقول المسلمون تتكافأ وماؤهم ويسعى برمتهم أدانهم وهم يد على من

سواهم .. وجعلت من القائلين بها حكماً وفيما على الجميع يحلون هذا ، وسعون لقتل ذاك

وهكذا ..

قال الشاب

مهلاً ..

قال المناضل القديم

مهلاً أنت فإننى لم استكمل فكرتى التى أرجو أن تتضح لك . فلقد سارت حياة المسلمين

محكومة بتلك القاعدة الذهبية التى تجعل من جميع المسلمين أنداداً . ليس هناك فضل

لأبيضهم على أسودهم . ولا لشريفهم على غير الشريف منهم ، وكان التجرد من غايات

الدنيا ، والتعفف عن ولاية الحكم هو الحارس الأمين على تنفيذها ومن هنا استقام عليها أمر

الناس ، وكفلت للمسلمين عزة الانتصار المطرد .. حتى جاء من يريدون بالإسلام عرض

الدنيا من حكم زائل ، أو مال هائل ، أو نفع عاجل ، فانقلب الميزان ودخل الناس فى مناهات

الانتصار للأحزاب ، والتعصب للهوى ، وشاع فيهم الملق والنفاق وإيثار الدنيا على

الآخرة . ومن هنا كان لابد لمن يسعى لخدمة الإسلام أن يتخلى عن الطموحات الذاتية حتى يكون منسجما مع المثل العليا للدين

قال الشاب لا أطيق الاستمرار في الحديث دون أن أفهم العلاقة بين ما تقول وبين التفكير الذاتي .
قال المناضل القديم إذا قال فرد أو مجموعة من الأفراد إن ما يقولونه وحدهم هو الحقيقة المطلقة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وأن كل الناس لابد أن يتبعوهم فإننا نسمى ذلك تفكيرا ذاتيا .. ومثل هذا التفكير عندما يلبس ثياب الدين فإنه يكون وسيلة للتمزيق والتفريق لا للتوحيد والتجميع . وخذ مثلا لذلك تلك الجماعات الإسلامية الكثيرة العدد .. كلها افترختها جماعة الإخوان المسلمين وكلها لا تعجبها جماعة الإخوان المسلمين .. وكل واحدة فيها تناقض وتشجب غيرها من الجماعات .. ألا يوضح ذلك أن التفكير السائد عند كل جماعة على حدة هو تفكير ذاتي يعبر عن وجهة نظر خاصة وذاتية في فهم حقائق الدين ؟

قال الشاب إنه اجتهاد ..
قال المناضل القديم وحتى لو فرضنا أنه اجتهاد فإن هناك دائما الوسائل الموضوعية التي تحكم الاجتهادات وتغاي بها عن الذاتية .

قال الشاب وماذا عن الرواد اليساريين الماركسيين يا ترى ؟
قال المناضل القديم لاتعجل . فإن حظهم من الذاتية لم يكن أقل من حظ الإخوان المسلمين فيها . على أن هذا الخطأ لا يفتح في أن كلا من الفريقين قد بذل أقصى طاقاته في سبيل الاستقلال .

قال الشاب ولكن الجميع لم يحققوا ما كان يجب أن يكون ..
قال المناضل القديم : نعم ولولا ذاتية التفكير لكان للأمور وجه آخر .
قال الشاب : وضع لي - لو سمحت - وجه الذاتية في تفكير الرواد الماركسيين .

قال المناضل القديم : يعلم الجميع أن الجماعات الماركسية قد انقسمت على نفسها في مجرى النضال المصري أكثر من مرة .. على الرغم من أنها جميعها كانت تعلن الالتزام الكامل بالنظرية الماركسية . وتنادى بالموضوعية عند البحث في الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . لكن اختلاط الطموحات الشخصية بالأهداف السياسية قد سوغ لكل منها حق الادعاء بأنه هو الملتزم وحدها بالمبادئ . وأن غيرها منحرفون أو مخربون أو انتهازيون .. والذي عاش تجربة اليسار المصري يعرف أن حرب الترشق بالنصوص الماركسية كانت أشد ضراوة من حرب النصوص القائمة اليوم بين أعضاء الجماعات الإسلامية .

قال الشاب ولكن لماذا يتجهون أصلا إلى الماركسية ؟
قال المناضل القديم : لا نستطيع الحجر على العقول التي تطالعها الفلسفات ، والأديان ، والأفكار العلمية ، وكل ما نملكه هو البحث فيما اتجهت إليه فإن لم يرقنا ناقشناه ورفضناه وإن راقنا صرنا مثلهم .. أليس كذلك ؟

قال الشاب : لا .. نحن لا يروقنا الفكر المستورد ويجب أن نحاربه بكل ما أوتينا من قوة ..
قال المناضل القديم : إنه فكر ورد إلينا ولم نستورده .. وهو فكري يشغل حيزا كبيرا في هذا العالم وهو فكر تحت رايته تم تحرير عدد كبير من البشر الذين كانوا فريسة للاستعمار القديم .. ومن أجل ذلك فإنه أصبح حقيقة واقعة من حقائق العصر ، وعلينا أن نقف على أساسياته التي يقوم عليها .

ما وافقنا أخذناه . وما خالفنا رفضناه

قال الشاب : أراك تحاول الدفاع عن هذا الفكر

قال المناضل القديم : دفاعى أو عدم دفاعى لا يلقى حقيقة وجوده . والمهم أن رواد اليسار الماركسى كما سميتهم أنت لم يبرعوا من الوقوع في التفكير الذاتى الذى جعلهم ينقسمون على أنفسهم ويخطئون كثيرا عند التعامل مع الواقع

قال الشاب : وماذا عن الحكم الوطنى بعد سنة ١٩٥٢

قال المناضل القديم : لم يكن أحسن حالا من الفريقين السابقين ، فهو لم يملك عند بداية الثورة غير الحد الأدنى من التفكير الذاتى المنطبع على الوطنية . وكان هذا الحد الأدنى هو البوصلة التى على هداها تحركت القيادات الثورية في ٢٣ يوليو

قال الشاب : مبادئ ثورة يوليو حد أدنى من التفكير الذاتى المنطبع على الوطنية ؟

قال المناضل القديم : نعم . فشعارات ثورة يوليو - ولا تسميها - مبادئ - - شعارات نادى بها الشباب في الجامعات وخارج الجيش قبل أن يعلن عنها الضباط الأحرار بوقت طويل ، وهى في حد ذاتها ليست فكرا ، وإنما هى وليدة فكر عام إذا صح هذا التعبير .. فالحقضاء على الاستعمار شعار وطنى كان يتردد في مصر منذ ثورة سنة ١٩١٩ . وتصفية الإقطاع أو القضاء على الإقطاع شعار أطلقه الماركسيون وهكذا

قال الشاب : وما هى مظاهر التفكير الذاتى للحكم الوطنى بعد سنة ١٩٥٢ ؟

قال المناضل القديم : المظاهر كثيرة نكتفى منها بفكر رفض التعاون مع أى تنظيم أو جماعة تعمل في الحقل الوطنى بحجة أن الجميع مشكوك في إخلاصهم ، ونزاهة مقاصدهم .

قال الشاب : تعنى أن الضباط الأحرار ، ساد بينهم التفكير الذى ينزههم وحدهم دون سائر الوطنيين وأن كل من عداهم يجب أن يخضعوا لهم ؟

قال المناضل القديم : نعم أعنى ذلك وأستند إلى أنهم لم يستطيعوا النفاذ إلى أعماق الحقائق التى تقوم عليها تلك الأجنحة الوطنية الأخرى . وحتى بعد أن أعلن الكثيرون من أعضاء تلك الأجنحة تأييدهم للسلطة إبان حرب ٥٦ ، ٦٧ وما بعدها ، فإن القصور الذاتى لم يسمح لهم بأى من التجاوب أو الاستجابة لهؤلاء المؤيدين !!

قال الشاب : والنتيجة ؟

قال المناضل القديم : والنتيجة أن مصر بكل أجنحتها وقعت فريسة لغول الاستعمار ومكائده من جديد

قال الشاب : لا فض فوك .. وما الخلاص يا ترى ؟

قال المناضل القديم : الخلاص كل الخلاص في أيديكم معاشر الشباب -

قال الشاب : أعود إليكم مرة أخرى بإذن الله وأسأله لنا التوفيق

١٠ - ثالثة الأثافي :

وعاد الشاب كما وعد من قبل بيد أنه لم يكن وحده . وإنما كان مصحوبا بشابين آخرين يبدو عليهما الصلاح

والورع .. وكان كل من الثلاثة يصطحب كتابا من أمهات الكتب الإسلامية وبعد أن جلسوا واطمانوا إلى ترحيب

المناضل القديم بكل منهم سارع أحدهم بتقديم ورقة إليه . ثم دعا لإبداء الراى فيها بعد أن يقرأها .. ولم يلبث

الجميع أن انصرفوا رغم التمسك الذى أظهره مضيفهم لهم . وبعد فترة قصيرة رجع الشاب الأول وحده .

قال المناضل القديم : من هذان اللذان قدما معك ؟

قال الشاب : أخوان لى كنت قد نقلت لهما بعض ما سمعت منك ، وقد أصرا على التعرف عليك فأرشدتهما إلى مكانك ، ولست أظن إلا أنهما سوف يحبانك إن شاء الله

قال المناضل القديم : وما هذا الذى قدمه أحدهما إلى لى لكى أقراه

قال الشاب : إنه أحد منشورات الجماعة .

قال المناضل القديم : فلتقرأ أنت هذا المنشور حتى أستمع إليك .

قرا الشاب : « إن دعوتنا هى أفراد الله سبحانه بالالهوية والحاكمية والسلطان ، ونزع الولاء من المجتمعات الجاهلية ، ومن قيادتها ، فلا جهل ولا جاهلية ، ولا تعاون مع الطواغيت من الحكام والعلماء والانظمة والشرائع البشرية ، ولا نرضى بها ونكفرها جميعا ، ونكفر كل من دان لهم وتبعهم ، وعمل على علو رايتهم ونشرها . وإن الله يأمر أن تكون رابطة المجتمع هى العقيدة ، وليس الوطن ، وليس الشعب ، توقيع « المسلمون »

قال المناضل القديم : ما شاء الله ولا قوة إلا بالله . دين هذا أم سياسة ؟

قال الشاب : بل دين وسياسة فى وقت واحد .

قال المناضل القديم : سبحان الله !! وهذا هو المطلوب رأى فيه بالطبع ؟

قال الشاب : نعم .

قال المناضل القديم : وانت أيها الشاب ما رأيك ؟

قال الشاب : أنا من الجماعة ومؤمن بكل كلمة فى هذا المنشور .

قال المناضل القديم : أعلم ذلك .. ولكننى أود التعرف على عنصر الدين ، وعنصر السياسة فى محتوى هذا المنشور .

قال الشاب : إن الامر لو اوضح فكل سطر من سطور هذا المنشور دين ، وكل سطر سياسة .. والمهم ليس رأى وإنما رأيك أنت .

قال المناضل القديم : وإذا كان رأى يختلف مع رأي جماعتك فهل تعتقد أنه مهم أيضا ؟

قال الشاب فى تردد : نعم ..

قال المناضل القديم : لقد أخطأت فى حق جماعتك التى تكفر الحكام والعلماء ومن والا هم .. وكان الاولى بك وبأخويك اللذين قدما إلى هذا المنشور أن تحجبا عنى لأننى واحد من الذين تكفرونهم ..

قال الشاب : لا .. التكفير حكم وارد على العموم لا على الخصوص ، فمن بين العلماء والحكام من هم مؤمنون غير مكفرين ، وهؤلاء هم الذين يوافقون رأى الجماعة ..

قال المناضل القديم : قلت إننى مختلف مع رأيكم ، ولا أرى أن أفراد الله سبحانه بالالهوية والحاكمية والسلطان مسألة تحتاج إلى دعوتكم فى مصر .. فمصر بعهد الله وطن الأزهر ، وعاصمتها القاهرة ذات الالف متذنة .. وكل المسلمين من أهلها قبل دعوتكم يقولون لا إله إلا الله . فيفردونه بالالهوية فى كل لحظة .. وما دام الامر كذلك فإنهم موقنون بأنه سبحانه متصف بكل صفات الكمال .. فهو الاول والآخر والظاهر والباطن والعالى والحكيم والقادر والمريد الخ أى أن أفراد بالحاكمية والسلطان ليست فى حاجة إلى دعوة أحد . فالكل محكوم بحكمه ، ومذعن لسلطانه .. ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد

قال الشاب : لكن الناس لو كانوا موقنين بذلك لامتنعوا لأوامر الله وبواهي . وابتعدوا عن خلفيات النفاق والملق للحكام

قال المناضل القديم : إذن فأنت تريد أن تدعوهم إلى الاقلاع عن رديتلى النفاق والملق لا إلى أفراد الله سبحانه بالالوهية والحاكمية والسلطان . ثم إن أفراد الله بالحاكمية والسلطان لا يلغى إقامة الحكام من البشر ، فعمربن الخطاب كان حاكما ولم يقل أحد بأن ذلك كان منازعة في حاكمية الله عز وجل .. وأى حاكم له سلطان . ولا يعنى ذلك أن سلطان الله غائب أو أخذه أحد منه

قال الشاب : اليس هناك حاكم ظالم ؟

قال المناضل القديم : بلى . ولكن ظلم هذا الحاكم أو ذاك لا يعنى الخروج عن دائرة السلطان الإلهي ، وإنما يعنى الخروج عن الشرع العادل للدين .. وحينئذ فإن الله بسلطانه يسلط على هذا الظالم من هو أقوى فينتزعه من مقعد السلطة . ويولى غيره مكانه .

قال الشاب : وما رأيك في نزع الولاء من المجتمعات الجاهلية ، ومن قياداتها ؟

قال المناضل القديم : لا أدري - والله - ما هو المقصود بالمجتمعات الجاهلية . أهى المجتمعات السابقة على الإسلام أم هى تلك المجتمعات المسلمة ؟ إن كانت الأولى فلا أعتقد أن أحدا يواليها الآن . وإن كانت الثانية فما أبعد هذا الوصف عنها . ذلك لأن المجتمعات الجاهلية هى تلك التى كانت تعبد الأصنام وتند البنات ، وتتعصب للقبيلة . وتستذل الرقيق . وتستبيح الخنا والفحش في كل دروب الحياة .. ولست أحسب أن أوطاننا الإسلامية تنطبق عليها تلك الموصفات

قال الشاب : مهلا - يا سيدى - فأصنام الحجارة حلت محلها أصنام البشر من الحكام وذوى النفوذ والجاه **قال المناضل القديم :** لا تكمل .. فليس هناك في مجتمعنا من يعبدون البشر ، ويتقدمون لهم بالقرايين . كل ما في الأمر أن لدينا بعض المعاصى المجرمة من الحكام ومن غير الحكام .. ومن ثم لا جهل ولا جاهلية إلا بالظن والادعاء .

قال الشاب : كأنك تريد أن تقول إن المجتمعات التى نعيش فيها مجتمعات إسلامية .

قال المناضل القديم : وهل تنزع عن المجتمع صفة الإسلام لمجرد المخالفات التى كانت تقع حتى في عهد الرسول ؟ **قال الشاب :** فرق بين أن يكون الغالب على المجتمع وجه الطاعة والخضوع لله رغم وقوع بعض المخالفات وبين أن يكون الغالب وجه المعصية والتمرد على الله رغم وقوع بعض الطاعات اليس كذلك ؟

قال المناضل القديم : بلى .. ولكن من الذى قال إن الغالب وجه المعصية .. ألا نصلى ونركع ونسجد لله رب العالمين لا شريك له ؟ ألا نصوم ونزكى ، ونحج بيت الله الحرام ؟ ألا يتلى بيننا كتاب الله تعالى صباح مساء ؟ .. أيقوم التعليم في الأزهر والمساجد والمدارس على تلقين مبادئ الكفر والتنكر للدين ؟ .

قال الشاب : لا .. لكن الوجه السائد هو ما تنتشره وسائل الإعلام المختلفة ، وما تقوم عليه صناعات السينما ، والمسارح ، وفنون الرقص والإباحية ، وشرب الخمر ، والتعامل بالربا الخ

قال المناضل القديم : لا تكن ظالما . يابنى - فليس كل ما في وسائل الاعلام صورا للمعاصى وتحريضا عليها ، وأنت شخصيا تجلس إلى بعض الحلقات التلفزيونية لكى تتفقه في الدين ، وكثيرا ما استمعت إلى البرامج الدينية في الاذاعة ، ولا بد أنك تقرأ كل المقالات العلمية التى تفيض بها أنهار الصحف والمجلات .. الخ

قال الشاب : أرجو أن نعود إلى نص المنشور ، وأن تعدد رأيك في مسألة رفض التعاون مع الطواغيت .
قال المناضل القديم : أى طواغيت ؟ الحكام والعلماء والأنظمة والشرائع البشرية ؟ قد يكون الحاكم طاغوتا وقد لا يكون . فإن يكن طاغوتا فنحن مأمورون بمحاربته . وإن لم يكن فنحن مأمورون بمساندته والعلماء ؟ من الذى قال إن العلماء طواغيت ؟ .. ولماذا ؟ العلماء الذين ينشرون نور المعرفة في العقول ، وعلى أكتافهم تصعد الأوطان للمعالي .. طواغيت ؟ ويجب ألا نتعاون معهم .. يا سبحان الله !! فلنتعاون إذن مع الجاهلين ..

تأتى بعد ذلك الأنظمة والشرائع البشرية .. من الذى قال إنها طواغيت ؟ .. « إن الطاغوت ما عبد من دون الله ، فهل هناك من يعبد الأنظمة والشرائع البشرية من دون الله ؟
قال الشاب : ها أنزل الله الشرائع البشرية حتى نحكم بها ؟

قال المناضل القديم : فرق بين أن نحكم بها وبين أن نعبدها ونسميها باسم الطاغوت .
قال الشاب : ألا يرقى الحكم بها إلى مرتبة الكفر ؟
قال المناضل القديم : في أصول الفقه الإسلامى من مصادر التشريع بعد الكتاب والسنة « العرف » وما العرف إلا قواعد تعارف عليها البشر ففقتوها وحكموا بها .. ترى هل يدخل ذلك ضمن الطواغيت أم لا ؟

قال الشاب : ليس هذا هو المقصود بالشرائع البشرية . وإنما المقصود بتلك الشرائع المأخوذة عن الفرنسيين أو غيرهم

قال المناضل القديم : حتى هذه الشرائع نحن لا نعبدها ولا نتعبد بها . ويكفى أن تعلم أن تسعة أعشار الأقية يقضى فيها عرفيا وبعبدا عن المحاكم .. ومعنى ذلك أنها يقضى فيها بشريعة الله .. أما العشر الباقى ففى حوالى ٨٠ ٪ من قضاياها تتطابق النصوص القانونية مع الفقه الإسلامى .. أمن أجل ٢ ٪ فقط من الأحكام نطلق اسم الطاغوت ونكفر الحكام كل الحكام ، والعلماء كل العلماء والأنظمة والقوانين البشرية جمعا ؟

قال الشاب : نحن نريد حكاما وعلماء وشرائع تلتزم كلها بالإسلام .
قال المناضل القديم : وأنا أريد حكاما وعلماء وشرائع تلتزم كلها بالإسلام . ولكننى أستنكر الحكم على الجميع بالكفر .. كما أستنكر تكفير كل المسلمين المحكومين بحكامهم المسلمين والعالمين معهم - أستنكر طبعا تكفيرى وتكفير غيرى من الموظفين القائمين على خدمة المواطنين !! من الذى خولكم حق تكفير غيركم ؟ ألم تقرموا قول الرسول لا ترجعوا بعدى كفارا بضرب بعضكم رقاب بعض ؟ ألم تطلعوا عند تفسير هذا الحديث على قول بعض الأئمة . أى لا تكفروا فتكفروا ؟

قال الشاب : الخطاب في هذا الحديث للمسلمين ..
قال المناضل القديم : وأنتم ألا تدخلون في جملة المخاطبين ؟ إن الاتهام بالكفر جريمة لو أبيحت لأمكن للجميع أن يستعملوها ضد بعضهم البعض . والمؤمن الحق يعرف أن الكفر ضد الإيمان والإيمان يقين قلبى لا يستطيع أحد الإطلاع عليه .. فكيف يجروء المسلمون « على وصف المسلمين بالكفر ؟

قال الشاب : أرجو التركيز على ما قاله المنشور بشأن رابطة المجتمع . أهى العقيدة ، أم الوطن ، أم الشعب ؟
قال المناضل القديم : ولماذا الإصرار على الفصل بين هذه الثلاثة ؟ لم لا تكون الرابطة مكونة من كل هؤلاء ، الوطن

بحكم كونه المكان الذى ينشأ فيه الفرد المنتمى إلى المجتمع . والشعب بحكم كونه الوسط
الإنسانى الأقرب إليه . والعقيدة . بحكم أنها الأصرة التى تربط بين الفرد ووطنه وشعبه .
وتعلمه حق الآخرين عليه

قال الشاب إن الله تعالى يقول « إنما المؤمنون إخوة » فهو يجعل الرابطة أخوة الإيمان ليس كذلك
قال المناضل القديم بلى . ولكن أخوة الإيمان لا تتعارض مع الأخوة الوطنية ولا القومية فحب الوطن الذى
يحتضنك عند مولدك شيء فطرى فيك . ومن أجل ذلك فإنك تغار عليه وتعمل ما استطعت على
حمايته من أعدائه . وبما أن هذا الوطن ليس خاصا بك بل يعيش عليه شعب كبير أنت فرد
منه فإنك فطريا لابد أن تنزع إلى نصرته بنصرة الوطن الذى تنتمى إليه . وما بالناس نذهب
بعيدا وقد قال رسول الله ليلة الهجرة مخاطبا مكة « والله إنك لأحب أرض الله إلى ولولا
أهك أخرجوسى منك ما تركتك » ألا يكفى ذلك للتدليل على أن حب الوطن لا يتناقض مع
العقيدة

قال الشاب في اسف أراك لم توافق على شيء واحد من الذى ندعو إليه
قال المناضل القديم وكيف أوافق وأنتم - رغم إخلاصكم - تسلكون طرقا لن تبلغوا معها أى هدف ؟ إنكم تبدعون
دعوتكم بادعاء أن مجتمعكم هو المجتمع الجاهل رغم كل رايات الإسلام التى ترفرف عليه
ثم على فرض أن هذا هو المجتمع الجاهل بكل مواصفاته التى عرفناها عنه قبل الإسلام
الم تقرعوا كيف بدأ الرسول دعوته فيه ؟ هل صعد فوق ربوة عالية وقال لاهل هذا المجتمع
يا عبدة الطواغيت والوثان يا كفار يا جاهليون أقبلوا على لاهديكم ؟ أم دعاهم بالتودد
والتحبيب والمناجاة . يا بنى نوفل ، يا بنى عبد شمس ، يا بنى عبد المطلب ؟ حتى إذا
اجتمعوا إليه قال فى تلمظ وحب غامر : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير
عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم . ما جربنا عليك كذبا قط !!
أرايت هذا الإلزام الأدبى الذى ألزمهم إياه قبل أن يوجه إليهم دعوته ؟ لقد اعترفوا
بصدق الدعوة والداعية قبل أن يخبرهم بها !!

فلما بلغ منهم هذا المبلغ عقب متحجبا مرة أخرى إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت
الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم (لم يا ترى يقسم على أنهم
أفضل لديه من كل الناس ؟ لمكانة المواطنة ، والقربى ، وشائج الأرحام) ولقد كان
مقتضى تصديقهم المسبق ، وتودده الذى أقسم عليه ألا يكذبوه بعد ذلك !! لكنهم ما إن
سمعوا قوله « وإنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة حتى تناسوا التصديق
والتودد ، وصاح صائحهم : لهذا جمعنا ؟ تبارك !! الخ ما ورد فى السيرة النبوية مما هو
معروف .

ترى لو أنكم سلكتم طريق الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن .
اتكونون مقصرين فى حق الإسلام الذى تغارون عليه ؟ وهل تظنون أن الناس سوف يقتنعون
بكم لأنكم ترمونهم بالكفر ؟ لقد عرف تاريخ المسلمين فى الماضى البعيد والقريب جماعات
مشابهة وكان مصيرها الفشل . بل إن تاريخ الإسلام لا يعرف تجربة من هذا القبيل تم لها
النجاح

ليتكم تدرسون كل التجارب السابقة في تكفير المسلمين ، ومحاولة حملهم بقوة الإرهاب على الخضوع والاستسلام .. ليتكم تدرسون وتقارنون ما تقولون بالذي كان يقوله داعية الحق الاول « إن الرائد لا يكذب أهله » .

قال الشاب : يخيل إلي أنك لم تعد تستطيع أن تعطيني فرصة للمناقشة .

قال المناضل القديم : لا . بل أستطيع وأرجو أن نتحدث بما تريد ..

قال الشاب : إن الجماعات الإسلامية وأمرائها لا يريدون شرا لأحد .. ولكنهم يعرفون أن العقبة الاولى في طريق دعوتهم هم الحكام ومن يناصرونهم .. ويودون إبراز هذه الحقيقة ليعرفها كل المؤمنين بالإسلام ..

قال المناضل القديم : لكن هذا المنشور الذي أحضرت يرمى المجتمع بأكمله بالكفر ، وتلك ليست حقيقة تدل على تفكير معقول ، وغاية الغايات التي يمكن أن يخلقها هذا التفكير ، هو الزج بالئات والآلاف في معارك آثمة تكون الخسارة الوطنية والدينية فيها بالغة الفداحة ! ومن هنا أندفاعي لكى أبصرك . وعساك أن تبصر غيرك ممن يرتجلون التفكير ، أو يلقونه بغير فهم .

قال الشاب : أنت تحرص علينا ولكنك تحرص على هذا المجتمع أكثر من حرصك علينا .

قال المناضل القديم : في المجتمع الذى نعيش فيه الكثير مما يجب أن نسخط عليه ، وننشد تغييره . لكن هذا التغيير يتطلب الدراسة والفهم الدقيق . لكى نضع أيدينا على مواطن العلة وخطة العلاج . وأنا لا أعترض على أحد يعتمد إلى مقاومة أوجه الفساد في المجتمع فكيف أكون أشد حرصا عليه منكم ؟

قال الشاب : دفاعك عن إيمان أفرادهم وإسلامهم ، وهجومك على اتهام الجماعات له بالكفر يوحى بذلك .

قال المناضل القديم : هذا استنتاجك « الغرير » وأرجو أن تسامحنى في هذا الوصف الذى خلعتة عليك وعلى استنتاجك في وقت واحد .

قال الشاب : أسالك بشكل محدد عن نوع الحكم في هذا المجتمع هل هو حكم إسلامي أم لا ؟

قال المناضل القديم : يبدو أنك قد نسيت كل ما سبق أن قلته لك ، وأرجو أن تؤجل المناقشة لوقت آخر .

١١ - توقعات المستقبل :

بعد يومين اثنين من انتهاء تلك المناقشة ، قدم عليه من يدعوه لحضور حفل زواج ابنته وكان هذا الحفل من ذلك النوع المرفه الذى لا يقدر عليه وعلى تكاليفه الباهظة إلا أثرياء هذه الأيام ذهب إلى الحفل في موعده المحدد ، وشهد المئات من السيارات الفارهة تحيط بالمكان ففكر في العودة من حيث أتى لولا أن والد العروس قد لمح شخصه فأقبل عليه مرحباً ولم يتركه حتى أجلسه في إحدى الغرف مع عدد من الوجوه البارزة في المجتمع بعد أن قام بتعريف كل منهم للآخرين .

جلس المناضل القديم بين هذا النفر الذين كان من بينهم عدد من أعضاء مجلس الشعب ، وحاول معهم في البداية أن يكون حريصا على المجاملات الطيبة كما تقضى بذلك التقاليد ، فقد كانت العروس قريبة له ، وكان من واجبه أن يكون في مظهر الممتن لحضور المدعوين ، متمنيا لهم الأفراح ، والليالي الملاح .

لكنه لم يستطع الاستمرار في تلك المجاملات حتى النهاية ، وإنما أراد أن يتعرف على وجهات نظر المدعوين فيما يتعلق بشئون البلاد القائمة والمحتملة . فسأل متوجها إلى أعضاء مجلس الشعب :

- أم الممكن التعرف من حضراتكم - وأنتم من حزب الأغلبية بالمجلس - على توقعات المستقبل ؟

قال أحدهم أية توقعات ؟ وأى مستقبل ؟

- مستقبل الوطن الذى نعيش فيه ، والامة العربية التى ننتمى إليها

قال ثان مستقبل الوطن مقرر فى الخطة الخمسية القادمة ، ومستقبل الامة تشير إليه سياسة الرئيس حسنى مبارك منذ ولايته الاولى . فالخطة الخمسية الحالية ولا اقول القادمة تتجه إلى مضاعفة الجهود من أجل الإصلاح الاقتصادى ، وزيادة الانتاج الزراعى والصناعى ، وتدعيم بناء البنية الاساسية ، وتطوير الصناعة الحربية ، ورفع المعاناة عن محدودى الدخل ، وإصلاح التعليم ، إلى غير ذلك . أما بالنسبة للعلاقات مع الدول العربية فقد حرص الرئيس مبارك منذ تولى الحكم فى مصر على وقف الحملات ضد أى منها ، كما حرص على نبذ اتفاقية الحكم الذاتى ، والتأكيد على الاعتراف بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره واستعادة أراضيه ، ومنظمة التحرير ممثلة الشرعى الوحيد ، وإلى جانب ذلك فقد استجاب الرئيس إلى مشاعر الشعب المصرى ضد تطبيع العلاقات مع إسرائيل .. وكل ذلك قد أثمر ثمرته التى تجلت فى قرار مؤتمر قمة عمان وما تلاه من استئناف العلاقات الكاملة بين مصر والأغلبية من دول الجامعة العربية .

- وماذا عن وطأة الدين الذى يثقل كواهلنا ، ويعوق تقدمنا إلى الامام ؟

قال ثالث تعتمد الدولة إلى المطالبة بجدولة الديون ، وتستجيب الدول الدائنة وهذا حل مؤقت سوف تعقبه حلول أخرى نهائية ..

- مثل ؟

- مثل الاستعاضة عن الديون بالاعتماد على النفس ، فالدول العربية تكون وحدة جغرافية سياسية ، تملك من عناصر القوة ما يجب أن يدفعها إلى التكامل والاستغناء عن الاعتماد على العالم الخارجى . ولناخذ مثلا استيراد الاغذية الذى نستطيع ايقافه لو تمكنا من تسخير اراض السودان بواسطة الخبرات المصرية والتمويل العربى . والخبراء يؤكدون أن استغلال الاراض السودانية يمكنه توفير الغذاء لكل الدول الإفريقية .

ومثل آخر تلك الدول العربية التى تستورد السلاح .. إنها تستطيع اليوم شراء الأسلحة الحربية المتطورة من مصر . بل وتستطيع المساهمة فى جعل الصناعة الحربية المصرية فى قمة الصناعات الحربية فى العالم .

- لكن هذا التكامل دونه الاحوال . كل الاحوال ، فالسائد اليوم بين العرب هو قانون التفتت والتمزق ، وإسرائيل ومن يقفون معها لابد أنهم سوف يسعون إلى إحباط كل خطوة نخطوها على هذا الطريق .. ولا ننسى أن فى نصوص اتفاقية .. كامب ديفيد .. ما يلزم مصر بالوقوف مع إسرائيل ضد أية التزامات أخرى !!

- لا خلاف بيننا وبين أحد فى أن هذه قضية صراع ، ولا تنسى أن اتفاقية « كامب ديفيد » يمكن أن تلغى مثلما الفينا معاهدة سنة ١٩٣٦ مع الانجليز ، ومعاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتى .

- بالفعل نحن الآن فى مرحلة جديدة من الصراع ضد التمزق والتفتت ، ولكن إدراكنا لهذه الحقيقة يفترض رسم خطة يكون هدفها إقامة التكامل والوحدة . بين كل أبناء الشعب العربى .

- أوليست عمان خطوة على الطريق ؟

- بلى . ولكن ما تم فى عمان من صنع رؤساء وملوك الدول العربية والتمزق والتفتت قد أصاب الشعوب

- ومن الممكن إذا ما استمر أن يزيد من إرهاب الجميع
- تقصد الحرب بين ليبيا وتشاد ، واقصد النزاع بين البوليساريو والمغرب ، واقصد الصراع بين اليمنيين واليمنيين ، والسودانيين والسودانيين ، والجماعات الإسلامية والجماعات الإسلامية الخ .
 - هي أيضا قضية وعى وصراع ، ومن المؤكد أن تزايد الوعي بأهمية التكامل والوحدة سوف يفرضهما على الجميع . وعلى كل فنحن اليوم أفضل مما كنا بالأمس ، ولعل في تطور العمل الفلسطيني في غزة والضفة الغربية ما يشير إلى استرداد روح المقاومة التي على صخرتها تتحطم الهزائم .
 - وماذا عن العمل السياسي الداخل في مصر ؟
 - إنه العمل القائم على أسس ومبادئ اتلديموقراطية .. فالمعارضة تعلن رأيها عن طريق صحفها دون أى تدخل من أحد ، ولها تمثيلها النيابي في مجلس الشعب ، ولم يحدث عدوان على حق أحد في إبداء رأيه داخل المجلس . والتجاوزات التي تقع من الأفراد بحاسب عليها القانون ورئيس الجمهورية يتولى منصبه عن طريق الاستفتاء الحر المباشر . وتتمتع البلاد وبحمد الله بنوع من الاستقرار لم تنعم به في أى عهد سابق .
 - وهؤلاء الأصوليون ، أو السلفيون الذين يتمردون ، ويظهرون رافضين لكل شيء .. أهم أيضا من علامات الاستقرار الذي تحدثون عنه ؟
 - ماذا تقصد ؟
 - أقصد أن التكامل والوحدة المنشودين على مستوى الأمة العربية ، لا بد أن يستندا على ركيزة مصر الموحدة القوية الناعمة حقا بالإستقرار .
 - وهل بعض الشباب الرافضون لما نحن فيه دليل على عدم الإستقرار ؟
 - نعم .. وإلا ما اتخذت الصحف الأمريكية والغربية والإسرائيلية من الأحداث التي يمارسها هؤلاء الشباب مادة للتحدث عنها باعتبارها ثورة سوف تعم الوطن بأكمله .
 - تلك تهويلات صحفية مقصود بها بعض الأغراض الضيئة .
 - إذا قالت تلك الصحف « إنه من العناصر التي ساعدت على صعود الأصوليين الاقتصاد المنهار الذي تثقله الديون ، ومحاولة الأصوليين على العكس تقديم بدائل ناجحة كالعيادات والمستشفيات والمؤسسات الإسلامية المالية التي توفر فوائد أكبر من البنوك .. فهل يكون ذلك تهويلا ؟
 - نعم تهويل . فنحن لسنا وحدنا الذين تثقلنا الديون .. إن الديون ظاهرة العصر الجديد التي فرضت نفسها على كل الدول النامية في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية .. بل إن الولايات المتحدة الأمريكية نفسها تعتبر أيضا دولة مدينة .. لكن أحدا لا يجرؤ على القول بأن الاقتصاد الأمريكي منهار .. ووجود بعض الشركات التي تحقق أعلى مستويات الربح في الولايات المتحدة لا يعنى الإعداد لثورة سلفية أو تقدمية - والصحف التي تتغنى بمثل هذه الكلمات ربما لا تستطيع الرؤية ، أو تريد الطعن في كفاءة بعض النظم بهدف التمهيد للانقلاب عليها .
 - إذن ما هو المناخ الذي أفرز ما يمكننا أن نطلق عليه وصف التنظيمات المتطرفة ؟
 - التنظيمات المتطرفة ليست ظاهرة خاصة بمصر . فهناك في كل بلاد العالم تنظيمات متطرفة : وهي ليست ظاهرة إسلامية مقصورة على الشباب المسلم وإنما هي ظاهرة يصاب بها غير المسلمين أيضا .
 - فلتنفق أولا على تحديد معنى التطرف حتى لاتضل .

- التطرف يعنى رفض كل شيء والحكم ببطلانه . والسعى لتقويضه
- اتفقنا ؟
- اتفقنا
- هذا التطرف بهذا المعنى ليس ظاهرة مصرية انتجها المناخ المصرى وحده ، وهو أيضا ليس ظاهرة صحية وإنما ظاهرة يصاب بها بعض الشباب نتيجة المعاناة خاصة تختلف من مجتمع إلى مجتمع .. فالمجتمع الذى بلغ من التقدم مبلغا عظيما ، ولم يستطع بتقدمه فتح باب الامل فى التوازن النفسى عند الافراد تظهر فيه ظاهرة التطرف فى شكل رفض هذا المجتمع بكل تقاليده ونظمه .. وفى هذا الصدد تبرز جماعات « الهيبز » التى انتشرت قبل العقد الماضى من هذا القرن فى شتى أنحاء المعمورة . والمجتمع الذى تلم به كوارث التخلف ، ولا يجد أفرادها ما يعطيهم الامل فى تجاوز تلك الكوارث تظهر فيه ظاهرة التطرف فى شكل رفض المجتمع بكل تقاليده ونظمه أيضا .. وقد يأخذ التطرف شكل التطلع إلى المستقبل من منظور البحث عن الوسائل المقضية إلى التقدم . وقد يأخذ شكل التطلع إلى الماضى لاستلهامة تجاوز الكوارث التى آلت بهذا المجتمع . ومن المعلوم أن هذه ليست أول مرة يظهر فيها التطرف الذى يرفع رايات الإسلام حتى يمكن ربطه بمسألة الديون والفوائد . كما أنه من المعلوم أن هذه ليست أول مرة يكون فيها مثل هذا الضجيج المصاحب للعمليات المتطرفة . فلقد وقعت عمليات التطرف الإرهابية أكثر من مرة فى بلادنا .. بل إن أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات من هذا القرن قد شهدت الكثير من هذه العمليات وكانت نتيجتها والاعلى من قاموا بها أولا وقبل كل شيء .
- إذن فأنتم لا تتوقعون انتصارا لهذا التطرف ، ولا ترون ما تراه صحافة الغرب عند حديثها عن مستقبله .
- نعم نحن لا نتوقع انتصارا لهؤلاء المتطرفين مهما فعلوا . ذلك لأن وجودهم رهن بوجود بعض الأزمات الطارئة .. فإذا انفجرت الأزمات لم يبق لهم مجال يتحركون فيه .. ونحن نسأل هؤلاء المتطرفين ماذا يمكنكم تقديمه من الحلول الأزماتنا ؟ فلا نجد لديهم غير إجابة عامة هى « الإسلام » وهذا فى حد ذاته دليل على أنهم لا يملكون حلا تفصيلياً تمكن مناقشته والحكم عليه .. لأن الإسلام لابد أن يترجم إلى خطط عملية ، ودراسات تفصيلية لكل مشكلة على حدة .. ولا شك أن مشاكل عصرنا بالغة التعقيد ، وتحتاج كل منها إلى الاستعانة بأسلحة العلم والتكنولوجيا وكلمة « الإسلام » وحدها لا تغنى فى هذا المضمار .
- ورد على آلسنة حضراتكم أن المعارضة فى مصر مسموح بها ، وأن راية الديمقراطية ترفرف على كل الربوع .. فلماذا تضيق السلطة على هؤلاء « المتطرفين » . اليسوا ضمن كتائب المعارضة ؟
- أولا لم يحدث هناك تضيق ؟ فهؤلاء المتطرفون هم الذين يضيقون على أنفسهم ذلك لأنهم يرفضون كل شيء .. يرفضون الحكام والقوانين ، والديمقراطية والدستور ، وحتى إخوانهم المسلمين يرفضونهم ويسمونهم عبيد السلطان .. ومن أجل ذلك فإنهم يرفضون العمل تحت ضوء الشمس مثلما يفعل غيرهم . ولا يطيب لهم العمل إلا تحت جنح الظلام !!
- تعنى أنه مسموح لهم بالوجود العلنى لكى يبشروا بدعوتهم إلى تقويض « المجتمع الجاهلى » الذى هو مجتمعنا ؟
- تعنى أنه فى استطاعتهم سلوك الطريق الذى سلكته كل أحزاب المعارضة الى الوجود لكنهم يرفضون ذلك بحجة أن الحكام طواغيت ولا ينبغى سلوك أى طريق إليهم .

- ولو سلكوا هذا الطريق هل سيسمح لهم بالوجود الظاهر المحسوس ؟
- عموما إذا سلكوا ولم يسمح لهم فإنهم يكونون قد أقاموا الحجة على أنهم مجبرون على السرية وحينئذ يعملون ما يريدون !! وقد يجدون من يلتبس لهم العذر .
- هؤلاء الشباب في مجموعهم طيبون مخلصون ، ولديهم القدرة على التضحية في سبيل بلادهم ودينهم ولا بد من الحوار معهم ..
- نعم ولكن أين هم حتى يتم الحوار معهم .
- إنهم يعيشون بين ظهرانينا ، وهم قريسة الظروف السيئة التي مرت بمصر .
- أية ظروف سيئة ؟
- ظروف الحكم الناصري الذي جنح إلى الفردية والإرهاب فأضعف الملكات المصرية النقدية ، وقضى على قدراتها الاستقلالية ، بايجاد هوة شاسعة بين الشعارات وتطبيقها . كان يقول : ارفع رأسك يا اخي ، والتطبيق شر أنواع الاستبداد ، وكان ينادى بالحرية بينما كان يضرب قلاع الحرية واحدة بعد الأخرى . وهؤلاء الشباب تلاميذ الضحايا للإرهاب الأسود الذي يدفع إلى رفض كل شيء .
- لا تكمل يا أخى - بالله عليك - فانا أعرف أنك سوف تقول وهم ضحايا هزيمة ١٩٦٧ ومرارتها ، وهم ضحايا خيبة الأمل التي منى بها كل المصريين في العهود المختلفة - وكل ذلك معروف للجميع .. ولست وحدك الذي يمتلئ قلبك بالعطف عليهم ، ومحاولة الحوار معهم .. لكن شرط الحوار الأول أن يظهر المحاور على سطح الأرض .
- وكان موعد لحظة الزفاف قد حل فانشغل الجميع بمراسيمه .. ثم افترق عن مجلسه عائدا إلى منزله .

١٢ - اختراق الحصار :

- عاد ليجد ورقة تقول له : حضرت لكى أكمل المناقشة معكم ولم أجدكم .. انتظرني في مثل هذا اليوم من الاسبوع القادم .. وتبدى له أن كانت تلك الورقة هو الشاب المهموم الذي يحاوره منذ أسابيع .. ولم يقف كثيرا عند السؤال عن الكيفية التي اهتدى بها ذلك الشاب إلى منزله . فهو شخصيا قد عانى البحث عن مكان يظن أنهم سيأخذون بيده عندما تستقلق عليه الأمور ..
- والمهم أنه انتظر الاسبوع كله وهو مشغول بالخطر يأمر هذا الشاب حتى طرق عليه الباب ، فاستقبله هاشا باشا كثير الترحاب .
- قال الشاب :** فضلت أن يكون حوارنا في المنزل بعيدا عن الأماكن العامة .
- قال المناضل القديم :** حسنا فعلت .
- قال الشاب :** وأرجو في حوارنا اليوم ألا تضيق ذرعا بخشونة الصراحة التي سوف لا أستعمل سواها .
- تفضل . وإن أضيق .
- قال الشاب :** أنت لا توافق على نهج ومسلك الجماعات الإسلامية . ولا بد أنك تحبذ منهاج ومسلكا آخر تعتقد أنهما خير المناهج والمسالك .
- نعم احبذ منهاج ومسلكا آخر .. ودون أن تسأل عنهما فإننى أرجو أن أبسطها لك في إيجاز :
- فالمناهج الذى احبذه هو منهج الوعي بالحقائق البعيدة عن الأوهام ، والإلتزام بمراعاة

تلك الحقائق عند كل سلوك نسلكه

قال الشاب

لم أفهم وأسالك الإيضاح .

- من الحقائق التاريخية أن الدين أى دين ، إنما انبثقت رسالته لكى تخرق حصار أزمة طاحنة تحيط بالناس . وكانت الدعوة إليه فى بادىء الأمر تعنى تجميع الانتصار وإعدادهم لهذا الاختراق من أجل الانتقال بالناس إلى مستوى أفضل من الحياة .

قال الشاب

هذا واضح ومعروف .

- ومن الحقائق التاريخية أيضا أن لتباع الدين أى دين كلما وقعوا فى حصار أزمة جديدة اتجهوا بقلوبهم إلى محاولة الاختراق بنفس الطريقة التى استخدمتها طلائع المؤمنين فى الماضى البعيد .

قال الشاب

: وذلك أيضا واقع مشهود .

- ولكن الاتباع غالبا ما يفشلون .

صاح الشاب

: لا .. فقد نجحت الدعوة الوهابية فى السعودية ، والخومينية فى إيران .

- فى أى شيء نجحتا ؟

قال الشاب

كل من الدعوتين نجحت فى إقامة دولة باسم « الإسلام » ،

- حسنا . ولكن اسم « الإسلام » غير الإسلام .

قال الشاب

لا أفهم .

- الإسلام حقائق حضارية نقلت المجتمع إلى مستويات رفيعة فى عدد قليل من السنوات . الأمر الذى جعل القلوب تهفو إليه من شتى أقطار الأرض ، لكن اسم الإسلام لا يغنى ، بل يفرى الطعن عليه وهذا هو ما يحدث بين الإيرانيين والسعوديين الذين لا ينفك كل منهما عن الهجوم على الآخر

قال الشاب

: لكن كلا من الدولتين تُجكّم كتابالله وسنة رسوله الكريم .

- وفيم اختلافهما إذن ؟ إن أية واحدة منهما لا تستطيع الوفاق مع الأخرى ، وأكثر من ذلك أنهما لا تستطيعان اقناع العالم الإسلامى بأن ما تسيران عليه هو الإسلام وهذا هو الذى أردته بأن الاتباع غالبا ما يفشلون .

قال الشاب

: ولم الفشل يا ترى ؟

- هناك سبب من ثلاثة : إما عدم القدرة عن الفهم الصحيح لحقائق الإسلام ، وإما هدم القدرة على التطبيق الصحيح لتلك الحقائق ، وإما عدم القدرة على فهم حدود الأزمة التى تحاصر الراغبين فى الانتصار بالدين .

قال الشاب

وكيد أعداء الإسلام للإسلام ألا يصلح سببا رابعا ؟

- لا . فكيد هؤلاء الأعداء لم يستطع إفشال دعوة الإسلام فى فجر بزوغها .. والكيد من الأعداء قد يأتى بأسباب النجاح ، متى توافقت الدعوة مع المشاعر المتعطشة إليها

قال الشاب

: وهل يعجز أتباع الإسلام الراغبون فى الإصلاح به عن فهم حقائقه ؟

- نعم قد يعجرون . إما لميل وهوى ، وإما لضعف فى التحصيل الثقافى والعلمى . والدليل على

ذلك أولا هذا التعدد الحزبي مهم وتأويل النصوص الدينية والدليل على ذلك ثانيا أن الكثيرين يستبشرون دم إخوانهم المسلمين رغم النصوص الصريحة التي تحرم ذلك .
معنى ذلك أننا يجب ألا ندعو بدعوة الإسلام ؟

قال الشاب

- لا أبدا ولكننا يجب أن نفهم أن أولى حقائق الدعوة الإسلامية أنها دعوة لتوحيد كافة الناس حول رايته المرفوعة بالشهادتين فهذه الراية هي التي بدأ الإسلام بها ، وبها يجب أن يعود . أما أن يبدأ الدعوة بتمزيق تلك الراية وأدعاء أنهم من دون جميع المسلمين أصحابها ، وأن بقية المسلمين خارجون عليها ، فهذه ليست دعوة للإسلام ، وإنما هي دعوة لمزيد من التمزيق الذي يطمع العدو ولا يردعه .

قال الشاب

دلتى على الكيفية التي يجب أن يلتزم بها الدعوة للإسلام اليوم .
- الكيفية بسيطة ، ويمكن إبرازها من زاويتين : الزاوية الأولى تنظر إلى غير المسلمين في شتى أقطار الدنيا ، وتقدم فهم حقائق الإسلام الصافية دونما إثقال بالخلافات المذهبية ، مع الالتزام بعدم التجريح الشخصي للخصوم . والزاوية الثانية تنظر إلى جميع المسلمين على أنهم إخوة يجب أن يتوحدوا لكي يحتلوا مكان الصدارة بين أمم الأرض .

قال الشاب

: وبأية وسيلة يمكنهم أن يحتلوا هذا المكان ؟
- الوسيلة الأولى هي الدراسة الجادة لنوعية الحصار المفروض عليهم اليوم . ثم التعرف على الأدوات التي يمكن بها خرق هذا الحصار ، وتبويرها واستعمالها بأعلى كفاءة ممكنة ، بحيث نقطع الطريق إلى التقدم في اقصر وقت مستطاع .

قال الشاب

ومن الذي يضطلع بتلك الدراسة ، ويتعرف لنا على تلك الأدوات ؟
- هذا هو الجهاد الحقيقي الذي يجب أن يدعى إليه كل القادرين عليه دونما استثناء .
أهو فرض عين ؟

قال الشاب

- نعم فرض عين لا يجوز أن يقوم به البعض نيابة عن الباقين ، وأرجو أن ننتبه جيدا لذلك .
إنني لأعجب والله للانتقال بالجهاد من مستوى القتال حربيا إلى مستوى القتال بالدراسة !
- من حقا أن تعجب ، ولكن تراث قديلا فقد يزول عنك العجب .. إن القتال بالأسلحة فرع عن القتال بالدراسة والعلم .. فالدراسة والعلم هما أقوى الأسلحة وأمضاها . وبدون الدراسة والعلم لا يمكن صنع الدبابة أو المدفع أو القذيفة أو ما شئت من أدوات القتال في العصر الحديث ، ناهيك عن أن المتسابقين في إنتاج الأسلحة هم تلك الدول التي تتسابق في مضمار العلم بمعدلات لم يعرفها كل تاريخ الإنسان الطويل .

قال الشاب

أود أن تعرف أننا لسنا ضد الدراسة والعلم .
- فرق بين ألا تكون ضد الدراسة والعلم ، وبين أن تكون رسالتك هي الدراسة والعلم .

قال الشاب

ولكن الدراسة والعلم لا يتمكن منهما كل الناس .
- كل بقدر استطاعته .. إذ أن على الجميع أن يعرفوا أنهم مطالبون بالإفلات من حصار الهزيمة المفروضة علينا ثقافيا ، وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا الخ .. كما أن على الجميع أن يعرفوا أن شرط تحقيق ذلك هو الجدية المطلقة في تحصيل العلم واستخدامه على جميع المستويات .
وهل نستطيع بتحصيل العلم أن نكتشف أسبابا لحصارنا غير الانصراف عن الدين ، وعبادة

قال الشاب

وتأليه المخلوقين ، والحكم بغير ما أنزله الله رب العالمين ؟
 - نعم نستطيع .. فالإسرائيليون ليسوا مجتمعاً عاد إلى الله فنصره ، وإنما هم مجتمع أغليته من الملاحدة .. ومع ذلك فقد هزمونا أكثر من مرة .. هزمونا في ١٩٦٧ ، ولم نزل نعاني من آثار تلك الهزيمة حتى اليوم ، على الرغم من تفوقنا العددي وإمكاناتنا الوفيرة .
 وهزمونا بعد نصر أكتوبر المجيد ، حيث تسللوا إلى عمق أرضنا ولم يبرحوها إلا بعد أن ساوموا على كل شبر يتحركون منه .
 وهم الآن يشعلون لهيب الفرقة والانقسام في لبنان ، ويعربدون في الأقصى ، وينكثون بالمسلمين العرب في الأرض المحتلة .. ويستعدون لاعتداءات أخرى جديدة

قال الشاب

: مهلا : فإن موضوع حوارنا هو الدعوة للإسلام ..
 - كلما تقدم المسلمون خطوة في حقل العلم والمعرفة كان ذلك في حد ذاته دعوة عطية للإسلام ، وكلما اتحد المسلمون وكفروا عن محاربة بعضهم للبعض كان ذلك بناء حقيقياً لصرح الإسلام ، وعلى ذلك فإن الطموح إلى تحديث التعليم ، ووقف هجرة الكفاءات العلمية والفنية ، وبناء المعنويات والقيم في نفوس المواطنين تعتبر مساهمة جليلة في رفعة شأن الوطن والإسلام .

قال الشاب

: وما الرأي فيما لو تعمدت الدولة بإعلامها وأجهزة أمنها إحباط ما نسعى إليه ؟
 - كيف تتعمد الدولة ذلك بالنسبة لطالب يدرس ويجد ، أو معلم يعطى ولا يبخل ، أو لعامل يتفانى في اتقان عمله ، أو لزارع لا يتوانى عن بذل عرقه في الأرض ؟

قال الشاب

: كأنك لا تريد من الدعاة للإسلام أن يشتغلوا بالأمور السياسية .
 - أبداً أبداً .. إنما الاشتغال الأمثل بالسياسة هو ضرب المثل في نفع الآخرين ، ومعاونتهم ، وبذل أقصى ما يمكن من الجهد .. كل في مجال عمله .

قال الشاب

: دون أن يكون هناك إعلام أو صحافة تتحدث عن ذلك ؟
 - كلا . بل لابد أن تكون هناك صحف ومجلات وكتب تبرز النماذج الرائعة من الأعمال والرجال في كافة المجالات ، وتدعو الآخرين إلى الاهتمام والافتداء .

قال الشاب

: وهل تتصور أن أنصار التخلف سوف لا يعترضون ويشيرون الغبار ؟
 - بل أتصورهم يفعلون ذلك .. ولكن الواثق من نفسه ، والمتجرد عن انانيته ، لن يتأثر بتلك الاعتراضات . ومن الممكن أن يستفيد بها في تحسين عمله أكثر وأكثر ..

قال الشاب

: لكنك لم تحدثني عن الموقف الذي يجب أن يتخذه دعاة الإسلام من الأحزاب اليسارية ؟
 - في حدود علمي فإن الأحزاب اليسارية تسعى إلى اختراق الحصار المضروب علينا من أعداء وطننا وأمتنا ، ومن ثم فإن دعاة الإسلام يجب أن يتعاونوا معهم .

قال الشاب ش

: كيف وهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .. ؟
 - هل هم يقولون ذلك ؟

قال الشاب

: هم لا يقولون ذلك ولكنه أمر معلوم لكل الناس عنهم .
 - دعك من المعلوم والمجهول وحاول أن تثبت بنفسك إن كان هذا المعلوم صدقاً أم كذباً

فأنت تعرف أن كل مسلم يقول أشهد إلا إله إلا الله وأن محمد رسول الله .. ومع ذلك فقد حكمت على جميع المسلمين بالكفر إلا من كان عضواً في جماعتك الإسلامية !! والذي أوقعك في هذا الإثم هو أنك لم تثبت بنفسك .

قال الشاب

هل أسألهم إن كانوا يدينون بالإسلام أم لا ؟

- نعم أسألهم وتعامل وتناقش معهم ، واستمع إلى آرائهم فقد يتبدد المعلوم عنهم ويصبح كذبا وزورا .

قال الشاب

لا أظن ..

- بل ظن . وحاول إذا تثبت من كفر أحدهم أن تهديه ، فلأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها .

قال الشاب

وهل تعتقد أنه من الممكن انتقال الإنسان من معتقد مضاد للإيمان إلى معتقد الإيمان ؟
- كما يمكن العكس .. ففي الأصل كان عدم الإيمان إلا بالأصنام وما يشبهها ، ثم انتقل الناس عن عبادة الأصنام إلى عبادة الله تعالى .. وأظنك تعرف أن روجيه جارودي فيلسوف الحزب الشيوعي الفرنسي قد أعلن إسلامه .. وأصبح من أشد المدافعين عن الإسلام .

قال الشاب

: لكن اليساريين يتصادمون مع بعض المبادئ الإسلامية .
- مثل ؟

قال الشاب

: مثل دعوتهم لمصادرة الملكيات الخاصة وتأميمها .
- هذا ليس تصادما مع المبادئ الإسلامية فيما اعتقد .. فالحاكم المسلم قد يقوم بمصادرة الملكية الخاصة إذا تأكد أنها نشأت عن استغلال أو سرقة ، أو إذا كانت هناك ضرورة إصلاح عام لا يمكن إتمامه بغير ذلك .

قال الشاب

: لماذا أنت لا تدين اليسار كما يدينه الآخرون ؟

- مثلما لا أدين الجماعات الإسلامية كما يدينها الآخرون ؟ فأننا من رأي أن جميع الباحثين عن خرق حصار الهزيمة والتخلف يجب أن يتحاوروا وأن تتسع صدورهم لكل المعلومات التي يتداولونها نشر البلاء دائما هو الحجر على آراء الآخرين مهما اختلفوا معك أو اختلفت معهم .
: نتحدث عن حصار الهزيمة والتخلف ، ولا نقول من المسئول عن تلك الهزيمة وهذا التخلف ؟
- أولا نحن لسنا أول من حاق به الهزيمة بين شتى أمم الأرض ، وثانيا المسئول عن تلك الهزيمة ليس فردا بذاته وإنما نظام حكم كامل ، وثالثا اختراق حصار الهزيمة رهن بمعرفة كل أسبابها ، فليقل كل رايه ، وليبحث كل عن وسيلة للخروج من هذا المناخ البائس التعيس .
فذلك شأن الأمم التي وقعت عليها الهزائم واجتازتها دون أن تضمحل أو تموت .

قال الشاب

: تاريخنا الحديث كله تاريخ للهزائم ، ومع ذلك فإننا لم نملك من أدوات البحث ما يوقفنا على الأسباب حتى الآن !!

قال الشاب

- لا يا أخى . فنحن حققنا في تاريخنا الحديث من هذا القرن عددا من الانتصارات التي لا يمكن إسقاطها . فبعد الحرب العالمية الأولى سقطت شرعية الدولة العثمانية ، واندفعت الأمة تطالب بحق تقرير المصير ، وكانت ثورة ١٩١٩ هي التي جاءت لنا بنوع من الاستقلال والحكم الدستوري . وبعد الحرب العالمية الثانية اسقطت الأمة كل الدعاوى الاستعمارية ،

واندفعت تقويض وجود الاستعمار تطلعا للتقدم المستقل . ولقد تحقق للأمة بعد ١٩٥٢ وعى جديد بوحدتها وأملها . وضرورة التنمية الشاملة والسيطرة على مواردها كما تحقق لها وعى بأهمية التعليم والثقافة والتكنولوجيا الخ وما الذى دهانا إذن ؟

قال الشاب

- دهانا أننا لم نستطع إقامة الوحدة المتينة بين كل أطراف الأمة . فوجد العدو أكثر من ثغرة نفذ من خلالها واخترق الصفوف ، ثم أوقع بنا الهزيمة .

- أليس من الثغرات التى نفذ العدو منها ذلك التحلل المطلق من التزامات الدين ؟
- ماذا تعنى بالتحلل المطلق ؟

قال الشاب

قال الشاب

- البهجة والعري ، والتباعد عن دور العبادة وأخلاقياتها والاعتماد على غير الله . الخ
- قد تكون بعض تلك المظاهر قد حدثت وما تزال تحدث لكنها أبدا لا تستغرقنا إلى حد التحلل المطلق فالسواد الأعظم من شعبنا لم ولن يكون كذلك .. وفى أكثر الظروف سواء يكشف هذا الشعب عن معدنه المتناسك الصلب . ولعلنا نذكر أنه بعد كارثة ١٩٦٧ معاشرة عمد إلى إعادة بناء القوات المسلحة ، وضخى بكل الموارد فى هذا السبيل ، واستطاع أن يكمل مشروعاته الحيوية فى الصناعة كالسد العالى ومجمعات الحديد والصلب ، وسيطر على الاسعار . وتوصل إلى إقامة التحالف العربى والدولى الذى يعطيه من الامكانيات ما ينهض به .

قال الشاب

ولماذا نحن الآن غارقون إلى أذقاننا فى وحل الشعور بالهزيمة رغم ما حدث فى ١٩٧٣ ؟
- لاننا لم نستطع استخدام انجازاتنا يوم ٦ أكتوبر بالكفاءة الملائمة له - ولأن العدو تمكن من إشعارنا بأننا لم ننتصر بل انهزمنا ، ولأن انعكاس ذلك علينا كان صورة من صور التمزق التى لم يسبق لها مثيل إلا فى الظروف التاريخية المظلمة إبان حرب التتار أو الحروب الصليبية .

قال الشاب

: والآن إلى أين ؟

- إلى تغيير متوقع تصنعه الأمة عن طريق شبابها :

قال الشاب

: ومن أين ؟

- من هنا من مصر .. مصر التى كانت وما زالت وستظل صاحبة الدور الطليعى فى اجتياز الازمات التى تحدق بالأمة .

قال الشاب

: كيف ؟

- باكتشاف الحقائق التى يجب أن نركز عليها ، ونحن نخترق إلى المستقبل ، وأولى هذه الحقائق أننا لم نعمت ولن نعمت أبدا الدهر . ثم بتصحيح المفاهيم ، والإزالة الكاملة لكل التباس ، وأخيرا برسم خطة للحركة على النطاقين الوطنى والقومى بحيث تكون كل خطوة محسوبة ولا تأتى بعكس المطلوب

قال الشاب

: اشعر أن فى كلمتك الأخيرة لغما تريد تفجيريه .

- أبدا .. ليس هناك الغام ولا تفجيرات . وإنما هناك تكرار لما سبق أن أشرت إليه من ضرورة استخدام العلم الراقى ونحن نتحرك إلى الأمام

قال الشاب

ما الذى تعنيه بالعلم الراقى ؟

- أعنى العلم الذى تدارسه الأمم الراقية ، والذى بمقتضاه تفوقت علينا وسبقتنا .

قال الشاب

والعلوم الدينية يا ترى أليست من قبيل العلم الراقى ؟

- بلى .. وفى دراستها واستيعابها حصانة ضد الزيف ، والمفاهيم المضللة لكنها لن تغنينا عن علوم العصر التى على أساسها قامت الحضارات الحديثة . وإليك مثلاً : أساليب القتال فى الحروب الإسلامية التى قادها خالد بن الوليد ضد الروم .. دراستها توضح لنا براعة القائد المسلم فى التصرف بقواته من أجل نصرة الدين ضد عدو أكبر منه عدداً وأكثر منه سلاحاً .. لكنها لا تغنينا عن دراسة العلوم العسكرية الحديثة التى تدار بالأجهزة المعقدة ، والأسلحة المتطورة . وهكذا .

قال الشاب

: خلاصة رأيك فيما أظن أنه يجب ألا تكون هناك تنظيمات تدعو إلى الإسلام فى عداوة مع تنظيمات إسلامية أخرى .. رغبة فى توحيد المسلمين . ثم تطلب انكباب الجميع على الدراسة والعلم من أجل اختراق حصار الهزيمة ، أليس كذلك ؟

- لماذا أنت متسرع وتريد إنهاء الحوار ؟

- لست متسرعاً ولكن أريد الوصول إلى نتيجة .

قال الشاب

- فلتصل إلى ما شئت من نتائج ولكن بعد أن نستكمل الحوار .

: إذن فلنؤجل الحوار إلى مساء الغد إن شاء الله . وهم بالانصراف .

قال الشاب

١٣ - تجمع الإعصار :

قدم الشاب فى موعده المضروب بينه وبين مضيفه ، وجلس فى نفس الغرفة التى استقبلته أمس فرأى بعض المراجع الدينية على المنضدة التى كانت تشهد الحوار السابق . وكان مضيفه قد تركه لاستحضار قدهين من الشاي ، فلما رجع وجد الشاب منهمكا فى قراءة واحدة من المجلات التى تصدر فى إحدى الدول العربية فتركه يقرأ على سجيته ولم يشأ أن يقطع عليه لذة الاستمتاع بما استهوى عقله وعينه . وما إن فرغ من قراءته حتى قال :

- أنت أعددت كل هذه الكتب والمجلات لكى تستخدمها فى الحوار معى الليلة ؟

- لا .. ولكننى أحب القراءة وقد كنت أقرأ فى بعض منها قبل مجيئك .

- لكن هذه الكتب لم تكن هنا ليلة أمس .

- لأننى كنت أقرأ غيرها فى الغرفة المجاورة .

- ما شاء الله ! أنت عندك طاقة متجددة .

- وأنت طاقتك أكبر من طاقتى ، ويمكنكم معشر الشباب أن تبذلوا أضعاف المجهودات التى يبذلها أمثالى من الواهين الضعفاء .

- أهذا مدخل جديد لاستئناف حوارنا الماضى ؟

- نعم ولكننى أود أن أعرف ماذا قرأت الآن ؟

- مقال يتعلق بالرد على التصورات غير الصحيحة من وجهة نظر الكاتب عن الإسلام .

- أرجو أن تلخص لى ما فهمت

- يقول الكاتب : إن من الناس من يتصور أن كل ما في مجتمعنا الحال مخالف للإسلام وأن كل الأنظمة والقوانين والمؤسسات ستهدم وتبنى من جديد وهذا ليس بتصور سليم فأكثر الأنظمة والمؤسسات القائمة ستبقى بعد أن ينقضي منها ما يناقض الإسلام ، وتطعم بما يؤهلها لخدمة قيمه ومقاصده .
- ثم ماذا ؟
- ثم يقول : إن قيام نظام إسلامي في مجتمع لا يعنى تغيير كل ما يراد تغييره فيه بين عشية وضحاها ولكن هناك مبدأ الضرورات التي تبيح المحظورات ، والضرورة التي تقدر بقدرها ، والحاجة التي قد تفزل منزلة الضرورة . ثم يقول بعد ذلك إن للمجتمع ضروراته الاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعية . ولها أحكامها الاستثنائية التي توجهها الشريعة مراعاة لصالح البشر التي هي أسس للتشريع الإسلامي كله
- عظيم ! وأنت ما رليك في هذا القول يلتري ؟
- هذا واحد من العلماء الذين يسفرون علمهم في خدمة السلطان ، وهو في قوله هذا يريد أن يبقى كل مظاهر الفساد في ظل المجتمع المسلم باسم الضرورات الاجتماعية .
- بالله لا تظلم للرجل ، ولنحاول مناقشة رأيه سويا لكي نصدر حكما سليما على مقالته : فالرجل لم يقل بضرورة الإبقاء على مظاهر الفساد ، وإنما أنت الذي أولت كلامه هذا التأويل .
- ألم يقل إن أكثر الأنظمة والقوانين والمؤسسات القائمة ستبقى ؟
- وأردف مباشرة بعد أن تنقضي مما يتلخص الإسلام وتطعم بما يؤهلها لخدمة قيمه ومقاصده ، اليس كذلك ؟
- لكن لماذا الاكتفاء بالتنقية والتطعيم ؟ اليست هذه الأنظمة والمؤسسات من صنع البشر ؟ لم لا يُستبدل بها كلها أنظمة السماء وقوانينها ؟
- هناك قاعدة تقول : إن الأصل في العبادات هو الاتباع ، والأصل في المعاملات هو الإبتداع ، ومن هنا فإن الأنظمة والمؤسسات الخاصة بضبط إيقاع المعاملات لابد أن تكون من صنع البشر على هدى المبادئ العامة للإسلام .. فالإسلام مثلا يقول قرآنه الكريم « وأمرهم بشورى بينهم » ، فتفهم نحن من ذلك أن الشورى هي أساس الحكم ، لكن كيف تكون صيغة الالتزام بهذا المبدأ ؟ قد تكون مجلسا للشعب أو للامة ، وقد تكون جمعية تأسيسية ، أو مجلسا للشيوخ أو مجلسا للنواب الخ . كل ذلك داخل في عموم الشورى . اليس كذلك ؟
- معنى ذلك ألا يحدث أى تغيير باسم الضرورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية الخ ؟
- فلنتفق أولا على التغيير المطلوب .. أهو تغيير مطلوب لذاته ، أم هو تغيير لصالح المجتمع ؟ إن كان الأول فأنا أعتقد أنه سوف يصبح نوعا من المغامرة غير المحسوبة . وإن يكن الثاني فإن أعضاء هذا المجتمع سوف يقررون ما يجب تغييره بمقتضى الضرورات الحياتية وما لا يجب ، وعلينا أن نتأكد من أن الضرورة تفرض نفسها رغم أنف الجميع .
- ما دام الأمر كذلك فلا داعى للتفكير في التغيير
- من الذى قال ذلك ؟ إن التغيير نفسه يصبح ضرورة واجبة الحدوث ، ومن ثم يعدد القادة إلى تجميع الراغبين في التغيير لكي يصبحوا إعصارا يدمر ما يعوق مسيرتهم إليه

- من الذى قال ذلك ؟ إن التغيير نفسه يصبح ضرورة واجبة الحدوث ، ومن ثم يعتمد القادة إلى تجميع الراغبين في التغيير لكي يصبحوا إحصاراً يدمر ما يعوق مسيرتهم إليه . والجماعات الإسلامية ، وأحزاب المعارضة السياسية ، وذو الرأي والفكر يعملون جميعاً في إطار السعى من أجل التغيير .. والذين يستطيعون الوصول بالمجتمع إلى ما يريدون هم أكثر الناس فهماً لحقائق الضرورة الاجتماعية . وتلبية لمتطلباتها من التوعية والحركة ، والتنشيط .. الخ
- وهل في بلادنا اليوم ضرورة للتغيير ؟ .
- نعم وإلا فإننا لن نجد تفسيراً لكل ما تقوم به الجماعات والأحزاب عندنا .. وأظنك تعرف أن الجماعات الإسلامية قد قامت عندنا نتيجة لاستشعار تلك الضرورة .
- وإذن فالجماعات الإسلامية محقة في سعيها من أجل التغيير .
- لا أحد ينكر هذا الحق .. لكن كيفية هذا السعى ، وحقيقة التغيير المنشود هي التي تثير البلبلة والعداء في كثير من قطاعات المجتمع . بل وفي نفوس الأغلبية الساحقة من راغبي التغيير .
- أرجو إيضاح هذه المسألة بشيء من التفصيل .
- يتم سعى بعض الجماعات الإسلامية للتغيير في إطار من التخفى والسرية ، وبأساليب العنف والإكراه ، في الوقت الذي يمكنهم فيه أن يكون لهم وجههم العلني المعتمد على الحوار والمناقشة وما داموا أصحاب رسالة مقتنعين بها فإنهم يجب أن يواجهوا بالمناقشة والحجة كل مخالفينهم تحت ضوء الشمس ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا بالمداغ والبنادق السريعة الطلقات ، هذا جانب .. ومن جانب آخر فإنهم يركزون اهتمامهم على قضايا فرعية يعلنون من خلال مجابته أهداف التغيير الذي ينشدونه . فهم يجعلون من قضية النقاب والحجاب مسألة كبرى يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بها . في حين أن هذه قضية أجاز الفقهاء فيها كلا الأمرين معا . وهم يشقّبون على معاصي الخمر وشربها والفيديو وأفلامه غير المباحة ، وهنا لا يقتصر أمرهم على المدافعة بالرأي ، بل يجمعون إلى التحطيم والتكسير والحرق ، ويدخلون أنفسهم السجون في غير ما طائل .. على حين أن الذين يبيعون أو يتعاطون الخمر مستنكرون من كل المجتمع ، وأيضا الماجنون الراغبون في إبادة الجنس .. الأمر الذي يجعل من هاتين القضيتين أمثالهما نوعاً من قضايا الدرجة الثانية لا الأولى .
- وأظنك تعرف أن الخمر كانت تعاقرحتى في عهد الخلفاء الراشدين ، والدليل أن عمر بن الخطاب أقام الحد من كان يشربها .. أي أن شرب الخمر لا يغير من صورة ولا حقيقة المجتمع المسلم .
- على أن هناك قاعدة ذهبية تقول ارتكاب أخف الضررين أمر واجب .. فإذا كان منع شارب الخمر وهو ضرر يلحقه بنفسه ، سوف يتسبب في ضرر يلحق بالمانع وجماعته وهو ضرر أكبر فإنه من الواجب ترك شارب الخمر في هذه الحالة . وللباحثين في الاستدلال على صمة هذا المسلك شواهد كثيرة منها أن الرسول (ﷺ) أبقى على المنافقين ولم يتعرض لهم .. وقال في ذلك : أخشى أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه . على أن المتابع للتاريخ الإسلامي يعرف أن أشد الفتن كانت تنشأ من عدم الصبر على منكر والتصدى لازالته فيتولد منه ما هو أكبر منه وأخطر

- ولكن تظلمن إلى مقالتى هذه أرجو أن تستمع إلى هذه الواقعة التى نقلها ابن القيم عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية فقد كان يمر مع أصحابه فى زمن التتار وإذا قوم يشربون الخمر وهم على الإسلام ، فأنكر صاحبه ذلك لكن ابن تيمية عارضه قائلاً إنما حرم الله الخمر لأنها تبعد عن ذكر الله وعن الصلاة وهؤلاء تبعدهم الخمر عن قتل النفوس ، وسبى الذرية ، وأخذ الأموال فدعهم . والأدلة فى هذا المساق كثيرة لا تحصى لعل من أوضحها ما رواه المؤرخون من أن عبد الملك بن عمرو بن عبد العزيز كان يحث أياه على تغيير الفساد دفعة واحدة ، دونما تريث أو أناة وليكن ما يكون . فرد عليه عمرو قائلاً : لا تعجل يا بنى فإن الله ذم الخمر فى القرآن الكريم مرتين وحرّمها فى الثالثة . وإنى أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة ، ويكون من هذا فتنة . أرجو أن تكون قد اقتنعت .
- بماذا ؟
- بأن التغيير المنشود يتطلب للوضوح فى الدعوة إليه إلى جانب المعرفة بالأهم وتقديمه على المهم .
- وما هو هذا الأهم يا ترى ؟
- الأهم دائماً هو ما تتعلق به مصالح الأغلبية الساحقة من الناس فى حياتهم العاجلة . فإذا كانت الأغلبية مغلوطة على أمرها ، وينهشها التمزق والمعاناة من المشكلات فإن الأهم هو توحيد جهودها لكى ترفع عنها آثار المعاناة . ويصبح الأمر ببديها
- وإذا كانت هذه الأغلبية لا تريد أن تبذل أى جهد ؟
- هذا شيء لا يمكن تصوره إلا فى حالة من اثنتين أن تكون هذه الأغلبية مرفهة ولا تعاني أى نوع من المشكلات ، أو تكون فاقدة للثقة فى جدوى أى حركة أو أى جهد تبذله .. والحالة الأولى مجرد فرض لا يمكن تحقيقه إلا فى الجنة والحالة الثانية واقع علينا أن نغيره بإقناعها وتزويدها بأعلى درجات الثقة واليقين
- لكننا كلما سلكنا طريقنا إلى تلك الأغلبية الساحقة لاحقتنا دوائر الأمن ومنعتنا من ممارسة أى نشاط ، حتى ولو كان مجرد التصدى لتحفيظ القرآن الكريم .
- سأفترض من معك حدوث ذلك من دوائر الأمن تحت تأثير أى مفهوم لها ، ولكننى أصر على المصابرة والمثابرة حتى تقتنع تلك الدوائر ببرائة القصد ، وبأنها إذا استمرت على هذا النهج فإنها سوف يرتد عليها وعلى الأمن سوء الصنيع ، وعندئذ تمارسون أنتم وأمثالكم ما تشامعون من نشاط .
- ماذا تريد ؟ انتتظر من دوائر الأمن إذنا لنا بممارسة حقنا وواجبنا الذى كلفنا به الله ؟
- أنا لم أقل ذلك .. وإنما أقول إن بعض الأحداث التى وقعت من بعض المتطرفين قد جعلت المسئولين عن الأمن يتشككون فى أى عمل يقوم به المتدينون . وما دام هؤلاء المتدينون ليسوا من ذلك النفر المتطرف فإن عليهم أن يؤكدوا بالإصرار والمثابرة ما يقضى على التشكك .. ومن ثم يصبح عمل تلك الدوائر هو إبدال الثقة محل الشك والتشكيك ..
- هذا مستحيل .. فالأمن لن يثق فى شباب المتدينين إلى يوم القيامة
- دعك من ثقة الأمن أو عدم ثقته . وحاول أنت وغيرك أن تستمعوا إلى نبضات القلوب التى يعاني أصحابها فى حقول الحياة المختلفة ، وحاولوا الاشتراك فى تكوين بوصلة تهديكم إلى

الطريق المفضى إلى تغيير تلك المعاناة تحت أى عنوان تشاؤون ، واغتنموا فرصة الديمقراطية التى يقدمها لكم النظام القائم فلا تنكروها ولا تتنكروا لها ، وتعاونوا مع كل الراغبين فى الانطلاق ببلادهم وامتهم ، إلى آفاق جديدة .. وليثق الأمن أو لا يثق ، فتلك ليست مشكلة المتدينين وحدهم وإنما هى مشكلة كل الراغبين فى التغيير ..

- تعنى أن ثقة أو شك دوائر الأمن لن تقف أمام إرادة التغيير ..

- نعم اعنى ذلك ، لأن الذى يفرض إرادة التغيير هو الواقع الاجتماعى الذى تمسك الأزمات بخناقها ، وتظل تلح عليه من هنا ومن هناك رغم كل محاولات الحلول التى لا تسعف .. عندئذ يتعين التغيير طريقا لحل تلك الأزمات كلها ، وبناء واقع اجتماعى جديد .

- وهل هناك ما يشير إلى إمكان تحقيق ذلك ؟

- نعم هناك . ففى واقع مصر اليوم أكثر من أزمة .. تجاهد الدولة جهادا مريرا لتقديم حل لها مع الاعتراف بصعوبة هذا الحل ، ويتململ العديد من الطوائف تحت وطأة تلك الأزمات ، ويعبر بعضها عن نفسه فى الكتابات التى تنشرها الصحف والمجلات ، وقد حدث وعبر بعضها بالتمرد والتظاهر. والحكومة تناشد الجميع مساعدتها فى العمل المخلص من أجل القضاء على تلك الأزمات ، أى أنها أيضا تنشد التغيير وتطلبه وتدعولعقد المؤتمرات بهدف التوصل إلى أنسب الوسائل التى يمكن استخدامها فى إحداث هذا التغيير ..

وفى واقع العالم العربى مثل ما فى الواقع المصرى وأكثر .. فهناك أزمات وأزمات فى السودان وأزمات وأزمات فى لبنان ، وأزمات وأزمات فى الأرض المحتلة من إسرائيل .. الخ وهكذا يتبين لك أن جميع أمتنا العربية والإسلامية فى نطاق الأزمات المستعصية على الحل وكلها تتطلب التغيير .. وهذا أمر يتم التعبير عنه أيضا فى الكتابات والمؤتمرات ، كما يتم الاحتجاج على استمراره بالتمردات والتظاهرات ، ومعنى ذلك كله أن رياح التغيير بدأت تهب بعد فترة طويلة من الشعور بالضيق .. والالم .

إن الانتقال من مرحلة اللامبالاة قد بدأ .. ولربما كان الفضل فى ذلك للأعداء أنفسهم فهجمة الهجوم الإسرائيلى على لبنان ، وبربرية المعاملات التى يتعاملون بها مع العرب فى الأرض المحتلة قد ساهمت فى إحراز الممارسات البطولية للفتيان والفتيات الذين يطرقون بكل قوتهم الشجاعة أبواب الأمل من أجل تجمع الإعصار الذى سوف يكتسح شرور التخاذل والضعف ، ويبنى على أنقاضها منارات الأمل والانتصار .

وانصرف الضيف دون أن يتكلم .

وعرف المضيف أنه سوف يتخذ قرارا . ترى ماذا يكون القرار ؟

انتهى

مقدمه

٧

الفصل الاول : اشواق ما قبل البداية

- ١ - ليلة العرس ٢ - فرص اللقاء ٣ - الرحلة القاسية ٤ - الاغتراب عن مصر ٦ - رسائل الاشواق ٦ - المتاهة ٧ - الصدفه السعيدة ٨ - في داخل الميناء ٩ - رحلة العودة ١٠ - هوم الزوجة ١١ - فرحة اللقاء ١٢ - البحث عن العلاج ١٢ - تحقيق الامل .

١٥

الفصل الثاني : مولد العاصفة

- ١ - لحظات الميلاد ٢ - توقف المطر ٣ - القيد في دفتر المواليد ٤ - الحفل السعيد ٥ - تعويضات الخسائر ٦ - خشونة المهد ٧ - العادة الشاذة ٨ - الحزن والموت ٩ - البعث الجديد ١٠ - درس وعبرة ١١ - الموتة الثانية ١٢ - الحصانة ١٢ - معاناة التأديب

٢١

الفصل الثالث : معاناة التعليم

- ١ - مكتب الشيخ بهنس ٢ - الزيارة المفاجئة ٣ - مكتب الشيخ رضوان ٤ - في المدرسة الاولى ٥ - بداية المتاعب ٦ - عودة الى المكتب ٧ - مع المدرسة من جديد ٨ - صورة من العطف ٩ - الشخصية المزدوجة ١٠ - كتاب الشيخ ناصر ١١ - رفاق الطريق ١٢ - محنة لا تنسى ١٢ - الدرس الكبير ١٤ - البدء الجديد

٣٥

الفصل الرابع : مع الازهر العتيد

- ١ - محاولات الانتساب ٢ - الحقيقة الطيبة ٣ - إخلاف الوعود ٤ - العودة الحزينة ٥ - النهوض ٦ - الاختيار الاول ٧ - الجدول الجديد ٨ - نظام الاستذكار ٩ - بداية التفتح ١٠ - الصيف المبارك ١١ - مولد الصداقة ١٢ - قيمة الحرية ١٢ - المنبر والخطيب

٤٧

الفصل الخامس : بوتقة الآلام

- ١ - البوابة ٢ - فظائع الحرب ٣ - الهجرة ٤ - استاذ في الوطنية ٥ - مدخل العمل السياسي ٦ - خشونة العيش ٧ - حدث خطير ٨ - شيوع الارهاب

٥٥

الفصل السادس : اشواق التحرر

- ١ - عودة المهاجرين ٢ - المحامي الوطني ٣ - لقاء مهم ٤ - عمليات ناجحة ٥ - منعطف طارىء ٦ - مؤلفان في شركة الابان ٧ - دروس جديدة ٨ - ليالي الثقافة ٩ - إقالة الحكومة ١٠ - في حلوان ١١ - الصديق الاكبر

٦٥

الفصل السابع : اشواق الخلاص

- ١ - الاجتماع الاول ٢ - النشاط الدوب ٣ - النمو السريع ٤ - وطنية المؤتمر ٥ - اللقاء الخاص ٦ - ارمصاص المعارك ٧ - ذكرى وعد بلفور سنة ١٩٤٥ ٨ - المفاجأة القاسية ٩ - تكشف الحقيقة ١٠ - بداية الاعتماد على النفس ١١ - مذكرتان وموقف

٧٧

الفصل الثامن : اشواق المعارك

- ١ - المنشور الاول ٢ - درس لا ينسى ٣ - التكتيك البارح ٤ - جوله في المدينة ٥ - رجع الصدى ٦ - فرقة الصدام ٧ - هزيمة الجنرالات ٨ - الصدام الدموي ٩ - في انتظار التحقيق ١٠ - امام النيابة ١١ - ليلة نابغة ١٢ - حفاوة السجنان ١٢ - مباحج الاقتراح

- ١ - تداعيات الاحداث ٢ - اخبار خطيرة ٣ - يوم الحداد الوطنى ٤ - لحظات لا تنسى ٥ - نجاة الجبان ٦ - بداية الجلاء ٧ - الكيد والتأمر ٨ - قرن الفتنة ٩ - فكر جديد ١٠ - رطة الاحباط ١١ - الرحيل الى القاهرة

- ١ - من التقهقر الى الهجوم ٢ - التحدى العاصف ٣ - التحدى الفاشل ٤ - معارضة وبحاروة ٥ - مهرجان العودة ٦ - المآزق الخطير ٧ - مخاصمات إخوانية ٨ - البحث عن الاسباب ٩ - مع الاستاذ المرشد ١٠ - أحداث واحداث ١١ - قتل النقراشى رئيس الحكومة ١٢ - ظلمات الارهاب

- ١ - الموازنة ٢ - التجرب المثيرة ٣ - الحدث الجديد ٤ - الشهيد والمظاهره ٥ - المناقشات الخصبة ٦ - الحقائق المهمة ٧ - المناخ الجديد ٨ - الحركة المقيدة ٩ - مساوئ الانقسام ١٠ - ملخص الوثائق ١١ - ١٣ يناير سنة ١٩٥١ ١٢ - بطاقة التسول ١٣ - العمل المشير ١٤ - الغاء المعاهدة ١٥ - العود على البدء ١٦ - مقاومة الاحباط ١٧ - الى السجن من جديد ١٨ - ارمصاص الانتصار

- ١ - الخبر المثير ٢ - تلاطم الاحداث ٣ - سنوات الهرب ٤ - مفارقات عجيبة ٥ - مطاردات المتخبطين ٦ - محاولة اغتيال عبد الناصر ٧ - ضربة فبراير سنة ١٩٥٦

- ١ - سجن الاستئناف ٢ - موقف سياسى جديد ٣ - العدوان الثلاثى ٤ - الثقة المفقودة ٥ - السجن المفتوح ٦ - التنظيم الجديد للحياة ٧ - دره تهمة الاحاد ٨ - صراع ما بعد الوحدة ٩ - سجن المحاريق ١٠ - عملية الاجهاض ١١ - الاستمرار فى خطة التصفية ١٢ - الاضراب عن الطعام ١٣ - الاجراءات الاشتراكية ١٤ - افراج بالجملة ١٥ - زراعة الالفام ١٦ - مرارة الهزيمة

- ١ - براعة الاستهلاك ٢ - لعبة الخديق ٣ - الانتظار والمحل ٤ - ملحمة العبور ٥ - هموم واحزان ٦ - تنبؤات مزعجة ٧ - العم سام يكسب الجولة ٨ - التكرار للاصدقاء ٩ - نص الاشتباك ١٠ - الحل السلمى ومؤتمر جنيف ١١ - زيارة القدس ١٢ - اسرائيل فى العهد الجديد ١٣ - التدهور الاقتصادى

- ١ - الحصاد الشخصى ٢ - الحصاد المصرى ٣ - الحصاد العربى ٤ - خطوات على الطريق ٥ - مسئولية الاحزاب السياسية ٦ - دروس من الماضى ٧ - عودة الى الحوار ٨ - أزمة الديمقراطية ٩ - خبرات الامس ١٠ - ثلاثة الاتاقى ١١ - توقعات المستقبل ١٢ - اختراق الحصار ١٣ - تجمع الاعصار

منتدى سور الأذربكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

رقم الايداع بدار المكتبة القومية

٨٨ / ٧٥٤١

الترقيم الدولي

٩٧٧ - ٤٦٠ - ٠١٣ - ٤